من مؤلفة الرواية الأكثر مبيعا «فتاة القطار»

في عتمة الماء

باولا هوكينز

مكتبة 150

باولا هوكينز

في عتمة الماء

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الكتاب: في عتمة الماء (رواية)

تأليف: باولا هوكينز

ترجمة: الحارث النبهان

عدد الصفحات: 416 صفحة

الترقيم الدولي: 1-64-582-9953-978

الطبعة الأولى: 2017

هذه ترجمة مرخصة لرواية

Into The Water

by Paula Hawkins

Copyright © Paula Hawkins 2017

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

باولا هوكينز

في عتمة الماء

رواية

ترجمة
الحارث النبهان

مكتبة الرمحي أحمد

منشورات الرمل

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كنت صغيرة جداً عندما فقدت عذريَّتي
هناك أشياء على المرء ألا يظل متمسّكاً بها
وهناك ما يجب أن يتمسك به
لكن الآراء مختلفةٌ بين هذا وذاك.

«أتت الأرقام» إميلي بيري

نعرف الآن أن الذكريات ليست ثابتة ولا
متجمِّدة مثل علب مربَّيات الفاكهة في البرَّاد،
بل هي تُحوّل وتُفكّك ويعاد تركيبها وتصنيفها
مع كل فعْل تذكُّر.

«هلوسات» أوليفر ساكس

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بركة الغارقات

ليبي

«مرة أخرى! مرة أخرى!»

ربطها الرجال من جديد. ربطوها بطريقةٍ مختلفةٍ هذه المرة: إبهام اليد اليسرى إلى إبهام القدم اليمنى، وإبهام اليد اليمنى إلى إبهام القدم اليسرى. حبل يلفُّ وسطها. وهذه المرة، حملوها إلى قلب الماء.

«أرجوكم!»... بدأت تتوسَّل لأنها صارت غير واثقة من قدرتها على مواجهة الأمر، السواد والبرد. تريد العودة إلى بيتٍ ما عاد موجوداً، وإلى زمنٍ كانت تجلس فيه مع خالتها أمام الموقد تروي كل منهما قصصاً للأخرى. تريد أن تكون في سريرها، في بيتهما الصغير؛ وتريد أن تعود طفلة من جديد، أن تستنشق رائحة الحطب المشتعل والورد والدفء الحلو المنبعث من جلد خالتها.

«أرجوكم!»

إنها تغرق.

عندما سحبوها من الماء بعد ذلك، كانت شفتاها زرقاوين، متكدّمَتَيْن، وكان تنفُّسها قد توقَّف إلى الأبد.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

القسم الأول

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

2015

جولز

كان لديكِ شيء تريدين قوْله لي! ألم يكن هناك شيء؟ ما الذي كنت تحاولين قوْله؟ أحسُّ كما لو أنني طفوت وانجرفتُ مبتعدةً عن هذا الحديث منذ وقت غير قليل. توقَّفتُ عن التركيز. كنت أفكِّر في شيء آخر، أحاول ترتيب بعض الأمور؛ لم أكن مُصغيةً، لم أستطع متابعة الإصغاء. لا بأس الآن، إنني منتبهة إلى ما تقولين. لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أنني لم ألتقط بعض النقاط الأكثر أهمية.

كنت غاضبةً عندما جاؤوا لإخباري. لكنني أحسست ارتياحاً عندما تكلَّموا لأن المرء عندما يرى شُرطيين يظهران أمام بابه، تماماً في اللحظة التي يتفقَّد فيها بطاقة القطار ويوشك على فتح الباب ليذهب إلى العمل، فإنه يخشى حدوث أمر سيئ. خفت على الناس الذين يهمني أمرهم... أصدقائي، وزوجي السابق، والناس الذين أعمل معهم. لكنهم قالوا إن الأمر ما كان متعلقاً بهؤلاء جميعاً، بل بكِ أنت. هذا ما جعلني أحسُّ ارتياحاً، لحظة واحدة فقط، لأنهم بعد ذلك أخبروني بما حدث، أخبروني بما فعلتِ وقالوا لي إنك كنت في الماء، فغضبت غضباً شديداً. غضبت... وخفت أيضاً.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كنت أفكر فيما سأقوله لك عندما أصل إليك، وكيف سأقول لك إنك فعلت هذا نكايةً بي، حتى تزعجيني، حتى تخيفيني، حتى تشوّشي حياتي. كنت تريدين لفت انتباهي وجرِّي عائدةً إلى حيث تريدين أن أكون. ثم، ها نحن هنا يا دانييل، يا نِيل، لقد نجحتِ: ها أنا ذا في مكان ما كنت راغبة في العودة إليه أبداً؛ ها أنا عائدة لكي أعتني بابنتك، لكي أحاول ترتيب فوضاك اللعينة.

الاثنين، 10 آب/أغسطس

جوش

أيقظني شيء ما. نهضت من السرير لأذهب إلى المرحاض. ولاحظت أن باب غرفة أمي وأبي مفتوح. عندما نظرتُ من الباب، رأيت أن أمي لم تكن في السرير. كان أبي يشخر كالمعتاد. أشارت الساعة التي على الراديو إلى الرابعة وثماني دقائق. قلت في نفسي إنها يجب أن تكون في الأسفل. إنها تعاني مشكلات النوم. كلاهما يعاني هذه المشكلات، لكنه يتناول أقراصاً قوية إلى حد يمكنك معه أن تقف عند سريره تماماً وتصرخ في أذنه من غير أن يستيقظ.

مضيتُ إلى الأسفل، نزلت بهدوء تام لأن ما يحدث عادة هو أنها تشغّل التليفزيون وتتابع تلك الإعلانات المملَّة فعلاً، إعلانات عن آلات تساعد في تخفيف الوزن أو تنظف الأرض أو تقطّع الخضار بطرق مختلفة كثيرة؛ وبعد ذلك يغلبها النوم. لكن التلفزيون كان مطفأً، وهي لم تكن جالسةً على الكنبة الطويلة. وهكذا كنت واثقاً من أنها خرجت من البيت.

سبق لها فعْل هذا بضع مرات على الأقل؛ تلك هي المرات التي عرفت بها. لا أستطيع متابعة أين يكون كل شخص طيلة الوقت! قالت

في المرة الأولى إنها خرجت لتمشي قليلاً حتى يصفو رأسها؛ لكن كان هناك صباح آخر استيقظتُ فلم أجدها لأنها كانت خارج البيت. وعندما نظرت من النافذة لم أرَ سيارتها متوقِّفة في مكانها المعتاد.

أظن، على الأرجح، أنها تذهب لتمشي عند النهر أو لتزور قبر كاتي. وأنا أيضاً أفعل هذا أحياناً، لكن ليس في منتصف الليل!

سيصيبني الذعر إن ذهبت في الظلام؛ كما أن الذهاب في الليل سيجعلني أحسُّ إحساساً غريباً غير طبيعي، لأن هذا ما فعلتْه كاتي نفسها: نهضتْ في منتصف الليل، ومضت إلى النهر، ولم ترجع. لكنني أفهم السبب الذي يجعل أمي تفعل هذا: إنه أكثر ما يجعلها قريبة من كاتي الآن، ربما بالإضافة إلى جلوسها في غرفة كاتي، وهو شيء آخر أعرف أنها تفعله أحياناً. غرفة كاتي إلى جوار غرفتي. أستطيع سماع أمي تبكي فيها.

جلست على الكنبة وانتظرت عودتها. لكن لا بد أنني غفوتُ، لأن الضياء كان قد حل في الخارج عندما سمعت صوت الباب. نظرت إلى الساعة فوق رف الموقد؛ إنها السابعة والربع. سمعت أمي تغلق الباب من خلفها ثم تصعد السلم مسرعة.

تبعتها إلى الأعلى. وقفتُ خارج غرفة النوم ونظرت عبر شقٍّ في الباب. رأيتها راكعة عند السرير، من ناحية أبي. كان وجهها محمَّراً كأنها كانت تجري. كان تنفسها ثقيلاً وسمعتها تقول: «آليك، استيقظ. استيقظ يا آليك». ثم بدأت تهزُّه وتقول: «ماتت نيل آبوت. وجدوها في الماء. لقد رمت بنفسها في الماء».

لا أذكر أنني قلت شيئاً، لكن لا بد أنني أصدرت صوتاً ما لأن أمي رفعت رأسها ونظرت إليَّ، ثم نهضت واقفة.

قالت وهي آتية صوبي: «أوه، جوش! أوه، يا جوش». كانت الدموع جارية على وجهها. احتضنتني بقوة. كانت مستمرة في البكاء عندما حررتُ نفسي من عناقها، لكنها كانت مبتسمةً أيضاً. قالت لي: «أوه، يا حبيبي!»

جلس أبي في السرير. كان يفرك عينيه. إنه في حاجة دائماً إلى وقت طويل حتى يستيقظ تماماً.

«لست أفهم! متى... هل تعنين أن هذا قد جرى الليلة الماضية؟ كيف عرفتِ؟».

قالت: «خرجت لأشتري حليباً. كان الناس كلهم يتحدثون عن الأمر... في الدكان. لقد وجدوها هذا الصباح». جلست على السرير وبدأت تبكي من جديد. احتضنها أبي لكنه كان ينظر إليَّ، وكانت على وجهه نظرة غريبة.

سألتُ أمي: «متى ذهبتِ؟ أين ذهبتِ؟».

«ذهبت إلى الدكان يا جوش. قلت هذا قبل لحظة واحدة!».

إنها كاذبة، هذا ما أردت قوْله. بقيتِ خارج البيت عدة ساعات، لم تذهَبي من أجل شراء الحليب فقط! أردت أن أقول هذا، لكنني لم أستطع قوله لأن أبي وأمي كانا جالسين على السرير ينظر كل منهما إلى الآخر... بدا عليهما السرور.

الثلاثاء، 11 آب/ أغسطس

جولز

إنني أتذكر. على المقعد الخلفي في سيارة الرحلات المغلقة، كانت

الوسائد مكوَّمة في الوسط حتى ترسم خطاً فاصلاً بين منطقتك ومنطقتي. كنا ذاهبين إلى بيكفورد لقضاء الصيف؛ وكنتِ متوترة، مستثارة ما كنت تطيقين صبراً ريثما نصل إلى هناك أما أنا فكنت أشعر بغثيان السفر وأحاول منع نفسي من التقيُّؤ.

لم أكن أتذكر فحسب، كنت أحسُّ ذلك. أحسست بالغثيان نفسه هذا العصر؛ كنت منحنيةً فوق مقود السيارة مثلما تفعل امرأة عجوز؛ وكنت أقود بسرعة، بطريقة سيئة، وأنحرف إلى وسط الطريق عند المنعطفات، وأدوس على الفرامل بحدة أكثر مما يجب، وأبالغ في تصحيح مساري كلما رأيت سيارات قادمة. كان لديَّ ذلك الشيء، كان لديَّ ذلك الإحساس الذي يأتيني كلما رأيت سيارة نقل مغلقة بيضاء مندفعة صوبي في واحد من تلك الأزقة الضيقة فأقول في نفسي إنني سأنحرف وأخرج عن مساري، سأفعل ذلك، سوف أرمي بنفسي في طريقها وأصطدم بها، لا لأنني أريد هذا، بل لأن عليَّ أن أفعله! كأنني سأفقد إرادتي الحرة كلها عند اللحظة الأخيرة. إن هذا يشبه الإحساس الذي يكون لديك عندما تقف على حافة جرف، أو عندما تقف على رصيف محطة القطار، فتشعر بأن هنالك يداً خفية تجبرك على شيء ما. وماذا لو حدث هذا؟ ماذا لو تقدمت خطوة واحدة فقط؟ ماذا لو أدرتُ مقود السيارة قليلاً فقط؟

(أنا وأنتِ... لسنا مختلفين كثيراً، رغم كل شيء).

فاجأتني قدرتي على التذكُّر! أتذكر بوضوح تام، بوضوح أكثر مما ينبغي. ما الذي يجعلني قادرةً على تذكر الأشياء تذكراً دقيقاً، أشياء حدثت لي عندما كان عمري ثماني سنين، رغم أنني أحاول تذكر إن كنت قد تحدثت مع زملائي عن إعادة ترتيب مواعيد تقييم العملاء من أجل الأسبوع المقبل أم لم أتحدث فأجد تذكُّر هذا شيئاً مستحيلاً؟ الأشياء التي أريد أن أتذكرها، لا أستطيع تذكرها؛ والأشياء التي أحاول

نسيانها بكل ما أستطيع من قوة، تظل تأتيني مرة بعد مرة! كلما اقتربنا من بيكفورد كلما صار الأمر واضحاً أكثر؛ كلما صار إنكاره مستحيلاً... يندفعُ إليّ الماضي مثلما تندفع عصافير الدوري طائرة من السياج، يجعلني أجفل، ويجعلني غير قادرةٍ على الهرب منه.

تلك الخضرة الوارفة كلها، تلك الخضرة التي لا تصدَّق كلها، اللون الأصفر الليموني لأزهار الرتم على التل، اخترق اللون دماغي وأتى معه بشريط من الذكريات: أبي يحملني، وأنا أزعق وأتلوّى فرحاً، يحملني إلى الماء عندما كان عمري خمس سنين أو ست سنين؛ وأنت تقفزين في النهر من فوق الصخور، ثم تخرجين وتتسلقين أعلى فأعلى كل مرة. نزهات نتناول فيها طعامنا على الضفة الرملية عند البركة، وطعم الكريم الواقي من الشمس على لساني. اصطياد سمكة بنيَّة سمينة في الماء البطيء الموْحل عند الطاحون. أنت عائدة إلى البيت والدم يسيل على ساقك بعد أن أخطأتِ التقدير في واحدة من تلك القفزات، تعضين على منديل صغير بينما ينظف أبي الجرح، تعضين على المنديل لأنك لا تريدين البكاء أمامي. أمي، في فستان خفيف من غير أكمام، حافية القدمين في المطبخ، تُحضِّر عصيدة للفطور؛ عقبا قدميها قاتمان، بُنيان كالصدأ. أبي جالس على ضفة النهر، إنه يرسم.

فيما بعد، عندما كبرنا قليلاً، أنتِ في بنطلون جينز قصير وقطعة البكيني العلوية تحت قميصك الخفيف، تتسللين خارجة في وقت متأخر لكي تقابلي صبياً. لا لتقابلي أي صبي، بل لتقابلي ذلك الصبي. أمي، التي صارت أكثر نحولاً وأكثر هشاشة، نائمة على الكنبة في غرفة الجلوس؛ وأبي يغيب في رحلات طويلة على الأقدام مع زوجة القس الشاحبة الممتلئة التي تضع قبعة تحميها من الشمس. أتذكر لعبة كرة قدم. شمس حارة على الماء، والعيون كلها عليّ؛ أمسح الدموع عن

عيني، ويسيل دمٌ على فخذيّ، وتتردد أصوات ضحكٍ في أذني. لا أزال قادرةً على سماع تلك الضحكات؛ ومن تحتها كلها، أسمع صوت المياه المندفعة.

كنتُ في مكان عميق تحت تلك المياه فلم أدرك أنني وصلت. لقد صرت هناك، في قلب البلدة! أدركت هذا فجأة كأنني أغمضت عينيَّ فرأتْ روحي المكان. وقبل أن أعرف شيئاً، وجدت نفسي أسير سيراً بطيئاً في أزقة ضيقة اصطفت على جانبيها سيارات الدفع الرباعي. رأيت حجراً وردياً يبدو مشوَّشاً عند حافة مجال رؤيتي، صوْب الكنيسة، صوْب الجسر العتيق، فلأكن حذرةً الآن! أبقيت نظري مثبتاً على الإسفلت أمامي وحاولت ألا أنظر إلى الأشجار، ألا أنظر إلى النهر. حاولت ألا أرى؛ لكنني لم أستطع.

توقفت إلى جانب الطريق، وأطفأت المحرك. رفعت رأسي ونظرت. كانت الأشجار هناك، والدرجات الحجرية... جعلَتْها الطحالب خضراء، وجعلها المطر خدّاعة خطرة. اقشَعرَّ جسمي وتحَبْحَب جلدي كله. تذكرت هذا: مطر متجمِّد يضرب سطح الإسفلت، وأضواء وامضة زرقاء تسابق ضياء البرق فتنير النهر والسماء، وغيومُ الأنفاس معلقة أمام وجوه مذعورة، وصبيٌّ صغيرٌ، صبيٌّ مرتجفٌ مبيضٌّ كأنه شبح، تقوده شرطية ليصعد الدرجات إلى الطريق. كانت ممسكة بيده، وكانت عيناها متسعتين، ضاريتين. يميل رأسها يميناً ويساراً وتنادي شخصاً ما. لا أزال قادرة على الإحساس بما أحسسته تلك الليلة... الرهبة والافتتان. لا أزال قادرة على سماع كلماتك في رأسي: كيف يمكن أن يكون الأمر؟ هل تستطيعين تخيُّل هذا؟... أن تنظري إلى أمك تموت أمامك؟

أشحتُ بوجهي بعيداً. شغّلت السيارة من جديد وعدت بها إلى الطريق، ثم عبرت الجسر حيث يمضي الدرب متعرِّجاً. كنت أترقَّب

ظهور المنعطف أول منعطف إلى اليسار؟ لا، ليس ذلك المنعطف، إنه الثاني. ها هو، تلك الكتلة العتيقة من حجارة بنية، بيتنا، «بيت الطاحون». وخزة على جلدي، وخزة باردة رطبة، قلبي يخفق بسرعة خطرة، قدت السيارة عبر البوابة المفتوحة، قدتها إلى الممر داخل فناء البيت.

رأيت رجلاً واقفاً هناك ينظر إلى هاتفه. شرطي في ملابسه الرسمية. سار برشاقة إلى السيارة فأنزلتُ زجاج النافذة.

قلت: «أنا جولز. جولز آبوت! إنني... أختها».

بدا عليه الحرج: «أوه! نعم. صحيح. بالطبع. انظري...» التفت خلفه في اتجاه البيت... «لا أحد هنا في هذه اللحظة. الفتاة... ابنة أختك... لقد خرجت. لست واثقاً تماماً أين...».

تناول جهاز اللاسلكي المعلَّق من حزامه.

فتحت الباب وخَطوت إلى الداخل. سألت الشرطي قبل ذلك: «هل هناك مشكلة إن دخلت البيت؟» كنت أنظر إلى الأعلى، إلى النافذة المفتوحة التي كانت غرفتك فيما مضى. لا أزال قادرة على رؤيتك هناك جالسة على طوار النافذة، قدماك متدليتان إلى الخارج. شيء مُدوِّخ.

بدا الشرطي متردداً. استدار مبتعداً عني، وقال شيئاً في جهاز اللاسلكي، قاله بصوت منخفض قبل أن يستدير إليَّ من جديد: «نعم، لا مشكلة. تستطيعين الدخول».

سرتُ صاعدة درجات السلم كالعمياء، لكنني سمعت صوت الماء وشممت رائحة التراب، التراب الذي في ظِل البيت وتحت الأشجار، في الأماكن التي لا يطالها ضياء الشمس، شممت رائحة أوراق الأشجار المتحللة، تلك الرائحة النفّاذة اللاذعة. حملتني تلك الروائح وعادت بي إلى الوراء زمناً.

دفعت الباب الأمامي فانفتح. كان عندي نصفُ توقُّع... أن أسمع صوت أمي ينادي من المطبخ. عرفت من غير حاجة إلى التفكير أن عليَّ أن أدفع الباب بردفي حتى يبلغ النقطة التي يحتكُّ عندها بالأرض. دخلت البيت. صرت في الممر ودفعت الباب فأغلقته من خلفي. حاولت عيناي تركيز نظرهما في تلك الظلمة الخفيفة. انكمش جلدي في تلك البرودة المفاجئة.

طاولة من خشب البلوط في المطبخ، مُزاحةٌ حتى النافذة. هل هي الطاولة نفسها؟ تبدو مثلها! لكن هذا مستحيل لأن أيدي كثيرة تعاقبت على هذا المكان، تعاقبت عدة مرات منذ ذلك الوقت حتى الآن. أستطيع التأكد إن زحفت تحت الطاولة وبحثت عن العلامات التي تركناها هناك، أنا وأنت؛ لكن هذه الفكرة وحدها جعلت نبض قلبي يتسارع.

أذكر كيف كان ضياء الشمس يدخل المطبخ في الصباح، وأذكر كيف يرى المرء الجسر إذا جلس إلى الجهة اليسرى، قبالة تلك النافذة: يظهر الجسر كأنه ضمن إطار. شيء في غاية الجمال! هذا ما يقوله الجميع عند رؤية المنظر، لكنهم لم يكونوا يرونه حقاً. لم يفتحوا النافذة أبداً وينحنوا إلى الخارج، ولم ينظروا إلى تلك العجلة الخشبية المتعفِّنة المتوقفة هناك، دولاب الطاحون، ولم ينظروا أبداً إلى ما خلف ضياء الشمس المتراقص على صفحة الماء، ولم ينظروا إلى ما كانه ذلك الماء حقاً... ماءٌ أسود مُخضّر مليء بأشياء حية، وبأشياء ميتة.

خرجت من المطبخ. دخلت الصالة. مررت بالسلم. دخلت أماكن أعمق في البيت. وصلت إليها فجأة فكدت أقع، النوافذ المتسعة في الأمام، النوافذ المطلة على النهر، النوافذ التي تكاد تكون داخل النهر... تحس أن الماء سينسكب منها إذا فتحتها وينصب على حافتها الخشبية في الأسفل.

أتذكر تلك الأصياف كلها. أمي وأنا جالستان عند حافة النافذة الخشبية تلك، جالستان على الوسائد، رافعتان أقدامنا التي تكاد أصابعها تتلامس؛ وكتاب كل منا على ركبتيها. طبق من المأكولات الخفيفة في مكان ما، رغم أنها لم تكن تمد يدها إليه أبداً.

لم أستطع النظر: جعلني محبطة حزينة، جعلني يائسة... إنها رؤية المكان من جديد، رؤيته هكذا.

كان الجصُّ على الجدار متقشراً قليلاً فظهر القرميد الأحمر من تحته، وكان ديكور الغرفة كلُّه أنتِ: سجادات شرقية على الأرض، وقطع أثاث بنية اللون، وكنبات كبيرة وكراسٍ جلدية، وشموع كثيرة كثيرة. في كل مكان أدلة تشير إلى هواجسك: كتب مطبوعة بحروف كبيرة، ولوحة أوفيليا لميلايس... لوحة جميلة هادئة، فم مفتوح وعينان مفتوحتان، وأزهار في يدها. لوحة «الربَّات الإغريقيات الثلاث» لبليك، و«سَبتُ الساحرات» لغويا، وإلى جانبها لوحته «الكلب الغريق». أكره تلك اللوحة خاصة؛ الحيوان المسكين يكافح لكي يظل رأسه فوق الماء الذي يزداد ارتفاعاً.

سمعت صوت هاتف يرن، وبدا لي أنه آتٍ من تحت البيت. تتبعت الصوت عبر غرفة المعيشة، ثم نزلت السلم. أظن أنه كانت هناك غرفة مستودع، غرفة مليئة بسقط المتاع. أغرق الماء تلك الغرفة ذات يوم فاكتسى كل شيء فيها طبقة من الطمي، كأن البيت صار جزءاً من ضفة النهر.

خَطوتُ داخل الغرفة التي حَوّلتِها إلى ستوديو لك. كانت مليئة بمعدات التصوير والشاشات وحوامل المصابيح، وبصناديق كبيرة وآلة طابعة وأوراق وكتب وملفات متكومة على الأرض، وبعلب لتلك الملفات مصفوفة عند الجدار. في الغرفة صور كثيرة، بالطبع. صورك

التي تغطي كل إنش من الجدران. قد يبدو للعين غير المدربة أنك مولعة بالجسور: البوابة الذهبية، وجسر نانجينغ على نهر يانغتسي، وجسر الأمير إدوارد بقناطره الكثيرة. لكن، انظروا من جديد. لا علاقة للأمر بالجسور، ولا هو نوعٌ من الحب لهذه الإنجازات الهندسية الرائعة. انظروا من جديد. سترون أنها ليست جسوراً فحسب، إنها رأس بيتشي بجروفه الجيرية في إيسكس، وغابة آوكيغاهارا على جبل فوجي في اليابان، وجرف بريكستولن في النرويج. إنها تلك الأماكن التي يذهب إليها الناس اليائسون فيضعون نهاية لكل شيء... هي كاتدرائيات اليأس.

وقبالة الباب صور لبُركة الغارقات! صورٌ كثيرة كثيرة كثيرة، صورة مأخوذة من كل زاوية يمكن تخيُّلها، مأخوذة من كل نقطة ممكنة. بركة شاحبة جليدية في الشتاء، وجرف أسود شديد الوضوح، أو جرف برّاقٌ في الصيف... واحة، واحة خضراء وارفة، أو صوانية رمادية تتجمع سحب العاصفة فوقها، تتجمَّع فوقها كثيراً كثيراً. تتداخل الصور ضمن صورة واحدة... هجوم مُدَوِّخ على العين. أحسست كما لو أنني هناك، في ذلك المكان، كما لو أنني واقفة على قمة الجرف أنظر إلى الماء في الأسفل وأحسُّ تلك النشوة المخيفة، أحسُّ إغراء النسيان.

نيكي

دخل بعضهن الماء بإرادته، ولم يُرِد بعضهن الآخر ذلك. وإذا سأل المرء نيكولا، أو نيكي فحسب (ليس المقصود أن أحداً سوف يسألها لأن أحداً لم يسألها في يوم من الأيام)، فستقول إن نيل آبوت نزلت في الماء وهي تقاوم. لكن أحداً ما كان يعتزم سؤالها، وما كان أحد يعتزم الإصغاء إليها. وهكذا ما كان هناك معنى لأن تقول شيئاً. ما كان هناك معنى لأن تقول شيئاً للشرطة خاصة. وحتى لو لم تكن لها مشاكلها معهم

في الماضي، فإنها ما كانت قادرة على الحديث معهم عن هذا الأمر. هذا شيءٌ شديد الخطورة.

كانت لنيكي شقةٌ فوق محل البقالة، شقة من غرفة واحدة في حقيقة الأمر، مع مطبخ شديد الضيق وحمام ضئيل إلى درجة تجعله لا يكاد يستحق إطلاق هذا الاسم عليه. ليس لديها أشياء كثيرة، وما كانت تملك الكثير طيلة حياتها، لكن عندها كرسي مريح بذراعين عند النافذة المشرفة على البلدة. هناك كانت تجلس وتأكل، بل تنام بعض الأحيان لأنها نادراً ما تنام هذه الأيام... وهكذا، ما كان الذهاب إلى السرير يبدو لها أمراً كبير الأهمية.

كانت تجلس وتراقب كل ما يأتي ويذهب؛ والأشياء التي ما كانت تراها، كانت تحسّها. لقد أحسَّت شيئاً حتى قبل أن تبدأ الأضواء الوامضة الزرقاء بالظهور فوق الجسر، حتى قبل ذلك. ما كانت تعرف أنها نيل آبوت، لم تعرف هذا أول الأمر. يظن الناس أن المشهد واضح تماماً، لكن الأمر ليس بهذه البساطة كلها. كل ما عرفته هو أن واحدةً ما قد مضت إلى السباحة من جديد. جلست، وراقبت، وكان ضوء غرفتها مطفأً: جاء رجل مع كلابه وصعد تلك الدرجات راكضاً، ثم وصلت سيارة. لم تكن واحدة من سيارة شرطة المألوفة، بل سيارة لونها أزرق داكن. ظنت أنه المفتش شون تاونسند، وكانت محقّة في ظنها. مضى شون تاونسند مع الرجل صاحب الكلاب. هبطا الدرجات، ثم جاءت الجماعة كلها... مع الأضواء الوامضة، لكن من غير صفارات. لا معنى للصفارات الآن. لا حاجة إلى الاستعجال.

عندما أشرقت الشمس يوم أمس، نزلت لتشتري حليباً وصحيفة، فكان الكلام يجري بين الجميع، كل واحد يقول: واحدة أخرى! إنها الثانية هذه السنة... ثم قالوا اسمها. وعندما قالوه تبيَّن أنها نيل آبوت. كانت نيكي تعرف أن الثانية ليست كالأولى.

خطر في ذهنها أن تذهب إلى شون تاونسند وتخبره، هناك، في تلك اللحظة. لكن... صحيح أنه شاب مهذب لطيف فعلاً، لكنه شرطي رغم ذلك، إنه ابن أبيه، ولا تستطيع الثقة به. كان من المستحيل أن تفكر نيكي في الأمر لو لم يكن لديها شيءٌ من الضعف تجاه شون. لقد عاش مأساة هو أيضاً؛ ويعرف الرب وحده أنه، بعد ذلك، كان لطيفاً معها. إنه الشخص الوحيد الذي كان لطيفاً معها عندما اعتقلوها... عندما اعتقلوها هي.

كان ذلك الاعتقال الثاني لها، إن أرادت أن تكون صادقة! حدث الأمر منذ فترة غير قليلة، منذ ست سنين أو سبع سنين. لم تتخل أبداً عن عملها بعد إدانتها بالاحتيال أول مرة؛ لكنها اقتصرت على مجموعة محدودة من عملائها المنتظمين، وعلى مجموعة هواة السحر التي يأتي أفرادها من حين لآخر حتى يقدموا احترامهم إلى ليبي وماي ونساء الماء جميعاً. كانت تمارس شيئاً من قراءة أوراق الطالع أيضاً، إضافة إلى جلسة أو جلستين لاستحضار الأرواح في الصيف. كانوا أحياناً يطلبون منها التواصل مع روْح أحد الأقارب أو مع روح إحدى السابحات في النهر. لكنها لم تكن تحاول الترويج لأعمالها... ظلت فترة طويلة من غير أن تحاول ذلك.

إلَّا أنهم أوقفوا مخصصات نيكي الاجتماعية للمرة الثانية فصارت مضطرة إلى التخلي عن حالة شبه التقاعد هذه. أقامت لنفسها موقعاً على الإنترنت بمساعدة من شاب كان يعمل متطوعاً في المكتبة، وبدأت تعرض فيه قراءة الطالع مقابل خمسة عشر جنيهاً، لنصف ساعة. كان هذا سعراً طيباً! فبالمقارنة، كانت هذه قيمة جيدة مقابل المال تلك المرأة، سوزي مورغان التي تظهر على التليفزيون، وهي ليست روحانية بأكثر من مؤخرة نيكي، تتقاضى تسعة وعشرين جنيهاً وتسعة وتسعين سنتاً مقابل عشرين دقيقة... لا تسنح لك الفرصة خلال هذا الوقت القصير

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حتى للحديث معها، بل تتحدث بدلاً من ذلك مع أحد أفراد «الفريق الروحاني» لديها.

لم يمضِ على إطلاق موقع الإنترنت أسابيع معدودة قبل أن يبلغ الشرطة عن نيكي موظفٌ من موظفي المعايير والأنظمة التجارية بتهمة «عدم تقديم وثائق إخلاء المسؤولية الإلزامية بموجب أنظمة حماية المستهلك». أنظمة حماية المستهلك! ما هذا؟ قالت نيكي إنها لم تعرف أن عليها تقديم وثائق إخلاء المسؤولية. لكن الشرطة قالت لها إن القانون تغير منذ فترة. كيف يفترض أن تكون على علم بذلك؟ سألتهم هذا السؤال الذي جعلهم، بطبيعة الحال، يسخرون منها ويضحكون كثيراً. قالوا لها: «توقعنا أن تكوني قادرة على التنبؤ بحدوث ذلك! هذا يعني أنك تستطيعين النظر إلى المستقبل فقط، أليس كذلك؟ لا تستطيعين النظر إلى الماضي؟».

وحدهُ المحقق تاونسند، الذي كان شرطياً عادياً في ذلك الوقت، لم يضحك منها. لقد كان لطيفاً دائماً، وشرح لها أن الأمر كله عائد إلى أنظمة الاتحاد الأوربي الجديدة. أنظمة الاتحاد الأوربي! حماية المستهلك! لقد مرَّ زمن كان أمثال نيكي يتعرضون فيه للملاحقة القضائية (ويضطهدون) بموجب «قانون ممارسة السحر» وقانون «الوسطاء الروحيون المحتالون»؛ أما الآن فهم يلاحَقون ويعانون بسبب البيروقراطيين الأوربيين! هكذا يسقط الأقوياء.

أغلقت نيكي موقع الإنترنت وأقسمت ألّا تقترب من التكنولوجيا بعد ذلك، ثم عادت إلى أساليبها القديمة. لكن أحداً لا يكاد يأتي إليها هذه الأيام.

لقد جعلَتها حقيقة أن نيل هي التي كانت في الماء تتحمَّس قليلاً؛ كان عليها أن تعترف بهذا لنفسها. انزعجت كثيراً. لكن إحساسها بالذنب ما كان

كبيراً لأن الغلطة لم تكن غلطتها. إلَّا أنها ظلت تتساءل إن كانت قد قالت لها أكثر مما يجب، إن أفصحت أكثر مما كان يجوز لها أن تفصح. لكن من غير الممكن إلقاء اللوم عليها والقول إنها هي التي بدأت هذا كله. لقد كانت نيل آبوت تلعب بالنار حقاً: كان النهر وأسراره هاجساً عندها؛ وهذا النوع من الهواجس لا ينتهي نهاية حسنة على الإطلاق. لا، أبداً لم تقل لها نيكي أن تذهب وتبحث عن المتاعب؛ لقد أشارت لها إلى الاتجاه الصحيح... فقط! لم يكن الأمر كما لو أنها لم تحذرها، لم يكن كذلك. المشكلة هي أن أحداً لا يصغي إليها. قالت لها نيكي إن في تلك البلدة رجالاً يمكن أن يعتبروها ملعونة فور نظرهم إليها، رجالاً كانوا على هذه الشاكلة دائماً. إلَّا أن الناس تجاهلوا الأمر، أليس كذلك؟ لم يكن أحد يحب التفكير في حقيقة أن الماء في ذلك النهر ملوثٌ بدم النساء المضطهدات وبآلامهن، النساء التعيسات؛ كان الناس يشربون من ذلك الماء كل يوم.

جولز

أنت لم تتغيري أبداً. كان يجب أن أعرف هذا، لكني ما كنت أعرفه. كنت تحبين الطاحون والماء، وكنت مسكونة بهاجس هاتيك النسوة، بما فعلنه وبمن تركنه وراءهن. ثم هذا، الآن! صدقاً يا نيل! هل ذهبتِ بالأمر إلى هذا الحد؟ ترددتُ عند أعلى السلم، أمام غرفة النوم الكبيرة. أصابعي على مقبض الباب؛ أخذت نفساً عميقاً. أعرف ما قالوه لي إنك مُتِّ، لكنني أعرفك أيضاً، ولم أستطع تصديقهم. كنت أحسُّ نفسي واثقة من أنني سأفتح الباب فأجدك هناك، سأجدك طويلة نحيلة غير مسرورة برؤيتي على الإطلاق.

كانت الغرفة خالية. كان فيها حِسُّ المكان الذي تركه أصحابه قبل لحظات فقط. كأنك خرجت منذ لحظة واحدة وجريتِ نازلة السلم

لتصنعي لنفسك فنجان قهوة. كان ذلك كأنك ستعودين في أية دقيقة. كنت أستطيع أن أشم عطرك في الهواء، أن أشم شيئاً غنياً حلواً، شيئاً على الطراز القديم، شيئاً من تلك العطور التي كانت أمي تستخدمها... عطر «أوبيوم» أو «إيفريس».

«نيل؟» قلت اسمك بصوت خافت كأنني أريد استحضارك مثلما يستحضرون شيطاناً.

أجابني الصمت.

بعد ذلك، في الممر، كانت «غرفتي»... الغرفة التي كنت أنام فيها: أصغر غرفة في البيت، مثلما يكون نصيب الأخت الصغرى دائماً. بل إنها بدت لي الآن أصغر مما أتذكرها، أكثر ظلمة، وأكثر حزناً. كانت الغرفة فارغة باستثناء سرير فردي غير مرتب يفوح برائحة رطوبة، مثل الأرض. ما كنت أنام نوماً جيداً في هذه الغرفة، وما كنت مرتاحة فيها أبداً. ليس في هذا شيء مفاجئ على الإطلاق لأنك كنت تحبين إخافتي كثيراً. تجلسين إلى الناحية الأخرى من الجدار وتخمشين سطحه الجصّي بأظافرك، وترسمين رموزاً على ظهر الباب بطلاء الأظافر الأحمر كالدم، وتكتبين أسماء النساء الميتات على البخار الذي تكثف على زجاج النافذة. ثم كانت هنالك تلك القصص كلها أيضاً، القصص التي تروينها عن ساحرات جُرِرن إلى الماء، أو قصص عن نساء استبدَّ بهن القنوط فرمين بأنفسهن من الجروف فوق الصخور التي في الأسفل؛ وأيضاً قصة عن صبيٍّ صغير مذعور اختبأ في الغابة وراقب أمه تقفز إلى موتها.

أنا لا أتذكر هذا. بالطبع، لا أتذكر هذا! عندما أبحث في ذاكرتي عن رؤيتي ذلك الصبي الصغير، فإن الأمر يكون من غير معنىً على الإطلاق: هذا شيء مفكك كأنه حلم. أنت تهمسين في أذني ذلك لم يحدث في ليلة شديدة البرد عند الماء. ثم إننا لم نكن هنا في الشتاء أبداً، ولم تكن

هناك ليالي شديدة البرد عند الماء. ولم أر أبداً طفلاً مذعوراً على الجسر في منتصف الليل ماذا يمكن أن أفعل، أنا الطفلة الصغيرة جداً، في ذلك المكان؟ لا، كانت تلك قصةً حكيتِها لي... كيف قرفص الصبي بين الأشجار ونظر فرآها، رأى وجهها شديد الشحوب مثل قميص نومها في ضياء القمر، كيف نظر فرآها ترمي نفسها فاتحة ذراعيها مثل جناحين، ترمي نفسها في الهواء الصامت، كيف ماتت الصرخة على شفتيها عندما اصطدمت بالمياه السوداء.

لست أعرف حتى إن كان هناك حقاً طفل رأى أمه تموت، أو أنك أنتِ مَن اخترع تلك الحكاية كلها.

تركتُ غرفتي القديمة وعدت إلى غرفتك، إلى المكان الذي كان مكانك أنت، عدت إلى المكان الذي يقول مظهره الآن إنه صار مكان ابنتك. خليط فوضوي من الملابس والكتب، ومنشفة رطبة مرمية على الأرض، وفناجين خزفية متسخة على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، وأثر من رائحة سجائر في الهواء، ورائحة ليلكات متعفِّنة ملأت المكان، ليلكات ذابلة في مزهرية قرب النافذة.

من غير تفكيرٍ، بدأتُ ترتيب المكان! رتبت السرير وعلَّقت المنشفة على المسمار خلف الباب. كنت راكعة على ركبتيَّ أخرج صحناً متسخاً من تحت السرير عندما سمعت صوتك... خنجرٌ في صدري.

«اللعنة... ماذا تظنين نفسك فاعلة هنا؟»

جولز

نهضتُ واقفة وارتسمت على وجهي ابتسامة منتصرة لأنني كنت أعرف هذا كنت أعرف أنهم مخطئون، وأعرف أنك لم تموتي حقاً. وها

أنت واقفة بالباب تقولين لي أن أنقلع من غرفتك. عمرك ستة عشر عاماً، سبعة عشر عاماً، ويدك ممسكة بمعصمي... أظافرها المصبوغة تحفر في لحمي. قلت لك أن تخرجي يا جوليا. أيتها البقرة السمينة!

ماتت ابتسامتي لأن تلك لم تكن أنتِ أبداً، كانت ابنتك التي تبدو مثلك تماماً عندما كنتِ فتاة مراهقة. كانت واقفة بباب الغرفة، يداها على خصرها. سألتني من جديد: «ماذا تفعلين؟».

قلت: «إنني آسفة. أنا جولز. لم نلتقِ قبل الآن، لكنني خالتك».

قالت وهي تنظر إلي كأنني بلهاء: «لم أسألك من أنت. سألتك عما تفعلينه هنا. عن أي شيء تبحثين؟» انزلقت عيناها مبتعدتين عن وجهي، ثم ألقت التفاتة سريعة في اتجاه باب الحمام. وقبل أن أتمكن من إجابتها، قالت من جديد: «إن الشرطة في الأسفل». ثم ذهبت سائرةً في الممر... ساقان طويلتان، وخطوة كسول، وصوت خطواتها يصفع البلاط.

أسرعتُ خلفها.

قلت لها وأنا أضع يدي على ذراعها: «لينا». دفعتْ يدي بعيداً عنها كما لو أنها أحرقتها، ثم استدارت ونظرت إليَّ بعينين متسعتين... «لينا، إنني آسفة».

أسبلت عينيها، وكانت أصابعها تدلِّك المكان الذي لمسته في ذراعها. كانت على أظافرها آثار قديمة من طلاء أزرق، وبدت أطراف تلك الأصابع كأنها أصابع جثة. هزت رأسها من غير أن تنظر في عيني، ثم قالت: «تريد الشرطة الحديث معك».

هي ليست مثلما توقعت. أظنني كنت أتخيل طفلة مهزوزة، طفلة في أمسّ الحاجة إلى المواساة. لكنها ليست كذلك، بالطبع! إلّا أنها ليست طفلة، إنها في الخامسة عشرة، صارت كبيرة تقريباً؛ أما فيما يتعلق

بالحاجة إلى المواساة، فلم يبد لي أنها في حاجة إليها أبداً، أو أنها ليست في حاجة إلى مواساة مني، على الأقل. إنها ابنتك حقاً!

كان محققا الشرطة منتظرين في المطبخ، واقفين عند الطاولة ينظران في اتجاه الجسر. رجل طويل يخالط شيء من الشيب شعر وجهه النامي قليلاً، وامرأة إلى جانبه، أقصر منه بقدم تقريباً.

خطا الرجل خطوة إلى الأمام ومدَّ يده. كانت عيناه الرماديتان الشاحبتان تتفحَّصان وجهي. قال لي: «المحقق المفتش شون تاونسند». عندما مدَّ يده، لاحظت أنها ترتجف قليلاً. كان ملمس جلد تلك اليد التي صافحتها ورقيّاً بارداً كأنها يد رجل أكبر سناً بكثير... «إنني آسف جداً للخسارة التي أصابتك».

غريب جداً أن أسمع هذه الكلمات. قالوها لي يوم أمس عندما جاؤوا لإخباري. كدت أقولها للينا أيضاً، كدت أقولها لها بنفسي! لكنها بدت كلمات مختلفة الآن. الخسارة التي أصابتك! أردتُ إخبارهم بأنني لم أخسرها. لا يمكن أن أخسرها. أنتم لا تعرفون نيل، أنتم لا تعرفون كيف هي نيل.

كان المفتش تاونسند ينظر إلى وجهي منتظراً أن أقول شيئاً. كان أطول مني بكثير، وكان نحيلاً حاد المظهر... يشعر المرء أنه يمكن أن يجرح نفسه إذا اقترب منه كثيراً. كنت مستمرةً في التحديق فيه عندما انتبهت إلى أن زميلته كانت تنظر إليّ، كان وجهها يقطُر تعاطفاً.

قالت لي: «أنا الرقيب إيرين مورغان. إنني في غاية الأسف». كان جلدها زيتوني اللون، وعيناها سوداوين. شعرها أسود فيه شيء من الزرقة مثلما يكون لون جناح الغراب. شعرها مردود إلى الخلف، لكن خصلات ملتوية منه أفلتت وتدلَّت عند صدغها وعند أذنيها فأعطتها مظهراً مشعثاً قليلاً.

قال المفتش تاونسند: «هذه شرطية التحري مورغان. وسوف تكون صلة الوصل بينك وبين الشرطة. ستخبرك بكل ما يستجد في التحقيق».

سألتُه بصوت مكتوم: «أهنالك تحقيق؟».

أومأت المرأة برأسها وابتسمت، ثم أشارت لي بالجلوس إلى طاولة المطبخ فجلست. جلس الشرطيان قبالتي. خفض المفتش تاونسند عينيه وراح يمرّ بكف يده اليمنى على معصم يده اليسرى بحركات سريعة متوترة: مرة، مرتان، ثلاث مرات.

كانت الشرطية مورغان تخاطبني، وكانت نبرة صوتها الهادئة اللطيفة غير منسجمة مع الكلمات التي خرجت من فمها: «شوهدت جثة أختك في النهر من قبل رجل كان يمشي مع كلابه في وقت مبكر من صباح الأمس». قالت هذه الكلمات بلهجة لندنية، وكان صوتها ناعماً كالدخان... «تشير الأدلة الأولية إلى أنها ظلت في الماء بضع ساعات فقط». التفتتْ إلى المفتش تاونسند ثم عادت تنظر إلي... «كانت مرتدية ملابسها كلها، وكانت إصاباتها توحي بأنها سقطت من الجرف الذي فوق البُركة».

سألت: «أتظنون أنها سقطت؟» انتقلت عيناي من المحققين إلى لينا التي تبعتني إلى المطبخ وكانت الآن واقفة في زاويته مستندة إلى الجدار. حافية القدمين في بنطلون أسود ضيق وقميص رمادي مشدود على عظامها الناتئة الحادة وثدييها اللذين لا يزالان برعمين صغيرين. كانت تتجاهلنا كأننا في حديث عادي مبتذل... كأن الأمر من تلك الأشياء التي تحدث كل يوم. أمسكت بهاتفها في يدها اليمنى وراحت تنقر عليه بإبهام اليد نفسها. وأما ذراعها اليسرى فكانت تلف جسدها النحيل. لا تكاد ثخانة أعلى ذراعها تعادل عرض معصمي. فم متجهم عريض، وحاجبان داكنان، وشعر أشقر متسخ متهدل على وجهها.

لا بد أنها أحسَّت بأنني أنظر إليها فقد رفعت عينيها إليّ وفتحتهما على اتساعهما لحظة قصيرة فجعلتني أُحوّل نظرتي عنها.

تكلَّمت أخيراً. قالت وقد اعوجّت شفتاها: «لستم تظنون أنها سقطت، أليس كذلك؟ أظنكم أكثر فطنةً من أن تفكروا هكذا».

لينا

كانوا يحدقون فيّ كلهم فأردت أن أصرخ عليهم وأقول لهم أن يخرجوا من البيت. هذا بيتي. إنه بيتي أنا، إنه بيتنا، لن يكون بيتها أبداً. خالتي جوليا. وجدتها في غرفتي تعبث بأشيائي، حتى قبل أن تراني. وبعد ذلك حاولت أن تبدو لطيفة وقالت لي إنها آسفة حزينة. كأن من المنتظر منِّي تصديق أنها مبالية بالأمر كله.

لم أنم منذ يومين. لا أريد الحديث معها ولا مع غيرها. ثم إني لا أريد منها مساعدة، ولا أريد مواساتها القذرة. ولا أريد الاستماع إلى تلك النظريات العرجاء عما حدث لأمي من أشخاص لم يكونوا يعرفونها أصلاً.

كنت أحاول إبقاء فمي مطبقاً؛ لكن الغضب انتابني عندما قالوا إنها يمكن أن تكون قد سقطت... لأنها لم تسقط، بالطبع لم تسقط. لم تسقط. إنهم لا يفهمون شيئاً. لم يكن هذا حادثاً عشوائياً: هي من فعل هذا! لا أقصد أن للأمر أهمية الآن، على ما أظن، لكني أحسُّ بأنني أريد أن يعترف الجميع بالحقيقة، على الأقل.

قلت لهم: «لم تسقط. لقد قفزت».

بدأ محققا الشرطة يطرحان عليّ أسئلة سخيفة عن السبب الذي جعلني أقول هذا، وعما إذا كانت مكتئبة قبل ذلك وما إذا كانت قد

حاولت الانتحار من قبل. وخلال هذا كله، كانت خالتي جوليا تحدِّق إليّ بعينيها البنيَّتين الحزينتين كأنها تظنني فتاة حمقاء من نوع ما.

قلت لهم: «تعرفون أن البركة كانت هاجساً عندها، مع كل الأشياء التي حدثت هناك، ومع كل الناس الذين ماتوا هناك. أنتم تعرفون هذا. حتى هي تعرف هذا». قلت الكلمات الأخيرة وأنا أنظر إلى جوليا.

فتحت فمها ثم أغلقته من جديد، كأنها سمكة! أراد جزءٌ مني إخبارهم بكل شيء، أراد جزء مني أن أقول كل شيء أمامهم، لكن... ما معنى ذلك؟ لا أظنهم قادرين على الفهم.

بدأ شون المفتش المحقق تاونسند، كما يفترض أن أدعوه عندما يكون الأمر رسمياً يطرح أسئلة على جوليا: متى تكلمتْ مع أمي آخر مرة؟ وكيف كانت حالتها العقلية آنذاك؟ وهل كان هناك شيء يزعجها أو يقلقها؟ أما خالتي جوليا فراحت تكذب وهي جالسة هناك.

قالت وقد احمرّ وجهها كثيراً: «لم أتحدث معها منذ سنين. إن بيننا تباعداً».

كانت ترى أنني أنظر إليها، وكانت تعرف أنني أعرف أنها تكذب، فازداد احمرارها. ثم حاولتْ حرف الانتباه عنها فسألتني: «لماذا يا لينا؟ لماذا تقولين إنها قفزت؟»

نظرت إليها زمناً طويلاً قبل أن أجيبها. أردت إفهامها أنني أرى ما في داخلها. قلت لها: «يفاجئني سؤالك هذا. ألست أنت من قال لها إنها تتمنى الموت؟»

بدأت تهز رأسها وتقول: «لا، لا، لم أقل هذا أبداً. لم أقله بهذه الطريقة...».

يا لها من كاذبة!

بدأت الشرطية المحقِّقة تلك المرأة تتحدث عن أنهم «ليس لديهم في هذه اللحظة دليل يشير إلى أن ما حدث كان فعلاً متعمَّداً». قالت أيضاً إن أمي لم تترك رسالة، لم يجدوا شيئاً.

كان عليّ أن أضحك عند ذلك: «أتظنين أنها يمكن أن تترك رسالة؟ ولِمَ تترك أمي أية رسالة ملعونة! سيكون ذلك شيئاً مبتذلاً تماماً».

هزت جوليا رأسها: «هذا صحيح... هذا صحيح. أستطيع رؤية نيل راغبة في جعل الجميع حائرين... كانت تحب الغموض. نعم، تحب أن تكون محور لغز غامض».

تمنيت أن أصفعها. العاهرة الغبية، هذا ما وددت أن أقوله... إنها غلطتك أنت أيضاً.

بدأت الشرطية المحققة تتحرك هنا وهناك. سكبت كؤوساً من الماء، للجميع. حاولت أن تضع إحدى تلك الكؤوس في يدي، لكني ما عدت قادرة على احتمال الأمر أكثر من ذلك. كنت أعرف أنني موشكة على البكاء. وما كنت أريد أن أبكي أمامهم.

بدلاً من ذلك، ذهبت إلى غرفتي وأقفلت الباب خلفي. ثم بكيت هناك. وضعت وشاحاً على وجهي وبكيت بأقصى ما استطعت من الهدوء. كنت أحاول ألا أستسلم لهذا، أحاول أن أقاوم ذلك الشيء الذي يدفعني إلى ترك نفسي أنهار وأتحطَّم إلى قطع صغيرة فأنا أحسُّ أن ذلك لن يتوقف أبداً إذا سمحت له بأن يبدأ.

كنت أحاول عدم ترك تلك الكلمات تخرج من فمي، لكنها ظلت تدور في رأسي، وتدور، وتدور: إنني آسفة، إنني آسفة، إنني آسفة، كانت الغلطة غلطتي. ظللت أنظر إلى باب غرفتي وأستعيد، وأستعيد، تلك اللحظة ليلة الأحد عندما دخلت أمي لتقول لي تصبحين على خير.

قالت: «مهما حدث... أنت تعرفين كم أحبك يا لينا، ألا تعرفين هذا؟» انقلبتُ في الفراش ووضعت السماعات على أذني، لكنني كنت أعرف أنها ظلت واقفة هناك، كنت أحسُّها واقفة تنظر إليَّ. كنت كأنني أحسُّ حزنها، وكنت مسرورة لشعوري بأنها تستحق هذا الحزن. إنني مستعدة لفعل كل شيء، لفعل أي شيء، حتى أكون الآن قادرة على النهوض واحتضانها، على أن أقول لها إنني أحبها أيضاً وإن الغلطة ليست غلطتها أبداً. ما كان يجوز أبداً أن أقول لها إنها هي المخطئة. إن كانت مذنبة في شيء ما، فأنا مذنبة مثلها.

مارك

إنه أكثر أيام هذه السنة حرارة حتى الآن. وبما أن أحداً لم يذهب إلى بركة الغارقات (لأسباب واضحة)، فقد مضى مارك صاعداً عكس مجرى النهر حتى يسبح. كانت هناك مساحة متسعة أمام كوخ آل وارد حيث يصير النهر أكثر عرضاً. وكان الماء يجري سريعاً بارداً فوق الحجارة الصغيرة التي بلون الصدأ عند الضفتين، لكنه كان عميقاً في الوسط، وكان بارداً إلى الحد الكافي لأن يجعل رئتي المرء عاجزتين عن التنفس، ولأن يجعل جلده يحترق... ذلك النوع من البرد الذي يجعلك تضحك بصوت مرتفع عندما تأتيك صدمته.

وقد فعل مارك ذلك... ضحك بصوت مرتفع كانت أول مرة يحسُّ رغبة في الضحك منذ شهور. هذه أول مرة ينزل إلى الماء منذ شهور أيضاً. كان النهر قد تحوَّل في نظره من مصدر للبهجة إلى مكان للرعب؛ لكنه عاد إلى طبيعته اليوم، عاد من جديد. عاد إحساسه تجاه النهر في هذا اليوم مثلما كان من قبل. لقد عرف منذ لحظة استيقاظه، منذ أن استيقظ خفيفاً صافي الرأس مرتاح الأطراف، عرف أن هذا اليوم سيكون يوماً جيداً للسباحة. البارحة، وجدوا نيل آبوت ميتة في النهر. أما اليوم

فهو يوم جيد. ما كان إحساسه يشبه إحساس من أزيح عبءٌ عن عاتقه بل كان الأمر كأن الملزمة الضاغطة على صدغيه، الملزمة التي توشك أن تصيبه بالجنون، التي تهدد حياته نفسها، قد خفَّ ضغطها أخيراً.

كانت شرطيةٌ قد أتت إلى بيته، شرطية محققة شابة تماماً لها مظهر فتاة صغيرة إلى حد ما، مظهر جعله راغباً في أن يقول لها أشياء لا يجوز قولها في حقيقة الأمر. اسمها كالي... لا يذكر اسمها كاملاً، كالي... شيء ما! دعاها إلى الدخول، وقال لها الحقيقة. قال إنه شاهد نيل آبوت تخرج من المقهى مساء الأحد. لم يشر إلى أنه ذهب إلى المقهى مدفوعاً بتوقع مصادفتها هناك... ما كان هذا شيئاً مهماً. قال إنهما تحدثا، لكن لفترة وجيزة فقط، لأن نيل كانت في عجلة من أمرها.

سألته الشرطية المحققة: «في أي شيء تحدثتما؟»

«تحدثنا عن ابنتها، اسمها لينا. هي تلميذة عندي. كان لديها بعض المشكلات في الفصل الماضي مشكلات متعلقة بالسلوك والانضباط، ذلك النوع من الأشياء. سوف تكون في صف اللغة الإنكليزية عندي من جديد في شهر أيلول. إنها سنة هامة بالنسبة إليها، سنة شهادة الدراسة الثانوية. لقد أردتُ الاطمئنان إلى أننا لن نصادف أيَّ مشكلات جديدة في هذا الفصل».

هذا صحيح وصادق... إلى الحد الكافي.

«قالت لي إنها لا تملك وقتاً للحديث، وإن لديها أشياء أخرى تفعلها».

هذا صحيح أيضاً، حقيقي، رغم أنه ليس الحقيقة كلها. ليس كما يقولون... «لا شيء إلَّا الحقيقة».

سألته المحققة: «ألم يكن لديها الوقت الكافي للحديث عن مشاكل ابنتها في المدرسة؟»

رفع مارك كتفيه وابتسم ابتسامة كئيبة. قال: «يكون أهالي بعض التلاميذ مهتمين أكثر من غيرهم».

«متى خرجتْ من المقهى، وأين ذهبتْ؟ هل كانت سيارتها معها؟»

هزَّ مارك رأسه نفياً: «لا؛ أظنها كانت ذاهبة إلى بيتها. لقد سارتْ في ذلك الاتجاه».

أومأت المحققة برأسها وسألته: «ألم ترَها بعد ذلك الوقت؟»

هزَّ مارك رأسه نفياً.

وهكذا، كان جزء مما قاله صادقاً، وكان جزء مما قاله كاذباً، لكن المحققة بدت راضية بإجاباته. تركتْ له بطاقة عليها رقم هاتف وقالتْ إن عليه أن يتصل إذا كان لديه أي شيء يضيفه إلى أقواله.

قال لها: «سوف أتصل بالطبع». ثم ابتسم لها ابتسامته الظافرة فأجفلت. تساءل في نفسه إن كان قد بالغ أكثر مما يجب.

غطس تحت الماء الآن، غاص حتى قاع النهر ودفع أصابعه في الطين الرملي الطري في الأسفل. جعل جسمه كرة مشدودة ثم اندفع اندفاعة شديدة فخرج إلى سطح الماء. اندفع الهواء إلى رئتيه.

سوف يفتقد هذا النهر، لكنه جاهزٌ للذهاب الآن. كان عليه أن يبدأ البحث عن عمل جديد، ربما في سكوتلندا، أو حتى في مناطق أبعد: فرنسا أو إيطاليا أو في مكان ما لا يعرف أحد فيه من أين جاء ولا يعرف أحد ما جرى في الطريق. كان يحلم بصفحة جديدة، بصفحة بيضاء، وبماضٍ نظيف.

عندما سبح إلى الشاطئ أحسَّ تلك الملزمة تضغط عليه قليلاً من جديد. لم يخرج من الغابة بعد. ليس بعد. لا تزال هناك مسألة الفتاة. لا تزال قادرة

على إحداث المشاكل. رغم هذا، وبما أنها ظلَّت صامتة هذه الفترة كلها، فلا يبدو مرجحاً أنها ستخرج عن صمتها الآن. قولوا ما تشاؤون عن لينا آبوت... لكنها بنت مخلصة؛ إنها تحفظ وعدها؛ وقد يمكن الآن حتى أن تتحول إلى شخص محترم بعد تحررها من أثر أمها السَّام.

جلس عند الضفة بعض الوقت حانياً رأسه مصغياً إلى أغنية النهر، مستمتعاً بالشمس على كتفيه. تبخَّرت بهجته مع تبخُّر الماء عن ظهره، لكنها تركت وراءها شيئاً آخر، شيئاً ليس أملاً بالضبط بل رجاءً هادئاً بأن الأمل قد يكون احتمالاً ممكناً، على أقل تقدير.

سمعَ صوتاً فرفع رأسه، هنالك أحد آتٍ في اتجاهه. ميَّز شكلها، والبطء المعذِّب في مشيتها. صار خفق قلبه أكثر عنفاً في صدره. إنها لويز.

لويز

كان هنالك رجل جالس على ضفة النهر. ظنَّته عارياً أول الأمر، لكنه وقف فرأت أنه في سروال السباحة القصير الضيق الملتصق بجسده. أحسَّت أنها تمعن النظر إليه، إلى جسده، فاحمر وجهها. إنه السيد هندرسون.

خلال الوقت الذي استغرقه وصولها إليه، كان قد لف وسطه بمنشفة وارتدى قميصه ذا الكمَّين القصيرين. سار صوبها ماداً يده إليها.

«سيدة ويتاكر! كيف حالك؟».

قالت: «لويز، لويز من فضلك».

خفض رأسه وابتسم نصف ابتسامة.

«كيف حالك يا لويز؟».

حاولت أن ترد على ابتسامته بابتسامة: «أنت تعرف». لم يكن يعرف. لم يكن أحد يعرف... «لقد قالوا لك قالوا، أصغِ إلى ما أقول! قال لك الاستشاريون النفسيون إنك ستعيش أياماً طيبة وأياماً سيئة، وإن عليك أن تجد طريقة للتعامل مع هذا الأمر».

هزَّ مارك رأسه. لكن عينيه انزلقتا مبتعدتين عن عينيها. رأت احمراراً يغزو خديه. إنه محرَج.

كانا محرجين، كلاهما. لم تدرك أبداً قبل أن تتمزق حياتها نُتفاً كم يكون حزن الفقد شيئاً غريباً، كم يكون مزعجاً لكل الناس الذين يحتكّون بشخص يعيش حداداً. في البداية، يكون ذلك الشخص موضع تفهم الناس واحترامهم. لكنه يصير عقبة في طريقهم بعد قليل... عقبة في طريق أحاديثهم أو ضحكهم أو حياتهم العادية. يريد كل منهم أن يتجاوز الأمر وأن يمضي في الحياة، لكنهم يجدونك في طريقهم، يجدونك معترضاً طريقهم. تسدُّ دروبهم، وتجرجر جثة طفلك الميت خلفك أينما ذهبت.

سألته: «كيف هو الماء؟» ازداد احمرار وجهه، الماء، الماء، الماء لا سبيل إلى الابتعاد عنه في هذه البلدة. سألته: «هل هو بارد؟... أتخيل هذا».

هز رأسه مثلما يفعل كلب خرج من الماء. قال: «بررررر» ثم ضحك ضحكة متحفظة.

كان بينهما شيء كأنه فيلٌ ضخم. أحسَّت أن عليها أن تشير إلى هذا.

«هل سمعت عن أم لينا؟»... كأن هناك مَن لم يسمع بالأمر بعد! كأن أحداً يستطيع العيش في هذه البلدة من غير أن يعرف بما حدث!

«نعم، سمعت. شيء مخيف. يا إلهي، إنه مخيف. إنها صدمة». صمت

بعد ذلك. وعندما لم تقل لويز شيئاً، تابع يقول: «أممم... أعني، أعرف أنك أنت وهي...» قطع جملته والتفتَ ناظراً إلى سيارته. كان يتمنى الابتعاد الآن؛ يا للبؤس.

قالت لويز كأنها تساعده: «لم نكن على علاقة وثيقة تماماً!»... بدأت تعبث بالسلسلة التي في رقبتها وتشد الطائر الأزرق الصغير المعلَّق بها، تشده إلى الأمام والخلف... «لا، لم نكن كذلك. حتى ولو...» كان هذا أفضل ما استطاعت التوصل إلى قوله. كانت جملتها غريبة، مضحكة، وما كانت هناك حاجة إلى قولها. كان السيد هندرسون يعرف حكاية الدم الذي أفسده الحقد؛ أما هي فكان من المستحيل أن تظل واقفة عند النهر وتتظاهر بأنها غير مسرورة بأن نيل آبوت قد لقيت نهايتها فيه.

ما كانت قادرة على هذا التظاهر، وما كانت راغبة فيه.

عندما استمعتْ إلى الاستشاريين النفسيين، أدركتْ أنهم يقولون كلاماً فارغاً وعرفتْ أنها لن تحظى أبداً بيوم طيب آخر طيلة ما بقيَ من عمرها. لكن، كانت هناك أوقات خلال الساعات الأربع والعشرين التي مضت، أو نحو ذلك تقريباً، وجدت من الصعب فيها أن تمنع تعبير الظفر من الظهور على وجهها.

كان السيد هندرسون يقول لها: «أظن أن الأمر... بطريقة فظيعة... مناسب على نحو غريب، أليس كذلك؟ طريقة رحيلها...»

هزت لويز رأسها متجهمة الوجه: «لعل ذلك ما كانت تريده لنفسها. لعل ذلك ما أرادته حقاً».

عبس مارك: «أتظنين هذا... أنها... أتظنين الأمر كان مقصوداً؟».

هزت لويز رأسها: «ليست لديّ فكرة أبداً، في حقيقة الأمر».

قال لها: «لا. لا. ليست لديك فكرة، بالطبع». صمت لحظة... «على الأقل... الآن على الأقل، فإنّ ما كانت تكتبه لن يجد طريقه إلى النشر، أليس هذا صحيحاً؟ الكتاب الذي كانت تكتبه عن البُركة لم تفرغ منه، أليس كذلك؟ هذا يعني أنه لا يمكن أن يُنشر...»

اخترقته نظرة لويز، نظرة واحدة فقط: «أتظن هذا؟ لو كنت مكانك لفكرت في أن طريقة موتها يمكن أن تجعل كتابها أكثر قابلية للنشر. امرأة تكتب كتاباً عن النساء اللواتي متن في بركة الغارقات ثم تصير بدورها واحدة من الغارقات... هي أيضاً! أظن أن هناك من سيكون راغباً في نشره».

بدا مارك مذعوراً: «لكن لينا... بالتأكيد لينا... لن تكون راغبة في...».

رفعت لويز كتفيها، ثم قالت من جديد: «مَن يدري؟ أظن أنها هي من سيحصل على عائدات الكتاب». تنهدتْ... «عليّ أن أعود يا سيد هندرسون». ربتت على ذراعه فغطى يدها بكفه.

قال: «إنني في غاية الأسف يا سيدة ويتاكر». تأثرتْ لويز كثيراً عندما رأت دموعاً في عيني ذلك الرجل المسكين.

قالت له: «لويز! قل لي لويز. وأنا أعرف... أعرف أنك آسف كثيراً». سارت لويز عائدة إلى بيتها. طال طريقها ساعات... هذا المشي صعوداً ثم نزولاً مع النهر (بل صار أكثر طولاً في هذه الحرارة)، لكنها لم تستطع العثور على طريقة أخرى لملء فراغ أيامها. ليس معنى هذا أنها كانت من غير شيء تفعله. كان هناك وكلاء عقاريون يجب الاتصال بهم، ومدارس لا بد من البحث عنها. سرير لا بد من نزع الأغطية عنه، وخزانة ملأى بالملابس لا بد من حزْمها في الحقائب. هناك أيضاً طفل في حاجة إلى من يرعاه.

غداً، ربما غداً، ستقوم بهذه الأشياء غداً؛ أما اليوم فإنها تمشي مع النهر وتفكر في ابنتها.

فعلت اليوم ما كانت تفعله كل يوم: بحثت في ذاكرتها العقيمة عن علامات لا بد أنها لم تنتبه إليها، عن شارات تحذير كانت عمياء عندما مرَّت بها. بحثت عن قصاصات، عن نُتف صغيرة، وعن لمحات بؤس في حياة طفلتها السعيدة. هذا لأن الحقيقة هي أنهم ما كانوا قلقين على كاتي أبداً. كانت كاتي لامعة، قديرة، متوازنة، ذات إرادة فولاذية.

سبحتْ في مرحلة المراهقة فاجتازتها كلها كما لو أن ذلك أمر عادي لا صعوبة فيه: إن كان في تلك الأيام شيء يجعل لويز تشعر بالحزن أحياناً فهو أن كاتي ما كانت تبدو في حاجة إلى أهلها على الإطلاق. ما كان هناك شيء يستطيع الوقوف في طريقها أو ثنْيها عن عزمها... لا واجباتها المدرسية، ولا ذلك التعلق الشديد من قبل أقرب صديقاتها، ولا حتى تفتحها السريع شبه المفاجئ، تفتُّح بداية جمالها الناضج. كانت لويز تتذكر بوضوح حاد ذلك الخجل المُهين الذي كانت تحسُّه عندما انتبهت إلى أن الرجال صاروا ينظرون إلى جسدها عندما كانت مراهقة؛ أما كاتي فلم يظهر عليها شيء من هذا. إنه زمن مختلف، هكذا كانت لويز تقول لنفسها... البنات مختلفات الآن.

لم يكن لويز وزوجها آليك يشعران بأي قلق فيما يتعلق بكاتي؛ كانا قلقين على جوش. حساسٌ دائماً، طفل قلق دائماً؛ لكن شيئاً تغير هذه السنة كأن لديه ما يقلقه حقاً: صار أكثر انطواءً، وأكثر انغلاقاً على نفسه، وبدا أن ذلك يتزايد كل يوم. كانا قلقَين من احتمال أن يكون في المدرسة زملاء يضايقونه ويعتدون عليه. وكان تراجع تقديره المدرسي يقلقهما أيضاً. كانت تقلقهما الظلال الداكنة تحت عينيه في الصباح.

الحقيقة لا بد أن تكون الحقيقة أن ابنتهما انزلقت من بين أيديهما فلم

يلاحظاها ولم يكونا هناك لكي يمسكا بها... كانا يراقبان ابنهما، ينتظران سقوطه. كان الإحساس بالذنب مثل حجر عالق في حلق لويز، وكانت تتوقع دائماً أن يخنقها، لكنه لم يخنقها، ولن يخنقها. كان عليها أن تستمر في التنفس... كان عليها أن تتنفس، وتتذكر.

كانت هادئة في الليلة السابقة. كانوا ثلاثة على العشاء فقط لأن جوش سينام في بيت صديقه هيوغو. عادة، ما كانوا يسمحون له بهذا أيام المدرسة، لكنهما وافقا بشكل استثنائي لأنهما قلقان عليه. اغتنما تلك الفرصة للحديث مع كاتي عن شقيقها. سألاها إن كانت تلاحظ كم صار جوش قلقاً في الآونة الأخيرة.

قالت لهما: «قد يكون قلقاً لأنه ذاهب إلى المدرسة الكبيرة في السنة القادمة». لكنها لم تكن تنظر إلى أبويها عندما قالت ذلك. ظلَّت عيناها مثبتتين على صحنها، وكان في صوتها اضطراب بسيط جداً.

كان آليك يقول: «لكنه سيكون بخير هناك، رغم ذلك. سيذهب نصف التلاميذ معه إلى تلك المدرسة. وسوف تكونين هناك، أنت أيضاً».

تذكرت لويز كيف شدَّت يد ابنتها بقوة أكبر قليلاً على كأس الماء عندما قال آليك هذه الكلمات. تذكَّرت أنها ابتلعت ريقها بصعوبة وأغمضت عينيها.

قامتا إلى جلي الأطباق معاً: لويز تغسل الأطباق وأدوات الطعام وكاتي تجففها، لأن آلة غسل الأطباق كانت معطَّلة. تذكُر لويز قولَها لكاتي إنها تستطيع أن تقوم بالعمل وحدها إذا كان لديها واجب بيتي من أجل المدرسة. لكن كاتي قالت لها: «لقد أنجزت الواجب المدرسي كله». وتذكرت لويز أيضاً أن كاتي، كلما تناولت من يدها طبقاً لتجففه، كانت تجعل أصابعها تمس أصابع أمها لحظةً أطول قليلاً مما يلزم.

إلّا أن لويز ما كانت قادرة الآن على الثقة بأنها تتذكر هذه الأشياء فعلاً... ما كانت لديها ثقة على الإطلاق. هل خفضت كاتي عينيها خلال الطعام، وهل نظرت إلى صحنها؟ هل شدت أصابعها على كأسها بقوة أكبر، وهل كانت تترك تلك اللمسة تطول حقاً؟ كان مستحيلاً عليها أن تكون واثقة من شيء الآن لأن ذكرياتها هذه بدت مفتوحة أمام الشكوك، أمام احتمال التفسير الخاطئ. ما كانت واثقة إن كان هذا عائداً إلى صدمة إدراك أن كل ما كانت متيقنة من معرفته كان غير مؤكد على الإطلاق، أو ما إذا كان عقلها قد لفَّه الضباب بفعل الأدوية التي ابتلعتها طيلة الأيام والأسابيع التي أعقبت موت كاتي. كانت تتناول أقراصاً وأقراصاً، أنواعاً مختلفة منها، وكانت كل جرعة تمنحها ساعات من الراحة الفارغة من أي شيء، لكنها تعود إلى الغوص في كوابيسها عندما تستيقظ. أدركتْ بعد فترة أن رعب إعادة اكتشاف غياب ابنتها مرة بعد مرة كان لا يستحق ساعات النسيان هذه.مكتبة الرمحي أحمد

هناك أمر أحسَّت أنها تستطيع أن تكون واثقة منه: عندما قالت لها كاتي تصبحين على خير، ابتسمت وقبلت أمها مثلما تفعل دائماً. احتضنتها، ليس بقوة أكبر من المعتادة ولا لزمن أكثر من المعتاد، ثم قالت: «تصبحين على خير». كيف استطاعت أن تفعل ذلك وهي تعرف ما كانت قد اعتزمت فعله؟

تشوش الدرب أمام لويز، وحجبت دموعها الرؤية عن عينيها فلم تلاحظ الشريط إلى أن اصطدمت به. | شرطة! يمنع اجتياز الشريط | . كانت قد اجتازت نصف ذلك الطريق الصاعد، وكانت قد اقتربت من القمة؛ وصار عليها الآن أن تنعطف انعطافة حادة إلى اليسار حتى لا تطأ الأرض التي كانت نيل آبوت آخر من وقف عليها.

مضت متثاقلة فأكملت الصعود ثم انحدرت على سفح التل. كانت

قدماها تؤلمانها، وصار شعرها دبقاً على رأسها لكثرة التعرق. بلغت منطقة الظل المريح حيث تجتاز الطريق أجمة كثيفة من الأشجار عند حافة البركة. وبعد أن سارت في ذلك الطريق ميلاً أو نحو ذلك، بلغتْ الجسر فصعدت الدرجات الحجرية المفضية إلى الطريق. كانت مجموعة صبايا تقترب منها من جهة اليسار فنظرت باحثة عن ابنتها بينهن، كما اعتادت أن تفعل دائماً! نظرت عيناها باحثتين عن رأس ابنتها بشعره البني اللامع، وتوقعت أذنها سماع ضحكتها المجلجلة.

انكسر قلب لويز من جديد.

راحت تنظر إلى الفتيات. كانت كل واحدة منهن تلفُّ كتفي رفيقتها بذراعها. سرن متعلقات إحداهن بالأخرى... كتلة متداخلة من أجساد ناعمة. رأت لويز أن لينا آبوت كانت في مركز هذه المجموعة. لينا التي كانت شديدة الانعزال خلال الشهور القليلة الماضية، حظيت الآن بلحظة الشهرة وصارت محطَّ الاهتمام.

هي أيضاً، سينظر إليها الجميع بعيون متعاطفة، وسيشفقون عليها، ثم ينبذونها قبل مُضي وقت طويل.

استدارت لويز مبتعدة عن الفتيات وسارت في الدرب الصاعدة صوب بيتها. تهدَّل كتفاها وسقطت ذقنها إلى صدرها وأملت في أن تتمكن من الانسلال من غير أن يلاحظها أحد، لأن النظر إلى لينا آبوت كان شيئاً فظيعاً، كان يستدعي صوراً مخيفة في عقل لويز. لكن الفتاة رأتها فصاحت تناديها: «لويز! يا سيدة ويتاكر! انتظري من فضلك». حاولت لويز أن تسير بخطى أكثر سرعة، لكن ساقيها كانتا ثقيلين، وكان قلبها خائراً مثل بالون عتيق؛ ثم إن لينا صبية قوية نشيطة.

«يا سيدة ويتاكر، أريد أن أكلمك».

«ليس الآن يا لينا. إنني آسفة».

وضعت لينا يدها على ذراع لويز، لكن لويز أبعدت ذراعها ولم تستطع النظر إليها... «إنني في غاية الأسف. لا أستطيع الحديث معك الآن».

كانت لويز قد صارت وحشاً، كائناً خاوياً لا يستطيع أن يُريح نفس طفلة فقدت أمها، بل صارت أسوأ من هذا، أسوأ من هذا بكثير، لم تعد قادرة على النظر إلى هذه الطفلة من غير أن تقول في نفسها: لماذا لم تكوني أنت؟ لماذا لم تكوني أنت في الماء يا لينا؟ لماذا لم تكوني أنت؟ لماذا كانت ابنتي، كاتي؟ ابنتي اللطيفة الرقيقة الكريمة المجتهدة الطموحة... أفضل منك في كل شيء. ما كان يجوز أن تغرق. أنتِ التي كان يجب أن تغرقي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بركة الغارقات

دانييل آبوت

(نص غير منشور)

مقدمة

عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذتُ أختي من الغرق.

لكن تلك لم تكن النقطة التي بدأ منها هذا كله، صدقوا أو لا تصدقوا!

هناك أشخاص ينجذبون إلى الماء، أشخاص لديهم حس أولي، خفي، بمكان جريانه. أظن أنني واحدة من هؤلاء الناس. أكثر ما أكون حيةً عندما أكون قرب الماء، عندما أكون قُرب هذا الماء. هذا هو المكان الذي تعلمت فيه السباحة، المكان الذي تعلمت فيه أن أسكُن الطبيعة وأن أسكُن جسدي بأكثر الطرق بهجة ومتعة.

أسبح في النهر كل يوم تقريباً منذ أن انتقلت إلى بيكفورد سنة 2008؛ أسبح في الشتاء وفي الصيف، مع ابنتي أحياناً، وحدي في أحيان أخرى. وقد صرت مسحورة بفكرة أن هذا المكان، مكان بهجتي وسعادتي، يمكن أن يكون مكاناً للذعر والخوف عند أشخاص آخرين.

عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذت أختي من الغرق، لكني صرت مسكونةً بهاجس بركة بيكفورد قبل ذلك بزمن طويل. كان أبي وأمي يجيدان رواية القصص، أمي خاصة. ومن فمها سمعت أول مرة عن قصة ليبي المأساوية، عن قصة الذبح المخيف عند كوخ آل وارد، عن القصة المرعبة التي تتحدث عن صبي كان ينظر إلى أمه عندما قفزت. جعلتُها تعيد رواية تلك القصص مرة بعد مرة، وأذكر انزعاج أبي («هذه القصص ليست للأطفال») واعتراض أمي («بل هي لهم، بالطبع! إنها تاريخ»).

لقد زرعتْ أمي بذرةً في نفسي؛ وقبل أن توشك أختي على الغرق في ذلك الماء بزمن طويل، قبل أن أحمل الكاميرا وأخط بالقلم على الورق بزمن طويل، كنت أمضي ساعات في أحلام اليقظة وفي تخيُّل كيف كان ذلك، كيف كان الإحساس بذلك، وكم كان الماء بارداً على ليبي في ذلك اليوم.

عندما صرتُ كبيرةً، صار اللغز الذي يسكنني لغز أسرتي نفسها، بالطبع. ليس ينبغي أن يكون ذلك لغزاً، لكنه لغز لأن أختي لا تكلمني منذ سنوات كثيرة رغم كل ما بذلته من جهود لبناء جسور بيننا. في بئر صمتها، أحاول أن أتخيل ما شدها إلى النهر في ظلمة الليل؛ لكني فشلت في تخيل ذلك، فشلت رغم مخيلتي الفريدة! ذلك لأن أختي لم تكن شخصية مأساوية أبداً، وما كانت صاحبة تصرفات جريئة. قد تكون خبيثة ماكرة مُحبة للانتقام، كالماء نفسه، لكني لا أزال تائهة. لست أدري إن كنت سأبقى تائهةً على الدوام.

في مجرى محاولتي فهْم نفسي وفهْم أسرتي والقصص التي يرويها كلٌّ منا للآخر، قررتُ أن أحاول فهم قصص بيكفورد كلها، وأن أدوّن اللحظات الأخيرة كلها، مثلما تخيلتها، اللحظات الأخيرة في حياة النساء اللواتي ذهبن إلى بركة الغارقات في بيكفورد.

إن لاسمها وزناً؛ لكن، ما هي ؟ منعرجٌ في النهر، هذا كل شيء. إنها منعطف. يمكنك العثور عليه إذا تتبعت النهر في التفافاته وتلوياته كلها، يكبر ويفيض، ويعطي الحياة ويأخذها أيضاً. النهر بارد نظيف أحياناً، راكد وسخ أحياناً؛ يتلوى عبر الغابة ثم يقطع تلال تشيفيوت الطريَّة كأنه من فولاذ، وعند ذلك، تماماً إلى الشمال من بيكفورد، يبطئ النهر سيره. إنه يستريح، برهة فقط، يستريح عند بركة الغارقات.

هذه بقعة شاعرية: أشجار البلوط تظلِّل الممر، وأشجار الزان والدلب متناثرة على سفوح التل، وهنالك ضفة رملية منحدرة عند الجهة الجنوبية. مكان للتجذيف، مكان يصلح لأخذ الأطفال إليه، بقعة من أجل نزهة رائعة في يوم عطلة مشمس.

لكن المظاهر خدّاعة، لأن هذا مكان مُميت. الماء، قاتم صقيل، يخفي ما هو جاثم تحته: أعشاب مائية تخنقك وتشدك صوب الأسفل، وصخور مسننة تقطع لحمك. وفي الأعلى ينتصب جرف اردوازي رمادي اللون: إنه تحدٍّ، إنه استفزاز.

هذا هو المكان الذي أخذ، على امتداد قرون، أرواح ليبي سيتون وميري مارش وآن وارد وجيني ثوماس ولورين سليتر وكاتي ويتاكر، وكثيرات غيرهن... كثيرات لا عدَّ لهن، ولا أسماء لهن ولا وجوه. أردت أن أسأل عن السبب، أردت أن أسأل كيف، وأردت أن أسأل ماذا تخبرنا حياتهن، ماذا تخبرنا مياتهن، ماذا تخبرنا عن أنفسنا. هناك من يفضلون عدم طرح هذه الأسئلة، من يفضلون إسكاتها وقمعها، من يفضلون الصمت.

لكنني لم أكن أبداً ممَّن يريدون الصمت.

في هذا العمل، في مذكراتي عن حياتي وعن بركة بيكفورد، أردت

أن أبدأ لا مع الغرق، بل مع السباحة. السبب هو أن الأمر كله يبدأ هنا: يبدأ مع سباحة الساحرات... مع امتحان الماء. هناك، في بركتي، في هذه البقعة الجميلة المسالمة التي لا تبعد أكثر من ميل عن موقع جلوسي الآن، هنا كان المكان الذي يأتون بهن إليه ويربطونهن ثم يلقون بهن في النهر... فيغرقن، أو يسبحن.

يقول البعض إن النساء كن يتركن شيئاً من نفوسهن في الماء، ويقول البعض إن فيه بعضاً من قوتهن... لأن النهر، منذ ذلك الوقت، يشد إلى ضفافه عاثرات الحظ، واليائسات، والتاعسات، والضائعات. يأتين هنا حتى يسبحن مع أخواتهن.

إيرين

بيكفورد... إنها مكان غريب ملعون! هي جميلة، تخلب الألباب في بعض أقسامها، لكنها غريبة. يحسُّ المرء أنها مكان معزول منفصل عما يحيط به. وبالطبع، يجب أن تقطع أميال حتى تبلغ أي مكان. عليك أن تقود السيارة ساعات حتى تصل إلى أي مكان متمدن. هذا إذا اعتبرنا مدينة نيوكاسل متمدنة... لست واثقةً من أنني أعتبرها كذلك. بيكفورد مكان غريب، مليء بأشخاص غريبين، وبتاريخ غريب كل الغرابة. وفي وسط هذا كله، ينساب النهر، وهو أغرب الأشياء على الإطلاق: يبدو لك أن مسارك ينتهي بالعودة إلى النهر دائماً، كيفما استدرت، وفي أي اتجاه ذهبت.

هناك أيضاً أمر غريب بعض الشيء فيما يتعلق بمفتش التحقيق. إنه شاب محلي، وهذا ما يجعلني أفترض أن تلك الغرابة يجب أن تكون أمراً متوقَّعاً. دار هذا في ذهني منذ أن رأيته أول مرة، منذ صباح الأمس عندما أخرجوا جثة نيل آبوت من النهر. كان واقفاً على ضفة النهر، يداه على وركيه، حانياً رأسه إلى الأسفل. كان يكلم شخصاً ما اتضح أنه يكلم

الخبير الطبي لكنه بدا من بعيد كأنه شخص يصلي. هذا ما ظننته أول الأمر... ظننته قساً. رجل نحيل طويل في ملابس سوداء، والماء الأسود مثل ستارة ممتدة، والجرف الاردوازي من خلفه، وعند قدميه امرأة، امرأة شاحبة اللون، ساكنة.

لم تكن ساكنة بالطبع، كانت ميتة. لكن وجهها ما كان مشوَّهاً، ما كان مخرباً. إذا لم تنظر إلى بقية جسمها، إلى أطرافها المكسورة أو إلى ظهرها المُعوَج، فسوف تظن أنها غرقت.

قدمت اسمي لذلك الرجل رغم أنني رأيت فيه شيئاً غريباً عيناه النديتان، ورجفة بسيطة في يديه يحاول إخفاءها بأن يفرك رسغه بكف يده الأخرى جعلني هذا أتذكر أبي في تلك الصباحات التي تلي ليالي السُّكر والغضب، عندما تكون مضطراً إلى خفض صوتك وإلى خفض رأسك أيضاً.

في حالتي أنا، كان خفض الرأس يبدو فكرة حسنة. لم آتِ إلى الشمال إلَّا منذ أقل من ثلاثة أسابيع بعد نقلي السريع من لندن نتيجة علاقة غرامية عاثرة قامت بيني وبين زميلةٍ لي. أقول صادقةً إنني ما كنت أريد شيئاً إلَّا أن أعمل على القضايا التي كانت معي وأنسى كل ما عدا ذلك من متاعب. وكنت أترقب تماماً أن يرموا لي الحالات المملة أولاً. وهكذا فوجئت عندما قرروا أن أعمل على قضية الوفاة المريبة هذه. امرأة عثر على جثتها في النهر رجلٌ خرج في نزهة مع كلبه. كانت ترتدي ملابسها كلها. وهذا يعني أنها لم تكن تسبح. قالها رئيس التحقيق بصراحة مباشرة. لقد قال لي: «من المؤكد تقريباً أنها قفزت. إنها في بركة الغارقات في بيكفورد».

كان ذلك أول سؤال طرحته على المحقق تاونسند: «أتظن أنها قفزت؟».

نظر إليّ لحظة؛ كان يتفحصني. ثم أشار إلى قمة الجرف وقال: «اصعدي هناك، وابحثي عن خبير الأدلة العلمية. انظري إن كانوا قد وجدوا شيئاً... أداة ما، أو آثار عراك، أو دم، أو سلاح. سيكون العثور على هاتفها بداية جيدة، لأننا لم نجده معها».

قلت: «هذا صحيح». سرت مبتعدة، وألقيت في سيري نظرة على المرأة. فكرت في أنها تبدو حزينة جداً، واضحة، غير متزينة.

قال تاونسند وقد رفع صوته قليلاً: «اسمها دانييل آبوت، وهي تعيش في المنطقة، إنها كاتبة ومصوِّرة ناجحة جداً ولها ابنة في الخامسة عشرة. وهكذا، أقول لك لا... إجابة عن سؤالك. لا أُرجِّح احتمال أنها قفزت».

ذهبنا معاً إلى قمة الجرف. يسير المرء في درب يبدأ عند ذلك الشاطئ الصغير على الضفة ويمتد إلى جانب البركة ثم ينعطف يميناً رغم وجود مجموعة أشجار كثيفة؛ وبعد ذلك يأتي صعودٌ شديد الانحدار حتى أعلى القمة. كان هذا الدرب موحلاً في بعض الأماكن. رأيت آثار انزلاق الأحذية الثقيلة ودورانها، ورأيت كيف كانت تلك الآثار تمحي آثار الأقدام التي قبلها. وفي القمة، ينعطف الدرب انعطافة حادة إلى اليسار، ويخرج من بين الأشجار فيؤدي إلى حافة الجرف مباشرة. اضطربت معدتي.

«يا إلهي!».

التفت تاونسند صوبي من فوق كتفه. بدا عليه شيء من الاستغراب: «هل تخافين المرتفعات؟».

أجبته: «هنالك سبب منطقي تماماً لأن أخشى القيام بخطوة خاطئة فأسقط إلى حتفي. يتوقع المرء أن يجد حاجزاً في الأعلى، أو شيئاً ما، ألا تظن هذا؟ ليس المكان آمناً أبداً!».

لم يجبني المفتش بل تابع السير. كان يسير بعزم وبخطوات خطيرة قريبة من حافة الجرف. سرت خلفه ضاغطةً نفسي على أطراف أغصان الشجيرات الصغيرة هناك حتى أتفادى النظر من فوق تلك الحافة شديدة الانحدار، النظر في اتجاه الماء، في الأسفل.

ما كان عند اختصاصي الأدلة العلمية شيء ذو قيمة يمكن اعتباره أخباراً طيبة. كان رجلاً شاحب الوجه، كثير الشعر، مثلما يبدو أمثاله دائماً.

قال رافعاً كتفيه: «لا دم، لا سلاح، ولا إشارة واضحة إلى حدوث عراك. بل لا يوجد أيضاً الكثير من الفضلات حديثة العهد. كاميرتها تالفة أيضاً. وبطاقة الذاكرة غير موجودة فيها».

«كاميرتها؟».

نظر كثير الشعر إلي: «هل تستطيعين تصديق هذا؟ لقد وضعت تلك المرأة كاميرا لها حسَّاس للحركة كجزء من المشروع الذي كانت تعمل عليه؟».

«لماذا؟».

رفع كتفيه: «حتى تصور الناس هنا، في الأعلى، لترى ما يفعلون! يتجول هنا بعض أصحاب الأطوار الغريبة أحياناً، أنت تدركين هذا... بسبب تاريخ هذا المكان كله. أو لعلها أرادت أن تسجل كاميرتها صورة أحد ما وهو يقفز...» قال هذا مكشِّراً.

«يا إلهي!... ثم قام أحدهم بتخريب الكاميرا؟ صحيح... هذا سيئ».

هزَّ الرجل رأسه.

تنهد تاونسند عاقداً ذراعيه على صدره: «نعم. لكن ليس من الضروري

أن يكون لهذا أي معنى. لقد تعرضت معداتها للتخريب من قبل. إن لمشروعها من يعارضونه على المستوى المحلي. والواقع أنني...» سار خطوتين مقترباً من حافة الجرف فأحسست برأسي يدور... «الحقيقة، الحقيقة أنني غير واثق حتى من أنها قد بدّلت الكاميرا بعد آخر مرة...» نظر من فوق الحافة... «هنالك كاميرا أخرى، أليس كذلك؟ إنها مثبتة في مكان ما في الأسفل، هل تفقَّدتم تلك الكاميرا؟».س

«نعم، إنها تبدو سليمة. سوف نأتي بها. لكن...».

«لكنها لن تبيِّن لنا شيئاً».

رفع كثير الشعر كتفيه من جديد وقال: «قد تكون فيها صور لها عندما بدأت تسلك الدرب في الأسفل، لكنها لن تخبرنا شيئاً عما حدث لها هنا، في الأعلى».

مرت أكثر من أربع وعشرين ساعة منذ ذلك الوقت، ولا يبدو أننا قد اقتربنا من اكتشاف ما حدث هناك حقاً. لم يُعثر على هاتف نيل آبوت؛ وهذا أمر غريب رغم أنه قد لا يكون شديد الغرابة. إذا كانت قد قفزت، فهنالك احتمال أن تكون قد رمته أولاً. أما إذا كانت قد سقطت، فربما لا يزال ذلك الهاتف في مكان ما في الماء... لعله غرق وغاص في الطين، أو لعل تيار الماء جرفه بعيداً. وبالطبع، إذا كان أحد قد دفعها، فمن المرجح أن يكون قد أخذ هاتفها منها قبل ذلك. لكن، بالنظر إلى انعدام أي دليل يشير إلى حدوث عراك فوق الجرف، فإنه لا يبدو مرجحاً أن هنالك من انتزع الهاتف منها.

ضعت في طريق عودتي بعد أن أخذت جولز (لا أقول جوليا، هذا واضح) للتعرف على الجثة في المستشفى. أنزلتها عند «بيت الطاحون» وظننت أنني سلكت اتجاه العودة إلى قسم الشرطة، لكنني وجدت نفسي

مخطئة: بعد أن عبرت الجسر، انعطفت قليلاً فوجدت نفسي أعود إلى النهر من جديد. مثلما قلت من قبل... تجده كيفما استدرت. كنت قد أخرجت هاتفي محاولةً معرفة المكان الذي يؤدي إليه هذا الطريق عندما رأيت مجموعة فتيات فوق الجسر. رأيت بينهن لينا التي كانت أطول من رفيقاتها بمقدار الرأس؛ انفصلتْ عنهن.

تركتُ السيارة ولحقت بها. كان هنالك شيء أريد سؤالها عنه، شيء ذكرتْه خالتها. لكنها بدأت جدالاً مع شخص آخر قبل أن أصل إليها... بدأت جدالاً مع امرأة لعلها في الأربعينيات.

رأيت لينا تمسك بذراعها، لكن المرأة شدت نفسها مبتعدة ورفعت يديها إلى وجهها كأنها خافت أن تضربها. وبعد ذلك انفصلتا فجأة: ذهبت لينا إلى اليسار، وتابعت المرأة سيرها صاعدة الطريق المنحدر. لحقتُ بلينا. رفضتْ أن توضح لي ما حدث. أصرت على أنه لا وجود لشيء غير سليم. كان أداؤها قوياً، واثقاً، لكن الدموع انحدرت على وجهها. عرضتُ عليها إيصالها إلى البيت، لكنها قالت لي أن أتركها.

هذا ما فعلتُه. عدت بالسيارة إلى قسم الشرطة وقدمت للمفتش تاونسند التقرير الرسمي لتعرُّف جولز آبوت إلى جثة أختها.

بالنظر إلى ملابسات الأمر كله، كانت مجريات عملية التعرف على الجثة غريبة فعلاً. قلت للمفتش: «لمْ تبكِ!». فخفض رأسه كأنه يقول: نعم، هذا شيء طبيعي. لكنني كنت مصرةً: «لم يكن الأمر طبيعياً! ليست هذه صدمة عادية. كان الأمر غريباً حقاً».

تململ في كرسيه. كان جالساً خلف مكتب في غرفة صغيرة في الجزء الخلفي من قسم الشرطة. بدا حجمه كبيراً على هذه الغرفة كأن رأسه سيضرب السقف إذا وقف. قال لي: «غريب، لماذا؟».

«يصعب الشرح، لكنها بدت كأنها تتكلم من غير أن تصدر صوتاً. لست أعني ذلك النوع من البكاء الذي لا صوت له. كان أمراً غريباً. كانت شفتاها تتحركان كما لو أنها تقول شيئاً، لا كما لو أنها تقول شيئاً غير محدد، بل كأنها تكلم شخصاً ما! كانت كأنها في حديث مع أحد ما».

«لكنك لم تستطيعي سماع شيء في واقع الأمر!».

«لم أسمع شيئاً».

ألقى نظرة على شاشة كمبيوتره المحمول المفتوح أمامه ثم نظر إلي من جديد: «أهذا كل ما في الأمر؟ هل قالت لك شيئاً؟ هل قالت لك أي شيء آخر، أي شيء يمكن أن يكون مفيداً؟».

«لقد سألتْ عن سِوار أختها. من الواضح أن نيل كان لديها سوار كان لأمهما فيما مضى. وكانت تضعه طيلة الوقت. أو، على الأقل، كانت تضعه دائماً قبل أن تتوقف جولز عن رؤيتها. كان هذا منذ سنين».

هز تاونسند رأسه. كان يفرك معصمه.

«لا وجود للسوار بين الأشياء التي كانت معها. لقد تحققتُ من هذا. كان في إصبعها خاتم... لكن لا وجود لأية حُلي أخرى».

ظل صامتاً فترة طويلة فظننت أن الحديث انتهى. كنت على وشك مغادرة الغرفة عندما قال لي فجأة: «عليك أن تسألي لينا عن السوار».

«كنت أعتزم هذا. لكنها لم تقبل أن تتكلم معي». أخبرته كيف رأيتها عند الجسر، وعما جرى هناك.

قال لي: «تلك المرأة. صفيها لي». وصفتها له: بداية الأربعينيات، ميالة إلى البدانة بعض الشيء، شعر داكن، رداء أحمر طويل رغم حرارة الطقس.

ظل تاونسند ينظر إليّ فترة طويلة.

«هل يعني لك هذا الوصف شيئاً؟».

قال وهو ينظر إلي كما لو أنني طفلة صغيرة لا تفقه شيئاً: «أوه، بالطبع. إنها لويز ويتاكر».

«ومَن هي؟».

تجهّم وجهه: «ألم تطّلعي على خلفيات القضية؟».

قلت: «لم أطّلع عليها، في الحقيقة». قلت ذلك بطريقة توحي بأن إحاطتي علماً بخلفيات المسألة شيءٌ يمكن اعتباره من مسؤوليته لأنه ابن المنطقة.

تنهَّد من جديد وبدأ ينقر على مفاتيح كمبيوتره: «عليك أن تسرعي في الاطلاع على هذه الأشياء كلها. كان يجب أن تصلكِ الملفات». كان ينقر على المفاتيح بعنف واضح كأنه يضرب مفاتيح آلة كاتبة لا مفاتيح جهاز iBook غالي الثمن... «وعليك أيضاً أن تقرأي مخطوط كتاب نيل آبوت». رفع رأسه ناظراً إلي، وتجهَّم وجهه من جديد... «إنه المشروع الذي كانت تعمل عليه! كانت تريد أن تجعله نوعاً من الكتب التي يراها المرء على الطاولات في غرف الاستقبال، هذا ما أظنه. صور وقصص عن بيكفورد».

«هل كان نوعاً من تاريخ محلي؟».

زفر بحدة: «شيء من هذا القبيل. إنه تفسير نيل آبوت للأحداث. تفسيرها لأحداث مختارة. إنه... تأملاتها المجنونة في تلك الأشياء. مثلما قلت لك، ليس هذا بالشيء الذي يعجب كثيراً من السكان المحليين. لكن لدينا نسخاً منه، نسخ مما كتبتْه حتى الآن. سوف تعطيك

إحدى الشرطيات المساعدات نسخة. اطلبيها من كالي بوتشان... ستجدينها في المكتب الذي في المقدمة. الفكرة هي أن إحدى الحالات التي كتبتْ عنها كانت حالة كاتي ويتاكر التي قتلت نفسها في حزيران/ يونيو. كانت كاتي صديقة قريبة من لينا آبوت. وكانت أمها، لويز التي رأيتِها اليوم مع لينا، صديقة لنيل فيما مضى. من الواضح أن خلافاً نشأ بينهما فيما يتعلق بكتاب نيل. ثم، عندما ماتت كاتي...».

قلت مقاطعةً: «ألقت عليها لويز باللائمة. تعتبرها مسؤولة عن موت ابنتها».

هز رأسه وقال: «نعم، إنها تعتبرها مسؤولة».

«هذا يعني أن عليّ أن أذهب وأتحدث معها، أن أذهب إلى لويز».

أجابني: «لا». ظلت عيناه معلقتين بشاشة الكمبيوتر... «سوف أفعل هذا أنا. إنني أعرفها. وقد كنت المفتش المسؤول عن التحقيق في موت ابنتها».

صمتَ صمتاً طويلاً آخر. لم يأذن لي بالانصراف. قلت له آخر الأمر: «هل كانت هنالك أية شكوك في أن أحداً آخر كانت له علاقة بموت كاتي؟».

هز رأسه نفياً: «لا، لا شيء. لم يظهر لنا أي سبب واضح. لكنك تعرفين تماماً أنه غالباً ما ينعدم وجود أسباب واضحة. لا توجد عادة أسباب ذات معنى في نظر الناس الباقين. لكنها تركت رسالة وداع صغيرة». مرَّ بيديه على عينيه... «كانت تلك مأساة حقيقية».

قلت: «هذا يعني أن امرأتين ماتتا في ذلك النهر خلال هذه السنة؟ امرأتان تعرف كل منهما الأخرى، كانت هنالك صلة بينهما...» لم يقل المفتش شيئاً، ولم ينظر إليّ. لم أكن واثقةً من أنه مُصغٍ إلي.

سألته: «ما عدد اللواتي متن هناك؟ أقصد العدد الإجمالي!».

سألني وهو يهز رأسه مرة أخرى: «منذ متى؟ كم تريدين العودة في الماضي؟».

مثلما قلت من قبل! شيء غريب جداً.

جولز

طوال عمري، كنت أخافك قليلاً. تعرفين هذا. كنت تستمتعين بخوفي، تستمتعين بالسلطة التي يمنحك إياها خوفي. ولهذا أظن، على الرغم من ملابسات الوضع الآن، أنك كنت ستستمتعين بما يحدث الآن.

طلبوا مني التعرف إلى الجثة. تطوعتْ لينا لهذا الأمر، لكنهم رفضوا. وهكذا كان عليّ أن أوافق. ما كان هنالك أحد آخر. كان عليَّ أن أراك رغم أنني ما كنت راغبة في ذلك. كان عليَّ أن أراك لأن هذا أحسن من أن أتخيلك: دائماً، يكون الرعب الذي يستحضره العقل أسوأ من حقيقة الأمر بكثير. ثم إنني كنت في حاجة إلى رؤيتك. لأننا نعرف، أنا وأنت، أنني لن أصدق الأمر ولن أكون قادرة على الاقتناع بأنك رحلت فعلاً إلّا إذا رأيتك. كنتِ راقدة على سرير ضيق ذي عجلات في غرفة باردة. غطى جسدك شرشف أخضر باهت. كان في تلك الغرفة شاب زَريّ المَلبس. هز رأسه محيياً في اتجاهي وفي اتجاه الشرطية المحققة، فأجابته بهزة من رأسها. حبستُ أنفاسي عندما مد يده ليزيح الشرشف عنك. لا أستطيع تذكر لحظةٍ خفت فيها إلى هذا الحد منذ كنت طفلة صغيرة.

كنت أنتظر أن تقفزي عليَّ.

لم تقفزي! كنت ساكنة، وكنت جميلة. دائماً، كان هنالك الكثير في

وجهك... الكثير من التعبير، الكثير من الفرحة أو من السُّم. لا يزال ذلك كله هناك، لا تزال آثاره موجودة هناك. أنت، لا تزالين أنت، لا تزالين كاملة... ثم صدمتني تلك الفكرة فجأة: لقد قفزتِ!

أنت، قفزتِ؟

أنت، قفزتِ؟

تلك الكلمة التي كانت تبدو كلمة خاطئة في فمك. لستِ من اللواتي يقفزن. لم تكوني أبداً واحدة منهن. لم تكن تلك طريقتك في فعل ذلك. أنتِ التي قلت لي هذا. ليس الجرف مرتفعاً إلى الحد الكافي. هذا ما قلتيه. لا يتجاوز الارتفاع خمسة وخمسين متراً من قمة الجرف حتى سطح الماء... يمكن أن ينجو الإنسان من هذه السقطة. هذا ما قلتيه... إن كنت تعنين ذلك... إن كنت تعنين ذلك حقاً... قلت إن عليك أن تكوني واثقة من كل شيء. يجب أن يكون الرأس إلى الأسفل عند القفز. إن كنت تعنين ما قلتيه... فإنك لن تقفزي هكذا... ستقفزين مثلما يفعل الغطاس، الرأس أولاً.

قلتِ لي أيضاً... إن لم يكن المرء يقصد ذلك حقاً، فلماذا يفعله؟ لا يجب أن يكون المرء سائحاً. لا أحد يحب السائحين.

يمكن أن ينجو الناس من هذه السقطة، لكن هذا لا يعني أنهم ينجون بالتأكيد. ها أنت هنا، بعد كل شيء... لم تقفزي مثلما يقفز الغطّاس. قفزت بقدميك أولاً، وها هي أنت: «ساقاك مكسورتان، وظهرك مكسور، وأنت محطمة! ما معنى هذا يا نيل؟ هل يعني أن أعصابك خانتك؟ (لستِ من تخونها أعصابها أبداً). ألم تستطيعي احتمال الأمر، احتمال فكرة أن تقفزي برأسك أولاً، أن تفسدي جمال وجهك؟ (كنت معجبة بجمال وجهك دائماً). لكن هذا لا يبدو لي منطقياً. لا يشبهك أن تفعلي شيئاً قلت إنك لن تفعليه. لا يشبهك أن تفعلي شيئاً لا يشبهك.

(قالت لينا إن لا شيء غامضاً هنا... لكن، ماذا تعرف لينا؟) أمسكتُ بيدك فبدت غريبة في يدي، لا لأنها كانت باردة فقط، بل لأنني لم أعرف شكلها، لم أعرف الإحساس بها. متى أمسكت يدك آخر مرة؟ أظن أنك مددت يدك إلي في جنازة أمِّنا! وأذكر أنني استدرت مبتعدة عنك، استدرت إلى أبي. أذكر النظرة على وجهك (ماذا كنت تتوقعين؟) صار قلبي خشبياً في صدري. تباطأ نبضه حتى صار كأنه نقرات طبل جنائزي.

سمعت صوتاً: «إنني آسفة، لكن لا يجوز أن تلمسيها».

ضوء المصباح الذي يصدر طنيناً فوق رأسي، المصباح الذي ينير جلدك... رمادي شاحب على ذلك السطح الفولاذي الذي تحتك. وضعت إبهامي على جبهتك ومررت بإصبعي على خدك.

قالت المحقِّقة مورغان التي كانت واقفة خلفي تماماً: «أرجوك! لا تلمسيها».

كنت أسمع صوت تنفُّسها، تنفسٌ بطيءٌ منتظمٌ، صوته أعلى من أزيز المصابيح.

سألتها: «أين أشياؤها؟ الثياب التي كانت عليها؛ أين حُليّها؟»

قالت المفتشة مورغان: «سوف نعيدها إليك بعد أن يفحصها خبراء الطب الشرعي».

سألتها: «وماذا عن السوار؟».

هزّت رأسها: «لست أدري! لكننا سنعيد كل ما كان معها».

قلت بصوت هادئ وأنا أنظر إلى نيل: «يجب أن يكون هناك سوار. سوار فضي له مشبك من العقيق. كان السوار لأمنا، وهو يحمل الأحرف الأولى من اسمها... كان اسمها ساره جين. كانت تضع السوار طيلة

الوقت. كانت أمنا تضعه أيضاً. ثم صرت تضعينه أنت». كانت المحققة تنظر إليَّ بدهشة... «أعني أنها هي التي كانت تضعه. أعني أن نيل كانت تضعه».

نظرت إليك من جديد، إلى معصم يدك الرقيق، إلى المكان الذي كان فيه مشبك العقيق مستقراً فوق عروق يدك الزرقاء. أردت أن ألمسك من جديد، أن أحسَّ جلدك. أحسست بأنني واثقة من قدرتي على إيقاظك. همست باسمك وانتظرت أن تتحركي، انتظرت أن تتفتح عيناك وأن تتابعا حركتي في الغرفة. ظننت... ربما... أن عليَّ أن أقبّلك كأنك تلك الجميلة النائمة في الحكاية... كأن تلك الحيلة يمكن أن تنجح. جعلني هذا أبتسم، لأن هذه الفكرة ما كانت لتعجبك. لم تكوني الأميرة أبداً، لم تكوني أبداً جميلةً سلبية تنتظر الأمير... كنتِ شيئاً آخر. كنت تقفين في صف الظلمة، في صف زوجة الأب الشريرة، في صف الجنيَّة الشريرة، الساحرة.

أحسستُ بعيني المحققة تنظران إلي فشددت شفتي حتى أمنع ابتسامتي من الظهور. كانت عيناي جافتين، وكان حلقي خاوياً. وعندما همستُ لك بدا لي أنه ما كان هنالك صوت أبداً.

«ما الذي تريدين قوْله لي؟».

لينا

كان يجب أن أكون أنا! إنني أقرب أقاربها، أنا أسرتها. أنا من أحبَّتها. كان يجب أن أكون أنا. لكنهم لم يسمحوا لي بالذهاب. تُركت وحيدة هنا من غير شيء أفعله غير الجلوس في بيت خاوٍ، غير التدخين إلى أن انتهت سجائري. ذهبت إلى دكان القرية حتى أشتري بعض السجائر (إن المرأة السمينة هناك تطلب البطاقة الشخصية للتحقق من العمر أولاً،

لكني كنت أعرف أنها لن تطلبها اليوم)، كنت على وشك المغادرة عندما رأيت تلك العاهرات من المدرسة... تانيا وإيلي والشلة كلها. كنّ آتياتٍ في الطريق، في اتجاهي.

أحسستُ أنني على وشك الغثيان فأطرقت برأسي واستدرت مبتعدة عنهن ومشيت بأسرع ما استطعت. لكنهن رأينني فنادينني بصوت مرتفع، ثم بدأن الجري للحاق بي. لم أكن أعرف ماذا سيفعلن. عندما لحقن بي، بدأت كل واحدة منهن تعانقني وتقول إنها حزينة كثيراً؛ بل بلغت السفاهة بإيلي حد البكاء وذرف بعض الدموع الكاذبة القذرة. تركتهن يحتضنني، وتركت أذرعهن تلتف حولي وتركت أيديهن تمسِّد على شعري. في الحقيقة، شيء مريح أن يكون لدى المرء من يلمسه هكذا.

مشينا معاً فوق الجسر. كن يتحدثن عن الذهاب إلى كوخ آل وارد لتناول بعض «الأقراص»، وللسباحة أيضاً. قالت تانيا: «سيكون ذلك كأنه وداع، كأنه احتفال». العاهرة الغبية! هل ظنت حقاً أنني أشعر برغبة في أن أفقد عقلي وأسبح في ذلك الماء اليوم؟ كنت أحاول التفكير فيما يمكن أن أقوله، لكني رأيت لويز عند ذلك... كانت تلك مفاجأة سارة: صرت قادرة على السير مبتعدة عنهن من غير أن أقول شيئاً. وما كن يستطعن أن يفعلن شيئاً.

في البداية، ظننت أنها لم تسمعني. لكنني لحقت بها فرأيت أنها تبكي وأنها لا تريد أن تكون قريبة مني. أمسكت بذراعها. لست أعرف السبب، لكني أردت منها ألا تذهب وتتركني، ألا تتركني هناك مع تلك الطيور الجارحة، مع تلك العاهرات اللواتي يراقبنني ويدّعين الحزن لكنهن يجدن متعة في هذه الدراما القذرة. كانت تحاول سحب ذراعها، كانت تفك أصابعي عنها، إصبعاً إصبعاً، وكانت تقول لي: «إنني آسفة يا لينا. لا أستطيع الحديث معك الآن، لا أستطيع الحديث معك».

أردت أن أقول شيئاً لها، أدرت أن أقول لها: أنت خسرت ابنتك. وأنا خسرت أمي. ألا يجعلنا هذا متعادلتين؟ ألا تستطيعين مسامحتي الآن؟

ورغم ذلك، لم أقل شيئاً. ثم جاءت تلك الشرطية التي لا طعم لها وحاولت أن تفهم سبب المجادلة بيننا. وهكذا قلت لها ما تستحقه، ثم سرت صوب البيت وحدي.

ظننت أن جوليا ستكون قد عادت في ذلك الوقت وأنني سأجدها في البيت عندما أصل. كم من الوقت يمكن أن يستغرق هذا... الذهاب إلى المشرحة، والنظر إليهم وهم يزيحون الشرشف جانباً، ثم القول، نعم، نعم، هذه هي؟

بالتأكيد... لن تكون جوليا راغبة في الجلوس معها والإمساك بيدها ومواساتها مثلما كنت سأفعل أنا.

كان يجب أن أكون أنا، لكنهم لم يسمحوا لي بالذهاب.

رقدتُ على سريري صامتة. لا أستطيع الإصغاء حتى إلى الموسيقى لأنني أحسُّ الآن أن لكل شيء معنى آخر ما كنت أراه من قبل... من المؤلم كثيراً أن أواجه ذلك الآن. لا أريد البكاء طيلة الوقت، لأن البكاء يجعل صدري يؤلمني ويجعل حلقي يؤلمني؛ والأسوأ من هذا أنه ما من أحد يأتي لمساعدتي. ما عاد هنالك أحد يساعدني. وهكذا استلقيتُ على السرير ودخَّنت سيجارة بعد سيجارة إلى أن سمعت صوت فتحْ باب البيت.

لم تنادني! لم تفعل شيئاً من ذلك، بل سمعت صوتها في المطبخ تفتح الخزائن وتغلقها وتقرقع بالأوعية والمقالي. انتظرت أن تأتي إليَّ، لكني ضجرت آخر الأمر وأصابني القرف لكثرة التدخين... وكنت أيضاً جائعة، كنت جائعة حقاً! وهكذا نزلت إلى الأسفل.

كانت واقفة عند الموقد تحرك شيئاً، وعندما رأتني هناك قفزت في مكانها. لكن ذلك لم يكن مثلما يحدث عادة عندما يفزعك وجود أحد ما، ثم تضحك... ظل الخوف في وجهها.

قالت لي: «لينا. هل أنت على ما يرام؟».

سألتها: «هل رأيتها؟».

أومأت برأسها ثم نظرت إلى الأرض: «كانت تبدو... كما هي».

قلت: «هذا جيد. هذا يسعدني. لا أحب التفكير في...».

«لا. لا. ثم إنها لم تكن... محطَّمة» استدارت صوب الموقد من جديد. سألتني: «هل تحبين سباغيتي بولونيز؟ إنني أحضّر الآن... سباغيتي بولونيز».

أحب سباغيتي بولونيز، لكني لم أكن راغبة في قوْل هذا لها. وهكذا، لم أجبها بشيء. سألتها بدلاً من ذلك: «لماذا كذبتِ على الشرطة؟».

استدارت بحركة حادة. كانت الملعقة الخشبية في يدها تنقط صلصة حمراء على الأرض.

«ماذا تقصدين يا لينا؟ أنا لم أكذب...».

«بل كذبت عليهم. قلت لهم إنك لم تتحدثي مع أمي أبداً، وإن التواصل بينكما كان منقطعاً منذ سنين».

«نعم، كان منقطعاً». اصبغ وجهها ورقبتها بلون أحمر متوهِّج، واعوجّ فمها إلى الأسفل، مثل فم مهرج... رأيت ذلك، رأيت القبح الذي حدثتني أمي عنه... «لم يكن لي أي تواصل ذي معنى مع نيل منذ...».

«كانت تتصل بك هاتفياً طيلة الوقت».

«ليس طيلة الوقت! كانت تتصل أحياناً. ثم إنني لم أكن أتكلم معها».

«صحيح، كانت تقول لي إنك ترفضين الكلام معها مهما أصرت على ذلك».

«الأمر أكثر تعقيداً من هذا يا لينا».

قلت بحدة: «كيف هو معقد؟ كيف؟».

أشاحت بوجهها عني... قلت لها: «إنها غلطتك، وأنت تعرفين هذا».

وضعت المعلقة من يدها، ثم سارت خطوتين في اتجاهي. كانت يداها على وركيها، وارتسم على وجهها تعبير اهتمام شديد كأنها مُعلمة موشكة على إخباري بأن أملها قد خاب فيّ كثيراً فيما يتعلق بسلوكي في المدرسة.

سألتني: «ماذا تعنين؟ ما غلطتي؟».

«كانت تحاول الاتصال بك. وكانت تريد الكلام معك. كانت في حاجة إلى...».

«لم تكن في حاجة إلي... لم تكن نيل في حياتها محتاجة إليَّ».

قلت: «لقد كانت تعيسة! ألا تبالين بالأمر أبداً؟».

تراجعتْ خطوة إلى الخلف. مسحت وجهها بكفها كما لو أنني قد بصقت عليها: «لماذا كانت تعيسة؟... لم تقل أبداً إنها كانت تعيسة. لم تقلُ لي أبداً إنها كانت تعيسة».

«وماذا كنت ستفعلين إذا قالت لك ذلك؟ لا شيء! ما كنت لتفعلي شيئاً... مثلما كان الحال دائماً. مثلما حدث عندما ماتت أمكما فكنت فظيعة معها، أو عندما دعتك إلى المجيء عندما انتقلنا إلى هنا، أو عندما طلبت منك أن تأتِ تلك المرة لحضور عيد ميلادي، لكنك لم تردي

عليها. كنت تتجاهلينها فحسب، تتجاهلينها كأنها غير موجودة. كنت تفعلين هذا رغم معرفتك بأن ليس لها أحد غيرك، ورغم ذلك...».

قالت جوليا: «إن لديها ابنتها، أنت. وما كنت أظن أبداً أنها تعيسة، أنا...»

«نعم، كانت تعيسة. بل إنها لم تعد تسبح على الإطلاق».

وقفت جوليا ساكنة تماماً مديرة رأسها صوب النافذة كما لو أنها تصغي إلى شيء ما. سألتني: «ماذا؟» لكنها لم تكن تنظر إليَّ. كان تقول ذلك كأنها تنظر إلى شخص ما، إلى شخص آخر، أو إلى خيالها في النافذة... «ماذا قلت؟».

«توقفتُ عن السباحة. أتذكر كيف كانت تذهب، طيلة حياتي، إلى البركة أو إلى النهر، تذهب كل يوم. كان هذا أهم شيء لديها. كانت سبّاحة. في كل يوم، حتى في الشتاء، في البرد الملعون عندما يكون على المرء أن يكسر الجليد على سطح الماء. ثم توقفت. هكذا فقط، توقفت. كانت تعيسة إلى هذا الحد».

ظلَّت برهة من غير أن تقول شيئاً، ظلَّت واقفة هناك محدِّقة عبر النافذة كما لو أنها تبحث عن أحد ما... «هل تعرفين... يا لينا، هل تظنين أنها سببت إزعاجاً لأحد ما؟ أو أنها كانت قلقة من أحد ما، أو أنها...؟».

هززت رأسي نفياً: «لا. كانت ستخبرني بهذا». لو كان الأمر هكذا لحذَّرتني.

سألتني جوليا: «هل تظنين أنها كانت ستخبرك؟ أقول هذا لأنك تعرفين نيل... تعرفين أمك... كانت لها طريقتها الخاصة، أليس كذلك؟ أعني أنها كانت تعرف كيف تدخل تحت جلد الإنسان، كيف تجعله يغضب حتى يفقد عقله...».

قلتُ بحدة: «لا، لم تكن هكذا!» قلت هذا رغم أن كلامها صحيح... صحيح أن أمي كانت تفعل هذا أحياناً، لكنها كانت تفعله مع الناس الأغبياء فقط، مع الناس الذين لا يفهمونها... «لم تكوني تعرفينها جيداً، لم تكوني تفهمينها. أنت مجرد عاهرة تشعر بالغيرة... هكذا كنت في صغرك، وهكذا أنت الآن. يا إلهي! لا معنى للحديث معك».

خرجتُ من البيت على الرغم من شدَّة جوعي. أفضّل الجوع على الجلوس والأكل معها... سيجعلني هذا أحسُّ بأنني خائنة. ظللت أفكر بأمي جالسة هناك تتحدث معها بالهاتف فلا يجيبها غير الصمت. العاهرة الباردة. أزعجني هذا الأمر ذات مرة فقلت لأمي: لماذا لا تكفي عن هذا قليلاً؟ انس أمرها؟ من الواضح أنها لا تريد أية صلة معك. قالت أمي: إنها أختي؛ ليس لديَّ غيرها، إنها أسرتي كلها. قلت: «وماذا عني أنا، ألست من أسرتك؟» عند ذلك ضحكت أمي وقالت: «أنت لست من أسرتي. أنت أكثر من ذلك. أنت جزء مني». لقد ذهب جزء مني الآن، ولم يسمحوا لي برؤيتها. لم يسمحوا لي بالشدِّ على يدها أو بتقبيلها قُبلة الوداع أو بالقول لها كم كنت آسفة.

جولز

لم أكن أتابع كلامها. لم أكن راغبة حقاً في سماع ما قالته لينا. لم أكن أعرف ما أريد. وهكذا، وقفت هناك، فقط، وقفت عند درجات البيت وكفّاي يمسحان أعلى ذراعي، وعيناي تعتادان شيئاً فشيئاً ظلمة الغسق المتزايدة.

كنت أعرف ما لا أريده: لم أكن أريد مواساتها، ولم أكن أريد أن أسمع المزيد. غلطتي؟ كيف يمكن أن تكون غلطتي أنا؟ حتى إن كنتِ تعيسة، فأنت لم تخبريني بشيء. لو قلت لي ذلك لأصغيت إليك. أما في

رأسي، فأنت الآن تضحكين. اضحكي مني... لا بأس! لكن يا نيل لو قلت لي إنك توقفت عن السباحة لفهمت، لعرفت أن هنالك شيئاً ليس على ما يرام. كانت السباحة أمراً ضرورياً لصحتك العقلية... هذا ما كنت تقولينه لي... من غير السباحة، ستنهارين. ما كان هنالك شيء يستطيع أن يجعلك تظلين خارج الماء... مثلما ما كان هنالك شيء يستطيع شدِّي إلى الماء.

إلّا أن شيئاً ما فعل ذلك وجعلك تكفّين عن السباحة. لا بد أن شيئاً ما تمكّن من ذلك.

أحسست فجأة بجوع شديد، جوعٍ يلح على إشباعه، بطريقة ما. عدت إلى الداخل وسكبت لنفسي صحناً من سباغيتي بولونيز، ثم سكبت صحناً آخر، ثم صحناً ثالثاً. أكلت، وأكلت وأكلت، ثم قرفت من نفسي. صعدت إلى الأعلى.

جثوت على ركبتي في الحمام، ولم أشعل الضوء. هذه عادة قديمة تركتُها منذ زمن بعيد، لكنها قديمة إلى حد جعلني أشعر بالراحة عندما فعلت ذلك الآن. جثوت في الظلام، وكانت عروق وجهي مشدودة متوترة حتى الانفجار. دمعت عيناي عندما تقيأت. لم يبق في داخلي شيء، هكذا أحسست، فوقفت وسكبت الماء في المرحاض، ثم غسلت وجهي ببعض الماء أيضاً. تجنَّبت النظر إلى عيني في المرآة، جعلتهما تقعان على انعكاس صورة حوض الحمام من خلفي.

لم أجلس في ماء يغمرني منذ عشرين عاماً. ظللت سنوات كثيرة بعد أن كدت أغرق تلك المرة... ظللت أجد حتى الاغتسال جيداً أمراً في غاية الصعوبة. وعندما بدأت الرائحة تفوح مني، كان على أمي تجبرني على الوقوف تحت «الدوش»، كانت تمسكني حتى أظل واقفة هناك.

أغمضت عيني ورششت بعض الماء على وجهي. سمعتُ سيارة تتباطأ حركتها في الزقاق في الخارج فازداد نبض قلبي كثيراً، ثم تراجع من جديد عندما تابعت السيارة طريقها. قلت بصوت مرتفع: «لا أحد قادم. لا شيء يدعو إلى الخوف».

لم تعد لينا بعد، لكني ما كنت أعرف أين يمكن أن أبحث عنها في هذه البلدة، التي هي مألوفة وغريبة في الوقت نفسه. ذهبت إلى الفراش لكنّني لم أنم. أرى وجهكِ كلما أغمضت عيني، أراه أزرقَ شاحباً... شفتاك قرمزيتان. في خيالي، تنشدُّ هاتان الشفتان فوق لثّتيك، وتبتسمين، رغم أن فمك مليء دماً.

«كفي عن هذا يا نيل.... «فقط، كفي عن هذا». كنت أكلمُّ نفسي كأنني امرأة مجنونة.

أصغيت لأستمع إلى إجابتك فما أجابني غير الصمت؛ كان صمتاً يكسره صوت الماء، صوت البيت يتحرك، يهتز ويَصُرُّ مع اندفاع النهر إلى جانبه. وفي الظلام، بحثت عن هاتفي على الطاولة إلى جانب السرير. فتحت البريد الصوتي. قال لي الصوت الإلكتروني: «ليست لديك رسائل جديدة. ولديك سبع رسائل محفوظة».

وصلت آخر واحدة من هذه الرسائل يوم الثلاثاء الماضي، قبل موتك بأقل من أسبوع؛ أتت في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

جوليا، هذه أنا. أريد أن تتصلي بي. أرجوك يا جوليا. الأمر مهم. أريد أن تتصلي بي بأسرع ما تستطيعين... اتفقنا؟ أنا... الأمر مهم. اتفقنا؟ إلى اللقاء.

ضغطت المفتاح رقم واحد لتكرار الرسالة. ضغطته، ضغطته من جديد. جلست أستمع إلى صوتك، لا إلى البُحّة فيه فقط، ولا إلى اللكنة

الساحلية البسيطة المزعجة في صوتك... جلست أصغي إليك أنت. ما الذي كنت تحاولين قوْله لي؟

تركتِ لي هذه الرسالة بعد منتصف الليل. استمعتُ إليها في ساعات الصباح الأولى عندما انقلبت في سريري فرأيت المصباح الصغير يومض في هاتفي. استمعت إلى كلماتك الثلاث الأولى، «جوليا، هذه أنا»، ثم أغلقتُ الهاتف. كنت متعبة، وكنت في حالة نفسية سيئة، وما كنت أريد سماع صوتك. استمعت إلى بقية الرسالة فيما بعد. لم أجدها غريبة، ولم أجد فيها شيئاً خاصّاً يثير الانتباه. إنها كمثل تلك الأشياء التي تفعلينها دائماً: تتركين رسالة مبهمة حتى تثيري اهتمامي. كنت تفعلين هذا منذ سنين، ثم تتصلين بعد ذلك، بعد شهر أو شهرين من ذلك، فأعرف أن لا أزمة هناك، لا شيء غامضاً، لا حدث كبيراً. كنت تحاولين فقط أن تلفتي انتباهي. كانت تلك لعبة!

ألم تكن لعبة هذه المرة أيضاً؟

استمعتُ إلى الرسالة، كررتُها، ثم كررتها. الآن، عندما صرت أسمعها حقاً، لم أستطع تصديق أنني لم ألاحظ قبل الآن تقطع الأنفاس الطفيف في كلامك، لم ألاحظ في كلامك تلك الرقة التي لا تشبهك، ذلك التردد، ذلك التلعثم.

لقد كنت خائفة!

ممن كنت تخافين؟ مم كنت خائفة؟ الناس في القرية، أولئك الذين يتوقفون ويحدقون لكنهم لا يعرضون أي مواساة؟ أولئك الذين لا يحضِرون طعاماً ولا يرسلون زهوراً؟ لا يبدو لي، يا نيل، أن الناس غير مهتمين بك إلى هذا الحد. لعلك كنت خائفة من ابنتك الغريبة الباردة الغاضبة، ابنتك التي لا تبكيك الآن، التي تصرُّ على أنك قتلت نفسك، هكذا... من غير دليل، من غير سبب.

نهضتُ من السرير وتسللت إلى الغرفة المجاورة، إلى غرفتك أنتِ. جاءني فجأة إحساس طفولي. كنت أفعل هذا دائماً... أتسلل إلى الغرفة المجاورة... عندما كان أبي وأمي ينامان هنا، عندما كنت أخاف في الليل، عندما تأتيني كوابيس بعد الإصغاء إلى واحدة من قصصك. فتحت الباب ودخلت الغرفة.

كانت الغرفة مكتومة الهواء، دافئة. جعلني مرأى سريرك غير المرتب أبكي فجأة.

جلست على حافة السرير، وحملت وسادتك. وسادة ناعمة قماشها رمادي طري... حافتها حمراء قانية. احتضنت تلك الوسادة. كانت شديدة الوضوح في ذهني ذكرانا، نحن الاثنتين، ندخل هذه الغرفة يوم عيد ميلاد أمي. أعددنا لها فطورها لأنها كانت مريضة ذلك الوقت، وكنا نحاول أن نبذل جهدنا، نحاول أن نتدبر أمرنا. ما كانت تلك الهدنات بيننا لتستمر طويلاً: كنت تحاولين إبقائي دائرةً من حولك، وما كان انتباهك يُفلتني أبداً. كنت أعود لأكون إلى جانب أمي فتنظرين إليّ مضيِّقةً عينيك... ازدراء وإحساس بالجرح في وقت واحد.

ما كنت أفهمك! لكن، إن كنت أرى فيك بعض الغرابة في ذلك الوقت، فأنت غريبة تماماً الآن. أنا جالسة الآن، هنا، في غرفتك، بين أشيائك؛ لكن البيت هو ما ألِفتُه، أما أنت فلا. إنني لا أعرفك منذ كنا مراهقتين، منذ كنتِ في السابعة عشر وكنتُ في الثالثة عشر... منذ تلك الليلة التي باعدت فيها الظروف بيننا مثل فأس تشق قطعة حطب فتفتح هوة واسعة عميقة.

ثم لم تمضِ إلّا ست سنوات بعد ذلك قبل أن تهوي بتلك الفأس من جديد فتكتمل القطيعة الدائمة بيننا. حدث هذا خلال حدادنا على أمنا. كنا قد دفناها خلال وقت قصير جداً. جلسنا معاً ندخن في الحديقة في

ليلة شديدة البرد من ليالي تشرين الثاني. كان الحزن يقتلني. أما أنت فكنت تعالجين نفسك منذ الفطور... أردت الحديث في تلك اللحظة. كنت تخبرينني عن الرحلة التي ستذهبين فيها إلى النرويج، إلى صخرة بولبيت المرتفعة ستمئة متر فوق لسان بحري ضيق. حاولت عدم الإصغاء إليك لأنني كنت أعرف ما ترمين إليه، ولأنني ما كنت راغبة في سماع شيء عنه. نادانا شخص ما، واحد من أصدقاء أبينا: هل أنتما بخير أيتها الفتاتان؟ هل تجلسان في الخارج لإغراق أحزانكما في النهر؟ قال الكلمات الأخيرة بصوت متلعثم.

«كررتِ من خلفه: إغراق، إغراق، إغراق». كنتِ ثملة أيضاً. وكنت تنظرين إلي من تحت أجفان مثقلة منتفخة وقد أشع في عينيك نور غريب. قلت لي وأنت تنطقين اسمي ببطء شديد: «جو ليا، هل تفكرين في هذا الأمر أحياناً؟»

وضعتِ يدك على ذراعي فابتعدت عنك... «هل تفكرين فيه؟» كنت أنهض واقفة في تلك اللحظة، وما كنت أريد أن أبقى معك بعد ذلك. أردت أن أكون وحدي.

«تلك الليلة. هل سبق لك... أن أخبرت أحداً عنها؟».

تراجعت خطوة، ابتعدت عنك خطوة، لكنني أمسكت بيدي وضغطت عليها ضغطاً قوياً... «هيا يا جوليا... أخبريني بصدق. ألم يكن هنالك في نفسك جزءٌ أحب ذلك؟».

كففت عن الحديث معك بعد تلك اللحظة. هذا ما تراه ابنتك سلوكاً مخيفاً تجاهك، من جانبي. تروي كل منا قصصنا بطريقة مختلفة عن الأخرى، أليس كذلك، أنت وأنا؟

توقفت عن الحديث معك، لكن هذا لم يجعلك تكفّين عن الاتصال.

كنت تتركين لي رسائل صغيرة غريبة تخبريني فيها عن عملك، أو عن ابنتك، عن جائزة نلتِها أو عن وسام تلقيتِه. ما كنت تقولين شيئاً أبداً عن مكانك أو عمّن معك، رغم أني كنت أسمع بعض الأصوات أحياناً، أصوات في الخلفية، موسيقى أو ضجة شارع، أو أصوات تتكلم أحياناً. كنت أحذف رسائلك بعض المرات، وأحفظها بعض المرات. أحياناً، كنت أستمع إليها مرة بعد مرة، أستمع إليها مرات كثيرة... حتى صرت قادرة على تذكر كلماتك في تلك الرسائل بعد مرور سنوات.

تكونين غامضة أحياناً، وحانقة في أحيان أخرى. كنت تكررين الإهانات القديمة وتوقظين خلافات غرقت في الماضي منذ زمن بعيد، وتحتجين على افتراءات قديمة. رغبة الموت! مرةً، في حرارة الغضب ذات يوم بعد أن أرهقتْني هواجسك المريضة، اتهمتك بأن لديك رغبةُ الموت، و... أوه... كم غضبتِ مني عند ذلك!

كنت تَبدين حساسة عاطفية بعض الأحيان فتتحدثين عن أمنا وعن طفولتنا وسعادتنا، عن كل ما كان لدينا ثم فقدناه. وفي مرات أخرى تكونين منطلقة سعيدة فرحة. كنت تستحثينني وتقولين: تعالي إلى بيتنا، إلى بيت الطاحون! أرجوك تعالي، سوف تحبين ذلك. أرجوك يا جوليا. لقد حان الوقت المناسب لأن نضع تلك الأشياء كلها خلف ظهورنا. لا تكوني عنيدة. لقد حان الوقت.

يصيبني غضب شديد عند ذلك... (إنه الوقت المناسب! لقد حان الوقت!).

لماذا تكونين أنت من يحدد الوقت المناسب لانتهاء المشاكل بيننا؟

ما كنت أريد شيئاً غير أن تتركيني وحدي. ما كنت أريد شيئاً غير نسيان بيكفورد. غير نسيانك. لقد بنيتُ حياة لنفسي... أصغر من

حياتك، بكل تأكيد، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك؟ لكنها حياتي أنا. أصدقاء جيدون، وعلاقات، وشقة صغيرة جداً في ضاحية في شمال لندن. وظيفة في العمل الاجتماعي تمنحني غايةً في الحياة... وظيفة تستهلكني وترضيني رغم قلة الأجر وطول ساعات العمل.

أردت أن أُترك وحدي، لكنك لم تقبلي هذا. كنت تتصلين، مرتين في السنة أحياناً، ومرتين في الشهر أحياناً. اتصالات تزعجني، تقلقني، تفقدني اتزاني، مثلما كنت تفعلين دائماً... كانت تلك الاتصالات نسخة (في سن أكبر) من الألعاب التي اعتدت أن تلعبينها. كنت أنتظر طيلة ذلك الوقت، كنت أنتظر، أنتظر ذلك الاتصال الذي يمكن أن أستجيب إليه، الاتصال الذي تفسرين فيه السبب الذي كان يجعلك تتصرفين معي مثلما كنت تتصرفين عندما كنا صغيرتين، الاتصال الذي تفسرين كيف كنت قادرة على جرحي وعلى التنحّي جانباً عندما أتألم. كان جزء مني يريد الحديث معك، لكن ليس قبل أن تقولي لي إنك آسفة، ليس قبل أن تتوسّلي الصفح مني. لكن اعتذارك لم يأت أبداً... لازلت أنتظر.

انتقلتُ إلى حافة السرير وفتحت درج الطاولة الصغيرة التي إلى جانبه. كانت فيها بطاقات بريدية، بطاقات فارغة (لعلها تحمل صوراً لأماكن كنت فيها)، وواقيات ذكرية، وكريم للتزليق، وقدّاحة سجائر فضية عتيقة الطراز حُفر على أحد وجوهها حرفا «ل. س.» هل هو رجل؟ هل كان عشيقك؟ نظرت في الغرفة من جديد ففاجأني عدم وجود صور رجال في البيت كله لا في الأعلى هنا، ولا في الأسفل. بل حتى اللوحات نفسها كانت صور نساء فقط. عندما تتركين لي رسائلك الهاتفية، كنت تتحدثين عن عملك وعن بيتك، وعن لينا، لكنك لم تذكري أي رجل أبداً. ما كان يبدو أن للرجال أية أهمية عندك.

لكن، كان هنالك رجل، أليس كذلك؟ منذ زمن بعيد، كان هنالك

صبي تهتمين به. عندما كنت مراهقة، كنت تتسللين خارجة من البيت في الليل، فتتدلين من نافذة غرفة الغسيل وتقفزين إلى ضفة النهر، ثم تتسللين حول البيت وقدماك غارقتان في الطين حتى الكاحلين. كنت تتسلقين ضفة النهر في اتجاه الطريق حيث يكون واقفاً في انتظارك. إنه روبي.

كان التفكير في روبي، أو التفكير فيك وفي روبي، شيئاً يشبه اجتياز جسر مُحدّب بسرعة مرتفعة: شيء مدوّخ! كان روبي طويلاً عريض الكتفين أشقر الشعر. وكانت شفته مشدودة دائماً كأنه مستهزئ بشيء ما. كانت له طريقة في النظر إلى الفتاة تجعلها تنقلب رأساً على عقب. روبي كانون. روبي الزعيم، الفتى الأول، الكلب الأول الذي تفوح منه دائماً رائحة الجنس... روبي الفظ الوضيع. كنت تقولين إنك تحبين روبي رغم أن الأمر ما كان يشبه الحب كثيراً، في نظري. إما أن تكونا، أنت وهو، في حالة تعلُّق شديد، أو أن يقذف كل منكما الآخر بالشتائم والإهانات... ما كان لديكما شيء بين هذين الحدين. ما كان بينكما أية لحظة سلام. لا أذكر ضحكاً كثيراً بينكما. لكن عندي ذكرى واضحة تماماً... أنتما مستلقيان على ضفة البركة، أطرافكما متشابكة، أقدامكما في الماء، وهو ينقلب فوقك ويدفع بكتفيك، يجعلهما يغوصان في الرمل.

صدمني شيء في هذه الصورة، وجعلني أحسُّ بما لم أحسُّه منذ زمن غير قليل... الخجل. إنه خجلُ المتلصص، خجله السري الوسخ، مختلطاً بطعم شيء آخر، شيء لم أكن أستطيع تحديده، لم أكن أستطيع وضع إصبعي عليه تماماً، لم أكن أريد ذلك. حاولت الابتعاد عنه، حاولت إبعاده، لكنني تذكرت: لم تكن تلك المرة الوحيدة التي راقبتك فيها معه.

أحسست بالانزعاج فجأة فنهضت عن سريرك وسرت في الغرفة أنظر إلى الصور. صور في كل مكان. بالطبع. صور مؤطّرة تظهرين فيها جالسة على حافة طاولة فيها دروج، تجلسين مبتسمة وقد لوَّحت الشمس جلدك، في طوكيو أو في بوينس آيرس؛ وصور في عطلات تزلج على الثلج، أو صور على شواطئ، ومعك ابنتك على ذراعيك. وعلى الجدران، ضمن إطارات، صور مطبوعة لأغلفة مجلات من تصويرك، وقصة على غلاف نيويورك تايمز، والجوائز التي تلقيتِها. ها هي كلها: أدلة نجاحك كلها، البرهان على أنك تفوقت عليّ في كل شيء، في العمل والجمال والأطفال والحياة. والآن أنت تتفوقين عليّ من جديد. حتى في هذا، تفوزين؟ حتى في الموت؟

استوقفتني واحدة من الصور، جعلتني مذعورة. كانت صورة لك مع لينا... لم تكن لينا طفلة صغيرة في هذه الصورة، بل فتاة صغيرة لعلها في الخامسة أو السادسة من عمرها، أو لعلها أكبر من ذلك، لأنني لا أستطيع أبداً تقدير أعمار الأطفال. إنها تبتسم فتظهر أسنانها الصغيرة البيضاء، وهنالك شيء غريب في هذه الابتسامة، شيء جعل شعري ينتصب... إنه شيء في عينيها، في تعبير وجهها، شيء أعطاها هيئة كائن مفترس.

أحسست بالنبض في رقبتي، وتنامَى ذعر قديم. استلقيْت على السرير وحاولت عدم الإصغاء إلى صوت الماء. لكن الهرب من صوت الماء ما كان ممكناً رغم النوافذ المغلقة ورغم أنني في الطابق الأعلى من البيت. كنت أستطيع الإحساس بالماء يضغط على الجدران، يتسرَّب في شقوق القرميد، ويعلو. كنت قادرة على تذوق طعمه الطيني الوسِخ في فمي، وأحسست بالرطوبة على جلدي.

وفي مكان ما في البيت، سمعت صوت شخص يضحك... بدا لي أنه صوتك أنت.

آب/أغسطس 1993

جولز

اشترت لي أمي ثوب سباحة قديم الطراز. كان مصنوعاً من قماش قطني أبيض وأزرق، وله حمّالتان على الكتفين. يقصدون بهذا التصميم أن يكون شيئاً شبيهاً بما كانت عليه ملابس السباحة في الخمسينيات... ذلك النوع الذي يمكن أن نراه على مارلين مونرو. كنتُ سمينة بيضاء شاحبة اللون، وما كان عندي شيء يشبه الممثلة نورما جين، لكن ارتديت ثوب السباحة الجديد لأن أمي تعبت كثيراً حتى عثرت عليه. لم يكن العثور على ثوب سباحة يلائم مقاسي بالأمر السهل أبداً.

ارتديت فوقه بنطلوناً قصيراً أزرق اللون وقميصاً فضفاضاً قصير الأكمام. وعندما عادت نيل إلى البيت من أجل الغداء مرتدية بنطلوناً قصيراً من الجينز مع البكيني ذي الرباط الذي يلتف من خلف رقبتها، ألقت علي نظرة واحدة ثم قالت: «هل أنت ذاهبة إلى النهر بعد الظهر؟» قالت هذه الكلمات بنبرةٍ كان من الواضح معها أنها لا تريدني أن أفعل ذلك. لكنها لاحظت نظرة أمي فقالت: «لن أستطيع الاهتمام بأمرك هناك، اتفقنا؟ إنني ذاهبة لمقابلة أصدقائي».

قالت أمي: «كوني لطيفة يا نيل».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كانت أمي في ذلك الوقت تتعافَى من مرض شديد، وكانت هشة ضعيفة يمكن لنسمة هواء أن تلقيها أرضاً. كان جلدها الزيتوني مصفرّاً كأنه ورق قديم. وكنا، أنا ونيل، قد تلقينا من أبينا أوامر صارمة بأن نهتم بأمورنا بنفسنا.

كان جزء من «بأمورنا بنفسنا» يعني أن أقبل وأن أقول «نعم» إنني ذاهبة إلى النهر. كان الناس كلهم يذهبون إلى النهر. لا يوجد شيء هناك غير النهر هذه هي الحقيقة. لم تكن بيكفورد مثل منطقة على شاطئ البحر، وما كان فيها أماكن للهو ولا محلات ألعاب؛ لم يكن فيها حتى ملعب غولف صغير. كان فيها النهر: هذا كل ما فيها.

بعد بضعة أسابيع من بداية الصيف، أي بعد أن يستقر الروتين الصيفي، وبعد أن يكون كل شخص قد حدد مكانه وأصدقاءه، بعد أن يختلط الوافدون بالسكان المحليين وتتكون الصداقات والخصومات، يبدأ الناس التجول في جماعات على ضفة النهر. كان الأطفال الأصغر سناً يسبحون إلى الجنوب من الطاحون حيث يتحرك الماء بطيئاً وحيث توجد أسماك يستطيعون الإمساك بها. أما الأطفال السيئون فيذهبون إلى ناحية كوخ آل وارد، حيث يتعاطون المخدرات ويمارسون الجنس ويلعبون بألواح «ويجا» محاولين استحضار الأرواح الغاضبة. (قالت لي نيل إنني إذا أمعنت النظر جيداً أستطيع رؤية آثار دم روبرت وارد على الجدران). لكن الجمع الأكبر من الناس يكون عند بركة الغارقات. يقفز الأولاد من الصخور وتتشمّس الفتيات وتصدح الموسيقى ويوقد الناس نيراناً للشواء. ودائماً، كان أحد ما يحضر البيرة.

كنت أفضّل البقاء في البيت، في الداخل، بعيداً عن الشمس. وكنت أفضّل الاستلقاء في سريري والقراءة، أو لعب الورق مع أمي. لكنني لم أرد أن أجعلها قلقة علي لأن لديها أشياء أكثر أهمية تستدعي قلقها. أردت

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جعلها ترى أنني قادرة على مخالطة الناس وعلى اكتساب أصدقاء، أنني قادرة على مشاركة الناس نشاطاتهم.

وكنت أعرف أن نيل لا تريد ذهابي. فبقدر ما يعنيها الأمر، كلما أمضيت في البيت وقتاً أطول كان ذلك أفضل، وكلما تضاءل احتمال أن يراني أصدقاؤها... الأخت الخرقاء التي تثير الحرج: جوليا السمينة البشعة التي ليس فيها شيء جذاب. كانت نيل تنكمش على نفسها عندما تكون معي... تسبقني دائماً بعدة خطوات أو تتأخر عني بعشر خطوات. كان عدم ارتياحها في وجودي واضحاً إلى الحد الكافي للفت انتباه الآخرين. ذات مرة، عندما خرجنا معاً من متجر القرية، سمعت أحد الصبيان المحليين يقول: «لا بد أنها طفلة مُتبنَّاة. لا يمكن أبداً أن تكون هذه القذرة السمينة أختاً حقيقية لنيل آبوت». ضحكوا جميعاً. نظرتُ إلى نيل متوقعة شيئاً من المواساة، لكنني لم أرَ في وجهها غير خجلها من وجودي.

سرت إلى النهر وحيدة ذلك اليوم. حملت معي حقيبة صغيرة فيها منشفة وكتاب وعلبة كوكاكولا دايت وقطعتين من سنيكرز حتى آكلهما إذا جعت بين الغداء والعشاء. كانت معدتي تؤلمني، وكان ظهري يؤلمني في ذلك اليوم. تمنيت أن أستدير وأعود أدراجي، أن أعود إلى عزلة غرفتي الصغيرة المظلمة ذات البرودة اللطيفة حيث أستطيع أن أكون وحدي، حيث لا يراني أحد.

وصل أصدقاء نيل بعد قليل من وصولي. رأيتهم يملؤون الشاطئ، ذلك الهلال الصغير من الضفة الرملية على الجانب القريب من البركة. كان ذلك أفضل مكان للجلوس لأنه منحدر بحيث يستطيع المرء أن يستلقي على الرمل واضعاً أصابع قدميه في الماء. كانت هنالك ثلاث فتيات... اثنتان من القرية وواحدة اسمها جيني من إدنبره. كان جلدها

عاجياً رائعاً؛ وكان شعرها داكناً مربوطاً على شكل عقدة قصيرة فوق رأسها. ورغم أنها من سكوتلندا، كانت لغة جيني الإنكليزية ممتازة، وكان الأولاد توّاقين إلى التقرب منها لأن هنالك شائعة تقول إنها لا تزال عذراء.

كان الأولاد كلهم مهتمين بها، عدا روبي طبعاً لأنه ما كان ينظر إلَّا إلى نيل. لقد التقيا قبل سنتين عندما كان في السابعة عشرة وكانت في الخامسة عشرة. الآن صار وجودهما معاً في الصيف أمراً معتاداً تماماً رغم أن كلاً منهما يستطيع رؤية أشخاص آخرين خلال بقية السنة، لأنَّ توقّع بقائه وفياً لها عندما لا تكون موجودة، ما كان أمراً واقعياً. كان طوله يقارب مائة وتسعين سنتيمتراً، وكان وسيماً واسع الشعبية يلعب الركبي كثيراً. كان لدى أسرته مال أيضاً.

خلال علاقة نيل مع روبي، كانت تعود إلى البيت أحياناً بكدمات على رسغيها أو عند أعلى ساعديها، وعندما أسألها كيف حدث هذا تضحك وتقول: «كيف تظنين أنه حدث؟» كان روبي يجعلني أحسُّ بشيء غريب في معدتي فلا أستطيع الامتناع عن التحديق فيه كلما كان قريباً مني. حاولت عدم التحديق، لكنني بقيت أنظر إليه. ثم لاحظ الأمر فصار يحدق بي كلما حدقت به. صار هذا الأمر موضوعاً للنكات بينه وبين نيل، كما صار أحياناً ينظر إلي ويلعق شفتيه بلسانه، ثم يضحك.

عندما ذهبت إلى البركة، كانت بقية الأولاد هناك أيضاً، إلَّا أنهم كانوا عند الناحية الأخرى يسبحون ويتسلقون الصخور ويدفع أحدهم الآخر من فوقها ويضحكون ويتشاتمون ويدعو أحدهم الآخر بالمخنّث. كان الأمر يبدو لي دائماً على النحو التالي: تجلس الفتيات منتظرات بينما يعبث الأولاد ويلعبون هنا وهناك إلى أن يملوا ذلك كله فيأتون إليهن ويفعلون معهن تلك الأشياء التي تقاومها الفتيات أحياناً ولا تقاومنها

في أحيان أخرى. كانت هذه حال الفتيات جميعاً، عدا نيل التي ما كانت تخاف الغطس في الماء وتبليل شعرها بل تجد متعة في خشونة لعب الأولاد وعنفه؛ لقد نجحتْ في السير على الخط الدقيق الذي يجعلها قادرة على الجميع بين كونها واحدة من الأولاد وموضوعاً لرغبتهم في الوقت نفسه.

وبطبيعة الحال، لم أكن أنضم إلى أصدقاء نيل. مددت منشفتي تحت شجرة وجلست عليها. كانت هنالك مجموعة أخرى من الفتيات الأصغر سناً، في عمري تقريباً. كن جالسات على مسافة قصيرة مني، وكانت بينهن فتاة أعرفها من الصيف الماضي. ابتسمت لي فابتسمت لها. لوّحت لها بيدي، لكنها أدارت وجهها.

كان الطقس حاراً، وهذا ما جعلني أتمنّى النزول إلى الماء. أستطيع أن أتخيّل تماماً كيف سيكون إحساس جلدي بالماء... ناعم، نظيف... وأستطيع تخيل كيف ينعصر طين القاع بين أصابع قدمي، ورؤية الضوء البرتقالي الدافئ على أجفاني عندما أعوم مستلقية على ظهري بعينين مُغمضتين. خلعت قميصي، لكن ذلك لم يخفّف إحساسي بالحرارة. انتبهت إلى أن جيني تنظر إليّ مُكشِّرة بطريقة جعلت أنفها يتجعّد. لكنها سرعان ما نظرت إلى الأرض عندما أدركتْ أنني رأيت تعبير التقزز الذي كان على وجهها.

استدرت في الاتجاه الآخر، استدرت مبتعدة عنهن جميعاً، وتمددت مستندة على يدي اليمنى، ثم فتحت كتابي. كنت أقرأ «التاريخ السري». تمنيت لو أن عندي مجموعة أصدقاء مثل المجموعة التي في هذا الكتاب: مجموعة مغلقة تربط بين أفرادها الأذكياء اللامعين علاقات وثيقة. تمنيت أن تكون عندي صديقة أسير خلفها، صديقة تحميني، صديقة متميزة بعقلها، لا بساقيها الطويلتين. تمنيت هذا رغم معرفتي

بأنه إن كان من حولي هنا، أو في مدرستي في لندن، بنات من هذا النوع فإنهن لن يكُنَّ راغبات في صداقتي. لست غبية، لكني لست لامعة الذكاء أيضاً.

أما نيل، فكانت لامعة.

نزلت نيل إلى النهر بعد الظهر. سمعتها تنادي أصدقاءها، وسمعت الفتيان ينادونها من قمة الجرف حيث كانوا يجلسون مدلين سيقانهم على الحافة... يدخنون السجائر. نظرت من فوق كتفي ورأيتها تخلع ثيابها وتخوض في الماء ببطء؛ كانت ترش الماء على جسمها مستمتعة باستقطاب انتباه الآخرين إليها.

بدأ الأولاد ينزلون عن الجرف الآن، يأتون عبر الغابة. انبطحت على بطني وأبقيت رأسي منخفضاً. ظلت عيناي مثبتتان على الكتاب تماماً، لكن الكلمات غامت. تمنيت لو أنني لم آتِ، وتمنيت لو أنني كنت قادرة على الانسلال والذهاب من غير أن أرى أحد. لكن ما كان لديّ شيء أستطيع فعله حتى لا يلاحظني أحد، لا شيء أبداً. وما كان هيكلي الأبيض عديم الشكل قادراً على الانسلال خِفيةً.

كانت لدى الأولاد كرة قدم. بدأوا يتقاذفونها فيما بينهم. كنت أسمعهم يصيحون ويطلب كل منهم تمرير الكرة إليه، وأسمع طرطشة الماء عندما تسقط الكرة فيه، أسمع زعيق الفتيات الضاحك عندما يصيبهن رشاش الماء. ثم أحسست بالضربة، أصابتني الكرة... صفعة لاسعة على فخذي. كانوا يضحكون جميعاً. رفع روبي يده وجرى صوْبي لاستعادة الكرة.

كان يقول وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة: «آسف، آسف، آسف يا جوليا. لم أكن أقصد أن أصيبك». انحنى والتقط الكرة فرأيته

ينظر إليَّ، ينظر إلى العلامة الموحلة الحمراء التي تركتها الكرة على لحمي الأبيض الشاحب كالرخام أو كدهن حيوان بارد. سمعت أحدهم يقول شيئاً ما عن هدف كبير... نعم، لم تستطع إصابة باب الحظيرة، لكنك لم تخطئ تلك المؤخرة السمينة.

عدت إلى كتابي. أصابت الكرة شجرة على مسافة أقدام قليلة مني، وصاح صوت آخر: «آسف». تجاهلتهم. حدث الأمر مرة أخرى، ثم تكرر من جديد. انقلبت ونظرت إليهم. كانوا يسددون الكرة في اتجاهي، كان هذا تمريناً على إصابة الهدف. كانت الفتيات غارقات في الضحك، وكانت قهقهة نيل المبتهجة الزاعقة أعلى الأصوات جميعاً.

جلستُ وحاولت المواجهة. صحت بهم: «هيا، لا بأس الآن. شيء مضحك كثيراً. يمكنكم التوقف. هيا توقفوا! كفوا عن هذا!» لكن واحداً آخر كان يسدد الكرة الآن. جاءت الكرة في اتجاهي. رفعت ذراعي لأحمي وجهي فاصطدمت الكرة بي صدمة عنيفة لاسعة. أحسست بوخز الدموع في عيني فنهضت واقفة على قدمي. كانت مجموعة الفتيات الأخرى، الفتيات الأصغر سناً، تتابع المشهد أيضاً. وضعت واحدة منهن يدها على فمها.

صاحت بهم: «كفوا عن هذا! لقد جُرحت. إنها تنزف».

نظرت إلى نفسي فرأيت دماً على ساقي، رأيته يسيل على باطن فخذي في اتجاه ركبتي. أدركت على الفور أن الأمر ما كان كذلك؛ لم يجرحونني. تذكرت تقلصات المعدة، وألم الظهر؛ وتذكرت أنني أمضيت الأسبوع كله أشعر بتعاسة أكثر من المعتاد. كنت أنزف حقاً، أنزف بغزارة... لم يكن ذلك مجرد بقعة دم. تشَبّع بنطلوني القصير تماماً. كانوا ينظرون إليَّ، كانوا ينظرون إليَّ جميعاً، ويحدِّقون في اتجاهي. كفَّت الفتيات عن الضحك وتبادلن نظرات الدهشة بأفواه مفتوحة... كنّ

في منتصف المسافة بين الذعر والتسلية. التقطت نظرتي عيني نيل، لكنها أشاحت بوجهها. كدت أحسُّ بها تنكمش على نفسها متقزِّزة. كانت تراني شيئاً مهيناً لها. كانت تراني شيئاً مخجلاً لها. ارتديت قميصي بأسرع ما استطعت، ثم لففت المنشفة على خصري وسرت مبتعدة في طريق العودة إلى البيت. سمعت صوت الأولاد يضحكون من جديد عندما ذهبت.

نزلت إلى الماء في تلك الليلة. كان ذلك في وقت لاحق، في وقت متأخر كثيراً. كنت أشرب آنذاك، وكانت تلك أول تجربة لي مع الكحول. حدثت أيضاً أشياء أخرى. جاء روبي باحثاً عني، وعندما وجدني اعتذر عن تصرفه وعن تصرف رفاقه. قال لي إنه آسف كثيراً، ثم طوق كتفي بذراعه وقال إنه ليس لي أن أشعر بالعار لما حدث. لكني ذهبت إلى بركة الغارقات، رغم ذلك. ثم جَرّتني نيل فأخرجتني منها. جرتني إلى الضفة ورفعتني حتى وقفت على قدمي. صفعت وجهي صفعة شديدة: «يا عاهرة! أيتها العاهرة السمينة الغبية! ماذا فعلتِ؟ ما الذي تحاولين فعله؟».

2015

الأربعاء، 12 آب/أغسطس

باتريك

لم يعد «كوخ آل وورد» ملكاً لعائلة وورد منذ مئة سنة على الأقل؛ ولم يكن ملكاً لباتريك أيضاً. ولم يكن في الحقيقة ملكاً لأي شخص آخر. كان باتريك يُرجح احتمال أن يكون الكوخ ملكاً للمجلس المحلي رغم أن أحداً لم يطالب به، فإن باتريك كان لديه مفتاحه، وهذا ما جعله يحس نفسه مالك ذلك المكان. كان يدفع فواتير الكهرباء والماء البسيطة، كما وضع بنفسه قفلاً على الباب منذ بضع سنين، وذلك بعد أن كسر بعض الزُّعران القفل القديم. المفاتيح الآن معه ومع ابنه شون فقط؛ ثم إن باتريك صار يهتم دائماً بالمحافظة على الكوخ نظيفاً مرتباً.

لم يكن يترك باب الكوخ غير مقفل إلَّا بعض الأحيان، إن أردنا أن نكون صادقين تماماً؛ وهذا لأنه ما عاد يستطيع أن يكون واثقاً كل الثقة من أنه أقفل الباب خلفه عندما ترك المكان. بدأ يظهر لديه إحساس متزايد خلال السنوات الماضية بأن هنالك لحظات من التشوش تأتيه فتملأه ذعراً بارداً، لكنه يرفض مواجهة هذا والاعتراف به. كان في بعض الأحيان ينسى كلمات كثيرة أو أسماء كثيرة، ثم يقتضيه العثور عليها من

جديد وقتاً غير قليل. بدأت تطفو ذكرياتٌ قديمة فتقطع تسلسل أفكاره، ذكريات عنيفة الألوان صاخبة الصوت إلى حد يثير القلق. وعلى أطراف مجال رؤيته، بدأت ظلالٌ تتحرك أيضاً.

كان باتريك يتوجه إلى أعلى النهر كل يوم؛ كان هذا جزءاً من روتينه المعتاد: يستيقظ في وقت مبكر، ويسير الأميال الثلاثة على امتداد النهر حتى يصل إلى الكوخ، ثم يجلس هناك لاصطياد الأسماك ساعة أو ساعتين. صار يفعل ذلك مرات أقل هذه الأيام لا لأنه يحس تعباً أو لأن ساقيه تؤلمانه، بل الإرادة هي ما صار ينقصه. ما عاد يجِد متعة في الأشياء التي كانت تمتعه فيما مضى. لكنه لا يزال يحب تفقُّد كل شيء، رغم ذلك. وعندما يشعر بأن ساقيه في حالة حسنة، فإنه لا يزال قادراً على الذهاب مشياً ثم العودة خلال ساعتين. لكنه استيقظ هذا الصباح فوجد ربلة ساقه اليسرى متورّمة. كانت تؤلمه. وظل نبضه الواهي في عروقه يضرب أذنيه مثل تكتكة الساعة. قرّر أن يذهب بالسيارة.

تحامل على نفسه فنهض من الفراش واستحم وارتدى ملابسه، ثم تذكّر بانزعاجٍ شديد أن سيارته لا تزال في الورشة: لقد نسيَ تماماً أن يذهب لأخذها بعد ظهر البارحة. سار متحاملاً على نفسه عبر فناء البيت وهو يدمدم بشيء ما. ذهب ليسأل كنَّته إن كان يستطيع استعارة سيارتها.

كانت هيلين، زوجة شون، تمسح الأرض في المطبخ. لو كان لديها عمل اليوم لكانت قد ذهبت الآن. إنها مديرة المدرسة التي تحرص على أن تكون موجودة في مكتبها في السابعة والنصف كل صباح. لكنها لم تكن ممن يحبون البقاء في الفراش إلى وقت متأخر، حتى أيام عطلة المدرسة. ما كان الكسل جزءاً من طبيعة هيلين.

ابتسمت عندما دخل باتريك المطبخ. قال لها: «أرى أنكِ نهضت وبدأت العمل في وقت مبكر». بتلك الغضون حول عينيها والشعرات

البيض في شعرها البني القصير، كانت هيلين تبدو أكبر من عمرها الذي لم يتجاوز ستة وثلاثين عاماً. كان باتريك يرى أنها تبدو أكبر سناً وأكثر إرهاقاً مما يجب أن تكون.

قالت له: «لم أستطِع النوم».

«أوه، هذا مؤسف يا عزيزتي».

رفعت كتفيها من جديد وقالت: «وماذا أستطيع أن أفعل؟».

وضعتْ الممسحة في الدلو وأسندت عصاها إلى الجدار... «هل أعد لك القهوة يا أبي؟» هكذا صارت تدعوه الآن... «أبي». بدا له الأمر غريباً في البداية، لكنه صار يحبه الآن. كانت تلك الكلمة تدفئه، وكان يحسُّ حبّاً في صوتها عندما تنطق تلك الكلمة. قال لها إنه سيأخذ معه بعض القهوة في زجاجة، لأنه يريد أن يذهب إلى أعلى النهر.

سألته: «أظنك لن تذهب إلى البركة، أليس كذلك؟ إنني أفكر فقط في...».

هز رأسه: «لا! لن أذهب إلى البركة بالطبع». صمتَ قليلاً ثم قال: «كيف حال شون هذه الأيام؟».

رفعت كتفيها وقالت: «أنت تعرفه. لا يقول الكثير في حقيقة الأمر».

يعيش شون وهيلين في البيت الذي كان يسكنه باتريك مع زوجته. وبعد وفاتها، ظل شون وباتريك في البيت معاً. وبعد ذلك بوقت طويل، أي بعد أن تزوج شون، قاما بتحويل الحظيرة الملحقة بالبيت التي تقع إلى الناحية الأخرى من الفناء إلى بيت صغير انتقل إليه باتريك. اعترض شون على ذلك وقال إن من المفروض أن ينتقل إليه مع هيلين، لكن باتريك رفض الإصغاء. لقد أراد أن يكونا هنا، في البيت، وأحبَّ هذا

الإحساس بالتواصل، الإحساس بأن لهم مجتمعهم الصغير الخاص هنا، هم الثلاثة، مجتمع هو جزء من البلدة، لكنه منفصل عنها.

عندما بلغ باتريك الكوخ أدرك على الفور أن أحداً قد كان فيه. كانت الستائر مسدلة والباب الأمامي مفتوحاً قليلاً. دخل فوجد السرير في حالة فوضوية. كانت كؤوس فارغة فيها آثار من النبيذ منتشرة على الأرض، وكان واقٍ ذكري يعوم في المرحاض. وجد أعقاب سجائر في المكان، سجائر ملفوفة باليد. التقط واحداً من تلك الأعقاب وشمه ليرى إن كان فيه أثر من الماريغوانا. لكن الرائحة كانت رائحة رماد بارد فحسب. كانت في المكان أشياء أخرى أيضاً... قطع ملابس وفضلات متنوعة: فردة جورب زرقاء غريبة الشكل، وخيط يضم مجموعة من الخرزات. جمع كل شيء ووضعه في كيس صغير من النايلون. نزع الشراشف عن السرير، ثم غسل الكؤوس في المجلَى وألقى بأعقاب السجائر في سلة المهملات. أغلق باب البيت بعناية من خلفه. حمل كل شيء إلى السيارة فوضع الشراشف على المقعد الخلفي وألقى بالقمامة في الصندوق، ثم وضع كيس الأشياء المتروكة في علبة القفازات.

أقفل السيارة وسار إلى حافة النهر وهو يشعل سيجارة في طريقه. آلمته ساقه وتقلص صدره عندما استنشق الدخان. أحسَّ بذلك الدخان الحار يصطدم بحنجرته. سعل وشعر بأنه قادر على الإحساس بالدخان الحارق يتغلغل في رئتيه المتعبتين المُسوَدتين. وفجأة أحسَّ بحزن شديد. يداهمه هذا المزاج من وقت لآخر ويستولي عليه بقوة تجعله يتمنى أن ينتهي كل شيء... كل شيء. نظر إلى الماء وتشمَّم الهواء من حوله. لم يكن في يوم من الأيام واحداً من الذين يتركون أنفسهم ينساقون لإغراء الاستسلام والانهيار، ممن يُغرقون أنفسهم حتى يجعلوا الأمر كله ينتهي. لكنه كان صادقاً إلى الحد الكافي للاعتراف بأنه، حتى هو، يستطيع أحياناً أن يرى جاذبية في النسيان.

صار وقت الضحى عندما عاد إلى البيت، وصارت الشمس مرتفعة في السماء. رأى باتريك القطة المخططة، القطة الشاردة التي كانت هيلين تطعمها كلما أتت. رآها تتحرك ببطء كسول مجتازة فناء البيت متجهة إلى أجمَّة إكليل الجبل الصغيرة في الحوض عند نافذة المطبخ. لاحظ باتريك أن ظهرها منحنٍ قليلاً وأن بطنها شديد الانتفاخ. إنها حبلَى! عليه أن يفعل شيئاً فيما يخص هذا الأمر.

الخميس، 13 آب/أغسطس

إيرين

كان جيراني التافهون في شقتي التافهة التي استأجرتها لفترة قصيرة في نيوكاسل يتجادلون بعنف وبأصوات مرتفعة في الرابعة من صباح هذا اليوم. وهذا ما جعلني أقرر النهوض والخروج حتى أجري قليلاً. ارتديت ملابسي وصرت مستعدة. ثم قلت في نفسي لماذا أجري هنا إذا كنت أستطيع الجري هناك؟ وهكذا قدت السيارة إلى بيكفورد وأوقفتها عند الكنيسة ثم انطلقت عبر الطريق المؤدية إلى النهر.

كان مساري صعباً أول الأمر. بعد اجتياز البركة: عليك أن تصعد حتى قمة التل ثم تنحدر إلى الناحية الأخرى من جديد. لكن الأرض تصبح أكثر استواءاً بكثير بعد ذلك، ويصير الجري هناك رائعاً. برودة منعشة قبل ارتفاع شمس الصيف، وهدوء، ومناظر خلابة، ومكان ليس فيه دراجات... شيء مختلف كثيراً عن الجري على امتداد قنال ريجنيت في لندن، حيث يضطر المرء إلى تفادي الاصطدام بالدراجات والسائحين طيلة الوقت.

يتسع الوادي بعد عدة أميال على امتداد النهر، ويلوح سفح التل المقابل مرقطاً بالأغنام التي ترعى هناك، وينحدر نازلاً شيئاً فشيئاً.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جريت على تلك الأرض المستوية التي فيها الحصى... أرض عارية ليس فيها إلّا بقع من أعشاب خشنة وشجيرات الرتم المنتشرة في كل مكان. كنت أجري بسرعة خافضة رأسي إلى أن وصلت، بعد مسافة ميل أو أكثر، إلى كوخ صغير قائم في نقطة متراجعة قليلاً عن حافة النهر ومن خلفه أشجار البتولا المنتصبة عالياً. تحول جريي السريع إلى هرولة حتى ألتقط أنفاسي، ثم اتجهت إلى ذلك البيت حتى ألقي نظرة. كان مكاناً منعزلاً يبدو غير مأهول، لكنه ليس مهجوراً حقاً. كانت له ستائر مسدلة قليلاً، وكانت نوافذه نظيفة. نظرت عبر النافذة عبر الداخل فرأيت غرفة معيشة صغيرة جداً فيها كنبتان خضراوان وطاولة صغيرة بينهما. حاولتُ فتح الباب لكنني وجدته مقفلاً. وهكذا جلستُ في الظل على الدرجة التي أمام الباب وابتلعتُ جرعة من زجاجة الماء التي معي. مددتُ ساقي أمامي وحرَّكتُ كاحلي إلى اليمين واليسار. انتظرتُ ريثما أسترد أنفاسي ويهدأ نبض قلبي. لاحظتُ أن أحداً خربش على أسفل إطار الباب رسالة... آني المجنونة كانت هنا... وجمجمة صغيرة مرسومة إلى جانب تلك الرسالة.

كانت الغربان تخوض مناقشة حامية في الأشجار التي خلفي، وكان يُسمع ثُغاء الأغنام من حين لآخر، وأما فيما عدا ذلك فكان الوادي هادئاً تماماً ليس فيه ما يشوِّشه. أعتبرُ نفسي ابنة مدينة حقيقية، لكن هذا المكان الجميل يتغلغل تحت جلدي، رغم غرابته.

استدعانا المفتش تاونسند إلى اجتماع بعد الساعة التاسعة مباشرة. لم نكن كثيرين في ذلك الاجتماع: شرطيان كانا يساعدان في استقصاء المعلومات المتوفرة لدى السكان، والشرطية المحققة كالي التي تبدو فتاة في مقتبل العمر، واختصاصي الأدلة العلمية كثير الشعر، وأنا. كان تاونسند قد اجتمع مع الطبيب الشرعي لمعرفة نتائج فحص الجثة. وقد

قدم لنا إحاطة موجزة بما تم التوصل إليه، لكن أكثر تلك المعلومات كان متوقعاً. ماتت نيل نتيجة الإصابات التي لحقت بها عند السقوط. لا وجود للماء في رئتيها. وهذا يعني أنها لم تغرق. كانت قد ماتت لحظة الاصطدام بالماء. لم تكن في الجثة أية إصابات لا يمكن تفسيرها بالسقوط على تلك الصخور: لا خدوش ولا كدمات غريبة يمكن أن توحي بأن أحداً آخر كان على صلة بالأمر. وُجدت في دمها كمية غير قليلة من الكحول... كانت قد شربت ثلاث أو أربع كؤوس، على الأقل.

قدمت المحققة كالي حصيلة استقصاء معلومات السكان... ليس فيها شيء ذو قيمة. نعرف أن نيل كانت في الحانة لفترة وجيزة مساء يوم الأحد وأنها غادرتها في الساعة السابعة تقريباً. ونعرف أنها كانت في بيت الطاحون حتى العاشرة والنصف على الأقل، أي حتى آوت لينا إلى فراشها. لم يقل أحد إنه رآها بعد ذلك. ولم يبلغ أحد عن رؤيتها في مجادلة أو مشاجرة مع أحد ما في الآونة الأخيرة، رغم أنه من المتفق عليه عامةً أنها لم تكن محبوبة كثيراً. لم يكن السكان المحليون مرتاحين لما تفعله، ولا لقيام غريبة بمنح نفسها حق القدوم إلى بلدتهم وادّعاء القدرة على كتابة حكاية تخصهم. ما علاقتها بالأمر؟

تحقّق كثيرُ الشعر من حساب البريد الإلكتروني الخاص بنيل: لقد أقامت حساباً مخصّصاً لمشروعها ودعت الناس إلى إرسال قصصهم. لكن أغلب الرسائل التي وصلتها كانت شتائم وإساءات فحسب. قال وهو ينظر إليّ ويرفع كتفيه قليلاً بحركة اعتذار كأنه يحس نفسه مسؤولاً عن كل أحمق من كارهي النساء على الإنترنت: «صحيح أنني لا أستطيع القول إن هذه الرسائل أسوأ بكثير من معظم ما تتلقّاه النساء عبر الإنترنت في الأحوال العادية، إلّا أننا سنتابع الأمر، بالتأكيد، ولكن...» كانت تتمة ما قاله كثير الشعر مثيرة للاهتمام حقّاً. تبيّن أن جولز آبوت كذبت

علينا منذ البداية: صحيح أن هاتف نيل كان في وضعية «خارج الخدمة؛ في إجازة» لكن سجلات ذلك الهاتف بينت أن هنالك إحدى عشرة مكالمة مع هاتف أختها (رغم أنها لم تكن تستخدم الهاتف المحمول كثيراً) خلال الأشهر الثلاثة الماضية. كانت مدة معظم هذه الرسائل أقل من دقيقتين، وفي بعض الأحيان دقيقتين أو ثلاث دقائق؛ ولم تكن أي واحدة منها طويلة على نحو خاص، إلّا أن جولز لم تكن تفصل الخط.

لقد تمكن كثيرُ الشعر من تحديد وقت الوفاة أيضاً. التقطت الكاميرا الموضوعة في الأسفل عند الصخور (الكاميرا غير المتضررة) شيئاً ما. لم تكن صورة حقاً، ولم تكن لتخبرنا بأي شيء... مجرد حركة مغبشة في الظلمة يليها صوت طرطشة الماء. الثانية والنصف ودقيقة واحدة بعد الظهر، هذا ما سجلته الكاميرا، وهذه هي لحظة سقوط نيل.

لكنه كان يَدّخِر أفضل ما عنده حتى نهاية كلامه. قال: «استطعنا رفع بصمات عن الكاميرا الأخرى أيضاً، الكاميرا المتضررة أيضاً. لا تشبه البصمة التي حصلنا عليها صورة بصمة أحد ممن هم لدينا في السجلات، لكننا نستطيع أن نطلب من السكان المجيء حتى يثبت كل منهم أنها ليست بصمته، أليس كذلك؟»

أومأ تاونسند برأسه بحركة بطيئة.

تابع كثير الشعر: «أعرف أن تلك الكاميرا تعرَّضت للتخريب من قبل. وهذا يعني أنه ليس من المؤكد أن تعطينا أي شيء قاطع أو نهائي، لكن...».

قال تاونسند وهو ينظر إليّ: «حتى في هذه الحالة؛ فلنر ما يمكن أن نتوصل إليه. سوف أعهد بهذا إليكِ. عليَّ أن أتحدث مع جوليا آبوت عن هذه المكالمات الهاتفية». نهض واقفاً وهو يطوي ذراعيه على صدره

ويخفض ذقنه. قال بصوت منخفض، شبه معتذر: «عليكم جميعاً أن تكونوا...! تلقيت هذا الصباح مكالمة من الإدارة». تنهد بعمق فتبادلنا جميعاً نظرات مستفهمة. كنا نعرف ما سيقوله بعد ذلك... «بالنظر إلى نتائج التحقيق وإلى عدم وجود أية أدلة مادية تشير إلى حدوث عراك فوق ذلك الجرف، فإننا نجد أنفسنا واقعين تحت ضغط \الاقتصاد في الموارد...» قال الكلمات الأخيرة كأنه يضعها بين مزدوجين.... «لا بد من اعتبارها حالة انتحار أو وفاة بفعل حادث عارض. هكذا قالوا! نعرف أن هنالك أشياء لا يزال إنجازها ضرورياً، لكننا في حاجة إلى العمل سريعاً وبطريقة فاعلة. لن يُتاح لنا وقت كثير في هذه القضية». لم يكن هذا شيئاً مفاجئاً لنا. تذكرت الحديث الذي جرى بيني وبين رئيس الإدارة عندما كلفني بهذه المهمة: «من شبه المؤكد أنها قفزت من الجرف». هكذا قفز رئيس الإدارة تلك المسافة كلها من الجرف إلى النتيجة النهائية! ليس هذا أمراً مفاجئاً أبداً بالنظر إلى تاريخ هذه البلدة.

لكن، رغم ذلك... لم يعجبني الأمر. لم أستطِع تقبل فكرة العثور على امرأتين في الماء خلال بضعة أشهر فقط، إضافة إلى وجود معرفة جيدة بينهما. لقد كانت بينهما صلة حقيقية، عن طريق المكان وعن طريق الناس. كانتا متصلتين من خلال لينا: أعزّ صديقات الأولى، وابنة الثانية. هي آخر شخص يرى أمها حية، وأول من أصر على أن هذا كان شيئاً أرادته بنفسها. (لم تكن تقصد موت أمها فحسب، بل الغموض المحيط بهذا الموت أيضاً). غريب أن تقول طفلة كلاماً من هذا النوع.

قلت هذا الكلام للمحقق عندما كنا في طريقنا للخروج من قسم الشرطة. نظر إليّ نظرة غير مرتاحة وقال: «الرب وحده يعرف ما يجول في رأس تلك الفتاة. من المؤكد أنها ستحاول العثور على معنى ذلك. إنها...» كَفَّ عن الكلام. كانت هنالك امرأة سائرة في اتجاهنا، بل امرأة

تجرجر قدميها في حقيقة الأمر وتدمدم لنفسها بشيء خلال سيرها. كانت في معطف أسود رغم هذا الحر، وكانت في شعرها الرمادي خصلات بنفسجية. رأيت على أظافرها طلاءً قاتم اللون أيضاً. بدت كأنها متشرِّدة عجوز.

قال تاونسند: «صباح الخير يا نيكي».

رفعت المرأة رأسها ونظرت إليه ثم نظرت إلي. تقلصت عيناها تحت حاجبيها الخنفسائيين.

دمدمت قائلة: «هممم» أظن أن هذه طريقتها في إلقاء التحية... «هل توصلتم إلى شيء؟».

«توصلنا إلى شيء في ماذا يا نيكي؟».

قالت بنبرة حادة: «هل عثرتم على من فعل ذلك؟ هل عثرتم على الشخص الذي دفعها؟».

كررت عبارتها: «الشخص الذي دفعها؟ هل تعنين دانييل آبوت؟ هل لديك معلومات يمكن أن تكون مفيدة لنا... سيدة...».

ألقتْ في اتجاهي نظرة غاضبة ثم استدارت إلى تاونسند: «مَن هذه المرأة؟» أطلقتْ هذا السؤال وهي تشير إليَّ بإبهامها.

أجابها بصوت هادئ: «إنها الرقيب المحقِّق مورغان. هل لديك شيء تحبِّين قوْله لنا يا نيكي؟ فيما يتعلق بتلك الليلة؟».

قالت مدمدمة من جديد: «لم أرَ شيئاً...» ثم علا صوتها... «وحتى لو رأيت شيئاً، فلا أظنكم مستعدين للاستماع إلى ما أقول، أليس كذلك؟» تابعت سيرها فتجاوزتنا سائرة في الطريق المتألق بضياء الشمس. ظلَّت تدمدم شيء لنفسها خلال سيرها.

سألت المحقّق: «ما معنى هذا في رأيك؟ هل يجدر بنا أن نتحدّث معها رسمياً؟».

أجابني شون وهو يهز رأسه: «لا يمكن أخْذ كلام نيكي سيج على محمل الجد. إنها ليست شخصاً يمكن الاعتماد عليه».

«أوه، لماذا؟».

«تقول إنها 'روحانية' وإنها تستطيع أن تتكلم مع الموتى. كانت لنا مشكلات معها فيما مضى، احتيال وأشياء من هذا القبيل. وهي تزعم أيضاً أنها منحدرة من امرأة قتلت هنا على يد صيادي الساحرات». أضاف بعد ذلك بنبرة جافة: «إنها مجنونة جنوناً مُطبقاً».

جولز

كنتُ في المطبخ عندما سمعتُ جرس الباب. نظرتُ من النافذة فرأيت المحقّق تاونسند واقفاً في المدخل رافعاً رأسه ينظر إلى النوافذ. وصلتْ لينا إلى الباب قبلي. فتحته وقالتْ: «مرحباً يا شون».

دخل تاونسند البيت فاحتك قليلاً بجسدها النحيل خلال مروره ولاحظ (لا بد أنه لاحظ) بنطلون الجينز المقصوص الذي ترتديه وقميصها الذي يحمل الصورة الشهيرة لفرقة رولينغ ستونز، فم ولسان يخرج منه. مد يده إلي فصافحتها. كانت يده جافة لكني رأيت في جلده لمعة غير صحية ورأيت دوائر رمادية تحت عينيه. كانت لينا تنظر إليه من تحت أهداب عينيها المسدلة. رفعت يدها إلى فمها وبدأت تقرض ظفرها.

سرتُ أمامه إلى المطبخ، وتبعتنا لينا. جلستُ مع المحقق إلى الطاولة في حين ظلَّت لينا واقفة على مقربة منا. صالبتْ ساقيها في وقفتها، ثم حركت جسدها قليلاً، ثم صالبت ساقيها من جديد.

لم ينظر تاونسند إليها. سعل وراح يفرك يديه.

قال بصوت هادئ: «لقد انتهى تشريح الجثة». التفت في اتجاه لينا، ثم نظر إليّ من جديد... «لقد قُتلت نيل نتيجة السقوط. لا شيء يشير إلى تورُّط أي شخص في الأمر. كان هنالك بعض الكحول في دمها أيضاً». صار صوته أكثر خفوتاً الآن... «مقدارٌ كافٍ للتأثير على سلامة أحكامها، مقدار يكفي لجعلها غير مستقرة على قدميها». صدر صوت عن لينا... تنهيدة طويلة مرتجفة. كان المحقق ينظر إلى يديه، لكنه فردهما الآن أمامه على الطاولة.

قلت له: «لكن، كانت نيل دائماً واثقة الخطا كالماعز فوق ذلك الجرف. ثم إنها قادرة على تحمُّل أثر أكثر من بضع كؤوس من النبيذ، حتى لو شربت زجاجة كاملة...».

هزَّ رأسه وقال: «ربما! لكن... في الليل، هناك، فوق...».

قالت لينا بحدَّة: «لم يكن ذلك حادثاً».

أجبتها بحدة أيضاً: «لم تقفز».

نظرت لينا إليّ بغضب وقد تقلصت شفتها. سألتني: «وماذا تعرفين أنت؟» عادت تنظر إلى المحقق... «هل تعرف أنها كذبت عليكم؟ كذبت عندما قالت إنها لم تكن على اتصال مع أمي. حاولت أمي الاتصال بها كثيراً. ربما... حتى إنني لا أعرف كم مرة حاولت أن تتصل بها. لكنها لم تجبها أبداً، ولم تُعِد الاتصال بها، إنها لم...» توقفت عن الكلام وعادت تنظر إليّ... «إنها مجرد... لماذا أنتِ هنا أصلاً؟ لا أريد أن تكوني هنا». خرجت من المطبخ مسرعة وصفقت الباب من خلفها. وبعد لحظات قليلة، سمعت صوت باب غرفتها يغلق بعنف.

بقيت مع تاونسند جالسين في صمت. انتظرت أن يسألني عن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الاتصالات الهاتفية، لكنه لم يقل شيئاً. كانت عيناه مغمضتين، وكان وجهه من غير تعبير.

قلت له آخر الأمر: «ألا تجد هذا أمراً غريباً... كيف أنها مقتنعة تماماً بأن نيل فعلت ذلك قصداً؟».

نظر إليّ ومال رأسه قليلاً. لكنه لم يقل شيئاً.

«أليس لديكم في هذا التحقيق أي أشخاص مشتبه فيهم؟ أقصد... لا يبدو لي أن أحداً هنا يبالي بحقيقة أنها ماتت».

قال بهدوء: «وهل تبالين أنت؟».

«ما هذا السؤال؟» أحسست أن وجهي قد صار حاراً. أدركتُ ما هو قادم الآن.

قال لي: «آنسة آبوت... يا جوليا».

«جولز، اسمي جولز». كنت أتلكؤ، أحاول تأجيل شيء لا مهرب منه.

«يا جولز...» تنحنح قليلاً... «مثلما قالت لينا قبل قليل! لقد أخبرتِنا بأن التواصل كان مقطوعاً بينكما منذ سنين. لكن سجلات هاتف نيل المحمول تبين أنها اتصلت بهاتفك إحدى عشرة مرة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة وحدها». احمرَّ وجهي خجلاً، وأشحت بنظري بعيداً عنه... «إحدى عشرة مكالمة. لماذا تكذبين علينا؟» (إنها تكذب دائماً، قلتِ هذا بنبرة قاتمة. أنت تكذبين دائماً. وتختلقين القصص دائماً).

قلت: «لم أكذب! لم أتحدث إليها. الأمر مثلما قالت لينا: كانت تترك لي رسائل، ولم أكن أجيب. هذا يعني أنني لم أكذب». بدوت عندما قلت ذلك ضعيفة راجية، بدوت كذلك حتى في عيني أنا... «أنظر، لا يمكنك أن تطلب مني تفسير الأمر لك، لأن ما من طريقة لشرحه بحيث

يفهمه شخص من خارج هذه العلاقة. كانت بيني وبين نيل مشكلات منذ سنين كثيرة... لكن ذلك شيءٌ لا علاقة له بهذا أبداً».

سألني تاونسند: «وكيف يمكنك معرفة هذا؟ إن كنت لم تتكلمي معها، فكيف تعرفين ما يمكن أن تكون له علاقة بما حدث؟».

«إنني فقط... خذ...» قلت هذا وأنا أمد إليه هاتفي... «خذه، خذ الهاتف. استمع بنفسك» كانت يداي ترتجفان عندما مدَّ يده ليأخذ الهاتف مني. كانت يداه ترتجفان أيضاً. استمعَ إلى رسالتكِ الأخيرة.

قال وقد ظهر على وجهه شيء يشبه الخيبة: «لماذا لم تتصلي بها بعد هذه الرسالة؟ إنها تبدو شديدة الانزعاج، ألم تلاحظي هذا؟».

«لا، إنني... إنني لا أعرف. إنها تبدو مثلما تبدو نيل دائماً. تكون سعيدة أحياناً وحزينة أحياناً أخرى، وأحياناً تكون غاضبة، كما كانت ثملة أكثر من مرة... لم يكن هذا يعني أي شيء. أنت لا تعرفها».

سألني وقد ظهرت في صوته نبرة أكثر حدة: «ماذا عن اتصالاتها الأخرى؟ هل لا تزال رسائلها محفوظة عندك؟».

لم تكن محفوظة عندي، ليست محفوظة كلها، لكنه استمع إلى الرسائل الموجودة. كانت كفُّه قابضةً على الهاتف بقوة ابيضَّت معها مفاصل أصابعه. أعاد إليّ هاتفي عندما فرغ من الاستماع إلى تلك الرسائل.

قال وهو يدفع كرسيه إلى الخلف وينهض واقفاً: «لا تحذفي هذه الرسائل. قد نكون في حاجة إلى الاستماع إليها من جديد». خرج من المطبخ فسِرتُ خلفه إلى مدخل البيت.

وعند الباب، استدار وواجهني. قال لي: «عليّ القول إنني أجد عدم

ردك على اتصالاتها أمراً غريباً غير طبيعي. أنت لم تحاولي معرفة السبب الذي يجعلها في هذه الحاجة الماسة إلى الحديث معك».

«ظننت أنها تريد لفت الانتباه فقط». قلت هذا بصوت هادئ فاستدار مبتعداً.

بعد أن أغلق الباب من خلفه تذكرت. خرجتُ أجري وراءه.

صحت أناديه: «يا محقق تاونسند! كان هنالك سوار. إنه سوار أمي. كانت نيل تضعه دائماً. هل عثرتم عليه؟».

هزَّ رأسه وهو يستدير لينظر إليّ: «لا، لم نجد شيئاً. قالت لينا للمحققة مورغان إن نيل لم تكن تضعه كثيراً؛ قالت إنه ما كان شيئاً تستخدمه كل يوم. ورغم ذلك...» تابع كلامه وقد خفض رأسه قليلاً... «أظن أنك ما كنت تعرفين هذا». رفع رأسه ونظر في اتجاه البيت ثم صعد إلى سيارته وسار بها إلى الخلف ببطء حتى خرج من فناء البيت.

جولز

إذن، بطريقة ما، انتهى الأمر بأن يصير الذنب ذنبي أنا! أنت حقّاً لست قليلة يا نيل! لقد رحلت، وربما قُتلت، وها هم كلهم يشيرون إليّ بأصابعهم. لكني لم أكن هنا، لم أكن حتى في هذا المكان! أحسست بأنني صرت نكدة مشاكسة، بأنني عدت إلى ذاتي في عمر المراهقة. أردت أن أصرخ عليهم. كيف تكون الغلطة غلطتي أنا؟

بعد ذهاب المفتش، عدتُ إلى البيت متثاقلة فلمحت صورتي في مرآة الممر عندما دخلت، وفوجئت بأن أراكِ تنظرين إليَّ من تلك المرآة (أكبر سناً، ولست جميلة جداً، لكنك لا تزالين أنت). تمزق شيء في صدري. دخلت المطبخ وبكيت. إذا كنت قد خذلتك فإنني في حاجة

إلى معرفة كيف حدث هذا. لعلي لم أحببكِ، لكني لا أستطيع هجركِ هكذا، لا أستطيع جعلكِ متروكة هكذا. أريد أن أعرف إن كان أحد قد ألحق بكِ الأذى، وأريد أن أعرف لماذا، وأريده أن يدفع الثمن. أريد أن يصل الأمر كله إلى نقطة يستطيع الاستقرار فيها حتى تكوني قادرة على التوقف عن الهمس في أذني قائلة إنك لم تقفزي، لم تقفزي، لم تقفزي. أنا أصدقكِ، هل اتفقنا هكذا؟ وأنا (همست لها بهذا) أريد أن أعرف أنني في أمان. أريد أن أعرف أن أحداً لن يأتي من أجلي، أن أحداً لن يأتي خلفي. وأريد أن أعرف أن الطفلة التي صار عليَّ الآن أن آخذها تحت جناحي مجرد طفلة... طفلة لا تحمل ملامة، ليست شيئاً آخر، ليست شيئاً خطيراً.

ظللت أرى أمامي كيف نظرت لينا إلى المحقق تاونسند. وظللت أسمع نبرة صوتها عندما خاطبته باسمه الأول (باسمه الأول؟) وكيف نظر إليها. تساءلت أيضاً إن كان ما قالته لهم عن السوار صحيحاً. في أذني، بدا الكلام كذباً، لأنك كنت سريعة جداً في الاستيلاء على ذلك السوار، في جعله ملكاً لك. أظن أنه كان من الممكن أنك لم ترغبي في الحصول عليه إلَّا لمعرفتكِ بأنني أريده كثيراً. عندما عثرتِ عليه بين أشياء أمنا ووضعته في معصمك، ذهبتُ إلى أبي شاكية (نعم، قولي الآن إنني أختلق القصص أيضاً). سألته، لماذا تأخذه هي؟ فأجبتِ أنت: «ولم لا؟ إنني الأكبر سناً». وبعد ذهابه، نظرتِ إليه في معصمك نظرة إعجاب وقلت: «إنه يلائمني. ألا ترين إنه يلائمني؟». ثم أمسكتِ بأصابعك طبقة الدهن تحت الجلد على ذراعي... «أشكُّ في أنه يتسع ليدكِ السمينة هذه».

مسحت عيني بأصابعي. كنت تلدغينني هكذا في مرات كثيرة؛ كانت القسوة طبعك الأقوى. بعض الهزء وبعض الإهانات أيضاً...

عن ضخامتي، وعن شدة بطئي، وعن بلادتي... كانت لدغاتك تؤذيني. وغيرها أيضاً... «هيا يا جوليا، قولي لي بصدق... ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحبَّ ذلك؟»... كانت الأشواك تنغرس عميقاً في لحمي، تنغرس فلا أستطيع انتزاعها إلّا إذا أردت أن أفتح الجروح القديمة من جديد. تلك الإهانة الأخيرة التي صفعتْ أذني يوم دفنّا أمنا أوه، كان يسعدني يومها أن أخنقك بيدي العاريتين لأنك قلت هذه الكلمات. إن كنت استطعت أن تفعلي هذا بي أنا، إن كنت قادرة على جعلي أحسُّ هذا الإحساس نحوك، فمن غيري جعلتِه قاتلاً؟

عميقاً في جوف المنزل، في غرفة مكتبك، بدأت أبحث في أوراقك. بدأت بالأشياء العادية. أخرجت من خزائن المصنفات الخشبية عند الجدار ملفات فيها تقارير طبية لك ولّلينا، وشهادة ميلاد لينا... شهادة ميلاد من غير ذكر اسم الأب. كان علي أن أفهم أن الأمر سيكون هكذا، بالطبع؛ كان هذا واحداً من أسرارك، واحداً من أسرارك التي تضمِّينها إلى صدرك بقوة. لكن، حتى لينا لا يجوز أن تعرف؟ (كان عليّ أن أتساءل، بطريقة غير لطيفة أبداً، إن كنت تعرفين اسم ذلك الأب أصلاً).

وجدت أيضاً تقارير مدرسية، وتقارير من مدرسة مونتيسوري النهارية في باركسلوب في بروكلين، وتقارير أخرى من مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية محلية هنا في بيكفورد. وثائق ملكية البيت، وبوليصة تأمين على الحياة (لينا هي الشخص المستفيد في هذه الوصية)، وكشوفات مصرفية، وحسابات استثمارية. كل التفاصيل العادية التي تشير إلى حياة حسنة الترتيب نسبيّاً، حياة من غير أسرار تُفشى ومن غير حقائق يجب قولها.

وفي الأدراج السفلى كانت ملفاتك التي تخص «المشروع»: صناديق ملأى بنسخ عن بعض الصور، وصفحات من الملاحظات بعضها مطبوع

وبعضها بخط يدك العنكبوتي مكتوبة بحبر أزرق أو أخضر، فيها كلمات مشطوبة وأخرى بأحرف كبيرة وأخرى تحتها خطوط... كأنها من تهويمات أصحاب نظريات المؤامرات. امرأة مجنونة! بعكس الملفات الأخرى (ملفات الأمور الإدارية)، ما كان شيء من هذه الأوراق مرتباً بل كانت غارقة في الفوضى، مختلطة متداخلة كلها. كأن أحداً قد تصفح هذه الملفات قبلي باحثاً عن شيء فيها. تحبحب جلدي وجف فمي. لقد بحثت فيها الشرطة، بالطبع. إن كمبيوترك لديهم، لكن هذا لا يعني أنهم لا يودون رؤية هذه الأوراق. لعلهم كانوا يبحثون فيها عن ملاحظة أو رسالة تركتِها.

بحثت في الصندوق الأول، صندوق الصور. كان أكثرها صوراً للبركة والصخور والشاطئ الرملي الصغير. وعلى هوامش بعض تلك الصور وضعتِ علامات، كتبتِ رموزاً لم أستطِع تفسيرها. هناك صور لبيكفورد أيضاً: شوارعها وبيوتها، البيوت الحجرية الجميلة والبيوت الجديدة البشعة. كانت هنالك صور متكرِّرة لواحد من تلك البيوت، بيت صغير على الطراز الإدواردي له ستائر وسخة، نصف مُسدلة. كانت هنالك أيضاً صور لمركز البلدة، وللجسر، وللحانة، وللكنيسة، وللمقبرة. صورة قبر ليبي سيتون.

مسكينة ليبي! كانت هاجساً يسكنك منذ كنت طفلة. كنت أكره القصة، تلك القصة الحزينة القاسية. لكنك كنت تريدين سماعها مرة بعد مرة بعد مرة. كنت تريدين أن تسمعي كيف أتوا بليبي إلى الماء، كانت لا تزال طفلة، وكانت متهمة بالسحر. لماذا؟ كنت أسأل فتقول أمي إن السبب هو أن جدَّتها كانت تعرف أشياء عن الأعشاب والنباتات. كانتا تعرفان كيف تصنعان الأدوية. بدا لي هذا سبباً غبياً. لكن قصص الكبار مليئة بالقساوات الغبية: أطفال صغار يطردونهم من عند بوابات المدرسة

لأن لون جلدهم مختلف؛ وأشخاص يُضربون أو يُقتلون لأنهم يعبدون رباً مختلفاً. قلت لي فيما بعد إن الأمر ما كان متعلقاً بصنع الأدوية بل كان لأن ليبي أغوت (لقد فسرتِ لي هذه الكلمة) رجلاً كبير السن وأغرته بترك زوجته وطفله. لم تكن هذه الفعلة تقلل من شأنها في نظرك... كانت إشارة إلى قوتها.

عندما كنتِ صغيرة، في السادسة أو في السابعة، أصررتِ على ارتداء واحدة من تنورات أمي القديمة وعلى الذهاب بها إلى البركة. كانت أطرافها تتجرجر خلفك في التراب رغم أنك رفعتها حتى ذقنك. تسلقت الصخور ثم قذفت بنفسك إلى الماء بينما كنت ألعب على الشاطئ. لقد كنتِ ليبي: انظري يا أمي! انظري! أتظنين أنني سأغرق أم سأسبح؟ أستطيع رؤيتك الآن تفعلين ذلك، وأستطيع رؤية الإثارة في وجهك. لا أزال قادرة على الإحساس بيد أمي الناعمة في يدي، والرمل الدافئ بين أصابع قدمي عندما وقفنا ننظر إليك. ليس لهذا أي معنى: إن كنتِ في السادسة، أو في السابعة، فقد كنت في الثانية أو الثالثة لا يمكن أن أستطيع تذكر ذلك! أليس هذا صحيحاً؟

فكرتُ في القداحة التي وجدتها في درجك، تلك التي حفر عليها الحرفان «ل. س.» هل يشير هذان الحرفان إلى ليبي ستون؟ حقاً، يا نيل؟ هل كان هذا الهاجس يسكنكِ فعلاً؟ هاجس عن فتاة ماتت منذ ثلاثمئة عام جعلك تحفرين الحرفين الأولين من اسمها على أشيائك؟ قد لا يكون الأمر هكذا. قد لا تكونين مسكونة بذلك الهاجس. لعلك فقط أحببت فكرة أن تكوني قادرة على حملها في راحة يدك.

عدت إلى تلك الملفات، عدت أبحث فيها عن المزيد عن ليبي. قلّبت صفحات مطبوعة فيها كلام وصور وفيها مقتطفات من مقالات في صحف قديمة وقصاصات من مجلات. وهنا وهناك، كنت أرى زخْف

قلمك الأخرق على حواف تلك الأوراق، كتابة غير مفهومة عادة، كتابة نادراً ما تكون واضحة. هنالك أسماء سمعت بها وأسماء لم أسمع بها: ليبي وميري وآن وكاتي وجيني ولورين. وهناك، في أعلى صفحة لورين، كتبتِ بقلمك الأسود العريض:

بيكفورد ليست مكان انتحار. بيكفورد مكان للتخلص من النساء اللواتي يثرن المشاكل.

بركة الغارقات

ليبي، 1679

بالأمس، قالوا لها غداً؛ وهذا يعني اليوم. تعرف الآن أن الأمر لن يطول. سوف يأتون لأخذها إلى الماء لكي تسبح هناك. وهي تريد أن يأتي هذا، تريد كثيراً أن يأتي هذا... ليته يأتي سريعاً. لقد تعبت من إحساسها بالقذارة ومن الحكة في جلدها. وهي تعرف أن الأمر لن يكون مفيداً لها فيما يتعلق بقروحها التي تعفّنت وصارت رائحتها سيئة. إنها في حاجة إلى بعض الأعشاب، إلدربيري أو ربما ماريغولد، ليست واثقة من العشبة الأفضل لحالتها ولا تعرف أيضاً إن كان الوقت تأخر على فعْل أي شيء. لو كانت العمة ماي هنا لعرفت، لكنها رحلت الآن، تأرجحت على المشنقة منذ ثمانية شهور.

ليبي تحب الماء وتحب النهر، لكنها تخاف المياه العميقة. ستكون البرودة الآن كافية لجعلها تتجمد، لكنها ستزيل هذه الحشرات من جلدها. حلقوا شعرها منذ بداية اعتقالها، لكن الشعر نما قليلاً من جديد، وهنالك أشياء تزحف في كل مكان وتحفر لنفسها أنفاقاً فيها. إنها تحسها في أذنيها وفي زوايا عينيها، وما بين ساقيها. تحك جلدها إلى أن تدميه. سيكون أمراً حسناً أن يغسل الماء ذلك كله عنها. أن يزيل عنها رائحة الدم، أن يزيل عنها نفسها.

جاؤوا في الصباح. رجلان شابان، أيديهما خشنة قاسية، كلماتهما

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خشنة، لقد عرفت طعم قبضاتهما من قبل. لكنهم ما عادوا يفعلون ذلك؛ صاروا أكثر حرصاً الآن لأنهم سمعوا ما قاله الرجل، ذلك الرجل الذي رآها في الغابة ورأى ساقيها منفرجتين والشيطان بينهما. إنهم يضحكان ويصفعانها، لكنهما يخشيانها أيضاً. ثم إنه ما عاد لديها ما يستحق النظر إليه هذه الأيام.

تسأل نفسها: هل سيكون هناك ليراها، وما الذي سوف يدور في عقله؟ كان يراها جميلة ذات يوم، لكن أسنانها صارت متعفِّنة وصار جلدها مبقعاً بالأزرق والأرجواني كأنها نصف ميتة منذ الآن.

يأخذونها إلى بيكفورد حيث ينعطف النهر انعطافاً حاداً حول الجرف ثم يجري بطيئاً، بطيئاً وعميقاً. وهناك ستسبح.

الوقت خريف. تهب ريح باردة. لكن الشمس مشرقة وهذا ما يجعلها تشعر بالخجل عندما يعرُّونها هناك في وضح النهار أمام رجال القرية ونسائها. تظن أنها قادرة على سماعهم يشهقون، مذعورين أو مفاجئين، عندما يرون كيف صارت حال ليبي سيتون الجميلة.

ربطوها بحبال ثخينة خشنة جعلت الدم يسيل من معصميها مرة أخرى، دم لامع جديد. الذراعان مقيدتان فقط. الساقان حرتان. ثم يربطون حبلاً حول خصرها حتى يستطيعوا انتشالها وشدها إليهم من جديد إذا غاصت تحت الماء.

عندما يأخذونها إلى حافة النهر، تقف وتستدير باحثة عنه. يصرخ الأطفال فزعاً عند ذلك ويظنون أنها تستدير لتلقي اللعنة عليهم؛ ويدفعها الرجال إلى الماء. يسلبها البرد أنفاسها كلها. يحمل أحد الرجال عصا طويلة يدفعها بها من ظهرها ويضغطها، ثم يضغطها إلى أن تعجز عن الوقوف. إنها تنزلق، تسقط في الماء.

إنها تغوص.

البرد خانق إلى حدٍّ يجعلها تنسى أين هي. تفتح فمها لتتنفس، لكنها

تبتلع ماءً أسود. تبدأ الاختناق، لكنها تكافح وترفس بساقيها. إلَّا أنها مشوشة وما عادت تحس قاع النهر تحت قدميها.

يشدها الحبل بقوة ويحز خصرها، يمزق جلدها.

تبكي عندما يجرونها إلى الضفة.

«من جديد!».

أحدهم يطالب بتجربة ثانية.

يصيح صوت نسائي: «لقد غاصت! إنها ليست ساحرة. إنها طفلة فحسب».

أصوات تصيح: «مرة أخرى! مرة أخرى!».

ربطها الرجال من جديد. ربطوها بطريقة مختلفة هذه المرة: إبهام اليد اليسرى إلى إبهام القدم اليمنى، وإبهام اليد اليمنى إلى إبهام القدم اليسرى. حبل يلف وسطها. وهذه المرة، حملوها إلى قلب الماء.

«أرجوكم!»... بدأت تتوسل لأنها صارت الآن غير واثقة من قدرتها على مواجهة الأمر، السواد والبرد. تريد العودة إلى بيتٍ ما عاد موجوداً، وإلى زمن كانت تجلس فيه مع خالتها أمام نار الموقد تروي كل منهما قصصاً للأخرى. تريد أن تكون في سريرها، في بيتهما الصغير؛ وتريد أن تعود طفلة من جديد، أن تستنشق رائحة الحطب المشتعل والورد والدفء الحلو المنبعث من جلد خالتها.

«أرجوكم!».

إنها تغرق.

عندما سحبوها من الماء بعد ذلك، كانت شفتاها زرقاوين، متكدِّمتين، وكان تنفُّسها قد توقف إلى الأبد.

الاثنين، 17 آب/أغسطس

نيكي

جلست نيكي على الكرسي عند النافذة تنظر إلى الشمس التي أشرقت وترى كيف يكنس دفؤها ضباب الصبح الخفيف عن التلال. لم تنم إلّا قليلاً. كيف تنام في هذا الحر، وكيف تنام بينما تثرثر أختها في أذنها طيلة الليل.

ما كانت نيكي تحب الحر. كانت مخلوقاً مصنوعاً للطقس البارد: انحدرت أسرة أبيها من هيبريدس في أقصى الشمال... كانوا أشبه بالفايكينغ. أما أهل أمها فجاؤوا من شرق سكوتلندا، انحدروا جنوباً قبل مئات السنين هاربين من صائدي الساحرات. قد يكون هذا ما لا يصدقه الناس في بيكفورد، وقد يستهزئون به أو يحتقرونه، لكن نيكي تعرف أنها من سلالة الساحرات. إنها قادرة على رسم خط نسبها الممتد رجوعاً في الزمن من عائلة سيج إلى عائلة سيتون.

استحمت وأكلت وارتدت ثوباً محترماً أسود ومضت إلى البركة أولاً. خرير الماء البطيء المتطاول على امتداد الطريق. كانت مسرورة بالظل الذي منحتها إياه أشجار البلوط والبتولا. ورغم هذا، تسللت قطرات العرق إلى عينيها، وتجمع العرق عند أسفل ظهرها. عندما بلغت

الشاطئ الصغير في الناحية الجنوبية، خلعت صندلها وخاضت في الماء حتى كاحليها. انحنت فغرفت الماء بكفها ورشت به وجهها ورقبتها وأعلى ذراعيها. مر زمن كانت قادرة فيه التسلق حتى قمة الجرف لتقديم الاحترام الواجب لمن سقطن ولمن قفزن ولمن دُفعن، لكن ساقيها ما عادتا قادرتين على هذا فصار عليها أن تقول ما تريد قوله للسابحات من حيث تقف الآن في الأسفل.

كانت نيكي واقفة في هذه البقعة تماماً عندما رأت نيل آبوت أول مرة. كان هذا منذ سنتين، وكانت تفعل مثلما تفعل الآن تماماً... تخوض في الماء قليلاً لتخفف الحر عنها... رأت في ذلك الوقت امرأة فوق الجرف. نظرت إليها وهي تتقدم وتتراجع، مرة ثم مرتين، وفي المرة الثالثة سرت رعشة في يدي نيكي. قالت في نفسها إن هنالك شيئاً شريراً. ظلَّت تنظر إلى المرأة التي قرفصت ثم جثت على ركبتيها ثم تحركت حتى حافة الجرف كأنها حيَّة تنزلق على بطنها ودلّت ذراعيها من تلك الحافة. ذُعرت نيكي فصاحت بها: «أووي!» رفعت المرأة رأسها فدُهشت نيكي عندما رأتها تبتسم لها وتلوح بيدها.

رأتها نيكي هنا وهناك عدة مرات بعد ذلك. كانت تجلس عند البركة كثيراً فتلتقط الصور وترسم وتكتب بعض الأشياء. كانت تصادفها هناك مرات كثيرة، في الليل والنهار وكيفما كانت حالة الطقس. ومن نافذتها، كانت نيكي ترى نيل أحياناً تسير عبر القرية ذاهبة إلى البركة في قلب الليل أو في عاصفة ثلجية، أو عندما ينهمر المطر غزيراً فيسوط الأرض بقوة يحسُّ المرء أنها قادرة على سلْخ الجلد عن العظم.

تمرُّ نيكي بها في الطريق أحياناً فلا يبدو عليها أنها تراها؛ بل حتى إنها لا تلاحظ وجود أحد بالقرب منها... تكون نيل غارقة إلى هذا الحد في ما يشغلها. كان هذا يعجب نيكي، يعجبها التركيز عند هذه المرأة،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يعجبها كم يستغرقها عملها. وكانت أيضاً تحب إخلاص نيل للنهر. مرَّ زمن كانت نيكي تحب فيه أن تسبح في الماء في صباح صيفي دافئ لكن تلك الأيام صارت خلفها الآن وأما نيل!... إنها تسبح في الفجر وفي الغسق، في الشتاء وفي الصيف. لكن نيكي تتذكر الآن أنها لم ترها سابحة في النهر منذ بعض الوقت، لم ترها في النهر منذ أسبوعين. أو لعل المدة أطول من ذلك؟ حاولت أن تتذكر آخر مرة رأتها في الماء لكنها لم تستطع، لم تستطع لأن أختها عادت تثرثر في أذنها من جديد، عادت تشوش عقلها.

كانت تتمنى أن تستطيع إخراسها.

كان الجميع يظنون أن نيكي هي البطة السوداء في الأسرة، لكن الحقيقة أن أختها جين هي من كان كذلك. خلال طفولتهما كلها، كان الكل يقول إن جين فتاة طيبة تفعل ما يُقال لها؛ ثم ماذا تظنون أنها فعلت عندما أتمت السابعة عشر؟ انتسبت إلى الشرطة. الشرطة! كان والدهما عامل منجم... بحق الرب! كانت هذه خيانة؛ هكذا قالت أمهما... خيانة للأسرة كلها، وللجماعة كلها. عند ذلك، كف أبوهما وأمهما عن الكلام مع جين. وكان من المفترض أن تقطع نيكي علاقتها بها أيضاً. لكنها لم تستطع ذلك.... كيف تستطيع؟ كانت جيني أختها الصغيرة.

فمها المزعج الكبير كان مشكلتها الحقيقية... لا تعرف متى يكون عليها إطباقه. بعد أن تركت الشرطة، وقبل أن ترحل عن بيكفورد، حكت جين لنيكي قصة جعلت شعرها ينتصب ذعراً. ومنذ ذلك الوقت صارت نيكي تعض لسانها وتبصق في التراب وتتمتم بتعويذاتها لتحمي نفسها كلما مر باتريك تاونسند في طريقها.

نجح الأمر، حتى الآن. لقد حمتْ نفسها. لكن جيني لم تستطع حماية نفسها. بعد ذلك الأمر مع باتريك وزوجته، والمتاعب التي تلت ذلك،

انتقلت جيني إلى إدنبره وتزوجت رجلاً لا نفع منه، فانطلقا معاً يمضيان خمسة عشر عاماً بعد ذلك ويشربان حتى ماتا. لكن نيكي ظلت تراها من حين لآخر، تراها في رأسها... وظلت تكلمها. تزايدَ هذا في الآونة الأخيرة. عادت جيني ثرثارة من جديد. عادت صاخبة مزعجة، ملحَّة.

كانت خلال الليالي القليلة الماضية تثرثر أكثر من أي وقت مضى. بدأ ذلك يوم رحلت نيل آبوت. لو كانت جيني هنا لأحبَّت نيل ورأت شيئاً من نفسها فيها. كانت نيكي تحب نيل أيضاً، وتحب أحاديثهما، وتحب حقيقة أن نيل تصغي إليها عندما تتكلم. كانت تصغي إلى قصصها، لكنها لم تكترث بتحذيراتها، أليس هذا صحيحاً؟ تماماً مثلما فعلت جيني، كانت نيل واحدة أخرى من اللواتي لا يعرفن متى يكون عليهن إطباق أفواههن.

القضية هي أن النهر يرتفع أحياناً... بعد موجة أمطار غزيرة مثلاً. يتمرَّد النهر فيبتلع الأرض ويقلبها ويكشف أشياء ضائعة: عظام خروف، وحذاء طفل، وساعة ذهبية غمرها الطمي، ونظارة لها سلسلة فضية. سوار له مشبك مكسور. سكين، وخطاف صيد، وامرأة غارقة. علب معدنية، وعربات تسوق. فضلات. أشياء لها معنى، وأشياء ليس لها معنى. لا بأس بهذا كله لأن الأشياء تكون هكذا، ولأن النهر هكذا. النهر قادر على العودة إلى الماضي وإحضاره كله وبصقه على ضفافه أمام أعين الجميع، أما الناس فلا يستطيعون. النساء لا يستطعن. عندما يبدأ المرء بطرح الأسئلة وبوضع إعلانات صغيرة في المحلات والمقاهي، وعندما يبدأ التقاط الصور والحديث إلى الصحف وطرح أسئلة عن الساحرات والنساء والأرواح الضائعة، فإنه لا يبحث عن إجابات لأسئلته... إنه يبحث عن المتاعب.

كان على نيكي أن تدرك هذا.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سارت بعد أن جفّفت قدميها وارتدت صندلها من جديد. سارت ببطء شديد في طريق العودة، وصعدت الدرجات التي عند الجسر، كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة... لقد اقترب الموعد. مضت إلى الدكان فاشترت لنفسها علبة كوكاكولا وجلست على مقعد في الجهة الأخرى من الشارع قبالة الكنيسة. لن تدخل الكنيسة (ليست الكنيسة مكاناً لها)، لكنها أرادت أن تنظر إليهم. أرادت أن تنظر إلى مَن هم في حداد، وكذلك إلى المتسكِّعين والمنافقين الذين لا يستحون.

جلستْ وأغمضت عينيها (ظنَّت أنها أغمضتهما لحظة فقط)، لكنهما فتحتهما من جديد فرأت أن الأمر قد بدأ. نظرت إلى الشرطية الشابة، الشرطية الجديدة. كانت تسير هنا وهناك وتميل برأسها ملتفة في كل اتجاه مثلما يفعل ابن عرس. إنها تراقب الناس أيضاً. رأت القادمين من الحانة... صاحب الحانة وزوجته والشابة التي تعمل على البار، ورأت اثنين من معلمي المدرسة: السمين ذا المظهر المهمل، والوسيم الذي يضع نظارة على عينيه. رأت آل ويتاكر، ثلاثتهم، ورأت البؤس يقطر منهم كأنه يقطر من إناء: الأب وقد جلله الحزن، والابن المذعور الخائف من ظلِّه... وحدها الأم كانت رافعة رأسها. زمرة من الصبايا الصاخبات كالإوز، ومن خلفهن رجل، وجه من الماضي، وجه قبيح. عرفته نيكي لكنها لم تستطع تذكر اسمه، لم تستطِع تحديده في دماغها. لقد شتتت انتباهها السيارة الزرقاء الداكنة التي انعطفت داخلة إلى موقف السيارات، وشتت انتباهها ذلك الوخز الذي أحسته في جلدها، إحساسها بالهواء البارد على رقبتها. رأت المرأة أولاً، هيلين تاونسند، في ملابس أنيقة كأنها عصفور بني، رأتها تنزل من مقعد السيارة الخلفي. نزل زوجها من مقعد السائق، ومن المقعد الذي إلى جواره نزل رجل عجوز، إنه باتريك... لا يزال ظهره منتصباً مثل ضابط كبير. إنه باتريك تاونسند. رجل الأسرة، محور هذا المجتمع الصغير، شرطي سابق. حثالة. بصقت

نيكي على الأرض وتلت تعويذاتها. أحسَّت أن الرجل العجوز ينظر إليها، وأحسَّت أن جيني تهمس في رأسها: لا تنظري إليه يا نيكي.

أحصت نيكي عددهم عند دخولهم، وأحصت عددهم عند خروجهم بعد نصف ساعة. كانت هنالك فوضى عند الباب، أناس كأنهم يتدافعون، يسبق أحدهم الآخر، ثم حدث شيء بين معلم المدرسة الوسيم ولينا آبوت... كلمة قيلت بصوت حاد. كانت نيكي تراقبهم ورأت أن الشرطية تنظر إليهم أيضاً. رأت شون تاونسند يسير بين الناس، كان أطول منهم جميعاً. كان يحفظ النظام. لكن هنالك شيء مفقود، رغم ذلك! مثلما يحدث في تلك الحيل حين تغفل عينك عن الكرة لحظة واحدة ثم تنظر فترى أن مجرى اللعبة كله قد تغيَّر.

هيلين

كانت هيلين جالسة إلى طاولة المطبخ تبكي بصمت. كتفاها يهتزان، وكفاها مطبقان في حجرها. لم يفهم شون سبب بكائها، لم يفهم أبداً.

قال لها وهو يضع يده بلطف على كتفها: «لستِ مضطرة إلى الذهاب، لا سبب يدعوك إلى الذهاب».

قال باتريك: «بل عليها أن تذهب. على هيلين أن تذهب، وعليك أنت تذهب... يجب أن نذهب كلنا. نحن جزء من هذا المجتمع».

هزت هيلين رأسها وهي تمسح دموعها بباطن كفيها. قالت وهي تسعل قليلاً: «سأذهب بالطبع، سأذهب، طبعاً».

ما كانت حزينة بسبب الجنازة، بل لأن باتريك كان قد أغرق القطة المخطّطة في النهر ذلك الصباح. كانت القطة حبلى، هكذا قال لها. وما كانوا قادرين على ترك المكان يمتلئ قططاً. سيكون هذا مصدر إزعاج. إنه

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على حق، بالطبع، لكن هذا لم يخفف حزنها. القطة المخطّطة، تلك القطة الشاردة. صارت هيلين تحس أنها حيوان أليف يعيش في بيتها. كانت تحب النظر إليها وهي تسير عبر فناء البيت كل صباح تتشمَّم الأرض عند الباب بحثاً عن شيء تأكله أو تهاجم متكاسلة تلك النحلات التي تطير وتطن حول أجمة أكليل الجبل. جعلها التفكير فيها تبكي من جديد.

بعد صعود شون إلى الأعلى، قالت لباتريك: «ما كان عليك أن تغرقها. كان يمكنني أخذها إلى الطبيب البيطري. وهناك يستطيعون إعطاءها شيئاً يجعلها تنام».

هز باتريك رأسه. قال بطريقة خشنة: «لا حاجة إلى هذا. إنها الطريقة الأفضل. لقد انتهى الأمر بسرعة شديدة».

لكن هيلين كانت قد رأت خدوشاً عميقة على ذراعيه، خدوشاً تشهد بأن القطة قاومت بشراسة. قالت في نفسها... أمر جيد. آمل أن تكون قد آذتك حقاً. لكنها انزعجت من نفسها بعد ذلك لإدراكها أنه لم يفعل هذا حتى يكون شخصاً قاسياً. قالت له وهي تشير إلى الخدوش على ذراعيه: «لا بد من معالجة هذه».

هز رأسه وقال: «لا بأس، إنني بخير».

«لا، لست بخير. يمكن أن تصيبك عدوى. وسوف يلوث الدم قميصك».

جعلته يجلس عند الطاولة ونظفت جروحه، ثم وضعت عليها مادة معقّمة قبل أن تثبت شريطاً طبياً لاصقاً على أعمقها. كان ينظر إلى وجهها طيلة الوقت. ظنَّت أنه أحسَّ شيئاً من الندم لأنه قبّل يدها عندما انتهت وقال لها: «فتاة طيبة. أنت فتاة طيبة». نهضت وابتعدت عنه. وقفت عند المجلى مستندة بكفيها على حافته ونظرت إلى بلاط الأرض الذي تغمره الشمس. عضَّت شفتها.

تنهد باتريك، ثم قال بصوت منخفض كأنه يتمتم: «انظري يا عزيزتي، أعرف أن هذا صعب عليك. إنني أعرف. لكن علينا أن نذهب كأسرة، ألا ترين هذا؟ علينا أن نساند شون. ليس الأمر متعلِّقاً بالحداد عليها بل إننا ذاهبون لكي نضع هذا الأمر كله خلف ظهورنا».

لم تعرف هيلين إن كانت كلماته هي السبب أو أنفاسه التي أحسَّتها على رقبتها، لكنها أحسَّت بشعرها ينتصب. قالت له وهي تستدير في اتجاهه: «باتريك، يا أبي. يجب أن أتكلم معك فيما يخص السيارة، عن...».

كان شون يهبط السلم محدثاً ضجيجاً مرتفعاً. كان يقفز كل درجتين معاً.

«عن ماذا؟».

قالت عندما رأته متجهماً: «لا شيء. لا أهمية للأمر».

صعدت إلى الأعلى فغسلت وجهها وارتدت البدلة الرمادية الداكنة التي تحتفظ بها عادة من أجل اجتماعات مجلس المدرسة. أجرَتْ المشط في شعرها محاولة عدم النظر إلى عينيها في المرآة. ما كانت تريد الاعتراف بخوفها، حتى لنفسها. وما كانت تريد مواجهة ما كانت في سبيلها إلى مواجهته. لقد وجدت بعض الأشياء في علبة القفازات في سيارتها. أشياء لم تستطع تفسيرها، وما كانت واثقة من أنها تريد تفسيراً لها. لقد أخذتها كلها فخبأتها تحت سريرها بطريقة غبية، طفولية.

ناداها شون من الأسفل: «هل أنت جاهزة؟».

أخذت نفساً عميقاً وأرغمت نفسها على النظر إلى صورتها في المرآة... نظرت إلى وجهها الشاحب النظيف وإلى عينيها الصافيتين كأنهما مصنوعتان من زجاج رمادي.

قالت: «إنني جاهزة». قالتها لنفسها.

جلست هيلين في مقعد سيارة شون الخلفي، وجلس باتريك إلى جانب ابنه. لم يتكلّم أحد منهم، لكنها أدركت عندما رأت يد شون تتلمس معصمه أنه قلق الآن. لا بد أنه يتألم، بالطبع. هذا الأمر كله، هذه الوفيات في النهر تثير ذكريات مؤلمة عنده وعند أبيه.

عند اجتيازهم الجسر الأول، نظرت هيلين إلى الماء المُخضرِّ وحاولت منع نفسها من التفكير فيها... مغمورة بالماء، تكافح من أجل حياتها. إنها القطة. كانت تفكر في تلك القطة.

جوش

جرت مشاجرة بيني وبين أمي قبل أن نذهب إلى الجنازة. نزلتُ إلى الأسفل فرأيتها هناك، في الممر، كانت واقفة أمام المرآة تضع أحمر الشفاه. كانت مرتدية كنزة حمراء. قلت لها إنها لا تستطيع ارتداء هذه الكنزة في الجنازة لأن في هذا قلة احترام. لم تجبني بأكثر من ضحكة ساخرة مضت بعدها إلى المطبخ. ظلت تضحك في المطبخ ثم تابعت استعدادها كأنني لم أقل لها شيئاً. لكني ما كنت لأترك الأمر، رغم ذلك، لأننا لسنا في حاجة إلى اجتذاب مزيد من الانتباه. لا بد أن الشرطة ستكون هناك تأتي الشرطة دائماً إلى جنازات الأشخاص الذين يموتون بطريقة مريبة. يكفي أنني كذبت عليهم، وأن أمي كذبت عليهم ماذا يمكن أن يظنوا إذا رأوها تأتي إلى الجنازة بهذه الملابس كأنها ذاهبة إلى حفلة؟

تبعتها إلى المطبخ. سألتني إن كنت أريد بعض الشاي فقلت لها إنني لا أريد. قلت أيضاً إنني لا أظن أن عليها أن تذهب إلى الجنازة على الإطلاق فسألتني عن السبب مستغربة. قلت: «أنت لم تكوني تحبينها أصلاً. يعرف الجميع أنك لم تكوني تحبينها». منحتني تلك الابتسامة التي تضايقني وقالت: «أوه، إنهم يعرفون، أليس كذلك؟» قلت: «أنا

سأذهب لأن لينا صديقتي». أجابتني: «لا، ليست صديقتك». جاء أبي في تلك اللحظة وقال لها: «لا تقولي هذا يا لويز. إنها صديقته بالطبع». قال لها شيئاً آخر بصوت منخفض جداً لم أستطع سماعه فهزَّت رأسها وصعدت إلى الطابق العلوي.

أعدَّ لي أبي بعض الشاي الذي لم أكن أريده، لكنني شربته على أية حال.

سألته رغم أنني أعرف الإجابة: «هل ستكون الشرطة هناك؟ ماذا تظن؟».

«أتوقع هذا. كان السيد تاونسند يعرف نيل. و... نعم، أظن أن عدداً من أهل القرية سيرغب في تقديم التعازي سواء كان هؤلاء الناس على معرفة بها أو لا. إنني أعرف... أعرف أن الأمر معقد بالنسبة إلينا، لكني أظن أن من الصواب أن نحاول التماسك معاً، أليس كذلك؟» لم أجبه بشيء. فتابع يقول: «ثم إنك تريد رؤية لينا، أليس هذا صحيحاً؟ تريد رؤيتها لتقول لها إنك حزين لما أصابها. أستطيع تخيّل كم تشعر لينا بالبؤس الآن». ظللت صامتاً ولم أقل شيئاً. مد يده ليعبث بشعري لكنني خفضت رأسي وابتعدت عنه.

قلت له: «أبي! أنت تعرف كيف كانت الشرطة تسأل عن ليلة الأحد وعن المكان الذي كنا فيه آنذاك، وكل ذلك».

أومأ برأسه لكنني رأيته ينظر أيضاً من فوق رأسي ليتأكد إن كانت أمي تستمع إلينا أم لا. سألني بعد ذلك: «قلت إنك لم تسمع شيئاً غير معتاد، أليس كذلك؟» أومأت برأسي فقال: «أنت قلت الحقيقة».

ما كنت واثقاً إن كان قد قال «أنت قلت الحقيقة» في صيغة سؤال أو أنه قالها كأنه يعطيني توجيهاً حتى ألتزم به.

أردت أن أقول شيئاً، أردت أن أقوله بصوت مرتفع. أردت القول: ماذا لو؟ ماذا لو كانت قد فعلت شيئاً سيئاً؟ وذلك حتى يتمكن أبي من القول إنني سخيف وحتى يتمكن من الصراخ علي والقول لي: كيف يمكنك التفكير في هذا؟

قلت: «أمي ذهبتْ إلى الدكان».

نظر إلي كأنني شخص غبي، ثم قال: «نعم، أعرف هذا. ذهبت ذلك الصباح لتشتري حليباً. جوش... أوه!... ها أنتِ مستعدة للذهاب الآن»، قال الكلمات الأخيرة وهو ينظر إليها من فوق كتفي... «ها هي الآن. هذا أفضل، أليس كذلك؟».

نظرت فرأيت أنها قد استبدلت بقميصها الأحمر قميصاً أسود.

كان هذا أفضل بالطبع. لكني بقيت خائفاً مما سيحدث. كنت خائفاً من أن تقول شيئاً، من أن تضحك في وسط تلك المراسم أو تفعل شيئاً ما. كان في نظرتها تلك اللحظة شيء يضايقني حقاً... ما كان شيئاً يوحي بأنها سعيدة أو أي شيء آخر، بل كان أشبه... أشبه بالنظرة التي ترمق بها أبي عندما تفوز في جدال ما... كأنها تقول: قلت لك أن من الأسرع أن نأخذ الباص رقم 68. كان ذلك كأنها أثبتت وجهة نظرها في شيء ما ثم لم تستطع جعْل تعبير الفوز يزول عن وجهها.

عندما بلغنا الكنيسة وجدنا عدداً غير قليل من الناس الذين وصلوا قبلنا. وهذا ما جعلني أرتاح قليلاً. رأيت السيد تاونسند، وأظن أنه رآني، لكنه لم يأتِ في اتجاهنا ولم يقل شيئاً. كان واقفاً هناك فحسب ينظر من حوله، ثم تقدَّم لينظر إلى لينا وخالتها عندما ظهرتا فوق الجسر. بدت لينا فتاة كبيرة حقاً؛ بدا مظهرها مختلفاً عما يكون عادة. لا تزال جميلة. رأتني عندما مرَّتا بالقرب منا فابتسمت لي ابتسامة حزينة. وددت أن أذهب إليها

وأحتضنها، لكن أمي كانت تمسك بيدي... كانت تمسكها بشدة حقيقية فلم أستطع الإفلات منها.

ما كان علي أن أقلق من احتمال أن تضحك أمي. بدأت تبكي عندما دخلت الكنيسة. وراحت تنْشِج بصوت مرتفع جعل الآخرين يستديرون وينظرون إليها. وما كنت أعرف إن كان هذا قد جعل الأمور أحسن أو أسوأ.

لينا

استيقظتُ مبتهجة هذا الصباح. كنتُ مستلقية في السرير وقد أزحتُ الأغطية عني. كنت أحسُّ حرارة النهار تتصاعد، وعرفت أنه سيكون يوماً جميلاً. كنت قادرة على سماع صوت أمي تغني. ثم استيقظت.

الفستان الذي سأرتديه اليوم معلقٌ على ظهر باب غرفتي. إنه فستان لأمي، من صنع لانفين. كان من المستحيل أن تسمح لي بارتدائه، لكني لم أحسب أنها ستعترض اليوم على ذلك. لم ينظف هذا الفستان منذ آخر مرة ارتدته أمي؛ هذا يعني أن رائحتها لا تزال فيه. عندما أرتديه سيكون ذلك كأن جلدها صار على جلدي.

اغتسلت وجففت شعري ثم ربطته إلى الخلف. عادة ما أتركه مسبلاً، لكن أمي تحبه مربوطاً إلى الخلف. قمة الذوق... هكذا كانت تقول بطريقتها الخاصة الغريبة عندما تريد أن تجعلني أفتح عيني على اتساعهما استغراباً. وددت أن أذهب إلى غرفتها لأبحث عن سوارها. أعرف أنه سيكون في مكان ما هناك، لكني لم أستطع فعْل ذلك.

ما كنتُ قادرة على حمل نفسي على دخول غرفتها منذ وفاتها. كنتُ في تلك الغرفة آخر مرة بعد ظهر يوم الأحد الماضي. كنت ضجرة، وكنت حزينة على كاتي. فدخلتُ غرفة أمي لأبحث عن بعض الماريغوانا.

لم أجد شيئاً في الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير فبدأت أبحث في جيوب معاطفها في الخزانة، لأنها تضع الأشياء هناك أحياناً. ما كنت أتوقع عودتها إلى البيت. وعندما أمسكت بي لم يظهر عليها الغضب بل بدت حزينة بعض الشيء.

قلتُ لها: «لا تستطيعين طردي. إنني أبحث عن الخراء في غرفتك أنت. وهكذا فليس لك أن تغضبي مني. ستكونين منافقة تماماً إن غضبت».

قالت: «لا، إذا غضبت فسوف أكون ناضجة».

قلت: «الأمران سيَّان»، فضحكتْ.

قالت: «نعم، ربما، لكن الحقيقة هي أن من المسموح لي أن أدخن الماريغوانا، وأن أشرب الكحول، أما أنت فغير مسموح لك. لماذا تريدين أن تفقدي وعيك في نهار أحد جميل؟ تفعلين هذا وحدك أيضاً! شيء محزن، أليس كذلك؟» ثم تابعت تقول: «لماذا لا تذهبين للسباحة أو لفعل شيء ما؟ لماذا لا تتصلين بصديقة من صديقاتك؟» فقدت أعصابي لأن كلامها بدا شبيهاً بما تقوله لي تانيا وإيلي وتلك العاهرات كلهن... يقال لي إنني حزينة، وإنني فاشلة، وإنني صرت الآن من غير أصدقاء بعد أن قتلت نفسها الصديقة الوحيدة التي أحبتني. بدأت أصرخ وأقول لها: «بأية صديقة قذرة تريدين أن أتصل؟ ليس لدي صديقات، ألا تفهمين؟ ألا تذكرين ما حدث لأفضل صديقاتي؟».

هدأت أمي تماماً ورفعت يديها مثلما تفعل عادة (مثلما كانت تفعل عادة) عندما لا تريد تصعيد الموقف. لكنني لم أتراجع؛ ما كنت قادرة على التراجع. كنت أصرخ وأقول لها إنها تغيب كثيراً وإنها تتركني وحيدة طيلة الوقت، وكيف تكون بعيدة عني إلى درجة تجعلني أحسُّ أنها لا تريد أن أقترب منها. كانت تهز رأسها وتقول: «هذا غير صحيح،

هذا غير صحيح. إن كنتُ مشغولة الذهن، فإنني أعتذر. لكن هنالك أشياء تحدث ولا أستطيع شرحها لك. هنالك شيء يجب أن أفعله، ولا أستطيع شرح مدى صعوبته».

لكنني كنت باردة معها: «لست في حاجة إلى فعْل أي شيء يا ماما. أقسم أنك وعدتني بألا تقولي شيئاً. هذا يعني أنك لست مضطرة إلى فعل أي شيء. يا إلهي... ألا يكفي كل ما فعلتيه؟» قالت لي: «لينا، لينا، أرجوك. أنت لا تعرفين كل شيء. أنا أمك، وعليك أن تثقي بي».

قلتُ بعض الأشياء التافهة عند ذلك... أشياء عن أنها لم تكن أبداً أماً لي بالمعنى الحقيقي، فأي أم تلك التي تترك الماريغوانا في البيت وتأتي بالرجال في الليل بحيث أستطيع سماع ما يحدث؟ قلت لها إنه لو جرى الأمر بطريقة معاكسة، لو كنت أنا من تورّط في المشاكل، مثلما حدث مع كاتي، فسوف تعرف لويز ما تفعله... لو حدث ذلك لكانت أماً حقيقية ولفعلت شيئاً، لو كانت هي لمدَّت يد المساعدة. كان هذا كلاماً فارغاً بالطبع لأنني ما كنت التي تريد من أمي قول أي شيء. ذكّرتني بهذا، ثم قالت إنها حاولت المساعدة. وعند ذلك بدأت أصرخ عليها وأقول لها إنها مذنبة في كل شيء، وإنها إذا ذهبت وثرثرت مع أيٍّ كان فسوف أترك البيت ولن أتكلم معها بعد ذلك. كررتُ قولي مرة بعد مرة... لقد تسببتِ بما يكفي من الضرر. كان ذلك آخر ما قلته لها... وقلت لها إنها هي المذنبة في موت كاتي.

جولز

كان يوم جنازتك حاراً؛ كانت الحرارة تتلألأ على صفة الماء، وكان الضياء شديد السطوع والهواء محبوساً مغلقاً مثقلاً بالرطوبة. سرت في اتجاه الكنيسة مع لينا. كانت تتقدمني بعدة خطوات، وكانت المسافة بيننا

تتزايد. لا أحسن السير بحذاء مرتفع الكعبين، لكنها لا تجد صعوبة في ذلك. كانت تبدو في غاية الأناقة، في غاية الجمال، تبدو أكبر بكثير من خمسة عشر عاماً، في فستان أسود من قماش ناعم رقيق له فتحة صغيرة على الصدر. سرنا صامتتين، وكان النهر ينساب موحلاً بجانبنا، كان هادئاً كئيباً. وكانت رائحة عفونة تفوح في الهواء الدافئ.

عندما انعطفنا مقتربتين من الجسر، أحسستُ بشيء من الخوف عندما فكرت في الناس الذين قد يكونون في الكنيسة. خشيت ألا يأتي أحد أبداً، وأن نكون، أنا ولينا، مضطرتين إلى الجلوس وحدنا من غير أحد، من أن تكوني أنتِ جالسة بيننا.

سرت خافضة رأسي، أنظر إلى الطريق. وكنت أركز انتباهي على حركة قدمي محاولة عدم التعثر على الأسفلت غير المستوي. التصق قميصي بظهري (قميص أسود من قماش تركيبي له طوق عند الرقبة، قميص غير مناسب لهذا الطقس) بدأت عيناي تدمعان. إذا سالت الماسكارا فلا مشكلة في ذلك، هكذا قلت في نفسي! سيظنُّ الناس أنني أبكي.

لم تبكِ لينا حتى الآن. أو أنها لم تبكِ في حضوري على الأقل. أظن أنني أسمع نشيجها في الليل. لكنها تأتي إلى الفطور صافية العينين ولا يبدو عليها أي همٍّ. تخرج من البيت وتدخل البيت من غير أن تقول كلمة. أسمعها تتكلم بصوتٍ خفيضٍ في غرفتها، لكنها تتجاهلني وتنكمش مبتعدة عني عند اقترابي، وتكشّر عندما تسمع أسئلتي، وتحاول تجنب اهتمامي. لا تريد أن تكون لها علاقة معي. (أذكر عندما أتيتِ إلى غرفتي بعد وفاة أمّنا. كنت تريدين الكلام، لكني صرفتك. أهو الشيء نفسه؟ هل تفعل بي ما كنت أفعله بك؟ لست أدري!)

عندما اقتربنا من الكنيسة لاحظتُ امرأة جالسة على مقعد إلى جانب

الطريق. ابتسمت لي تلك المرأة فبانت أسنانها المهترئة. أظن أنني سمعت شخصاً يضحك، لكن ذلك كان أنت... تضحكين داخل رأسي.

تضم مقبرة الكنيسة بعض النساء اللواتي كتبتِ عنهن، بعض نسائك اللواتي كنَّ يسببن المشاكل. هل أنتن جميعاً من هذا النوع؟ هكذا كانت ليبي، بالطبع. أغرت رجلاً في الرابعة والثلاثين عندما كانت في الرابعة عشر من عمرها وجعلته يترك زوجته المحبَّة وطفله الرضيع. بمساعدة من جدتها، العرّافة ماي سيتون، وعدد من الشيطانات اللواتي استطعن استحضارهن، تقربت ليبي من البريء المسكين ماثيو عبر جملة من التصرفات غير الطبيعية. شيء يثير المشاكل حقاً! وقد قيل أيضاً إن ميري مارش كانت تُجري عمليات إجهاض. كانت آن وارد قاتلة. لكن، ماذا عنك أنت يا نيل؟ ماذا فعلتِ؟ لمن كنت تسببين المشاكل؟

ليبي مدفونة في ساحة الكنيسة. تعرفين قبرها، وقبور الأخريات أيضاً، لأنك جعلتني أرى تلك الحجارة، وأزلت الطحالب عنها حتى نستطيع قراءة الكلمات. لقد احتفظتِ يومها ببعض منها (أعني الطحالب)، وتسللتِ إلى غرفتي فوضعتها تحت وسادتي ثم قلت لي إن ليبي هي التي تركتها هناك. قلت لي إنها تسير على ضفة النهر في الليل؛ وقلت إنني إن أصغيت جيداً أستطيع سماع صوتها منادياً جدتها، منادياً ماي، حتى تأتي لإنقاذها. لكن ماي لا تأتي أبداً: لا تستطيع. هي ليست في المقبرة. بعد انتزاع الاعتراف منها، شنقوها في ساحة البلدة. إن جسدها مدفون في الغابات بعيداً عن سور الكنيسة. غرسوا المسامير في ساقيها كي لا تنهض من جديد.

في منتصف الجسر. استدارت لينا، استدارت لحظة فقط حتى تنظر إليّ. كان تعبير وجهها... نفاد صبر، وربما مجرد لمحة من شفقة... يشبه تعبير وجهك كثيراً، يشبهه إلى حد جعلني أرتعش. شددت على قبضتي

يدي، وعضضتُ على شفتي: لا أستطيع أن أخشاها! إنها مجرد طفلة.

آلمتني قدماي. كنت أحسُّ وخز العرق على جبهتي، عند بداية الشعر؛ ووددت أن أمزق قميصي، وددت أن أمزِّق جلدي. رأيتُ جمعاً صغيراً من الناس عند موقف السيارات أمام الكنيسة. إنهم يستديرون الآن، يستديرون صوْبنا، ينظرون إلينا ونحن نقترب. فكَّرت كيف يمكن أن يكون الأمر لو قذفت بنفسي من فوق جدار الجسر الحجري: شيء مخيف، نعم، لكنه مخيف لوهلة قصيرة فحسب. سأنزلق داخل الطين وأترك الماء ينغلق فوق رأسي. سيكون الإحساس بالبرودة مريحاً، الإحساس بأنني ما عدت مرئية.

في الداخل، جلسنا متجاورتين، أنا ولينا (مسافة قدم بيننا). جلسنا في الصف الأمامي. ملأ الناس الكنيسة. وفي مكان ما خلفنا، بدأت امرأة تبكي بصوت مرتفع. بكت وبكت كأن قلبها يتحطم. تحدث القس عن حياتك، وعدَّد إنجازاتك. تحدث عن تفانيك من أجل ابنتك. أشار إليَّ عرضاً في كلامه. أنا من أعطاه المعلومات؛ وأظن أنني لا أستطيع لومه لأن حديثه بدا سطحياً. كان في وسعي أن أقول شيئاً، بل ربما كان علي أن أقول شيئاً، لكني لم أستطع التفكير في طريقة أكلمهم بها عنك من غير أن أخون شيئاً... أخونك، أو أخون نفسي، أو أخون الحقيقة.

انتهت الشعائر في الكنيسة سريعاً. وقبل أن أنتبه، كانت لينا قد نهضت واقفة. تبعتها في الممر وقد صارت حرارة الانتباه المنصب علينا مخيفة بعض الشيء؛ ما كانت مشجعة. حاولت عدم النظر إلى الوجوه التي من حولي، لكني لم أستطِع منع نفسي: تلك المرأة الباكية التي كان وجهها مغضّناً محمراً، وشون تاونسند الذي التقت عيناه بعيني، وشاب محني الرأس، ومراهق يخفي ضحكته بيده. ورجل عنيف. توقفتُ فجأة فداست المرأة التي خلفي على عقب حذائي. تمتمتْ وهي تلتف

لتتجاوزني: «آسفة، آسفة». لم أتحرك، ولم أتنفس، ولم أستطع ابتلاع ريقي، صار ما في داخلي سائلاً كله. إنه هو.

صار أكبر سناً، نعم، وصار أكثر بشاعة، صار نحيلاً، لكنه هو... لا يمكن أن أخطئه. رجل عنيف. انتظرت حتى يدير عينيه نحوي. ظننته أنه، إن فعل، فسوف يحدث واحد من أمرين: سأصرخ، أو سأهجم عليه. انتظرت، لكنه ما كان ينظر إليَّ. كان ينظر إلى لينا، يراقبها باهتمام. صار جوفي السائل جليداً.

سرت نحوه معْميةً، كنت أدفع الناس وأبعدهم عن طريقي. كان واقفاً متنحياً قليلاً، لا تزال عيناه موجهتين إلى لينا. كان ينظر إليها وهي تخلع حذاءها. ينظر الرجال بمختلف الطرق إلى الفتيات اللواتي يشبهن لينا: رغبة، وجوع، وبُعد. لم أستطع رؤية عينيه، لكني ما كنت في حاجة إلى رؤيتهما. كنت أعرف ما فيهما.

سرت باتجاهه وضجيجٌ يتصاعد في حلقي. كان الناس ينظرون إلي مشفقين أو حائرين، لكني ما كنت أبالي. كنت في حاجة إلى الوصول إليه... لكنه استدار فجأة وسار مبتعداً. سار مسرعاً في الممر ثم خرج إلى موقف السيارات؛ أما أنا فوقفت مبهورة الأنفاس فجأة وقد عصف دوار برأسي. ركب سيارة خضراء ضخمة، ثم ذهب. ظهرت الشرطية المحققة مورغان إلى جانبي ووضعت يدها على ذراعي. قالت لي: «جولز؟ هل أنت بخير؟». سألتها: «هل رأيت ذلك الرجل؟ هل رأيته؟».

سألتني وهي تنظر من حولها: «أي رجل؟ من؟».

قلت: «إنه رجل عنيف».

بدا عليها التحفز: «أين، يا جولز؟ هل فعل أحد لك شيئاً... هل قال أحد لك شيئاً؟»

«لا، أنا... لا».

«أي رجل يا جولز؟ من الذي تتحدثين عنه؟»

كان قصب النهر يطوق لساني، وكان الطين يملأ فمي. أردت أخبارها، أردت أن أقول لها... إنني أتذكره. إنني أعرف ما هو قادر على فعله.

سألتني: «مَن رأيتِ؟».

«روبي»... استطعت قوْل اسمه أخيراً... «روبي كانون».

آب/أغسطس 1993

جولز

لقد نسيت! حدث شيء آخر قبل أن يلعبوا كرة القدم. كنت جالسة على منشفتي، أقرأ كتابي، وما كان هنالك أحد من حولي حتى ذلك الوقت. ثم أتيتِ. أتيتِ مع روبي. لم ترينني تحت الأشجار. جريتِ فدخلت الماء، وجرى خلفك. سبحتما، وتناثر رشاش الماء فوقكما، وتبادلتما القبل. أمسك بيدك وجرَّك إلى حافة الماء. استلقى فوقك ودفع بكتفيك إلى الأسفل ثم رفع ظهره قليلاً ونظر من حوله. عند ذلك رآني، رآني أنظر إليكما. وابتسم.

عدت إلى البيت وحدي بعد ظهر ذلك اليوم. خلعت ثوب السباحة وبنطلون الجينز القصير ونقعتهما في الماء البارد في المغسلة. فتحت الماء في حوض الحمام ثم جلست فيه وغطست في الماء ورحت أقول لنفسي إنني لن أستطيع التخلص من هذا الجسد الفظيع أبداً.

فتاة ضخمة. مصارعة. ساقان تصلحان لتشغيل محرك دراجة آلية ضخمة. في وسْعها أن تلعب في خط الهجوم في الفريق الإنكليزي.

كنتُ أكبر حجماً من الأماكن التي أشغلها؛ كنت فائضة الحجم دائماً.

كنت أشغل فراغاً أكثر مما يجب. أرخيت جسمي في الحوض فارتفع الماء كثيراً. هذه أنا.

عدت إلى غرفتي فاندسست تحت أغطية السرير ورقدت هناك يخنقني البؤس... إشفاق على النفس ممتزج مع الإحساس بالذنب لأن أمي راقدة في سريرها في الغرفة المجاورة... إنها تكاد تموت بسرطان الثدي لكنني لا أستطيع التفكير في شيء آخر غير أنني لا أريد الاستمرار ولا أريد أن أعيش حياة كهذه.

غرقت في النوم.

أيقظني أبي. كان عليه أن يأخذ أمي إلى المستشفى لإجراء مزيد من الفحوصات. سوف ينامان في المدينة لأن الوقت سيكون متأخراً عندما ينتهيان، وسوف تكون أمي مرهقة. قال لي إن هنالك طعاماً للعشاء في الفرن، وإن علي أن آكل بنفسي.

كانت نيل في البيت أيضاً. عرفت هذا لأنني كنت أسمع صوت الموسيقى آتياً من غرفتها. توقفت الموسيقى بعد حين. ثم سمعت أصواتاً. كانت خفيضة أول الأمر، ثم صارت أقوى. وسمعت أصواتاً أخرى... أنيناً وهمهمة وشهيقاً حاداً. نزلت من السرير وارتديت ملابسي، ثم خرجت إلى الممر. كان المصباح في الممر مضاء، وكان باب غرفة نيل مفتوحاً قليلاً. كانت الغرفة مظلمة أكثر من الممر، لكني استطعت سماع صوتها. كانت تقول شيئاً، كانت تقول اسمه.

اقتربت خطوة، كنت لا أكاد أجرؤ على التنفُّس. ومن خلال الباب المشقوق، استطعت تمييز شكليهما يتحركان في الظلمة. لم أستطع إجبار نفسي على عدم النظر إليهما. ظللت أنظر حتى سمعته يصدر صوتاً مرتفعاً، بهيميّاً. ثم بدأ يضحك فعرفت أنهما انتهيا.

كانت مصابيح البيت في الأسفل مضاءة كلها. ذهبت فأطفأتها،

ثم دخلت المطبخ وفتحت البراد. نظرت إلى ما فيه، ومن طرف عيني لاحظت زجاجة فودكا مفتوحة ممتلئة إلى منتصفها. كانت على الطاولة إلى جانب البراد. فعلت ما رأيت نيل تفعله من قبل: صببت لنفسي نصف كأس من عصير البرتقال، ثم أضفت إليه الفودكا. تهيأت بعد ذلك لاستقبال الطعم الكحولي المر اللاذع الذي أعرفه من تجربة النبيذ والبيرة؛ أخذت رشفة فوجدت أن طعمه حلو... ليس مرّاً أبداً.

أنهيت الكأس وصببت لنفسي كأساً أخرى. كان الإحساس الجسدي ممتعاً، ذلك الدفء الذي أشع من معدتي إلى صدري... صار دمي يجري سريعاً، وارتخى جسدي كله... بدأ بؤس بعد الظهيرة ينحسر.

ذهبت إلى غرفة المعيشة ونظرت من النافذة إلى النهر... كأنه حية ناعمة سوداء تنسل تحت البيت. فوجئت لأنني رأيت فجأة ما لم أكن أراه قبل ذلك: رأيت أن مشكلتي غير مستعصية على الحل أبداً. جاءتني لحظة صفاء ووضوح، لحظة مفاجئة. لست مضطرة إلى البقاء ثابتة هكذا، بل أستطيع أن أكون سائلة. أستطيع أن أكون كالنهر. قد لا يكون الأمر شديد الصعوبة بعد كل شيء. ألم يكن ممكناً أن أجوّع نفسي وأن أتحرك أكثر (أتحرك سراً عندما لا يراني أحد)؟ ألا يمكنني أن أتحول مثلما تتحول يرقة فتصير فراشة... أصير شخصاً مختلفاً، شخصاً لا يتعرف فيه أحد إلى شخصيتي... سينسى الجميع الفتاة البشعة النازفة. سوف يسمع الناس صوتي من جديد.

سمعت صوت أقدام في الأعلى. كانت تتحرك في الممر، ثم أتت نازلة السلم. ذهبتُ إلى آخر غرفة المعيشة وأطفأت المصباح، ثم جلست في الظلمة على المقعد تحت النافذة وسحبت قدمي فوضعتهما تحتي.

رأيته يدخل المطبخ، وسمعته يفتح البراد، لا، إنه الفريزر، وسمعت طقطقة قطع الجليد عندما أخرجها من الوعاء. سمعت صوت انسكاب

السائل، ثم رأيته عندما مر أمام الباب من جديد. ثم توقف. عاد خطوة إلى الخلف.

«جوليا؟ هل أنت هنا؟»

لم أقل شيئاً، ولم أتنفس. ما كنت أريد رؤية أحد وبالتأكيد، ما كنت أريد رؤيته... لكن يده كانت تبحث عن مفتاح الضوء. رأيته عندما اشتعل المصباح. كان في سرواله الداخلي، لا شيء آخر. كانت سمرة عميقة تصبغ جلده، وكان كتفاه عريضين ثم يستدق جسده صوب خصره المشدود. كان خط من الزغب على بطنه، خط نازل إلى داخل سرواله. ابتسم لي.

سألني: «هل بك شيء؟» عندما خطا مقترباً مني رأيت عينيه لامعتين قليلاً. كانت ابتسامته أكثر غباء من المعتاد، أكثر كسلاً من المعتاد... «لماذا تجلسين هنا في الظلام؟» لمح كأسي فاتسعت ابتسامته. «كنت أقول لنفسي إن قنينة الفودكا تبدو ناقصة قليلاً...» تقدَّم مني وقرَع كأسه بكأسي، ثم جلس إلى جانبي. كانت فخذه تلامس قدمي. تحركت مبتعدة وبدأت أنهض، لكنه وضع يده على ذراعي.

قال لي: «ماذا، انتظري! لا تهربي. أريد التحدث معك. أريد الاعتذار عما حدث بعد ظهر اليوم».

قلت: «لا بأس». أحسستُ بوجهي يحمرُّ خجلاً. لم أنظر إليه.

«لا، إنني آسف حقاً. كان هؤلاء الفتيان حمقى. إنني آسف حقّاً. هل تفهمين؟» أومأت برأسي.

«هذا ليس شيئاً يجب أن تخجلي منه».

انكمشتُ، أحسستُ أن جسدي كله اشتعل خجلاً وعاراً. كان جزء صغير غبي من عقلي يأمل في أنهم لم يلاحظوا شيئاً ولم يدركوا ما حدث لي.

شد على ذراعي وقرّبني منه وهو ينظر إلي. ضحك وقال: «إن لك وجهاً جميلاً يا جوليا، هل تعرفين هذا؟ أنا أعني ما أقول، إن وجهك جميل». ترك ذراعي، لكنه ألقى بذراعه حول كتفي.

سألته: «أين نيل؟».

قال: «نائمة». شرب جرعة من كأسه وتمطق بشفتيه... «أظن أنني أتعبتها كثيراً». شدَّ جسدي إلى جسده وسألني: «هل قبَّلت فتى من قبل يا جوليا؟ هل تريدين تقبيلي؟» أدار وجهي إليه ووضع شفتيه على شفتي. أحسست بلسانه حاراً لزجاً. أحسست به يدخل فمي. ظننت أنني موشكة على التقيؤ، لكنني تركته يفعل ذلك... فقط حتى أرى كيف يكون الأمر. ابتسم لي عندما أبعدت فمي عن فمه. سألني: «هل أعجبك هذا؟»... أنفاسه الحارة على وجهي... فيها رائحة تبغ وكحول. قبلني من جديد فاستجبت إلى قبلته محاولة أن أشعر بما يفترض أن أشعر به. انزلقت كفه بين أزرار بيجامتي. حاولتُ التملص منه، كبحتُ نفسي عندما أحسست بأصابعه تضغط على دهن بطني، تتسلل إلى سروالي الداخلي.

ظننت أنني صرخت قائلة: «لا!» لكن صرختي كانت أشبه بالهمس.

قال: «لا مشكلة. لا تقلقي. لا يزعجني وجود شيء من الدم». غضب مني بعد ذلك لأنني لم أتوقف عن البكاء.

«أوه، هيا الآن، لم يؤلمك ذلك إلى هذا الحد! لا تبكِ. هيا يا جوليا، كفي عن البكاء. ألم تستمتعي؟ كان شيئاً جميلاً، كان إحساساً جميلاً، أليس كذلك؟ لقد كنتِ مستثارة تماماً. هيا يا جوليا. خذي كأساً أخرى. خذي هذه الكأس. اشربي. يا إلهي... كفي عن البكاء! ما هذا البكاء اللعين؟ ظننتُ أنك ستكونين شاكرة لي».

2015

شون

قدتُ السيارة عائداً بهيلين وأبي إلى البيت. لكنني وجدت نفسي متردداً في دخول العتبة عندما صرت أمام الباب. تستولي عليَّ من حين لآخر أفكار غريبة فأكافح حتى أبعدها عني. وقفت خارج البيت، وصار أبي وزوجتي في الداخل. كانا ينظران إليّ نظرة استفهام. قلت لهما أن يأكلا من غيري. قلت لهما إن عليَّ أن أعود إلى القسم.

إنني جبان. وأنا مدين لأبي بأكثر من هذا. يجب أن أكون معه اليوم، اليوم خاصة من بين الأيام كلها، سوف تساعده هيلين طبعاً لكنها، حتى هي، لا تستطيع أن تفهم إحساسه، لا تستطيع أن تفهم عمق معاناته. رغم ذلك، ما كنت قادراً على الجلوس معه وما كنت قادراً على ملاقاة عينيه. لا أدري كيف لكننا، أنا وهو، لا يستطيع أحدنا النظر في عيني الآخر عندما نفكر في أمي.

أخذت السيارة وانطلقت. لم أذهب إلى القسم بل عدت إلى ساحة الكنيسة. ليست أمي هناك؛ لقد أحرق جثمانها. أخذ أبي رمادها إلى «مكان خاص». لم يخبرني أبداً عن موقع ذلك المكان بالضبط رغم وعده لي بأن يأخذني إليه ذات يوم. لم نذهب أبداً. كنت أسأله عنه أحياناً، لكن هذا كان يحزنه دائماً. وهكذا تركت الأمر بعد حين.

ما كان في الكنيسة وساحتها أحد؛ لم أرَ أحداً غير نيكي سيج العجوز. رأيتها تعرج سائرة ببطء عند الكنيسة، خارج السور. تركت السيارة وسلكت الدرب المحاذي لذلك الجدار الحجري متجهاً إلى الأشجار التي خلف الكنيسة. عندما وصلت إلى نيكي، رأيتها مستندة بيدها إلى الجدار. كانت أنفاسها تصفر في صدرها. استدارت فجأة. كان وجهها ورديّاً متوهجاً، وكانت تتصبب عرقاً غزيراً.

قالت بصوت لاهث: «ماذا تريد؟ لماذا تتبعني؟»

ابتسمت وقلت: «أنا لا أتبعك. رأيتك من السيارة فأحببت أن آتيَ لإلقاء التحية عليك. هل أنت متعبة؟».

«إنني بخير، إنني بخير»، لم تنظر إليّ. مالتْ صوب الجدار ورفعت رأسها ناظرة إلى السماء... «ستهبُّ عاصفة اليوم».

أومأت برأسي وقلت: «إن في الهواء رائحة عاصفة».

التفتت إليّ من جديد: «لقد انتهى الأمر كله إذن! نيل آبوت؟ أغلق الملف؟ صارت جزءاً من التاريخ؟».

قلت: «لم تغلق القضية بعد».

«ليس بعد، لكنها ستغلق قريباً، أليس كذلك؟» دمدمت بشيء لنفسها بعد ذلك.

«ماذا قلتِ؟».

«الأمر كله منتهٍ، أليس كذلك؟» استدارت فواجهتني تماماً، ثم وخزت صدري بإصبعها السمين... «أنت تعرف، ألا تعرف، أن هذه لم تكن مثل آخر واحدة؟ هذه لم تكن مثل كاتي ويتاكر. كانت هذه مثل والدتك».

تراجعتُ إلى الخلف خطوة وسألتها: «ما معنى هذا؟ إن كنت تعرفين

شيئاً فعليك قوْله لي. هل تعرفين شيئاً؟ هل تعرفين شيئاً عن موت نيل آبوت؟».

استدارت مبتعدة عني وهي تدمدم من جديد. كانت كلماتها غير مفهومة.

تسارعت أنفاسي وأحسست بحرارة تكتسح جسدي: «لا تذكري والدتي أمامي بهذه الطريقة. لا تذكريها في هذا اليوم خاصة. يا إلهي! أي نوع من الناس يمكن أن يفعل هذا؟»

لوحت بيدها وقالت: «أوه، أنت لا تصغي، أنت لا تصغي أبداً». قالت هذا وسارت تعرج في الدرب من جديد. استمرت في كلامها خلال سيرها، ومن حين لآخر كانت تمدُّ يدها فتستند إلى الجدار الحجري حتى لا تقع.

غضبت منها؛ لكن هنالك شيء أكثر من هذا... أحست بضربة غادرة، جُرحت تقريباً. أعرفها وتعرفني منذ سنين، ولم أكن أبداً إلَّا مهذباً معها. إنها مشوَّشة العقل، بالتأكيد، لكنني ما كنت أعتبرها شخصاً سيئاً، وما كنت أبداً أراها فظة أو قاسية.

عدتُ إلى السيارة متثاقل الخطى قبل أن أغيِّر رأيي فأعرج على دكان القرية. اشتريت زجاجة من ويسكي تاليسكر الذي يفضله أبي رغم أنه لا يشرب كثيراً. قلت في نفسي إننا قد نشرب كأساً معاً في وقت لاحق حتى أعوّض عما حدث، حتى أعوض عن ذهابي بتلك الطريقة. حاولت تصور ذلك... تخيلتنا جالسين إلى طاولة المطبخ، والزجاجة بيننا، نرفع كأسينا. وسألت نفسي: نخب ماذا، نخب من، سنشرب؟ جعلني تخيُّل ذلك أحسُّ خوفاً، وبدأت يداي ترتعشان. فتحت الزجاجة.

رائحة الويسكي وحرارة الكحول في صدري أعادتا في ذهني

ذكريات حمى الطفولة وأحلامها المفزعة. تذكرت كيف كنت أستيقظ فأجد أمي جالسة على حافة سريري تزيح الشعر الرطب عن جبهتي وتدلِّك صدري بالفيكس. إن في حياتي أوقاتاً لا أفكر فيها بأمي أبداً، لكنها صارت تظهر في أفكاري أكثر فأكثر في الآونة الأخيرة... تزايد ذلك خلال الأيام القليلة الماضية. يأتي وجهها إليّ؛ تكون مبتسمة أحياناً وغير مبتسمة أحياناً. وأحياناً تمد يديها إليّ.

بدأت العاصفة الصيفية من غير أن ألاحظها. لعلِّي غفوت. أعرف فقط أنني فتحت عيني فرأيت الطريق أمامي ممتلئاً ماء كأنه نهر، وبدا لي أن الرعد يهز السيارة هزّاً. أدرت مفتاح السيارة، لكني فوجئت عند ذلك بأن زجاجة الويسكي في حجري قد نقصت بمقدار الثلث. وهكذا أوقفت محرك السيارة من جديد. كنت أسمع صوت تنفسي تحت قرع المطر المنهمر، وتخيلت لحظة أنني أسمع صوت شخص آخر يتنفسَّ أيضاً. صدمتني فكرة سخيفة قالت لي إنني، إذا استدرت سأرى شخصاً هناك، في مقعد السيارة الخلفي. مرت لحظة كنت فيها واثقاً من ذلك إلى حد جعلني أخشى أن أتحرك.

قررت أن المشي في المطر سيجعلني أصحو. فتحت باب السيارة، ولم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة على المقعد الخلفي. خرجت من السيارة بعد ذلك. وعلى الفور، تبللت ثيابي كلها وأعماني المطر. شقَّت الهواء التماعة برق متشعبة فرأيت جوليا في تلك الثانية، رأيتها غارقة بالماء تسير بخطوات بين المشي والجري متجهة صوب الجسر. عدت إلى السيارة وبدأت أشعل مصابيحها وأطفئها. توقفت جوليا. كررت الإشارة بمصابيح السيارة فترددت ثم اتجهت نحوي. توقفتْ على مسافة بضعة أمتار. أنزلت زجاج النافذة وناديتها.

فتحتْ باب السيارة ودخلت. كانت لا تزال في ملابس الجنازة، لكن

تلك الملابس صارت غارقة بالماء الآن، صارت ملتصقة على هيكل جسدها الصغير. إلَّا أنها غيَّرت حذاءها. لاحظتُ أن بنطلونها الرقيق المشدود كان منسّلاً... رأيت دائرة صغيرة من لحم أبيض على ركبتها. بدت لي رؤية تلك البقعة صادمة لأن جسدها، كما رأيتها من قبل، كان مغطىً كله: أكمام طويلة وياقات مترفعة؛ لا تظهر أي مساحة من الجلد. بعيدة المنال.

سألتها: «ماذا تفعلين هنا؟».

ألقت نظرة إلى زجاجة الويسكي في حجري، لكنها لم تقل شيئاً. بدلاً من ذلك، مدت يديها وجذبت وجهي إليها وقبَّلتني. كان هذا شيئاً غريباً، مدوِّخاً. أحسستُ بطعم الدم على لسانها. استسلمت لها لحظة قبل أن أنتزع نفسي منها بعنف.

قالت وهي تمسح شفتيها وتسبِّل عينيها: «إنني آسفة. إنني آسفة جداً. لا أعرف ما جعلني أفعل هذا».

قلت: «لا، ولا أعرف أنا أيضاً». وبشكل غريب، بدأنا نضحك معاً. كان ضحكنا عصبيّاً متوتراً في البداية، ثم ضحكاً من القلب كأن تلك القبلة كانت أكبر نكتة في العالم. وعندما توقفنا عن الضحك، كان علينا أن نمسح الدموع عن وجهينا.

«ماذا تفعلين هنا يا جوليا؟».

«جولز! كنت أبحث عن لينا. لست أعرف أين هي...» بدت الآن مختلفة، ما عادت منغلقة على نفسها. قالت: «إنني خائفة»، ثم ضحكت كأنها أحسَّت حرجاً... «إنني خائفة حقاً».

«ما الذي يخيفك؟».

سعلت سعلة صغيرة ثم أبعدت شعرها الرطب عن وجهها.

«ما الذي يخيفك؟».

أخذت نفَساً عميقاً: «أنا لست... أعرف أن هذا يبدو غريباً، لكن كان في الجنازة رجل... رجل عرفته. لقد كان حبيب نيل».

«أوه؟»

«أعني... كان هذا منذ زمن بعيد. كان هذا منذ زمن بعيد جداً. عندما كنا مراهقتين. لا فكرة عندي إن كانت قد واصلتْ رؤيته بعد ذلك». ظهرت بقعتان محمرَّتان على وجنتيها... «لم تذكره أبداً في أي رسالة من رسائلها الهاتفية. لكنه كان هناك، في الجنازة. وأظن... لا أستطيع شرح السبب، لكني أظن أنه يمكن أن يكون قد فعل شيئاً لها».

«فعل شيئاً؟ هل تقولين إنك تظنين أنه قد تكون له علاقة بموتها؟».

نظرت إلي نظرة توسل: «لا أستطيع قول هذا طبعاً، لكن عليك أن تتحرى أمره. عليك أن تعرف أين كان عند وفاتها».

أحسستُ بوخزٍ في جلد رأسي، تغلب الأدرينالين على أثر الكحول: «ما اسم هذا الرجل؟ من الذي تتحدثين عنه؟».

«روبي كانون».

لم يعن لي الاسم شيئاً أول الأمر، لكنني فهمت بعد ذلك... «كانون؟ أليس من القرية؟ لدى أسرته متاجر لبيع السيارات، ولديهم مال كثير. هل هو نفسه؟».

«نعم، إنه هو. هل تعرفه؟».

«لا أعرفه الآن، لكني أذكره».

«أنت تتذكر...».

«أذكره منذ أيام المدرسة. كان أكبر مني بصفٍّ واحد. كان جيداً في الألعاب الرياضية. وكان ناجحاً مع الفتيات. ليس ذكياً تماماً».

أطرقتْ جولز برأسها حتى كادت ذقنها تمس صدرها، ثم قالت: «ما كنت أعرف أنك كنت في المدرسة هنا».

قلت: «نعم. لقد عشت هنا طيلة عمري. أنت لا تذكرينني. لكني أذكرك. أنت وأختك، بالطبع».

قالت: «أوه!» وانغلق وجهها من جديد كأنه باب صفقه أحدٌ بقوة.

وضعت يدها على مقبض الباب كأنها تهمُّ بترك السيارة.

قلت لها: «ما الذي يجعلك تظنين أن كانون قد فعل شيئاً لأختك. هل فعل شيئاً؟ هل كان عنيفاً معها؟»

هزت جوليا برأسها وأشاحت بوجهها: «لا أعرف إلّا أنه شخص خطير. ليس شخصاً جيداً. وأنا رأيته... ينظر إلى لينا».

«ينظر إليها؟»

«نعم، ينظر إليها». التفتت صوبي من جديد، فالتقت عيوننا أخيراً... «لا أحب طريقة نظَرِهِ إليها».

قلت: «لا بأس، سوف... سأرى ما أستطيع التوصل إليه».

«شكراً لك».

همَّت بفتح الباب من جديد، لكني وضعت يدي على ذراعها. قلت لها: «سوف آخذك إلى البيت بالسيارة».

نظرت إلى زجاجة الويسكي من جديد، لكنها لم تقل شيئاً... «لا بأس».

لم تطل المسافة أكثر من دقيقتين قبل أن نصل إلى البيت. لم يقل أحد منا شيئاً إلى أن فتحت جولز باب السيارة. كان علي ألا أقول شيئاً، لكني أردت إخبارها أيضاً.

«أنت تشبهينها كثيراً».

بدت عليها الصدمة وأطلقت ضحكة عصبية صغيرة.

«إنني لا أشبهها أبداً». مسحت دمعة عن خدها... «إنني عكسها تماماً».

قلت: «لا أظن هذا»، لكنها كانت قد مضت.

لا أذكر أنني قدت السيارة عائداً إلى البيت.

بركة الغارقات

لورين، 1983

سوف يسافران إلى كراستر بعد أسبوع من الآن من أجل عيد ميلاد لورين الثاني والثلاثين. ستسافر وحدها مع شون لأن باتريك سيكون لديه عمل. قالت لابنها: «هذا المكان الذي أفضله أكثر من أي مكان آخر في العالم. هنالك قلعة، وشاطئ جميل، ويمكنك بعض الأحيان أن ترى الفقمات على الصخور. بعد أن نذهب إلى الشاطئ والقلعة، أحب أن أذهب إلى ورشة تدخين اللحوم لنأكل السمك المدخن مع الخبز البنيِّ. إنها جنة!».

كشَّر شون قليلاً وقال: «أظن أنني أفضل الذهاب إلى لندن لأرى الجسر»؛ صمت قليلاً ثم تابع يقول: «وأريد أن آكل آيس كريم».

ضحكت أمه وقالت: «لا بأس إذن. ربما نستطيع فعل ذلك».

لكنهما لم يفعلا هذا ولا ذاك في آخر الأمر.

كان ذلك في تشرين الثاني، وكانت الأيام قصيرة قارسة البرد. كانت لورين مشوشة الذهن أيضاً. كانت تدرك أنها تتصرف بشكل مختلف، لكنها لم تجد طريقة للتوقف عن ذلك. تجد نفسها جالسة إلى طاولة الفطور مع زوجها وابنها، وفجأة يحمرُّ جلدها كله وتحسُّ بوجهها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يشتعل ناراً فيكون عليها أن تستدير لتخفي ذلك. استدارت أيضاً عندما اقترب زوجها لتقبيلها. كانت حركة رأسها غير إرادية تقريباً، كانت شيئاً خارج سيطرتها؛ وهكذا لم تفلح شفتاه إلّا في مسِّ خدِّها، أو زاوية فهمها، مسّاً خفيفاً.

هبَّت عاصفة قبل ثلاثة أيام من يوم ميلادها. ظلَّت تلك العاصفة تزداد شدة طيلة النهار، واندفعت ريح عنيفة تمزِّق الوادي تمزيقاً. وكانت الأمواج مثل خيول بيضاء تجري على سطح البركة. وفي الليل، انفجرت العاصفة بقوة أكبر ففاض النهر على ضفتيه وتساقطت أشجار على طول مجراه. هطل المطر مدراراً، وغرق العالم في الماء.

كان زوج لورين وابنها نائمين مثل رضيعين، لكنها كانت مستيقظة. جلست في غرفة المكتب، في الأسفل، إلى طاولة زوجها. وكانت إلى جانبها زجاجة ويسكي من النوع المفضل لديه. شربت كأساً، واقتطعت صفحة بيضاء من أحد الدفاتر. شربت كأساً ثانية، ثم ثالثة، لكن الصفحة ظلت بيضاء. لم تفلح حتى في تقرير صيغة المخاطبة في تلك الرسالة... بدت لها كلمة «عزيزي» أقل مما يجب، وبدت عبارة «أعز الناس» كذبة. كانت الزجاجة قد شارفت على الانتهاء، وكانت الصفحة لا تزال بيضاء تماماً عندما خرجت سائرة في العاصفة. كان دمها مثقلاً بالشراب والحزن والغضب عندما سارت في اتجاه البركة. كانت القرية خاوية والمصاريع مثبتة بإحكام على نوافذها. من غير أن يراها أحد، ومن غير أن يقاطعها أحد، سارت بخطىً متعثرة منزلقة في الوحل حتى بلغت الجرف. انتظرت هناك. انتظرت أن يأتي أحد ما، وتمنَّت أن يعرف بها الرجل الذي وقعت في حبِّه، أن يعرف بطريقة عجيبة ما، فيحسُّ يأسها ويأتي لإنقاذها من نفسها. لكن الصوت الذي سمعته، الصوت الذي نادى اسمها بقنوطٍ مذعورٍ ما كان بالصوت الذي أرادت سماعه.

خطت بجرأة إلى تلك الهاوية، وبعينين مفتوحتين قذفت بنفسها إلى الأمام.

ما كان يمكنها أبداً أن تراه، وما كان يمكنها معرفة أن ابنها كان هناك، في الأسفل، خلف صفِّ الأشجار.

ما كان يمكنها معرفة أنه استيقظ على صراخ أبيه وعلى صوت إغلاق باب البيت. نهض وجرى إلى الأسفل، ثم خرج إلى العاصفة. كانت قدماه عاريتين، وما كان على أطرافه النحيلة غير ملابس النوم القطنيَّة الرقيقة.

رأى شون أباه يركب سيارته فنادى باسم أمه. استدار باتريك صوبه وصرخ عليه قائلاً له أن يدخل البيت. جرى إليه فحمله بعنف من ذراعه، رفعه عن الأرض وحاول إجباره على الرجوع إلى البيت. لكن الصبي راح يتوسل إليه: أرجوك، أرجوك، لا تتركني هنا.

رضخ باتريك. حمل الصبي إلى السيارة فوضعه في المقعد الخلفي. وهناك تجمَّع شون على نفسه مذعوراً من غير أن يفهم شيئاً. أغمض عينيه بقوة. انطلقت السيارة بهما إلى النهر. أوقفها أبوه عند الجسر وقال له: انتظر هنا! انتظر هنا! لكن الظلمة كانت شديدة، وكان قرع المطر على سقف السيارة مثل ضرب الرصاص. لم يستطع شون الهربِ من إحساسه بأن هنالك شخص آخر في السيارة معه. كان يسمع تنفُّسه المتقطع. وهكذا خرج من السيارة وجرى متعثراً على الدرجات الحجرية وساقطاً في وحل ذلك الطريق. مضى متخبطاً في الظلمة والمطر، متجهاً إلى البركة.

فيما بعد، كانت هنالك قصة في المدرسة تقول إنه رآها... إنه الولد الوحيد الذي رأى أمه تقفز إلى موتها. ما كان هذا صحيحاً. لم يرَ أي

شيء. عندما بلغ البركة، كان أبوه قد نزل إلى الماء وسبح مبتعداً عن الشاطئ. لم يهتدِ شون إلى شيء يفعله فعاد وجلس تحت الأشجار. أسند ظهره إلى جذع شجرة حتى لا يستطيع أحد أن يتسلل إليه من الخلف.

بدا له أنه ظلَّ هناك وقتاً طويلاً جداً. يتساءل عندما يفكر في الأمر الآن إن كان قد غلبه النوم عند تلك الشجرة رغم أن هذا يبدو أمراً بعيد الاحتمال تماماً بسبب الضجيج والخوف والظلام. ما يذكره حقاً هو أن امرأة جاءت... جيني، من قسم الشرطة، كان معها مصباح كاشف وبطانية فأخذته وعادت به إلى الجسر حيث أعطته شاياً حلواً ليشرب. انتظرا هناك عودة أبيه.

فيما بعد، أخذته جيني بالسيارة إلى بيتها وأطعمته خبزاً وجبناً.

لكن لورين ما كان لديها أبداً سبيل إلى معرفة شيء من هذا.

ايرين

عند الانصراف بعد الجنازة، لاحظتُ أن أشخاصاً كثيرين ممن حضروا ذهبوا ليقولوا كلمة أو اثنتين لوالد شون. إنه الرجل الذي قابلته للحظة وجيزة فقط؛ كان اسمه باتريك تاونسند. كان هنالك مصافحات كثيرة وتحيات برفع القبعة، وخلال ذلك الوقت كله، كان باتريك واقفاً كأنه جنرال كبير في استعراض عسكري: منتصب الظهر مشدود الشفتين.

قلتُ للشرطي الجالس إلى جانبي: «إنه شخص تافه بائس، أليس كذلك؟» استدار الشرطي ونظر إليّ كأنني مخلوق غريب زحف لتوِّه خارجاً من تحت صخرة.

قال هامساً: «أظهري شيئاً من الاحترام». ثم أدار لي ظهره من جديد.

قلت: «عفواً؟»... كنت أكلم ظهره الآن.

قال الشرطي: «إنه ضابط نال أوسمةً كثيرة. وهو أرمل أيضاً. ماتت زوجته هناك، في النهر». استدار ليواجهني من جديد. ومن غير أي اعتبار لمركزي الوظيفي، قال لي مكشِّراً هذا يعني أن عليك إبداء بعض الاحترام».

أحسست بنفسي غبيَّة تماماً. لكن، في الحقيقة، كيف كان يمكن لي معرفة أن شون الذي ذكرته نيل آبوت في قصتها كان هو نفسه شون تاونسند الذي في قسم الشرطة؟ ما كنت أعرف اسم أبيه وأمه. اللعنة على هذا! لم يخبرني أحد؛ ويبدو لي أنني، عندما قرأت ما كتبته نيل آبوت، لم أكن منتبهة كثيراً إلى تفاصيل حادثة انتحار وقعت أكثر من ثلاثين عاماً! لم يبدُ لي الأمر شديد الأهمية بالنظر إلى الظروف القائمة الآن.

حقاً... كيف يمكن افتراض أن يستطيع أي شخص تذكر كل شيء عن الجثث هنا؟ هذا شيء يشبه رواية «جرائم قتل في ميدسومر»، مع حوادث وحالات انتحار وكره تاريخي غريب للنساء الغريقات بدلاً من أشخاص يسقطون في الوحل أو يضرب أحدهم الآخر على رأسه.

قدتُ السيارة عائدة من المدينة إلى العمل. كان هنالك زملاء ذاهبون إلى حانة القرية، لكن وضعي كشخص غريب هنا كان يثقل على نفسي أكثر من ذي قبل بفعل تلك الزلة تجاه باتريك تاونسند. إلَّا أن هذه القضية منتهية على أية حال، أليست كذلك؟ لا حاجة إلى التجوّل هنا.

أحسستُ شيئاً من الارتياح مثلما يحدث عندما يتوصل المرء أخيراً إلى تذكر اسم الفيلم الذي رأى فيه ذلك الممثل من قبل... عندما يكون لديك شيء ضبابي مشوَّش يزعجك طيلة الوقت ثم يتضح أمامك فجأة. غرابة المحقق تاونسند... عيناه النديتان، ويداه المرتجفتان، وشروده: أفهم الآن سبب هذا كله. يصير الأمر مفهوماً عندما تعرف ماضيه. لقد عانت أسرته ما تعانيه جولز ولينا الآن، بالضبط تقريباً... الرعب نفسه، والصدمة نفسها. وكذلك التساؤل نفسه عن السبب.

أعدت قراءة المقطع الذي كتبته نيل آبوت عن لورين تاونسند. لم يكن في القصة معلومات كثيرة. كانت لورين زوجة غير سعيدة، وكانت واقعة في حب رجل آخر. تخبرنا القصة عن تشوشها وعن غيابها وشرود ذهنها... لعلها كانت مصابة بالاكتئاب؟ وفي النهاية، من عساه يعرف شيئاً؟ ليست قصة نيل آبوت كتاباً منزلاً... إنها النسخة التي تقدمها نيل عن تلك الأحداث، ولا شيء أكثر من ذلك. لا بد أن الأمر يتطلب إحساساً غريباً بالأحقيّة (هذا ما أظنه) حتى يتناول شخص ما مأساة شخص آخر بهذه الطريقة ويكتب عنها كأنها شيء يخصُّه هو.

عندما أعدت القراءة، كان الشيء الذي لم أفهمه هو قدرة شون على البقاء هنا. لقد كان هناك، حتى إذا لم يرَ أمه تسقط. ماذا يمكن أن يفعل هذا بالمرء؟ لكنه كان صغيراً. أظن أن الأمر هكذا. كان في السادسة، أو في السابعة! الأطفال قادرون على حجب صدمة من هذا النوع، قادرون على إبعادها عن عقولهم. لكن، ماذا عن الأب؟ إنه يسير عند النهر كل يوم... لقد رأيته. تخيلوا هذا. تخيلوا كيف يمكن للمرء أن يمرَّ بالمكان الذي فقد فيه شخصاً ما، أن يفعل هذا كل يوم! لا أستطيع تصديق هذا، لا أستطيع. لكني أظن أنني لم أفقد أحداً في حقيقة الأمر. ليست لي تجربة. كيف أستطيع معرفة كيف يكون الإحساس بهذا النوع من الحزن والفقْد؟

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القسم الثاني

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الثلاثاء، 18 آب/أغسطس

لويز

كان حزن لويز مثل النهر: متواصلاً، متغيراً دائماً. كان يتموج ويفيض وينحسر ويجري، كان في بعض الأيام بارداً مظلماً عميقاً، وفي أيام أخرى سريعاً متوهِّجاً. كان إحساسها بالذنب سائلاً كالنهر أيضاً... يتسرَّب عبر الشقوق عندما تحاول إيقافه واحتجازه بعيداً عنها. كانت لديها أيام طيبة وأيام سيئة.

لقد ذهبتْ إلى الكنيسة يوم أمس لتراهم وهم يوارون نيل التراب. لكنهم لم يفعلوا هذا في حقيقة الأمر (كان عليها أن تعرف). لكنها، رغم ذلك، رأتها تنزلق إلى المحرقة. هذا يعني أن يومها كان جيداً. حتى ذلك الانفجار لانفعالاتها، حتى ذلك الانفجار نفسه، كان شيئاً شافياً، مواسياً (ظلت تبكي طيلة المراسم كلها، بكت رغماً عنها).

لكن هذا اليوم في سبيله إلى أن يكون سيئاً، إلى أن يكون يوماً قذراً. أحسَّت هذا عندما استيقظت: لم يكن ما أحسَّته حضوراً، بل غياباً. كان الفرح الذي أحسَّته أول الأمر، ذلك الإحساس الانتقامي بالرضا، آخذاً في التلاشي. والآن، بعد أن صارت نيل رماداً، ظلَّت لويز من غير شيء. لا شيء! ما عاد لديها من تستطيع لوْمه على حزنها ومعاناتها لأن نيل

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

رحلت. كان يقلقها كثيراً أنها لن تجد آخر الأمر مكاناً ترمي فيه معاناتها غير بيتها هذا.

البيت، البيت الذي فيه زوجها وابنها. وهكذا، سيكون هذا اليوم سيئ، لكن لا بد من مواجهته، لا بد من مواجهته وهزيمته. لقد اتخذت قرارها: حان وقت الانتقال. عليهم أن يرحلوا قبل فوات الأوان.

كان هذا الأمر محل جدال طويل بين لويز وزوجها آليك. مجادلات هادئة منخفضة الحدَّة تدور بينهما هذه الأيام، تدور منذ أسابيع. كان آليك يرى أن عليهم الانتقال قبل بداية الفصل الدراسي الجديد. عليهم أن يسمحوا لجوش بأن يبدأ سنته الدراسية الجديدة في مكان جديد تماماً، في مكان لا يعرف فيه أحد عنه شيئاً. هناك، لن يواجهه غياب أخته كل يوم.

كانت لويز تسأله: «هل يعني هذا أنه لن يجد نفسه في حاجة إلى الحديث عنها أبداً؟».

يجيبها آليك: «سيتحدث عنها معنا نحن».

كانا واقفين في المطبخ؛ وكان صوتاهما متوتِّرين مكتومين.

قال آليك: «علينا أن نبيع هذا البيت وأن نبدأ بداية جديدة». رفع إصبعه عندما بدأت لويز تعترض على كلامه... «أعرف، أعرف أن هذا البيت بيتها». تردد عند ذلك ووضع يديه الكبيرتين اللتين بقَّعتهما الشمس على الطاولة. تمسك بتلك الطاولة كأن فيها حياته... «علينا أن نصنع لأنفسنا حياة جديدة يا لويز. هذا من أجل جوش. لو كنا وحدنا، أنا وأنت فقط،... »

قالت في نفسها إنهما، لو كانا وحدهما، سيتبعان كاتي إلى الماء، سيلقيان بنفسيهما في النهر وينتهيان من الأمر كله. ألن يفعلا هذا؟ ما

كانت واثقة من أن آليك يمكن أن يفعله. كانت تظن أن الأهل وحدهم يستطيعون فهم ذلك النوع من الحب الذي يبتلع المرء كله؛ لكنها تتساءل الآن إن كانت الأمهات وحدهن من يشعرن بهذا. كان آليك حزيناً على ابنته بالطبع، لكنها ما كانت واثقة من أنه يحسُّ هذا اليأس وانقطاع الرجاء عندها، ما كانت واثقة من أنه يحسُّ هذا الكُره.

كانت الصدوع قد بدأت تظهر في زواجٍ ظنته منيعاً أمام كل شيء. لكنها ما كانت تعرف شيئاً من هذا قبل اليوم. الآن صار الأمر جلياً: ما من زواج يمكنه الاستمرار وتخطِّي هذه الخسارة. سوف يظل ما حدث قابعاً بينهما... حقيقة أن أياً منهما لم يكن قادراً على إيقافها. بل أسوأ من هذا... حقيقة أن أياً منهما لم تخامره أية شكوك، حقيقة أنهما ذهبا إلى الفراش تلك الليلة وناما ولم يكتشفا فراشها الخاوي إلَّا في الصباح... لم يتخيَّلا لحظة واحدة أنها ستكون في النهر.

ما كان للويز أي أمل؛ وما كانت تظن أن لآليك أملاً كثيراً. لكن جوش شيء مختلف. سوف يفتقد جوش أخته كل يوم، طيلة عمره؛ لكنه يستطيع أن يكون سعيداً: سيكون سعيداً. سوف يحملها معه دائماً، لكنه سيعمل أيضاً، وسيسافر، وسيقع في الحب... سيعيش. أفضل شيء بالنسبة لجوش هو أن يكون بعيداً عن هذا المكان، أن يكون بعيداً عن بيكفورد، بعيداً عن النهر. كانت لويز تعرف أن زوجها محقٌّ تماماً في هذا الأمر.

كانت تعرف هذا بالفعل، تعرفه في مكان ما داخل نفسها، لكنها ما كانت تريد مواجهته. إلَّا أن الذعر استولى عليها يوم أمس عندما رأت ابنها في الجنازة، عندما رأت وجهه القَلِق المتوتِّر. رأت كم كان من السهل أن يجفل ويخاف عند أي صوت من لويز فيتجمَّع على نفسه مذعوراً مثل كلب خائف في الزحام. كيف كانت عيناه معلقتين بها دائماً

كأنه انسحب إلى مرحلة الطفولة الأولى، كأنه لم يعد صبياً مستقلاً في الثانية عشرة من عمره بل طفل صغير متطلب مرعوب. عليهما إخراجه من هذا المكان!

لكن هذا المكان هو المكان الذي سارت فيه كاتي خطواتها الأولى، ونطقت فيه كلماتها الأولى، ولعبت الاستغماية، ودفعت عربة لعبتها في الحديقة، وتشاجرت مع أخيها الصغير ثم هدَّأته بعد ذلك، وضحكت وغنت وزعقت وشتمت وجُرحت ونزفت واحتضنت أمَّها كل يوم عند عودتها من مدرستها.

لكن لويز اتخذت قرارها. كانت ثابتة العزم مثل ابنتها، إلّا أن الجهد اللازم لذلك كان هائلاً. فقط، حتى تنهض من جلستها عند طاولة المطبخ وتسير حتى أسفل السلم ثم تصعد، وتضع يدها على مقبض الباب، تضغطه، ثم تدخل غرفة ابنتها آخر مرة. هكذا كان إحساسها. ستكون هذه آخر مرة لها في غرفتها. بعد اليوم، ستكون غرفة شخص آخر.

كان قلب لويز قطعة من خشب: ما كان ينبض؛ كان يؤلمها فقط، يحتكُّ بالنسيج في جوفها ويقطع أوردتها وعضلاتها ويُغرق صدرها دماً.

أيام جيدة، وأيام سيئة.

لا تستطيع ترك الغرفة هكذا. مهما تكن صعوبة التفكير في حزم حوائج كاتي وأخْذ ثيابها وإنزال صورها عن الجدارن، ثم ترتيب ذلك كله... إخفاء ابنتها عن الأعين، فقد كان أصعب منه أن تتخيَّل وجود أشخاص غرباء هنا. كان أسوأ منه أن تتخيل كيف سيلمسون كل شيء، وكيف سينظرون بحثاً عن دليل ما، وكيف سيَعجبون من أن كل شيء يبدو طبيعيّاً، من أن كاتي كانت تبدو فتاة طبيعية. كاتي؟ بالتأكيد لا؟ من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون هي نفسها الفتاة التي غرقت!

إذن، ستقوم لويز بالأمر: سوف تُخلي طاولة المكتب من كل ما يتعلق بالمدرسة، ستأخذ القلم الذي كان يستقر في يد ابنتها كل يوم، ستطوي القميص الرمادي الناعم الذي كانت تنام فيه، وسترتب سريرها. ستأخذ القرطين الأزرقين المفضلين لدى كاتي، القرطين اللذين كانا هدية لها من خالتها في عيد ميلادها الرابع عشر، ستضعهما في علبة حليّها. ستنزل الحقيبة السوداء الكبيرة الموضوعة فوق الخزانة في الممر، وستملؤها بثيابها.

مكتبة الرمحي أحمد

ستفعل هذا.

كانت واقفة وسط الغرفة تفكر في هذا كله عندما سمعت صوتاً من خلفها فاستدارت لترى جوش واقفاً بالباب ينظر إليها.

كان مبيضّاً كأنه شبح، وكانت كلماته عالقةً بحنجرته: «ماما؟ ماذا تفعلين؟».

«لا شيء يا حبيبي، إنني فقط...». سارت خطوة في اتجاهه، لكنه تراجع. «هل أنت... هل تفرغين الغرفة الآن؟».

أومأت لويز برأسها، ثم قالت: «سوف نبدأ بداية جديدة».

سألها وقد ازداد صوته علواً: «ماذا ستفعلين بأشيائها؟»... بدا أنه يختنق... «هل ستتخلين عنها؟».

«لا يا حبيبي». مضت إليه ومدت يدها لتداعب الشعر الناعم فوق جبهته... «سوف نحتفظ بكل شيء. لن نتخلى عن شيء أبداً».

بدا جوش قلِقاً: «لكن، ألا يجب أن تنتظري عودة أبي؟ ألا يجب أن يكون هنا؟ لا يجوز أن تفعلي هذا وحدك».

ابتسمت لويز له وقالت محاولة إظهار البهجة، بقدر ما تستطيع:

«سوف أبدأ ترتيب الأغراض فقط. الحقيقة أنني ظننتك تريد الذهاب إلى بيت هوغو هذا الصباح، لذلك...» كان هوغو صديق جوش، ولعله صديقه الحقيقي الوحيد. (تشكر لويز ربها كل يوم على وجود هوغو وعلى وجود أسرة هوغو التي تحتضن جوش كلما كان في حاجة إلى مكان يفر إليه).

«لقد ذهبتُ إليه، لكنني نسيت هاتفي فعدتُ لآخذه». رفع هاتفه الذي في يده حتى تراه.

«هذا جيد. هل ستظل عندهم حتى المساء؟»

أومأ برأسه وحاول أن يبتسم. انتظرت حتى سمعت صوت إغلاق باب البيت من خلفه، ثم جلست على السرير وتركت نفسها تبكي على هواها.

كانت على الطاولة الصغيرة حلقة مطاطية قديمة لربط الشعر. كانت ممطوطة مهترئة، بالية تقريباً... لا تزال متشابكة فيها شعرات طويلة من شعر كاتي الداكن الجميل. التقطتها لويز وقلبتها بين كفيها، أدخلتها في أصابعها. حملتها إلى وجهها. نهضت واقفة على قدميها وسارت إلى طاولة الزينة وفتحت علبة الحلي الخزفية على هيئة قلب فوضعت ربطة الشعر فيها. ستظل هناك مع أساورها وأقراطها... لن ترمي شيئاً أبداً، سيظل كل شيء عندها. ليس عندها هنا، بل في مكان ما؛ سيسافر كل شيء معهم؛ لن يقبع أي جزءٍ من كاتي، أي شيء لمسته، على رف مغبّرٍ عند جمعية خيرية.

كانت في عنق لويز القلادة التي كانت في عنق كاتي عندما ماتت؛ سلسلة فضية فيها طائر صغير أزرق. حارت لويز في السبب الذي جعل ابنتها تختار هذه القلادة. ما كانت تظنها مفضلة عندها. ليست مثل قرطي

الذهب الأبيض اللذين جاءاها من لويز وآليك في عيد ميلادها الثالث عشر... كانت تعبدهما، وما كانت مثل سوار الصداقة المحبوك («سوار الأخوة») الذي اشتراه لها جوش بماله الخاص في آخر عطلة لهم في اليونان. لم تستطع لويز فهم السبب الذي جعل كاتي تختار تلك القلادة: كانت هدية من لينا التي ما عادت تبدو شديدة القرب منها في الآونة الأخيرة... كلمتان محفورتان على ذلك الطائر الصغير الأزرق (هذا شيء لا يشبه لينا)... مع حبي.

في ذلك اليوم، لم تضع أية حلية أخرى. بنطلون من الجينز، وسترة أكثر دفئاً بكثير مما يصلح لأمسية صيفية، سترة امتلأت جيوبها حجارة. كانت حقيبتها الظهرية مثقلة بالحجارة أيضاً. وعندما عثروا عليها، كانت محاطة بالزهور. كان بعض تلك الزهور لا يزال في يدها. مثل أوفيليا. مثل تلك الصورة على الجدار عند نيل آبوت.

قال الناس إن من المبالغة في أحسن الأحوال، ومن السخف والقسوة في أسوئها، أن تلقي باللائمة على نيل آبوت بسبب ما حدث لكاتي. فقط لأن نيل كتبت عن البركة، وتحدثت عن البركة، والتقطت صوراً هناك، وأجرت مقابلات، ونشرت مقالات في صحف محلية، وتحدثت عن الأمر مرة مع برنامج في إذاعة بي بي سي، فقط لأنها قالت كلمتي «منطقة الانتحار»، فقط لأنها تحدثت عن «سابحاتها» الحبيبات باعتبارهن بطلات رومانسيات ماجدات، باعتبارهن نساء امتلكن شجاعة ملاقاة موتهن السهل في مكانٍ جميل من اختيارهن... لا يمكن اعتبارها مسؤولة نتيجة هذا فقط.

لكن كاتي لم تنشق نفسها بحبل من باب غرفة نومها، ولم تقطع شرايين معصمها، ولم تتناول حفنة من أقراص الدواء. لقد اختارت البركة. أمر سخيف حقاً أن يتجاهل الناس هذا، أن يتجاهلوا سياق

الأمر كله، أن يتجاهلوا كيف يمكن أن يتأثر بعض الناس بالإيحاءات... الأشخاص الحساسون، وصغار السن. يصير المراهقون، الأطفال الأذكياء اللطيفون الجيدون، مخدرين بالأفكار... يتسممون. لم تفهم لويز السبب الذي جعل كاتي تفعل ما فعلته، ولن تفهمه أبداً، لكنها كانت تعرف أن ما فعلته لم يكن شيئاً معزولاً.

قال لها الاستشاري النفسي الذي ذهبت إليه في جلستين فقط إن عليها ألّا تبحث عن السبب. قال إنها لن تتمكن من الإجابة عن ذلك السؤال، وإن أحداً لن يتمكن من الإجابة عنه. قال إن هنالك حالات كثيرة يقتل فيها الناس أنفسهم من غير أن يكون هنالك سبب واحد... فالأمر ليس بهذه البساطة. قالت له لويز الحزينة القانطة إن كاتي لم تصب بالاكتئاب أبداً في يوم من الأيام، وإنها لم تكن تتعرض لأي إزعاج (تحدثوا مع المدرسة وتحققوا من بريدها الإلكتروني ومن حسابها على فيس بوك فلم يجدوا غير الحب). كانت فتاة جميلة، وكان أداؤها في المدرسة جيداً، وكان لديها طموح. ما كانت تعيسة أبداً. كانت شديدة الحماسة أحياناً، وكان كل شيء يثيرها. كانت مزاجية. كانت في الخامسة عشرة. وأهم من ذلك كله هو أنها ما كانت ميالة إلى إخفاء شيء. إن حدثت أي مشكلة فإنها تخبر أمها. كانت تخبرها بكل شيء. كانت تخبرها دائماً. قالت لويز للاستشاري النفسي: «ما كانت تخفي عني شيئاً»، فرأت عيناه تنزلقان مبتعدتين عن وجهها.

قال بصوت هادئ: «هذا ما يظنه الأهل جميعاً. أخشى أنهم كلهم مخطئون في هذا الظن».

لم ترَ لويز الاستشاري النفسي بعد ذلك، لكن الضرر قد وقع. انفتح شقٌّ وبدأ الإحساس بالذنب يتسرب منه، تسربٌ صغير أول الأمر، ثم صار فيضاً. لم تكن تعرف ابنتها! ولهذا كانت هذه القلادة تزعجها إلى

هذا الحد، لا لأنها من لينا فحسب، بل لأنها صارت رمزاً لكل شيء لم تكن تعرفه عن حياة ابنتها. كلما فكرت بالأمر أكثر، كلما ازداد لوْمها لنفسها: لأنها انشغلت أكثر مما يجب، ولأنها ركزت انتباهها على جوش أكثر مما يجب، ولأنها فشلت تماماً في حماية طفلتها.

ارتفع طوفان إحساسها بالذنب وعلا، ثم علا، فما عاد لديها غير سبيل واحد حتى لا يغمرها كلها، حتى لا يغرقها؛ كان ذلك السبيل هو العثور على سبب، الإشارة إلى السبب والقول: ها هو! ها هو السبب! لقد اتخذت ابنتها قراراً لا معنى له؛ لكن الجيوب المملوءة حجارةً واليدين الممسكتين بالأزهار... إنه خيار جاء ضمن سياق ما. نيل آبوت هي من وفَّر هذا السياق.

وضعت لويز الحقيبة السوداء على السرير، ثم فتحت الخزانة وبدأت تخرج ملابس كاتي منها: قمصانها الزاهية قصيرة الأكمام، وفساتينها الصيفية، وقبعتها الوردية الصارخة التي لبستها طيلة الشتاء الماضي. غامت عيناها، وحاولت التفكير في شيء ما حتى تمنع دموعها من الانهمار، حاولت العثور على صورة تُثبِّت عين عقلها عليها، فراحت تفكر في جسد نيل محطماً في الماء. استمدت من تلك الصورة كل ما كانت في حاجة إليه من راحة وعزاء.

شون

استيقظتُ على صوت امرأة تنادي. كان صوتاً بعيداً، يائساً. ظننت أنني أحلم بهذا الصوت، لكن القرع على الباب أيقظني تماماً. كان قرعاً شديداً، قريباً، مُلحّاً، حقيقيّاً. كان هنالك أحد عند باب البيت.

لبست بسرعة وهبطت إلى الأسفل جرياً، لكنني ألقيت نظرة على الساعة الجدارية في المطبخ عند مروري ببابه. لم يتجاوز الوقت منتصف

الليل إلّا قليلاً. لم أنم أكثر من نصف ساعة. استمر الطرق الشديد على الباب وسمعت صوت امرأة تناديني باسمي. عرفت الصوت، لكني لم أستطع تحديد صاحبته. فتحت الباب.

«هل رأيت هذا الشيء؟» كانت لويز ويتاكر تصيح بي محمرة الوجه غاضبة... «لقد قلت لك يا شون! قلت لك إن هنالك شيئاً ما!».

كان «هذا الشيء» الذي تشير إليه علبة دواء بلاستيكية برتقالية اللون من ذلك النوع الذي يضعون فيه الوصفات الطبية. كانت على جانب العلبة لصاقة عليها اسم «دانييل آبوت».

قالت من جديد: «لقد قلت لك». ثم انفجرت باكية. جعلتُها تدخل البيت... لكني تأخَّرت. قبل أن أغلق باب المطبخ، رأيت مصباحاً يضيء في غرفة النوم العليا في بيت أبي.

مرَّ وقت غير قليل قبل أن أفهم ما كانت تقوله لويز. كانت في حالة هستيرية. وكانت جملها متداخلة من غير معنى. اضطررت إلى استدراج المعلومات منها شيئاً فشيئاً... عبارة بعد عبارة شاهقة غاضبة. لقد قرروا أخيراً أن يعرضوا البيت للبيع. وقبل أن يبدأ مجيء المشترين المحتملين لمعاينته، كان عليها أن تفرغ محتويات غرفة كاتي. ما كانت تريد أن يعبث أشخاص غرباء بتلك الغرفة وأن يمسوا أشياء ابنتها. لقد بدأت ذلك بعد ظهر هذا اليوم. وجدت هذه العلبة البرتقالية بينما كانت تضع ملابس كاتي في الحقيبة. كانت تخرج من الخزانة معطفاً، المعطف الأخضر، واحد من المعاطف المفضلة عند كاتي. سمعتْ صوت شيء يقعقع. أدخلت يدها في جيب المعطف فاكتشفت علبة الدواء هذه. أصابتها صدمة، ثم ازدادت صدمتها عندما رأت اسم نيل على العلبة. لم تسمع باسم هذا الدواء من قبل ريماتو لكنها بحثت عنه في الإنترنت فاكتشفت أنه نوع من أقراص تخفيف الوزن. ليست هذه الأقراص متوفرة بصورة

قانونية في المملكة المتحدة. وهنالك دراسات في الولايات المتحدة تربط استخدامه بالاكتئاب والأفكار الانتحارية.

صاحت بي: «لم تنتبهوا إليه! قلتم لي إنكم لم تجدوا شيئاً في دمها. قلتم لي إن نيل آبوت لا علاقة لها بالأمر. لكن، ها هو». ضربت الطاولة بقبضة يدها فقفزت علبة الدواء في الهواء... «أرأيت! كانت تعطي ابنتي أدوية، كانت تعطيها أدوية خطيرة وأنت تركتها تُفلت بفعلتها».

أمر غريب... طيلة كلامها هذا، عندما راحت تهاجمني، كنت أحسُّ بشيء من الارتياح لأن هنالك سبباً الآن. إن كانت نيل قد زودت كاتي بهذه الأقراص، فإننا نستطيع الإشارة إلى ذلك والقول: انظروا، ها هو، هذا ما حدث. هذا ما جعل فتاة لامعة سعيدة تفقد حياتها. هذا ما جعل امرأتين تفقدان حياتهما.

كان هذا مريحاً، لكنه كاذبٌ أيضاً. كنت أعرف أنه كاذب. قلت لها: «كانت اختبارات دمها سلبية يا لويز. لست أدري كم من الزمن... هذا، هذا الريماتو! لا أعرف كم الزمن يمكن أن يبقى في الجسم. ولا نعرف إن كانت هذه الأقراص أقراص ريماتو. لكن...» نهضتُ واقفاً وأخرجتُ كيساً من النايلون من درج المطبخ وفتحته أمام لويز. أخذت لويز العلبة عن الطاولة وأسقطتها في الكيس. أغلقتُ الكيس وقلت: «يمكننا تقصي ذلك».

قالت بصوتٍ لاهثٍ من جديد: «وعند ذلك سنعرف».

الفكرة هي أننا لن نعرف شيئاً. حتى إن ظهرت آثار من هذا الدواء في دم ابنتها، وحتى إذا اتضح أن هنالك شيئاً لم نلاحظه في البداية، فإن هذا لن يقدم لنا أي شيء أكيد.

كانت لويز تقول: «أعرف أن الوقت تأخر كثيراً، لكن أريد أن يصير

هذا الأمر معروفاً. أريد أن يعرف الجميع ما فعلته نيل آبوت... يا إلهي، لعلها أيضاً كانت تزود فتيات أخريات بهذه الحبوب... يجب أن تسأل زوجتك عن هذا. بما أنها مديرة المدرسة، فمن المؤكد أنها يجب أن تكون على علم بأن هنالك مَن يبيع هذه القاذورات في مدرستها. يجب أن تفتش خزائن التلاميذ. ويجب أيضاً...»

جلست إلى جانبها وقلت: «لويز! اهدئي يا لويز. سوف نتعامل مع الأمر بجدية طبعاً. لكننا لا نستطيع معرفة كيف صارت هذه العلبة بحوزة كاتي. من المحتمل أن نيل آبوت اشترت هذا الدواء لكي تستخدمه بنفسها...»

«ثم ماذا؟ ما هذا الذي تقوله؟ هل تقول إن كاتي سرقت الدواء؟ كيف تجرؤ على التفكير في الأمر يا شون؟ أنت تعرفها...».

اهتز باب المطبخ... إنه يعْلَق أحياناً، بعد المطر خاصة، ثم ينفتح بعد ذلك. كانت تلك هيلين. وقفت مشعثة في بنطلون رياضي وقميص قصير الكمين. كان شعرها غير ممشَّط... «ماذا يجري هنا؟ لويز، ماذا حدث؟».

هزت لويز رأسها، لكنها لم تقل شيئاً. دفنت وجهها في كفيها.

نهضت واقفاً وقلت لهيلين: «عليك أن تصعدي وتذهبي إلى السرير». قلت هذا بصوت منخفض... «لا شيء يدعو إلى القلق».

«لكن...».

«علي أن أتكلم مع لويز قليلاً. لا بأس. اصعدي إلى الأعلى».

قالت بحذر وهي تلقي نظرة في اتجاه المرأة التي كانت الآن جالسة تبكي عند الطاولة في مطبخنا: «لا بأس... إذا كنت واثقاً...».

«إنني واثق مما أقول».

انسحبت هيلين من المطبخ بهدوء وأغلقت الباب خلفها عندما خرجت. مسحت لويز عينيها. كانت تنظر إلي بطريقة غريبة، كانت نظرة تساؤل على ما أظن... تتساءل أين كانت هيلين قبل ظهورها هكذا. كنت أستطيع أن أوضح لها: إنها لا تنام جيداً؛ وأبي مصاب بالأرق أيضاً. يسهران معاً بعض الأحيان فيحلان الكلمات المتقاطعة أو يستمعان إلى الراديو. كنت أستطيع أن أوضح هذا، لكن الأمر كله بدا مرهِقاً على نحو مفاجئ. قلت بدلاً من ذلك: «لا أظن أن كاتي سرقت شيئاً يا لويز. لا أظن هذا بالطبع. لكنها قد... لست أدري، ربما أخذت هذا الدواء من غير أن تنتبه، ربما كانت شاردة الذهن. وربما كان ذلك بدافع الفضول. ألم تقولي إن الدواء كان في جيب المعطف؟ لعلها أخذتْه ثم نسيته في جيبها».

أجابت لويز بحدة: «لم تكن ابنتي تأخذ الأشياء من بيوت الناس الآخرين». هززت رأسي. لا معنى للجدال في هذا الأمر.

«سأدقق في الأمر، سيكون هذا أول ما أفعله في الصباح. وسوف أرسل الدواء إلى المختبر. سننظر في نتائج اختبارات دم كاتي من جديد. إذا كنت قد سهْوت عن شيء يا لويز...»

هزت رأسها وقالت بنبرة هادئة: «أعرف أن هذا لا يغير شيئاً. أعرف أنه لن يعيدها، لكنه سيساعدني. سيساعدني على الفهم».

«أدرك هذا. أدرك هذا طبعاً». سألتها: «ألا تريدين أن أوصلك إلى البيت؟ يمكنني أن أعيد لك سيارتك في الصباح».

هزت رأسها من جديد وابتسمت لي ابتسامة راجفة: «إنني بخير. شكراً لك».

ظلت أصداء ذلك الشكر... الشكر الذي لا مبرر له، الذي ما كنت

أستحقه... تردد في الصمت بعد ذهابها. أحسست بالبؤس، وكنت في غاية الامتنان لصوت خطوات هيلين على السلم. كنت ممتناً لهيلين لأنني لن أكون مضطراً إلى البقاء هنا وحدي.

سألتني عندما دخلت المطبخ: «ما الذي يجري؟» بدت شاحبة، شديدة الإرهاق؛ وكانت تحت عينيها دوائر تشبه الكدمات. جلست على الكرسي إلى جانب الطاولة وأمسكت بيدي... «ماذا كانت لويز تفعل هنا؟»

قلت لها: «لقد عثرت على شيء ما... شيء تظن أنه قد تكون له علاقة ما بما حدث لابنتها كاتي».

«أوه، يا ربي! شون... ما هذا الشيء؟».

نفختُ خدي قليلاً وقلت: «لا يجوز لي... ربما لا يحق لي بعد أن أناقش تفاصيل هذا الأمر». هزَّت رأسها وشدَّت على يدي.

قلت لها: «أخبريني... متى صادرتم مخدرات في المدرسة آخر مرة؟».

عبست قليلاً: «نعم... لدينا ذلك المزعج إيان واتسون... لقد وجدنا لديه بعض الماريغوانا في نهاية الفصل الدراسي. لكن قبل ذلك... أوه، نعم، مرَّ بعض الوقت. مرَّ وقت طويل حقاً. في شهر آذار/ مارس الماضي على ما أظن، كانت لدينا تلك المشكلة مع ليام ماركهام».

«كانت مشكلة أقراص مخدرة، أليس كذلك؟»

«صحيح، أقراص تسبب النشوة، أو تسبب شيئاً يوهم بالنشوة. كان اسم ذلك الدواء روهوبنول. لقد طُرد ليام من المدرسة».

تذكرت تلك الحادثة على نحو غامض رغم أن هذا ليس من الأشياء التي أقحم نفسي فيها.

سألتها: «وهل حدث أي شيء بعد ذلك؟ ألم تجدوا أية أدوية لإنقاص الوزن؟».

رفعت حاجبيها: «لا. لا شيء غير قانوني على أية حال. يتناول قسم من الفتيات تلك الحبات ذات اللون الأزرق... ما الاسم الذي يطلقونه عليها؟ أظن أن اسمها آلي. لكنها تباع في الصيدليات من غير وصفة طبية، رغم أنني لا أظنهم يسمحون ببيعها للقاصرين». كشَّرت قليلاً ثم تابعت... «يصيب هذا الدواء الفتيات بانتفاخ في البطن، لكن من الواضح أنهن يعتبرن هذا ثمناً مقبولاً لقاء 'الفتحة الضيقة'».

«ثمناً مقبولاً لقاء ماذا؟».

نظرت إلي هيلين نظرة استغراب: «الفتحة الضيقة! ترغب الفتيات كلهن بأن تكون سيقانهن نحيلة بحيث لا تلتقي الساقان في الأعلى بل يظل بينما فراغ صغير. صدقاً يا شون... أحياناً أظنك تعيش في كوكب آخر!» شدت على يدي من جديد... «وأتمنى أحياناً أن أعيش على ذلك الكوكب معك».

صعدنا ونمنا في سرير واحد لأول مرة منذ زمن طويل، لكنني لم أستطع أن أمسَّها. ليس بعد ما فعلتُه!

الأربعاء، 19 آب/ أغسطس

إيرين

لم يكن كثير الشعر، خبير الأدلة العلمية، في حاجة إلى أكثر من خمس دقائق حتى يعثر على الإيصال الإلكتروني الخاص بأقراص تخفيض الوزن في ملف الرسائل غير المرغوب فيها في بريد نيل آبوت الإلكتروني. وبقدر ما توفَّر له من معلومات، تبين له أنها لم تشترِ تلك الأقراص إلَّا مرة واحدة؛ هذا إلَّا إذا كان لها حساب بريد إلكتروني آخر لم يعد قيد الاستخدام.

قال أحد عناصر الشرطة معلقاً: «هذا غريب، ألا ترونه غريباً؟»... كان شرطياً متقدماً في السن لم أهتم بمعرفة اسمه... «لقد كانت امرأة نحيلة حقاً. ولا يمكن للمرء تصور أنها في حاجة إلى هذا الدواء. أما أختها، فقد كانت سمينة فعلاً».

قلت له: «جولز؟ إنها ليست سمينة».

«أوه، صحيح، ليست سمينة الآن، لكن كان عليك أن تريها في ذلك الوقت». بدأ يضحك... «كانت بقرة صغيرة».

خفة دم مقرفة!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إنني عاكفة على مراجعة ملفات كاتي ويتاكر منذ أن أخبرني شون عن تلك الأقراص. كانت قضية واضحة تماماً رغم أن السؤال عن سبب انتحارها يظل معلقاً من غير أية إجابة واضحة... مثلما يكون الأمر في معظم الأحوال. ما كان أبوها وأمها يشكَّان في أي شيء. وقد قال معلموها ومعلماتها إنها قد تكون بدت مشوشة بعض الشيء، أو لعلها كانت أكثر تحفظاً بعض الشيء، لكنهم لم يروا أية إشارات تنذر بالخطر. كان تحليل الدم نظيفاً أيضاً. ولم يحدث من قبل أن حاولت إيذاء نفسها بأية طريقة.

كان الشيء الوحيد الذي تحدثوا عنه (ليس شيئاً كبير الأهمية في الحقيقة)، هو مشاجرة مع أقرب صديقاتها، لينا آبوت. زعمت اثنتان من صديقاتها في المدرسة أن خلافاً حول شيء ما وقع بين لينا وكاتي. قالت والدة كاتي، لويز ويتاكر، إن اللقاءات بين الفتاتين تناقصت؛ لكنها لم تعرف بوجود أي مشكلة بينهما. لو كانت هنالك مشكلة، هكذا قالت، فلا بد أن كاتي كانت ستخبرها عنها. جرت بينهما مشاجرات في الماضي... يحدث هذا بين المراهقات... وكانت كاتي تخبر أمها عن تلك المشاجرات دائماً. وبعد كل مشاجرة منها، كانت الفتاتان تتصالحان وتتبادلان القبل. أحسَّت لينا بالحزن والندم بعد إحدى تلك المشاجرات فأهدت كاتي قلادة.

إلّا أن صديقاتهن في المدرسة (تانيا وإيلي... لا أذكر تتمة اسميهما) قالتا إن شيئاً كبيراً بدأ يفرق بينهما، لكنهما لم تستطيعا تحديد ذلك الشيء. كل ما كانتا تعرفانه هو أن كاتي ولينا، قبل موت كاتي بشهر أو نحو ذلك، تجادلتا «جدالاً عنيفاً» انتهى بأن فصل بينهما أحد المعلمين. لقد فصل بينهما جسدياً. أنكرت لينا هذه الحادثة، أنكرتها بشدة، وزعمت أن تانيا وإيلي متحاملتان عليها، وأنهما تحاولان أن تسبِّبا المتاعب لها.

وبالتأكيد، لم تسمع لويز أبداً بهذه المشاجرة؛ كما أن المعلم الذي فصل بينهما، مارك هندرسون، قال إن الحادثة لم تكن مشاجرة على الإطلاق. قال إنهما كانتا «تتصارعان على سبيل اللعب». قال إنهما كانتا تتشاقيان فحسب لكن صخبهما كان شديداً إلى حد جعله يتدخل ويأمرهما بالهدوء... هذا كل ما في الأمر!

مررت بهذه الأشياء عندما قرأت ملف كاتي، لكنني ظللت أرجع إليها. إن فيها شيئاً يبدو لي غير منطقي. هل تتصارع الفتيات المراهقات على سبيل اللعب أو المزاح؟ يبدو لي أن هذا ما يمكن أن يفعله الأولاد المراهقون فقط. لعلِّي أُضمر في عقلي تمييزاً بين الجنسين أكثر مما أعترف به. لكنني كنت أنظر إلى صورتي هاتين الفتاتين: فتاتان جميلتان متأنقتان؛ بدت كاتي خاصة شديدة العناية بمظهرها. لَمَ يبدو لي أبداً أنهما من النوع الذي يمكن أن يكون القتال والمصارعة لعباً عنده.

عندما أوقفت السيارة أمام بيت الطاحون وخرجت منها، سمعت صوتاً فرفعت رأسي لأنظر. كانت لينا منحنية من إحدى نوافذ الطابق العلوي. وكانت في يدها سيجارة.

ناديتها: «مرحباً يا لينا»، لكنها لم تقل شيئاً بل نظرت في اتجاهي وقذفتني بعقب السيجارة بحركة متأنية دقيقة. ثم تراجعت بعد ذلك وأغلقت النافذة. لست مقتنعة بموضوع القتال على سبيل اللعب، لست مقتنعةً على الإطلاق: ما أظنه هو أن لينا آبوت، عندما تقاتل، فإن الأمر لا يكون لعباً... تكون جادة تماماً.

أدخلتني جولز إلى البيت وألقت من فوق كتفي نظرة متوترة إلى الخارج عندما كنت أجتاز الباب.

سألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟» بدت لي في حالة مزرية: مهلهلة، رمادية، زائغة العينين، مهملة الشعر.

قالت لي بنبرة هادئة: «لا أستطيع النوم. أحس أنني غير قادرة على النوم».

راحت تتحرك في المطبخ هنا وهناك، ثم شغلت غلاية الماء وجلست إلى الطاولة متثاقلة. ذكرتني بأختي بعد ثلاثة أسابيع من ولادتها، عندما أنجبت توأمين... كانت خائرة العزم لا تكاد تملك من القوة يكفي لأن ترفع رأسها.

قلت لها: «قد يكون من الأفضل أن تجعلي الطبيب يصف لك دواء ما»، لكنها هزَّت رأسها.

قالت وقد اتسعت عيناها فصارت لها هيئة هستيرية: «لا أريد أن أنام نوماً عميقاً. يجب أن أظل منتبهة».

كان يمكنني القول لها إن انتباهها الآن ما كان يبدو لي أكثر من انتباه شخصٍ واقعٍ في غيبوبة؛ لكني لم أقل ذلك.

قلت لها: «لقد أجرينا تحريات عن روبي كانون الذي سألتني عنه». ارتجفت وبدأت تقضم ظفر إصبعها... «كنت محقَّة عندما قلت إنه شخص عنيف. لقد أدين مرتين بحوادث عنف منزلي، إضافة إلى أشياء أخرى. لكنه ليس على علاقة بموت أختك. ذهبت إلى غيتشيد، حيث يعيش الآن، وتحدثت معه. كان في مانشستر ليلة وفاتها، كان يزور ابنه هناك. يقول إنه لم يرها منذ سنوات، لكنه قرأ خبر موتها في الصحف المحلية فرأى أن عليه أن يأتي لحضور الجنازة. وقد بدا عليه الاستغراب الشديد لأنني أسأله عن هذا الأمر.

«وهل قال لك...» صار صوتها شبه هامس... «هل ذكر اسمي؟ أو لينا؟».

«لا. لم يذكر اسمك ولا اسم لينا. لماذا تسألين؟ هل أتى إليكما؟»

تذكرت ترددها عندما فتحت لي الباب، وتذكرت كيف نظرت من فوق كتفي كأنها حذرة تترقَّب أحداً ما.

«لا. أقصد... أقصد أنني لا أظن هذا. لست أدري».

لم أفلح في الحصول منها على أكثر من هذا. كان واضحاً أنها خائفة منه لسبب ما، لكنها لا تريد قوْل شيء عن ذلك السبب. ما كان الأمر مرضياً، لكني تركته عند تلك النقطة لأن لديَّ موضوعاً مُربكاً آخر أريد طرحه.

قلت لها: «ما سأقوله صعب بعض الشيء. أخشى أننا في حاجة إلى تفتيش البيت من جديد».

نظرت إليَّ بعينين مذعورتين: «لماذا؟ هل استطعتم التوصل إلى شيء؟ ماذا حدث؟».

شرحت لها قصة أقراص الدواء.

«أوه، يا إلهي!» أغمضت عينيها بشدة ونكست رأسها. لعل الإرهاق هو ما يجعل ردات أفعالها بطيئة... لكن، لم تظهر عليها أية صدمة.

«لقد اشترت هذا الدواء السنة الماضية، في تشرين الثاني/ يناير، في الثامن عشر من تشرين الثاني/ يناير. اشترته من موقع أميركي على الإنترنت. لم نستطع العثور على أي عملية شراء أخرى. لكننا في حاجة إلى التأكد من...»

قالت: «لا بأس، بالطبع... هذا مفهوم». كانت تفرك عينيها بأطراف أصابعها.

«سيأتي شرطيان بعد ظهر اليوم. هل هذا مناسب؟».

رفعت كتفيها وقالت: «لا بأس، إن كان عليكم أن تفعلوا هذا فافعلوه. لكن أنا... لقد ذكرتِ لي الآن تاريخ شراء الدواء. ماذا كان؟».

قلت وأنا أعود إلى دفتر ملاحظتي لكي أتأكد: «الثامن عشر من شهر تشرين الثاني، السنة الماضية، لماذا تسألين؟»

«إنه... إنها الذكرى السنوية. الذكرى السنوية لوفاة أمنا. يبدو... أوه، لست أدري». تجهَّم وجهها ثم تابعت تقول: «يبدو لي الأمر غريباً لأن نيل كانت تتصل بي عادة في الثامن عشر من تشرين الثاني، لكنها لم تتصل السنة الماضية. بدا لي الأمر غريباً. لكني عرفت بعد ذلك أنها كانت في المستشفى لإجراء عملية الزائدة الدودية. كانت عملية إسعافية. يدهشني الآن أنها وجدت وقتاً لشراء أقراص تخفيف الوزن عندما كانت في المستشفى من أجل عملية إسعافية. هل أنت واثقة من صحة هذا التاريخ؟».

تحققت من التاريخ عندما عدت إلى القسم. سألت كثيرَ الشعر عنه. كان التاريخ صحيحاً.

قالت لي كالي: «لعلَّها اشترت الأقراص من خلال هاتفها المحمول. إن الجلوس في المستشفى أمر مُضجر فعلاً».

لكن كثير الشعر هز رأسه وقال: «لا. لقد تحققت من عنوان IP. مهما يكن الشخص الذي أجرى عملية الشراء، فقد أجراها في الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة بعد الظهر. وقد جرى ذلك عن طريق جهاز كمبيوتر يستخدم وصلة الإنترنت في بيت نيل آبوت. هذا يعني أنه كان موجوداً في البيت أو قرب البيت. هل تعرفين ساعة ذهابها إلى المستشفى؟» لم أكن أعرف ذلك، لكن التحقق كان أمراً سهلاً. جرى قبول نيل آبوت في الساعات الأولى من يوم الثامن عشر من تشرين الثاني لإجراء عملية إسعافية لاستئصال الزائدة الدودية. تماماً مثلما قالت أختها. ثم ظلت في المستشفى طيلة النهار وأمضت فيه الليلة التالية أيضاً.

لا يمكن أن تكون نيل قد اشترت هذه الأقراص. لقد اشتراها شخص آخر انطلاقاً من بيتها وباستخدام بطاقتها المصرفية.

قلت لشون: «لينا! لا بد أن تكون لينا».

هزَّ رأسه وقد تجهم وجهه: «سيكون علينا أن نتحدث معها».

سألته: «هل تريد فعل ذلك الآن؟» فأومأ برأسه من جديد.

قال: «ما من وقتٍ أفضل من الوقت الحاضر! ما أسوأ أن نسألها الآن بعد أن فقدت الطفلة أمها! يا ربي... الوضع شديد التداخل».

كان الوضع موشكاً على أن يصير أشد تداخلاً. كنا خارجين من المكتب عندما نادتنا كالي. كانت مستثارة كثيراً.

قالت مبهورة الأنفاس: «البصمات! لقد عثرنا على بصمات متطابقة. الحقيقة أننا لم نعثر على تطابق تام لأنها غير مطابقة لبصمات أحد ممن جاؤوا لكي نتحقَّق من بصماتهم. لكن، فقط...».

قال لها المفتش شون بنبرةٍ حادةٍ: «فقط ماذا؟».

«قرر أحد الأذكياء أن يلقي نظرة البصمات الموجودة على علبة الدواء ومقارنتها مع البصمات التي على الكاميرا، أنت تعرف، الكاميرا المعطوبة».

أجابها شون: «نعم، أذكر الكاميرا المعطوبة».

«نعم، إنها متطابقة. وقبل أن تقول لي شيئاً... إنها ليست بصمات نيل آبوت، وليست بصمات كاتي ويتاكر. هنالك شخص آخر أمسكت يده بالشيئين معاً».

قال شون: «إنها لويز. يجب أن تكون لويز. لويز ويتاكر».

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

كان مارك هندرسون يقفل حقيبته عندما وصلت المحققّة. إنها محققة مختلفة هذه المرة. امرأة أخرى أكبر قليلاً وأقل جمالاً.

قالت وهي تصافحه: «المحققة إيرين مورغان. أرجو أن يكون في وسعي أن أتحدث معك قليلاً».

لم يدعُها إلى دخول البيت. كان البيت في حالة فوضى. وما كان مزاجه يسمح له بإبداء شيء من حسن الضيافة.

قال لها: «إنني أحزم حقائبي لأنني ذاهب الآن في عطلة. سأذهب بالسيارة إلى إدنبره هذا المساء حتى آخذ خطيبتي. إننا ذاهبان لقضاء بضعة أيام في إسبانيا».

قالت المحققة مورغان: «لن يستغرق الأمر طويلاً». انزلقت نظراتها من فوق كتفه إلى داخل البيت.

جذب الباب من خلفه حتى لا تنظر. تحدَّثا واقفين عند العتبة.

ظنَّ في البداية أن الأمر متعلق بنيل آبوت من جديد. لقد كان واحداً من آخر الأشخاص الذين شاهدوها حية. رآها خارج الحانة، وجرى بينهما حديث قصير. ورآها متجهة إلى بيت الطاحون. كان مستعداً لذلك الحديث، لكنه ما كان مستعداً لهذا.

«أعرف أنك سُئلت عن هذا كله. لكن هنالك بضعة أشياء نرى أنها في حاجة إلى توضيح. إنها عن الأحداث التي سبقت موت كاتي ويتاكر».

أحسَّ مارك بتسارع نبض قلبه: «ماذا، آ آ... ما تلك الأحداث؟».

«عرفت أنك اضطررت إلى التدخل في مشاجرة بين لينا آبوت وكاتي قبل شهر تقريباً من موت كاتي؟».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صار حلق مارك شديد الجفاف. حاول ابتلاع ريقه قبل أن يقول: «لم تكن تلك مشاجرة»... رفع يده ليحمي عينيه من الشمس... «لماذا؟... آسف، لكن ما الذي جعل هذا الأمر موضع تساؤل الآن؟ لقد اعتبرت وفاة كاتي انتحاراً على ما أظن...».

قاطعته المفتشة: «صحيح، لقد اعتبرت حادثة انتحار، ولم يتغير ذلك. إلّا أننا أدركنا أن هنالك... ماذا أقول... أن هنالك ظروفاً أحاطت بموت كاتي لم نكن نعرفها من قبل. وقد تستدعي تلك الظروف مزيداً من التحريات».

استدار مارك فجأة وفتح باب البيت بقوة جعلته يصطدم بالجدار ويعود إليه قبل أن نخطو إلى الممر. كانت الملزمة الآن تضغط على رأسه بقوة أكبر، وكان قلبه يخفق مضطرباً؛ كان عليه أن يبتعد عن الشمس.

«سيد هندرسون؟ هل أنت بخير؟».

«إنني بخير». بعد أن ألِفَت عيناه ظلمة الممر، استدار لينظر إليها من جديد... «لا بأس... إنه الصداع. هذا كل ما في الأمر. وهج الشمس، إنه فقط...».

اقترحت المفتشة مورغان مبتسمة: «لماذا لا تشرب كأساً من الماء؟».

أجابها: «لا»... أدرك عندما قال هذه الكلمة أنه بدا شديد التجهم... «لا، لا. إنني بخير».

حلَّت فترة من الصمت... «المشاجرة يا سيد هندرسون؟ المشاجرة بين لينا وكاتي».

هزَّ مارك رأسه: «لم تكن تلك مشاجرة. قلت هذا للشرطة في ذلك الوقت. لم أكن في حاجة إلى الفصل بينهما. أقصد، على الأقل، ليس

بالطريقة التي توحي بها هذه الكلمة. كانت الصداقة وثيقة بين كاتي ولينا. كانتا تغضبان وتصرخان أحياناً مثلما تفعل بنات كثيرات في هذه السن... أطفال كثيرون في هذه السن».

كانت المحققة لا تزال واقفةً في ضوء الشمس عند عتبة الباب. صارت الآن شكلاً لا وجه له، صارت ظلاً. كان يفضِّل أن تكون هكذا.

«أفاد بعض معلمي كاتي أنها كانت تبدو مشوَّشة شاردة الذهن؛ ولعل ذلك كان يتكرر أكثر من المعتاد خلال الأسابيع التي سبقت موتها. هل توافقهم الرأي؟».

قال مارك: «لا». رفَّت عيناه قليلاً... «لا، لا أظن هذا. لا أظن أنها تغيَّرت. لم ألاحظ أي شيء مختلف. لم يكن لديّ إحساس أن هنالك شيئاً موشكاً على الحدوث. لم يرَ أحد منا أن هنالك ما هو على وشك الحدوث».

كان صوته منخفضاً، متوتراً. لاحظت المحققة ذلك. قالت له: «يؤسفني طرح هذه الأشياء كلها من جديد. وأنا أدرك كم يكون مزعجاً...».

«لا أظن أنك تدركين في الحقيقة. كنت أرى تلك الفتاة كل يوم. كانت شابة، لامعة، وكانت... كانت من أفضل الطلاب عندي. كنا كلنا معجبين... جداً بها». تلعثم عند كلمة معجبين.

«إنني آسفة جداً. أنا آسفة حقاً. لكن المسألة هي أن هنالك حقائق جديدة قد ظهرت. ولا بد لنا من النظر فيها».

هزَّ مارك رأسه وهو يكافح حتى يستطيع سماع صوتها من خلال الهدير الذي ملأ أذنيه. أحسَّ برداً شديداً يجتاح جسمه كله كما لو أن أحداً قد صب عليه البنزين.

«سيد هندرسون... توصلنا إلى معرفة أن كاتي ربما كانت تتناول نوعاً من أقراص الدواء، شيء اسمه ريماتو. هل سمعت به؟».

نظر مارك إليها بعينين مستطلعتين. يريد الآن أن يرى عينيها، يريد أن يقرأ التعبير الذي في وجهها: «لا... أنا... أظنهم قالوا إنها لم تأخذ أي شيء؟ هذا ما قالته الشرطة في ذلك الوقت. ريماتو؟ ما هذا الدواء؟ هل هو نوع من... المخدرات؟».

هزَّت المفتشة مورغان رأسها وقالت: «إنه دواء لتخفيض الوزن».

قال: «لم تكن كاتي زائدة الوزن»... عندما قال هذه الكلمات أدرك كم تبدو سخيفة... «لكن الناس يتكلمون عن هذه الأشياء طيلة الوقت، أليس كذلك؟ الفتيات المراهقات. تهتم الفتيات كثيراً بوزنهن. ليس هذا مقتصراً على المراهقات. النساء الناضجات أيضاً. لا تكفُّ خطيبتي عن الحديث عن وزنها».

كان هذا صحيحاً، لكنه ما كان الحقيقة كلها لأن خطيبته لم تعد خطيبته، ولأنها ما عادت تشتكي وتتذمَّر عندما تحدثه عن وزنها، وما كانت تنتظره ليأخذها معه إلى إسبانيا. في رسالتها الإلكترونية التي وصلته منذ بضعة شهور، تمنت له أن يعيش بائساً وقالت له إنها لن تغفر له أبداً تعامله السيئ معها.

لكن... ما هو الشيء الفظيع الذي فعله؟ إن كان رجلاً فظيعاً حقاً، إن كان رجلاً بارداً قاسياً من غير إحساس، لتغاضى عن الأمر كله، من أجل المظاهر. سيكون ذلك في مصلحته بعد كل حساب. لكنه ما كان رجلاً سيئاً. كل ما في الأمر هو أنه، عندما يحب، يحب بالكامل... هل في هذا أي شيء سيئ؟

جال في أرجاء البيت بعد ذهاب المفتشة. راح يفتح الدروج ويقلب

صفحات الكتب. يبحث. كان يبحث عن شيء يعرف تماماً أنه لن يستطيع العثور عليه. ذات يوم، بعد منتصف الليل، كان حانقاً، خائفاً... أشعل ناراً في الحديقة الخلفية وألقى فيها أكواماً من البطاقات والرسائل، وكتاباً أيضاً. وألقى الهدايا الأخرى. إن نظر من النافذة الخلفية الآن فسيرى بقّة صغيرة من الأرض المحروقة حيث أزال كل أثر من آثارها.

عندما فتح درج المكتب في غرفة معيشته، كان يعرف تماماً ما سوف يراه، لأن تلك لم تكن أول مرة يفعل هذا. لقد بحث وبحث كثيراً عن شيء فقده، كان يبحث خائفاً أحياناً، حزيناً أكثر الأحيان. لكنه مرَّ بهذا كله في تلك الليلة الأولى.

كانت هنالك صور، يعرف هذا، في مكتب مديرة المدرسة. إنه ملف. ملف مغلق، لكنه لا يزال محفوظاً. كان لديه مفتاح المبنى الإداري، وكان يعرف أين يجب أن يبحث بالضبط. كان يريد شيئاً، كان في حاجة إلى شيء يأخذه معه. ليس هذا أمراً هامشياً تافهاً. بل هو شيء أساسي. هكذا كان يحسّ. لأن المستقبل بدا له فجأة غير مؤكد، غير معروف. لم يفكر في هذا قبل الآن، لكن شيئاً كان يقول له عندما أدار المفتاح في الباب الخلفي، عندما أقفل البيت، إنه قد لا يفعل هذا من جديد. ربما لا يعود. لعل هذا وقت الاختفاء، وقت البدء من جديد.

قاد السيارة حتى المدرسة فأوقفها في موقف السيارات الفارغ. كانت هيلين تاونسند تعمل هناك أحياناً خلال أيام العطلة المدرسة، لكنه لم ير أثراً لسيارتها اليوم. لقد كان وحده هنا. دخل المبنى ومرَّ بغرفة المدرسين متجهاً إلى مكتب هيلين. كان بابها مغلقاً، لكنه أدار المقبض فاكتشف أنه غير مقفل. فتح الباب واستنشق الرائحة الكيميائية المزعجة، رائحة مادة تنظيف السجاد. اجتاز الغرفة حتى وصل إلى خزانة الملفات وفتح الدرج العلوي فيها. كان الدرج فارغاً، وكان الدرج الذي تحته مقفلاً.

أدرك مع إحساس حاد بخيبة الأمل، أن أحداً قد أعاد ترتيب كل شيء، وأدرك أنه ما كان يعرف أين يجب أن يبحث بالضبط، وأدرك أن قدومه إلى المدرسة ما كان إلّا مضيعة للوقت. خرج مسرعاً إلى الممر ليتأكد أنه لا يزال وحيداً هنا (لا يزال وحيداً لأن سيارته الحمراء لا تزال السيارة الوحيدة المتوقِّفة في الخارج). عاد إلى مكتب المديرة. فتح أدراج مكتبها واحداً فواحداً محاذراً أن يفسد ترتيب أي شيء؛ كان يبحث عن مفاتيح خزانة الملفات. لم يجد المفاتيح، لكنه وجد شيئاً آخر... وجد حلية ما كان يتخيَّل أن هيلين يمكن أن تضعها. كانت تلك الحلية شيئاً فاجأه بملمح مألوف على نحو غامض. سوار فضي له مشبك من العقيق وقد حفرت عليه ثلاثة حروف: س ج أ.

جلس ونظر إلى السوار زمناً طويلاً. ما كان قادراً، مهما حاول، على التفكير في ما يعنيه وفي حقيقة أنه موجود هنا. ما كان يعني شيئاً. ما كان يمكن أن يعني شيئاً. أعاد مارك السوار إلى درج المكتب. تخلى عن بحثه وعاد إلى سيارته. وضع المفتاح في السيارة وكان على وشك تشغيلها عندما تذكر فجأة أين رأى هذا السوار آخر مرة. لقد رآه في يد نيل عندما كانت قرب الحانة. جرى بينهما حديث قصير، ثم وقف ينظر إليها متجهة إلى بيت الطاحون. لكنها، قبل ذلك، قبل أن تتركه، كانت تعبث بشيء في معصمها خلال حديثها... إنه هذا السوار، لقد كان في معصمها. عاد من حيث أتى، ومضى إلى مكتب هيلين من جديد، وفتح الدرج وأخذ السوار ووضعه في جيبه. عندما فعل ذلك، كان يعرف أنه ما كان قادراً على تفسير سلوكه لو أن أحداً سأله.

قال في نفسه إن الأمر يبدو كما لو أنه في مياهٍ عميقة، كما لو أنه يمد يده من أجل شيء ما، من أجل أي شيء يمكن أن ينقذ نفسه. كان ذلك كأنه مدَّ يديه إلى طوق نجاة فوجد بدلاً منها أعشاباً مائية؛ لكنه تمسك بها رغم ذلك.

كان الصبي، جوش، واقفاً خارج البيت، عندما وصلنا. كان كأنه جندي صغير يقف حارساً، جندي شاحب يقظ. ألقى التحية على شون بأدب، لكنه نظر إليّ نظرة فيها شيء من الشك. كانت في يده سكين سويسرية، وكانت أصابعه تتحرك بعصبية على نصلْها عندما يفتحها ثم يغلقها.

سأله شون: «هل أمك في البيت يا جوش؟» فأومأ برأسه.

سأله بصوت مرتفع مزقزق حاد: «لماذا تريدون الحديث معنا من جديد؟» ثم تنحنح قليلاً.

أجابه شون: «نريد فقط أن نتحقق من بعض الأمور. لا شيء يدعو إلى القلق».

قال جوش وعيناه تنتقلان بين وجه شون ووجهي: «إنها في السرير. تلك الليلة، كانت ماما في السرير أيضاً. كنا نائمين جميعاً».

سألته: «أي ليلة؟ أي ليلة هي يا جوش؟».

احمرَّ وجهه وأطرق برأسه ناظراً إلى يديه وراح يلعب بالسكين من جديد.

صبيٌّ صغير لم يتعلم الكذب بعد.

فتحت أمه الباب من خلفه. نظرت إليّ ثم إلى شون وتنهدت، ثم حكت حاجبيها بأصابعها. كان لونها بلون الشاي الخفيف، وعندما استدارت لتكلم ابنها لاحظت أن ظهرها كان محنيّاً كأنها امرأة عجوز. شدَّته إليها وهي تخاطبه بصوت هادئ.

سمعته يسألها: «لكن، ماذا إن كانا يريدان الحديث معي؟»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وضعت يدها على كتفه بحركة حازمة وقالت له: «لن يتحدثا معك يا حبيبي. اذهب الآن!»

أغلق جوش سكينه ووضعه في جيبه وهو ينظر في عينيّ. ابتسمت له فاستدار وسار مبتعداً بخطى سريعة ولم يلتفت إلّا عندما دخلنا وبدأت أمه تغلق الباب من خلفنا.

لحقت بلويز وشون إلى غرفة المعيشة الكبيرة المفتوحة على غرفة زجاجية مربعة حديثة الطراز بدت كأنها تجعل ذلك البيت مندمجاً بالحديقة من غير انقطاع. وفي الخارج، رأيت قناً خشبياً على المرج وأمامه عدد من دجاجات البانتام ذات الألوان السوداء والبيضاء والذهبية... كانت تنبش الأرض بحثاً عن طعام. أشارت لنا لويز بأن نجلس على الأريكة. أما هي فجلست في كنبة مقابلنا، جلست ببطء وحذر مثلما يفعل شخص لم يشفَ بعد جيداً من إصابة لحقت به... شخص يخاف أن يسبب لنفسه مزيداً من الألم.

قالت وهي ترفع ذقنها قليلاً وتنظر إلى شون: «إذن! ماذا جئت تقول لي؟».

أوضح لها شون أن اختبارات الدم الجديدة أعطت النتائج نفسها التي ظهرت من قبل: لا أثر لأية أدوية في جسم كاتي. أصغت لويز إليه وهي تهز رأسها بحركة عدم تصديق واضحة: «لكنك لا تعرف، لا تعرف كم يمكن لآثار ذلك الدواء أن تبقى في الجسم. ولا تعرف كم يلزم من الوقت حتى تظهر آثارها، أو حتى تزول. لا تستطيع صرف النظر عن هذا الأمر يا شون...»

قال لها بصوت متزن: «نحن لا نصرف النظر عن أي شيء. إنني أخبرك الآن بما توصلنا إليه».

«بالتأكيد... نعم، من المؤكد أن تقديم أدوية غير مشروعة إلى أحد ما إلى طفلة يعتبر جريمة على أية حال! أعرف...» عضت شفتها السفلى بأسنانها... «أعرف أن وقت معاقبتها على ذلك قد فات، لكن الأمر يجب أن يصير معروفاً للجميع، ألا ترى هذا؟ ألا يجب أن يعرف الناس ما فعلته؟» لم يقل شون شيئاً. تنحنحتُ قليلاً فحدَّقت لويز فيّ بنظرة غاضبة عندما بدأت الكلام.

«انطلاقاً مما توصلنا إليه يا سيدة ويتاكر، وبالنظر إلى توقيت شراء الدواء، فإن نيل ما كانت قادرة على شرائه. وعلى الرغم من أن بطاقتها المصرفية استخدمت في عملية الشراء، إلّا...».

ارتفع صوتها حانقاً: «إلى أي شيء تلمحين؟ هل تقولين الآن إن كاتي سرقت بطاقتها المصرفية؟».

قلت: «لا، لا. لسنا نقول أي شيء من هذا القبيل». تغيَّر لون وجهها عندما أدركتُ الأمر. قالت وهي تسترخي في الكنبة وقد ظهر على وجهها تعبير استسلام حزين: «إنها لينا! لينا هي من فعل ذلك».

شرح لها شون أننا لسنا متأكدين من ذلك أيضاً رغم أننا سنستجوب لينا فيما يتعلق بهذه النقطة. وقال لها إنها ستأتي إلى قسم الشرطة بعد الظهر. سألها أيضاً إن كانت قد وجدت في غرفة كاتي أي شيء آخر قد تكون له أهمية. أجابت عن سؤاله بطريقة جازمة مباشرة: «هذا كل شيء»، ثم انحنت إلى الأمام قليلاً وقالت: «ألا تستطيعون رؤية هذا؟ إذا جمعتم بين أقراص الدواء والمكان، وحقيقة أن كاتي كانت تمضي وقتاً طويلاً جداً في بيت نيل آبوت ومن حولها تلك الصور والقصص كلها، و...». توقفت عن الكلام. حتى هي، لم يظهر عليها أنها مقتنعة تماماً بما تقول. فحتى إن كانت محقّة، وحتى إن كانت تلك الأقراص

هي ما أصاب ابنتها بالاكتئاب، فإن هذا كله لا يغير شيئاً في حقيقة أنها لم تلاحظ ما يحدث لابنتها.

لم أقل هذا، بالطبع؛ لم أقله لأن السؤال الذي كان عليّ أن أطرحه صعب بما فيه الكفاية. كانت لويز تقف على قدميها في تلك اللحظة. فقد افترضت أن المقابلة انتهت وتوقفت أننا سنذهب. كان علي أن أوقفها.

قلت لها: «هنالك شيء آخر يجب أن نسألك عنه».

«ماذا؟».

ظلت واقفة. عقدَت ذراعيها على صدرها.

قلت بحذر: «أتساءل إن كنت مستعدة لأن تسمحي لنا بأخذ بصماتك».

قاطعتني قبل أن أتمكن من توضيح الأمر: «ما السبب؟ لماذا؟».

تململ شون في جلسته وقال لها: «لويز! اكتشفنا بصمات متطابقة على علبة الدواء التي أعطيتني إيَّاها وعلى كاميرات نيل آبوت. علينا تفسير ذلك. هذا كل شيء».

جلست لويز وقالت: «لا بأس، إنها بصمات نيل على الأرجح. ألا تظنون ذلك؟».

أجبتها: «إنها ليست بصمات نيل. تحققنا من الأمر. وهي ليست بصمات ابنتك أيضاً».

أجفلت عند سماع هذا: «طبعاً... ليست بصمات كاتي. ما الذي يجعل كاتي تعبث بالكاميرات؟» شدت على شفتيها ورفعت يدها إلى ذقنها ثم مست بها رقبتها وراحت تحرك الطائر الأزرق الصغير في السلسلة جيئة

وذهاباً. أطلقت تنهيدة ثقيلة، ثم قالت: «نعم، إنها بصماتي، طبعاً... إنها بصماتي».

حدث ذلك قبل موت ابنتها بثلاثة أيام. هذا ما قالته لنا: «ذهبتُ إلى بيت نيل آبوت. كنت... أشك في قدرتكم على تخيل حالتي في ذلك الوقت، لكنكم تستطيعون محاولة التخيل. قرعت بابها، لكنها لم تخرج إليّ. لم أستسلم بل بقيت هناك، ظللت أدق على الباب وأناديها. وفي النهاية...» قالت هذا وهي تزيح خصلة شعر عن وجهها... «فتحت لينا باب البيت. كانت تبكي وتنتحب بصوت مرتفع؛ كانت في حالة هستيرية. كان ذلك مشهداً غريباً...» حاولت أن تبتسم لكنها لم تنجح... «قلت لها بعض الكلمات، كلمات قاسية، عندما أسترجع ما حدث أراها قاسية، لكن...».

سألتها: «ماذا قلت لها؟».

«أنا... لا أتذكر التفاصيل حقاً». بدأ تماسكها يتراخى، وصارت أنفاسها قصيرة. شدت أصابعها على مسند الكنبة بقوة جعلت الجلد الزيتوني على مفاصل أصابعها يبدو أصفر اللون... «لا بد أن نيل سمعتني. خرجت وقالت لي أن أبتعد عنهما. قالت لي...» ضحكت لويز ضحكة عاوية صغيرة... «قالت إنها حزينة على ابنتي. كانت حزينة على ابنتي، لكنها لا علاقة لها بالأمر، ولا علاقة لابنتها بالأمر أيضاً. كانت لينا مرتمية على الأرض في تلك اللحظة، أذكر هذا، وكانت تصدر أصواتاً كأنها... كأنها صوت حيوان. كانت مثل حيوان جريح». توقفت لحظة لتلتقط أنفاسها ثم تابعت... «تجادلنا، نيل وأنا، كان جدالاً عنيفاً بعض الشيء». ابتسمت نصف ابتسامة في اتجاه شون... «هل يفاجئك هذا؟ ألم تسمع هذا الكلام من قبل؟ كنت أظن أن نيل أخبرتك به... أو لينا، على الأقل. نعم، إنني... لا بأس، لم أضربها، لكني اندفعت في اتجاهها

فصدَّتني. طلبت منها رؤية ما صورته الكاميرا. لقد أردت... لم أكن أريد رؤيته، لكني أردت ألّا يكون لديها أي شيء... ما كنت قادرة على احتمال أن...».

توقفت لويز عن الكلام.

إن النظر إلى شخص واقعٍ في هوة عذاب الفَقد أمر فظيع حقاً. يكفي أن يرى المرء ذلك حتى يحسَّ كم هو أمر عنيف، كم هو أمرٌ مؤذٍ، كم هو اعتداء على الروح. لكننا فعلنا ذلك، كان علينا أن نفعله طيلة الوقت... عليك أن تتعلم التكيُّف مع هذا، كيفما استطعت. خفض شون رأسه وظل ساكناً تماماً؛ أما أنا فحاولت إشغال نفسي بشيء آخر: رحت أنظر إلى الدجاجات التي تنبش الأرض في أرجاء ذلك المرج خلف النافذة. نظرت إلى رفوف الكتب فمرت عيني على روايات معاصرة قيمة وعلى كتب في التاريخ العسكري. نظرت إلى الصور ذات الإطارات فوق الموقد. نظرت إلى صورة العرس، وإلى صورة عائلية وصورة الطفل الصغير. طفل واحد فقط، صبي صغير في ملابس زرقاء. أين هي صور كاتي؟ حاولت أن أتخيل كيف يكون قيامك بنزع صور طفلك وإزالتها من موقعها المتميز في الغرفة، ثم وضعها في أحد الأدراج. عندما نظرت إلى شون وجدت أن رأسه ما عاد منكساً. كان يرميني بنظرة غاضبة. أدركت عند ذلك وجود نقر في الغرفة، وأدركت أن ذلك النقر صادر عني، كان ذلك صوت قلمي يضرب على الدفتر. ما كنت أفعل هذا قصداً؛ كنت أرتجف من رأسي إلى قدمي.

بعد وقت بدا لي طويلاً جداً، تكلمت لويز من جديد: «لم أستطع تحمل أن تكون نيل الشخص الأخير الذي يرى طفلتي. قالت لي إن الكاميرا لم تسجل شيئاً، قالت إنها لم تكن تعمل آنذاك. وحتى إذا كانت تعمل، فإنها موضوعة فوق الجرف مما يعني أنها لا يمكن أن... لا يمكن

أن تكون قد التقطت صورتها». أطلقتْ زفرة عميقة وسرَت ارتجافةٌ في جسدها كله من كتفيها إلى ركبتيها... «لم أصدقها. لم أستطع المغامرة بتصديقها. ماذا لو كان هنالك شيء في الكاميرا، وماذا لو استخدمَته؟ ماذا لو جعلت العالم يرى ابنتي وحيدة مذعورة؟... و...» توقفت لتستنشق نفَساً عميقاً: «قلت لها... لا بد أن لينا أخبرتكم بهذا كله! قلت لها إنني لن أعرف راحة قبل أن أراها تدفع ثمن ما فعلته. وبعد ذلك ذهبتُ. مضيت إلى الجرف وحاولت فتح الكاميرا لأخرج منها بطاقة الذاكرة، لكني لم أستطع. حاولت نزعها عن الحامل فتكسرت أظافري وأنا أحاول فعْل ذلك». رفعت يدها اليسرى أمامنا؛ كان ظفر سبَّابتها اليمنى مشقوقاً متورِّماً... «رفستها بقدمي عدة مرات، ثم حطمتها بحجر. وبعد ذلك عدت إلى بيتي».

إيرين

كان جوش جالساً على الرصيف قُبالة البيت عندما خرجنا. نظرت عيناه إلينا ونحن ذاهبان إلى السيارة. ثم اجتاز الطريق بسرعة بعد أن ابتعدنا خمسين متراً أو نحو ذلك، واختفى داخل البيت. كان المفتش تاونسند آنذاك في عالمه الخاص ولم يبدُ عليه أنه لاحظ شيئاً.

«لن تعرف الراحة قبل أن ترى نيل تدفع ثمن ما فعلته!»... كررت جملتها عندما وصلنا إلى السيارة... «ألا يبدو لك هذا تهديداً؟».

نظر شون إليّ نظرته المألوفة الخالية من التعبير، تلك النظرة المزعجة التي توحي بأنه ليس هنا حقّاً. لم يقل شيئاً.

«أقصد... ألا يبدو غريباً ألا تذكر لنا لينا شيئاً من هذا؟ وماذا عن جوش؟ ذلك الكلام الذي قاله عن أنهم كانوا نائمين جميعاً. كان من الواضح أنه يكذب...».

هز شون رأسه وقال بصوت هادئ: «صحيح، هذا ما يبدو. لكني لا أعوّل كثيراً على قصص يرويها أطفال يعانون ألم الفقد. لا يمكن معرفة ما يحسه أو يتخيله أو يظن أن من الواجب عليه قوله أو عدم قوله. يعرف أننا نعرف أن أمه كانت تحمل ضغينة على نيل آبوت؛ ويبدو لي أنه خائف من أن يؤدي ذلك إلى إلقاء اللوم عليها، خائف من أنه يمكن أن يفقدها. عليك أن تفكري في مقدار ما خسره حتى الآن». توقف قليلاً... «أما لينا، فإذا كانت حقاً في تلك الحالة الهستيرية التي وصفتها لنا لويز، فقد لا تتذكَّر ما حدث بشكل واضح؛ قد لا تتذكَّر شيئاً أكثر من ألمها هي في تلك اللحظة».

أما من ناحيتي، فقد وجدت أن من الصعب عليّ أن أجمع بين وصف لويز للينا ذلك اليوم حيوان جريح يجأر وبين الفتاة التي قابلناها، الفتاة المسيطرة على نفسها عادة، صاحبة السخرية السامة في بعض الأحيان. بدا لي أمراً غير طبيعي أن تكون ردة فعلها تجاه موت صديقتها عنيفة إلى تلك الدرجة، نابعة من داخلها إلى تلك الدرجة بينما تكون ردة فعلها تجاه موت أمها متزنة مضبوطة هذا الضبط كله. هل يمكن أن تكون لينا قد تأثرت كثيراً بمعاناة لويز وحزنها، وباتهاماتها الموجهة إلى نيل وتحميلها مسؤولية موت كاتي، إلى حد جعلها مقتنعة بها، هي نفسها؟ أحسست بوخز في جسمي كله. لم يبدُ لي هذا الاحتمال مرجحاً؛ لكن ماذا لو أن لينا، مثل لويز، كانت تلوم أمها على موت كاتي؟ وماذا لو أنها قررت أن تفعل شيئاً فيما يتعلق بهذا الأمر؟

لينا

لماذا يطرح الكبار الأسئلة الخاطئة دائماً؟ الأقراص! هذا كل ما يهتمون به الآن. أقراص تخفيف الوزن الغبية القذرة... كنت قد نسيت حتى أنني اشتريتها لأن هذا كان منذ زمن بعيد. لكنهم قرروا الآن أن

تلك الأقراص هي الإجابة عن كل شيء؛ وهكذا كان علي أن أذهب إلى قسم الشرطة (مع جوليا) لأنها «الشخص الكبير المناسب» لمرافقتي. جعلني هذا أضحك. إنها آخر «شخص كبير مناسب» في هذا الوضع تحديداً. أخذوني إلى غرفة في عمق قسم الشرطة، غرفة لا تشبه ما نراه في التليفزيون... مجرد غرفة مكتب. جلسنا حول الطاولة كلنا وبدأت المرأة المحققة مورغان تطرح الأسئلة. كانت تطرح معظم الأسئلة. كان شون يسأل عن بعض الأشياء أيضاً، لكن مورغان قامت بتوجيه معظم الأسئلة.

قلت لهم الحقيقة. لقد اشتريت الدواء مستخدمة بطاقة أمي المصرفية لأن كاتي طلبت مني شراءها لها. ولم يكن في ذهن أيٍّ منا أنها يمكن أن تسبب ضرراً. أو، من الأدق القوْل إنني ما كنت أملك أي فكرة عن ضررها؛ وإذا كانت كاتي تعرف ذلك فإنها لم تقل لي شيئاً عنه أبداً.

سألتني المحققة مورغان: «لا يبدو عليك أي اهتمام خاص بأن من المحتمل أن تكون تلك الأقراص قد أسهمت وصول كاتي إلى تلك الحالة العقلية السلبية في آخر حياتها!».

عضضت على لساني حتى كدت أقطعه. قلت لها: «لا! هذا ليس احتمالاً يقلقني. لم تفعل كاتي ما فعلته بسبب تلك الأقراص».

«فلماذا فعلته إذاً؟».

كان عليَّ إدراك أنها ستتمسَّك بهذه النقطة. وهكذا تابعت الكلام: «ثم إنها لم تتناول الكثير منها. لم تتناول إلَّا بضعة أقراص، بل ربما أربعة أو خمسة. عِدُّوا الأقراص!» قلت هذا مخاطبة شون... «أنا واثقة تماماً من أنني اشتريت خمسة وثلاثين قرصاً. عدُّوها!».

قال شون: «سنفعل هذا». ثم سألني... «هل أعطيت أقراصاً لأي

شخص آخر؟» هززت رأسي نفياً، لكنه لم يكتف بهذا... «هذا أمر هام يا لينا».

أجبته: «أدرك هذا. لم أشترِ الأقراص إلَّا مرة واحدة. كنت أفعل ذلك من أجل صديقتي. هذا كل ما في الأمر، صدقاً».

استند بظهره إلى الكرسي وقال: «لا بأس. الشيء الذي لا أستطيع فهمه هو السبب الذي جعل كاتي راغبة في تناول أقراص من هذا النوع أصلاً». نظر إليّ ثم إلى جوليا كأنها يمكن أن تكون لديها إجابة عن سؤاله... «لا يبدو لي إنها كانت زائدة الوزن».

«الحقيقة أنها لم تكن نحيلة إلى ذلك الحد». قلت هذا فصدر عن جوليا صوت غريب، صوت كأنه مزيج من ضحك ونخير. وعندما نظرتُ إليها رأيتها تنظر إلي كأنها تكرهني.

سألتني المحققة مورغان: «هل كان الناس يقولون هذا لها؟ في المدرسة؟ هل كانت هنالك إشارات أو تعليقات فيما يتعلق بوزنها؟».

«يا ربي!»... صرت الآن أجد صعوبة في ضبط أعصابي... «لا! لم يكن أحد يوجه إليها ملاحظات أو تعليقات مزعجة. ألا تعرفون هذا؟ كانت تسميني النحيلة القذرة طيلة الوقت. كانت تسخر مني لأنني، أنتِ تعرفين...» أحسست حرجاً لأن شون ينظر إليّ مباشرة، لكني بدأت الجملة وعلي أن أنهيها... «لأنني ليس لديَّ ثديان. هذا ما كان يجعلها تدعوني باسم النحيلة القذرة فأجيبها أحياناً بأنها بقرة سمينة؛ لكن أيّاً منا ما كانت تعني حقّاً ما تقول».

لم يفهموا الفكرة. إنهم لا يفهمون شيئاً أبداً. وكانت المشكلة أنني ما كنت قادرة على شرحها كما يجب. حتى أنني لا أفهم الأمر بنفسي أحياناً: لم تكن نحيلة، ورغم ذلك، لم يكن يبدو عليها أي اهتمام بالأمر.

لم تكن أبداً تتحدث عن ذلك مثلما تتحدث عنه بقية الفتيات. لم أكن في حياتي مضطرةً إلى محاولة إنقاص وزني. لكن آني وإيلي وتانيا كن يفعلن ذلك... يقتصر طعامهن على المأكولات الفقيرة بالكاربوهيدرات، أو يجوِّعن أنفسهن، أو يتقيَّأن، أو يفعلن أشياء غريبة. لكن كاتي ما كانت تبالي بهذا كله... كانت تحب أن يكون لها ثديان. كان شكل جسمها يعجبها، أو...كان يعجبها عادةً. وبعد ذلك (صدقاً، لا أعرف السبب)، كان هنالك تعليق غبي على إنستغرام أو ملاحظة بليدة من فتاة بدائية في المدرسة، فصار موقفها من الأمر غريباً غير مفهوم. كان ذلك عندما طلبت مني شراء الأقراص. لكنني أحسست أنها تجاوزت تلك المسألة خلال الوقت الذي استغرقه وصول الأقراص... قالت أيضاً إنها لم تكن فاعلة.

ظننت أن المقابلة انتهت. وظننت أنني أوضحت ما أردت إيضاحه، لكن المحققة مورغان تابعت في اتجاه مختلف تماماً وسألتني عن ذلك اليوم عندما جاءت لويز إلينا بعد موت كاتي مباشرة. قلت لها إنني أذكر ذلك اليوم، أذكره طبعاً. كان يوماً من أسوأ أيام حياتي. ولا أزال أشعر بالحزن والضيق عندما أفكر فيه.

قلت لهم: «لم أرَ شيئاً مثل ذلك في حياتي كلها. لم أر شيئاً يشبه حالة لويز في ذلك اليوم».

هزَّت المحققة رأسها ثم سألتني... وكلها اهتمام، وكلها صدق: «عندما قالت لويز لأمك إنها لن تعرف راحة إلى أن ترى نيل تدفع الثمن، كيف فهمتِ ذلك؟ ماذا ظننت أنها تعني بهذا الكلام؟».

عند ذلك، فقدت أعصابي: «لم تكن تعني أي شيء أيتها الغبية القذرة».

نظر شون إليَّ نظرةً غاضبةً: «لينا! انتبهي إلى ألفاظك».

«آسفة، إنني آسفة؛ لكن... بحق الرب! كانت ابنة لويز قد ماتت قبل ذلك بوقت وجيز جداً، ولم تكن تعي ما تقوله. كانت في حالة جنون».

كنت مستعدة للخروج، لكن شون طلب مني البقاء.

قلت له: «لستُ مضطرة إلى البقاء، أليس كذلك؟ لا أظن أنني موقوفة هنا!»

قال لي: «لا يا لينا، بالطبع، أنت لست موقوفة».

تكلمت معه لأنه هو الذي يفهمني: «انظر، لم تكن لويز جادة في كلامها. كانت في حالة هستيرية تماماً. لقد فقدت عقلها. أنت تذكر هذا، ألا تذكره؟ ألا تذكر كيف كانت؟ أقصد أنها... بالطبع، كانت تقول مختلف الأشياء، كنا نقول أشياء كثيرة كلنا، وأظن أننا كلنا جننا بعض الشيء بعد موت كاتي. لكن، بحق الرب، لم تلحق لويز أي أذى بأمي. صدقاً، أظن أنها لو كان معها مسدس أو سكين في ذلك اليوم، فقد كان من الممكن أن تؤذيها، لكنها لم تفعل شيئاً».

أردت أن أخبرهم بالحقيقة كلها. أردت هذا حقاً. لم أرد قول ذلك للمحققة، ولا حتى لجوليا، صدقاً، لكني أردت أن أقوله لشون. لكني لم أستطع. لو قلت، لكان ذلك خيانة؛ وبعد كل ما فعلتُه، ما كنت قادرة على خيانة كاتي الآن. وهكذا قلت كل ما كنت قادرة على قوْله... «لم تفعل لويز لأمي أي شيء؛ هل فهمتم هذا؟ لم تفعل شيئاً. لقد اتخذت أمي قرارها بنفسها».

نهضت لأذهب، لكن المحققة مورغان لم تنته بعد. كانت تنظر إليّ وقد ظهر في وجهها تعبير غريب كأنها لم تصدق كلمة مما قلته لهم. سألتني عند ذلك: «هل تعرفين ما يفاجئني؟ ما أجده شديد الغرابة يا لينا؟

لا يبدو عليك، ولا من بعيد، أي فضول لمعرفة السبب الذي جعل كاتي تفعل ما فعلته ولا إلى معرفة السبب الذي جعل أمك تفعل ما فعلته. عندما يموت أحد بهذه الطريقة فإن السؤال الذي يطرحه الجميع هو لماذا. لماذا فعلوا ذلك؟ ما الذي يجعل الناس يقررون إنهاء حياتهم عندما تكون لديهم أشياء كثيرة يعيشون من أجلها. لكنك لا تريدين معرفة الإجابة. السبب الذي أراه لذلك، السبب الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو أنك تعرفين الإجابة بالفعل». أخذني شون من ذراعي وقادني خارج تلك الغرفة قبل أن أستطيع قول شيء.

لينا

أرادت جوليا أن توصلني بالسيارة إلى البيت. لكنني قلت لها إنني راغبة في المشي. لم يكن ما قلته صحيحاً؛ لكن كان هنالك أمران: الأول هو أنني ما كنت راغبة في أن أكون وحيدة معها في السيارة، والثاني هو أنني رأيت جوش على دراجته، في الناحية الأخرى من الطريق، يدور ويدور هناك، فعرفت أنه ينتظرني.

قلت له عندما قاد الدراجة في اتجاهي: «إيه ما أخبارك يا جوش!» عندما كان في الثامنة أو في التاسعة، بدأ يقول للناس «إيه ما أخبارك» بدلاً من «مرحباً». ثم لم نتركه، أنا وكاتي، ينسى هذه الكلمة. إنه يضحك عادة عند سماعها، لكنه لم يضحك هذه المرة. بدا عليه الذعر.

سألته: «ما المشكلة يا جوش؟ ماذا حدث؟».

قال بصوته الهامس الصغير: «ماذا كانوا يسألونك هناك؟».

«لا شيء؛ لا تقلق. لقد عثروا على بعض الأقراص التي كانت كاتي تتناولها، وظنوا أنها، أقصد الأقراص، يمكن أن تكون على علاقة بما...

بما حدث. من الواضح أنهم مخطئون. لا تقلق». احتضنته فخلص نفسه مني وابتعد عني. لم يفعل هذا من قبل. عادة ما يستغل أي عذر حتى أداعبه أو حتى يمسك يدي.

قال لي: «هل سألوك عن أمي؟».

«لا! لا بأس... لقد سألوني. أسئلة قليلة. لماذا؟».

قال من غير أن ينظر إلي: «لا أدري».

«لماذا يا جوش؟».

«أظن أن علينا أن نخبرهم».

شعرت بأول قطرات المطر الدافئ على ذراعي فنظرت إلى السماء. كانت قاتمة مظلمة؛ هنالك عاصفة وشيكة. قلت له: «لا يا جوش! لن نخبرهم».

«لينا، علينا أن نخبرهم».

قلت من جديد: «لا، لن نخبرهم». ثم أمسكت بذراعه بقوة أكبر مما أردت فأصدر صوتاً مثل الذي يصدره كلب صغير عندما تدوس على ذيله. «لقد قطعنا عهداً. أنت قطعت عهداً». هزَّ رأسه فغرست أظفاري في ذراعه.

بدأ يصيح باكياً: «لكن، ما فائدة ذلك الآن؟».

تركت ذراعه ووضعت كفيّ على كتفيه. أرغمته على النظر إلي... «العهد عهدٌ يا جوش. وأنا أعني ما أقول. لا تخبر أحداً».

على نحو ما، كان جوش محقاً: لا فائدة من بقائنا صامتين. لا فائدة يمكن تحقيقها من أي شيء. لكن، رغم ذلك، ما كنت قادرة على خيانتها.

إن عرفوا ما يتعلق بكاتي، فسوف يسألوا أسئلة عما حدث بعد ذلك. ولا أريد أن يعرف أحد بما فعلنا، أمي وأنا. ما فعلناه وما لم نفعله.

ما كنت أريد أن أترك جوش على هذه الحال، وما كنت أريد العودة إلى البيت أيضاً. وهكذا، طوقته بذراعي وضغطت عليه بلطف، ثم أمسكت بيده. قلت له: «هيا بنا. تعال معي. أعرف شيئاً يمكننا فعله معاً. أعرف ما يمكن أن يجعلنا نشعر بالسرور». احمرَّ وجهه فبدأت أضحك وقلت له: «ليس ذلك... أيها الصبي القذر!» ضحك عند ذلك ومسح دموعه عن وجهه.

سرنا صامتين في اتجاه النهاية الجنوبية للبلدة. كان جوش سائراً إلى جانبي يدفع دراجته بيده. ولم يكن هناك أحد من حولنا. وصار المطر يشتد ويشتد إلى أن بدأتُ أحسُّ بأن جوش يسترق نظرات سريعة إليّ لأن قميصي الخفيف قصير الكمين ابتل كله وصار شفافاً تماماً ولم أكن قد ارتديت حمَّالة الثديين. عقدت ذراعي على صدري فاحمر جوش من جديد. ابتسمت، لكني لم أقل شيئاً. والحقيقة أننا لم نتكلم أبداً إلى أن وصلنا إلى طريق بيت مارك. قال جوش عند ذلك: «ماذا نفعل هنا؟» فابتسمت له ابتسامة عريضة.

عندما وقفنا أمام بيت مارك، سألني جوش من جديد: «لينا، ما الذي نفعله هنا؟» بدا مذعوراً من جديد، لكنه كان مستثاراً أيضاً. أحسست بالإثارة تتصاعد في داخلي أيضاً، تجعلني أحسُّ ما يشبه الدوار والغثيان.

قلت له: «نفعل هذا». ثم التقطت حجراً من تحت الحافة وقذفته بأقصى قوتي صوب النافذة الكبيرة التي في واجهة البيت. اخترق الحجر النافذة، لم يُحدِث غير ثقب صغير في الزجاج.

صاح جوش وهو يتلفَّت من حوله قلقاً ليرى إن كان هنالك من ينظر

إلينا: «لينا!». لم يكن هناك أحد من حولنا. ابتسمتُ له والتقطتُ حجراً آخر فقذفته من جديد. تحطمت النافذة هذه المرة وسقط اللوح الزجاجي كله متكسِّراً على الأرض.

قلت له: «هيا!» ثم ناولته حجراً. درنا معاً حول البيت كله. كان ذلك أكثر من الكراهية... كنا نضحك ونصيح ونشتم ذلك الخراء بكل ما يرد على ذهنينا من كلمات مُقذعة.

بركة الغارقات

كاتي، 2015

في طريقها إلى النهر، كانت كاتي تتوقف من وقت لآخر لتلتقط حجراً أو قطعة قرميد فتضع ذلك في حقيبة ظهرها. كان الطقس بارداً، ولم يظهر ضياء النهار بعد، رغم أنها كان يمكن أن ترى لمحة من لونٍ رماديٍّ عند الأفق إذا استدارت ونظرت خلفها في اتجاه البحر. لم تستدر. لم تستدر أبداً.

سارت سريعاً أول الأمر، سارت في الطريق المنحدرة في اتجاه مركز البلدة لكي تبتعد عن بيتها قليلاً. لم تتجه مباشرة إلى النهر لأنها أرادت، مرة أخيرة، أن تسير عبر المكان الذي ترعرعت فيه، أن تمر بالمدرسة الابتدائية (لم تجرؤ على النظر إليها لأنها خشيت أن تأتيها ذكريات من طفولتها فتوقفها وتمنعها من المُضي إلى فعْل ما اعتزمته). مرَّت بدكان القرية، لا يزال مغلقاً في الليل؛ ومرَّت بالبقعة الخضراء حيث حاول أبوها تعليمها لعب الكريكيت، لكنه فشل. مرّت ببيوت صديقاتها.

كان هنالك بيت بعينه لا بد من زيارته، بيت في طريق سيوارد، لكنها لم تستطع جعل نفسها تسير في تلك الطريق. اختارت طريقاً آخر بدلاً منها. ثم تباطأت خطواتها مع ازدياد حملها ومع بداية الصعود في اتجاه

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

البلدة القديمة. صارت الشوارع أكثر ضيقاً بين البيوت الحجرية المجللة بشجيرات متسلقة مزهرة.

تابعت سيرها في اتجاه الشمال فمرت بالكنيسة، ثم انعطف دربها إلى اليمين انعطافاً حاداً. اجتازت النهر وتوقفت لحظة على الجسر المحدب. نظرت إلى الماء في الأسفل... ماء زيتي صقيل ينساب فوق الحجارة سريعاً. كانت ترى من هناك، أو لعلها كانت تتخيَّل فقط، الشكل العام القاتم لبيت الطاحون القديم ودولابه الضخم الساكن المهترئ الذي لم يتحرك منذ نصف قرن. فكرت في صديقتها النائمة في الداخل ووضعت يديها المزرقّتين من البرد على حافة حاجز الجسر حتى تكفّا عن الارتجاف.

نزلت الدرجات الحجرية شديدة الانحدار المفضية من الطريق إلى الممر الذي على ضفة النهر. يمكنها السير على هذا الدرب حتى تصل إلى سكوتلندا، إن أرادت ذلك. لقد فعلت هذا من قبل، منذ سنة، في الصيف الماضي. كانوا ستة حملوا خيامهم وأكياس نومهم فاجتازوا المسافة في ثلاثة أيام. كانوا يبيتون الليل عند النهر ويشربون في ضوء القمر النبيذ الذي أتوا به سرّاً ويحكون حكايات النهر، حكايات ليبي وآن وغيرها. لعلها ما كانت في ذلك الوقت قادرة على تخيل أنها ستمشي ذات يوم حيث مشين كلهن، وأن قدرها كان مضفوراً مع أقدارهن.

كان سيرها أكثر بطئاً عندما اجتازت مسافة نصف الميل الفاصلة بين الجسر وبركة الغارقات، صارت الحقيبة ثقيلة على ظهرها، وصارت حوافها القاسية تحفر في عمودها الفقري. بكت قليلاً. ومهما حاولت، ما كانت قادرة على منع نفسها من التفكير في أمها... كان هذا أسوأ شيء، أسوأ شيء على الإطلاق.

وعندما مرّت تحت أشجار الزان الظليلة عند ضفة النهر، كان المكان

مُظلماً إلى حد جعلها غير قادرة على رؤية مسافة قدم واحدة أمامها. كان في هذا شيء من الراحة. فكرت في أن تجلس قليلاً وتُنزِل حقيبتها عن كتفها لتستريح لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع فعل هذا لأن الشمس ستطلع عليها إن توقفت، وسيكون الوقت قد فات من غير أن يتغير شيء، وستكون مضطرَّة إلى مواجهة يوم آخر تستيقظ فيه قبل الفجر وتترك البيت النائم خلفها. سارت تتحسَّس طريقها بقدميها.

سارت تتحسَّس طريقها بقدميها إلى أن خرجت من تحت الأشجار.

سارت تتحسَّس طريقها بقدميها فخرجت عن الدرب وانحدرت صوب ضفة النهر. وعند ذلك، سارت تتحسَّس الطريق بقدميها فدخلت الماء.

جولز

لقد كنت تختلقين الحكايات. تعيدين كتابة التاريخ وتحكينه من جديد من وجهة نظرك أنت... إنها نسختك أنت من الحقيقة.

(المرأة المتكبِّرة، نيل، القذرة المتكبِّرة)

أنت لا تعرفين ما حدث مع ليبي سيتون؛ وبالتأكيد لا تعرفين ما كان يدور في رأس كاتي عندما ماتت. هذا واضح مما كتبته بنفسك.

في الليلة التي سبقت ليلة منتصف الصيف، مضت كاتي ويتاكر إلى بركة الغارقات. عُثر على آثار أقدامها على الشاطئ، عند نهايته الجنوبية. كان عليها فستان قطني أخضر وسلسلة بسيطة حول عنقها فيها حِلية صغيرة على شكل طائر أزرق حفرت عليه كلمتان... «مع حبي». وعلى ظهرها، كانت تحمل حقيبة ملآى بالحجارة وقطع القرميد. أظهرت الاختبارات التي أجريت بعد موتها أنها لم تتناول مخدِّراً ولا شراباً مسكراً.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ما كان لدى كاتي سوابق فيما يتعلق بالأمراض العقلية أو الميل إلى إيذاء النفس. كانت طالبة جيدة، وكانت جميلة واسعة الشعبية. لم تعثر الشرطة على شيء يشير إلى تعرضها لأية إزعاجات، سواء بشكل مباشر أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

إن كاتي من بيت حسن، من أسرة جيدة. كانت فتاة محبوبة.

كنتُ متربعة على الأرض في غرفة مكتبك أقلب أوراقك في كآبة ساعة متأخِّرة بعد الظهر؛ كنت أبحث عن إجابات. كنت أبحث عن شيء ما. بين تلك الملاحظات التي تركتِها (ملاحظات غير منظمة مجموعة بطريقة فوضوية، وعلى هوامشها خربشات تكاد تكون غير مقروءة وكلمات تحتها خطوط باللون أو كلمات مشطوبة باللون الأسود). كانت هنالك صور أيضاً. في مغلّف رخيص من الورق الخشن، وجدت نسخاً من صور مطبوعة على ورق منخفض الجودة: كاتي مع لينا؛ بنتان صغيرتان تبتسمان للكاميرا، لا تحاولان التصنع ولا اتخاذ وضعية جذابة... بنتان تنظران إلى البعيد، بنتان بريئتان، بنتان لم تبلغا مرحلة الاهتمام بصورتهما. أزهار وتقدِمات متروكة عند حافة البركة، دبة قماشية صغيرة، وحلي. آثار أقدام في الرمل عند حافة البركة. لا أظنها آثار أقدامها. أليست آثار كاتي الحقيقية؟ لا، لا بد أن هذه نسختك أنت، نسختك التي أعدتُ إنشاءها بنفسك. لقد سرتِ على خطاها، ألم تفعلي هذا؟ مشيتِ حيث مشتْ، ولم تقدِري على مقاومة عيش ذلك الإحساس بنفسك.

هكذا كنتِ دائماً. عندما كنتِ أصغر سناً، كنت مفتونة بالأفعال الملموسة، بلبِّ الأشياء، بأحشائها. وكنت تطرحين أسئلة: هل يؤلم هذا؟ وكم يدوم الألم؟ وبماذا تشعرين عندما تصطدمين بالماء ساقطة من مكان مرتفع؟ هل تشعرين بأنك تحطمت؟ لكنني أظن أن تفكيرك كان أقل فيما يتعلق بما هو قبل ذلك: فيما يتعلق بما يلزم لجعل المرء يصعد

إلى قمة الجرف، أو يذهب إلى الشاطئ، ثم دفعه لكي يستمر في الحركة.

في قعر ذلك المغلّف، وجدت ظرفاً عليه اسمك. وفي الظرف، رأيت كلاماً على ورقة مُسطّرة، كلمات كتبتها يد مرتعشة:

كنت أعني ما قلته عندما رأيتك البارحة. لا أريد أن تصير مأساة ابنتي جزءاً من «مشروعك» الذي يتحدث عن الموت. لا يقتصر سبب هذا على أنني أجد من المُروّع أن تكسبي مالاً منه. أخبرتك مرة بعد مرة أنني مقتنعة بأن ما تفعلينه أمر فيه قدر عميق من انعدام المسؤولية؛ موت كاتي دليل على هذا. لو كانت لديك ذرة من التعاطف لتوقفت الآن عما تقومين به، ولقبلت أن ما كتبته وطبعته وما فعلته وقلته له نتائجه. لا أنتظر منك أن تصغي لما أقول... لم تظهري في الماضي ما يشير إلى أنك تصغين إلى ما يقال. لكن، إذا تابعت السير، في هذه الطريق، فلست أشك في أن أحداً، في يومٍ ما، سيجعلك تُصغين.

لم يحمل هذا الكلام توقيعاً، لكن من الواضح أن هذه الكلمات أتت من والدة كاتي. لقد حذّرتْك... لم تحذّرك هذه المرة فقط. في قسم الشرطة، سمعت المفتش يسأل لينا عن تلك الحادثة التي جرت بعد موت كاتي مباشرة، وكيف هددتْك يومها وقالت لك إنها ستجعلك تدفعين الثمن. أهذا ما كنت تريدين إخباري به. هل كنت خائفة منها؟ وهل ظننت أنها ستستهدفك؟

كان مخيفاً تصور أن تلك المرأة ذات العينين المجنونتين، المرأة التي أعماها حزنها، سوف تقتلك... كان شيئاً مخيفاً لي. ما عدت أريد البقاء هنا، بين أشيائك. نهضتُ واقفة على قدمي، وعندما فعلت ذلك أحسست بالبيت يهتز، يميل كأنه سفينة. كنت قادرة على الإحساس بالنهر يضغط على تلك العجلة، يحثّها على الدوران؛ الماء يتسرب عبر الشقوق التي وسّعتها نباتات متواطئة معه.

استندت إلى خزانة الملفات بيدي، وسرت فصعدت السلم إلى غرفة المعيشة. كان الصمت يطنّ في أذني. وقفت لحظة إلى أن ألفت عيناي الضياء المتألق هنا؛ وللحظة، كنت واثقة من أنني رأيت أحداً، هناك، أسفل النافذة، حيث اعتدت أن أجلس. دام هذا لحظة واحدة فقط، ثم اختفى. لكن قلبي كان يضطرب بين أضلاعي. أحسست بوخز في رأسي. ثمة أحد هنا، أو كان أحد هنا، أو أن أحداً سيأتي.

بأنفاس سريعة متلاحقة ضحلة، جريت إلى باب البيت فوجدته موصداً مثلما تركته. لكنني شممت رائحة غريبة في المطبخ... شيء مختلف، شيء حلو كأنه عطر. كانت نافذة المطبخ مفتوحة على اتساعها. لا أذكر أنني فتحتها.

ذهبت إلى البراد وفعلت شيئاً لم أفعله من قبل، إلّا نادراً... سكبت لنفسي شراباً: فودكا حريريَّة باردة. ملأت كأساً فشربتها بسرعة. أحرقتني الفودكا في طريقها من حلقي إلى بطني. صببت لنفسي كأساً أخرى.

دار رأسي فملت فوق طاولة المطبخ واستندت إليها. أظن أنني كنت أفكر في لينا. لقد اختفت من جديد؛ رفضتُ أن أوصلها إلى البيت. كان جزء مني ممتناً لها لأنني ما كنت أريد الوجود معها في مكان واحد. قلت لنفسي إني أحسست هذا لأنني كنت غاضبة منها (أعطت حبوب تخفيض الوزن لفتاة أخرى، وجعلتها تخجل من شكل جسمها). لكن الحقيقة هي أنني خفت مما قالته المحققة. قالت إن لينا لا تحسُّ فضولاً لأنها تعرف الحقيقة بالفعل. لم أستطع منع نفسي من مواصلة رؤية وجهها، تلك الصورة في الأعلى، صورتها بأسنانها الحادة وابتسامتها المفترسة. ما الذي تعرفه لينا؟

عدت إلى غرفة المكتب وجلست على الأرض من جديد فجمعت الأوراق التي أخرجتها وبدأت أعيد ترتيبها محاولةً تنظيمها بعض الشيء.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كنت أحاول أن أستخلص معنىً من قصتك. توقفت عندما وصلت إلى صورتك مع لينا. ظهر عليها أثر حبر تحت ذقن لينا تماماً. قلبت الصورة بين يدي. لقد كتبتِ على ظهرها سطراً واحداً. قرأتُ كلماتك بصوت مرتفع: إن النساء اللواتي يسببن المتاعب ينهين أمرهن بأنفسهن أحياناً.

أظلمتْ الغرفة. رفعت رأسي ونظرت فاحتبست صرخةٌ في حلقي. لم أكن قد سمعتها، لم أكن قد سمعت صوت باب البيت ينفتح ولا صوت خطواتها تجتاز غرفة المعيشة. ظهرت هناك فجأة، من غير انتظار، واقفة بالباب، تحجب الضوء؛ ومن حيث كنت جالسة، كان شبحها في ذلك الضياء الآتي من خلفها كأنه شبح نيل. ثم تحرك الشبح متقدماً صوبي عبر الغرفة فرأيت لينا. كانت على وجهها بقعة طين، وكانت يداها قذرتان؛ أما شعرها فكان مُشعثاً، متشابكاً، مجنوناً.

سألتني: «مع مَن تتحدثين؟» كانت تنقل ثقل جسمها من قدم لأخرى، وبدت مستثارة، مهووسة.

«لم أكن أتكلم، كنت...».

قالت مقهقهة: «بل كنت تتكلمين. لقد سمعتك. من الذي كنتِ...» سكتت فجأة واختفت التكشيرة التي كانت على شفتيها عندما رأت الصورة في يدي... «ماذا تفعلين بها؟».

«كنت أقرأ فقط، لقد أردت...» لم أفلح في جعل الكلمات تخرج من فمي، قبل أن تصير فوقي، قبل أن تنحني فوقي، فجبُنت. انقضت عليّ وانتزعت الصورة من يدي.

«ماذا تفعلين بهذه؟»، كانت ترتجف وتصطك أسنانها بغضبٍ شديدٍ جعل وجهها يتوهَّج احمراراً. نهضت واقفة على قدمي وقلت لها: «لا علاقة لك بهذا؟» استدارت مبتعدة عني ووضعت صورة كاتي على الطاولة ثم مسدتها براحة يدها.

سألتني وهي تستدير لتواجهني من جديد؛ كان صوتها مرتعشاً: «أي حق لك في فعل هذا؟ أي حق لك في التفتيش في أشيائها، في لمسها؟ من سمح لك بفعل هذا؟» تقدمت مني خطوة فأطاحت بكأس الفودكا الموضوع على الأرض. انقلبت الكأس وتحطمت مصطدمة بالجدار. سقطت لينا على ركبتيها وبدأت تجمع الأوراق التي كنت أرتبها... «لا يجوز لك أن تلمسي هذا!» كان وجهها يقطر حنقاً... «لا علاقة لك بهذه الأشياء».

قلت لها: «لينا... أنا لست...».

ارتدَّت إلى الخلف بحدَّة وصدرت عنها زفرة ألم. لقد وضعت يدها فوق قطعة من الزجاج. كانت تنزف. جمعت حفنة من الأوراق وضمَّتها إلى صدرها.

قلت لها وأنا أحاول أخْذ الأوراق منها: «هيا، هيا الآن. إنك تنزفين».

«ابتعدي عني!» كومت تلك الأوراق على طاولة المكتب. تعلقت عيناي ببقعة الدم التي لطخت الورقة العليا والكلمات المطبوعة تحتها: «مقدمة»، بخط كبير، ومن تحتها: «عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذت أختي من الغرق». أحسستُ أن ضحكة هستيرية تتصاعد في داخلي، ثم انفجرت خارجة من فمي بصوت مرتفع فقفزت لينا مجفلة. نظرت إليّ حائرة. ضحكت أكثر عندما رأيت تلك النظرة الغاضبة في وجهها الجميل، عندما رأيت الدم يقطر من أصابعها على الأرض، ضحكت حتى غرقت عيناي بالدموع، حتى غام كل شيء فيهما... كما لو أنني صرت تحت الماء.

آب/أغسطس، 1993

جولز

تركني روبي عند النافذة. شربت بقية كأس الفودكا. لم أثمل من قبل، ولم أدرك كم جاءت نقطة الانقلاب سريعاً، نقطة الانزلاق من الحبور إلى اليأس. من الأسفل إلى الأعلى. فجأة، بدا الأمل مفقوداً، وصار العالم فارغاً. لم يكن تفكيري واضحاً في تلك اللحظة، لكن تسلسل أفكاري بدا كأنّ له معنىً. النهر هو طريق الخروج. اتبعي النهر!

ما كانت عندي فكرة عما أريد فعله عندما سرت مترنحة فخرجت عن الطريق وانحدرت صوبْ الضفة ثم تبعت الدرب الممتدة مع النهر. كنت أمشي عمياء، وبدا الليل أكثر ظلمة من أي وقت... كان ليلاً صامتاً، من غير قمر. حتى النهر كان هادئاً، كان شيئاً صقيلاً منساباً كأنه أفعى، كان يجري منزلقاً إلى جانبي. وما كنت خائفة. بماذا أحسست؟ بالإذلال، بالخجل، بالعار. بالذنب. نظرت إليه، راقبته، راقبته معها، ورآني.

تبلغ المسافة بين بيت الطاحون والبركة ميلين، ولا بد أنها استغرقت مني زمناً غير قليل. ما كنت سريعة الخطى، في أحسن الأوقات، أما في الظلام، في حالتي تلك، فقد كنت أبطأ من المعتاد. وهكذا أظن أنكِ لم تتبعيني. لكنك جئت آخر الأمر.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كنت في الماء عند ذلك. أتذكر البرد حول كاحلي، ثم عند ركبتي، ثم غرقت في الظلمة غرقاً ناعماً. زال عني البرد، وصار جسدي مشتعلاً كله. بلغ الماء رقبتي الآن، ولا طريق للخروج، ولا يستطيع أحد رؤيتي. كنت مخفيّة، وكنت أختفي ولا أشغل مكاناً أكثر مما يجب... صِرت لا أشغل مكاناً على الإطلاق.

تبددت الحرارة مني، تسربت وعاد البرد... لم يعد البرد إلى جلدي بل إلى لحمي، إلى عظامي؛ كان برداً ثقيلاً كالرصاص. كنت متعبة وبدت لي مسافة العودة إلى الضفة طويلة جداً. ما كنت واثقة من قدرتي على العودة. حركت ساقي، دفعتهما إلى أسفل، لكنني لم أستطع بلوغ القاع فقلت في نفسي قد أعوم لوهلة فقط من غير أن يزعجني أحد، من غير أن أكون مرئية.

سرت مع التيار. غمر الماء وجهي ومسّني شيء طري ناعم كأنه شعر امرأة. أحسست بشيء يتحطم في صدري فشهقت، ابتلعت الماء. وفي البعيد، في مكان ما، سمعت صراخ امرأة. كنت تقولين لي أحياناً: «ليبي، يمكنك سماعها. بعض الأوقات في الليل يمكن سماعها تتوسل». قاومت لكن شيئاً ضغط على أضلاعي، أحسست بيدها في شعري، مفاجئة، حادة. كانت تشدُّني إلى الأعمق. لا تعوم إلَّا الساحرات.

لم يكن ذلك صوت ليبي، بالطبع... كان صوتك يناديني. كانت يدك على رأسي تدفعني إلى الأسفل. وكنت أقاوم حتى أفلت منك، تدفعينني في الماء أم تجرينني لأخرج منه؟ تشبثتِ بثيابي، وخَمشت أظافرك جلدي، رسمتِ على رقبتي وذراعي خدوشاً مثل الخدوش التي يتركها روبي على ساقيك. صرنا على الضفة أخيراً، أنا راكعة على ركبتي أشهق طالبة الهواء، وأنت واقفة فوقي تصرخين بي: «أيتها العاهرة السمينة الحمقاء! ماذا كنت تفعلين؟ ما الذين كنت تحاولين فعله؟» سقطتِ على

ركبتيك عند ذلك وطوَّقتني بذراعيك، وعندها شممتِ رائحة الكحول منبعثة مني فبدأت تصرخين من جديد... «أنت في الثالثة عشر يا جوليا! لا تستطيعين الشرب، لا تستطيعين... ماذا كنت تفعلين؟» انغرست أصابعك النحيلة في لحم ذراعي، ثم هززتني بعنف: «لماذا تفعلين هذا؟ لماذا؟ حتى تغيظيني؟ حتى تجعلي أمنا وأبانا غاضبين مني؟ يا إلهي، يا جوليا، ماذا فعلتُ لك؟».

أخذتني إلى البيت، ثم جرجرتني فصعدنا السلم إلى الحمام. لم أرد دخول الحمام، لكنك أرغمتني وخلعتِ عني ثيابي ودفعتني إلى الماء الحار. لم أستطع التوقف عن الارتجاف رغم الحرارة كلها. رفضت أن أستلقي في حوض الاستحمام أيضاً. جلست فيه متكورة على نفسي، مضغوطة حتى آلمني بطني بينما رحتِ تمسحين الماء الحار على جلدي بيديك... «يا ربي، يا جوليا! أنت فتاة صغيرة، لا يجوز أن تكوني... لا يجوز أن... أحسست أن لا كلمات لديك. مسحتِ وجهي بمنشفة. ابتسمت لي. حاولت أن تكوني لطيفة معي... «لا بأس يا جوليا، لا بأس يا جوليا، لا بأس. آسفة لأنني صرخت عليك. وأنا آسفة لأنني آلمتك؛ أنا آسفة حقاً. لكن، ماذا كنت تتوقعين يا جوليا؟ بصدق، ماذا كنت تتوقعين؟».

تركتك تغسلين جسدي. وكانت يداك أرق بكثير مما كانتا في البركة. عجبتُ كيف استطعتِ أن تكوني هادئة بشأن ما حدث، كيف استطعت أن تكوني هادئة إلى هذا الحد الآن. توقعت أن تكوني أكثر غضباً مني، ليس مني فقط، بل أن تكوني غاضبة لأجلي. ظننت أنني لا بد أن أكون قد بالغت في ردة فعلي، أو أنك ما كنت راغبة في التفكير في هذا الأمر.

جعلتِني أقسم على أنني لن أخبر أبانا وأمنا عما حدث... «عديني يا جوليا. لن تقولي لهما، لن تخبري أحداً عن هذا الأمر. هل اتفقنا؟ لن

تخبري أحداً أبداً! لا نستطيع الحديث عنه، هل تفهمين ما أقول؟ لأن... لأننا سنقع في المتاعب كلنا. هل اتفقنا؟ فقط... لا تخبري أحداً. إذا لم نتحدث عن الأمر، فكأنه شيء لم يحدث. لم يحدث شيء. هل اتفقنا؟ لم يحدث شيء. عديني يا جوليا، عديني يا جوليا بأنك لن تتحدثي عن ذلك مرة أخرى أبداً».

لقد وفيتُ بالوعد؛ أما أنت فلم تفِي.

هيلين

في طريقها إلى السوبر ماركت مرّت هيلين بجوش ويتاكر على درجاته. كان مغبراً كله، وكان الوحل ملتصقاً بثيابه. خففت سرعة السيارة وأنزلت زجاج النافذة.

نادته: «هل أنت بخير يا جوش؟» فلوَّح لها بيده وكشَّر عن أسنانه... ظنَّت أن هذه محاولة غريبة للابتسام. واصلت قيادة السيارة بسرعة منخفضة وهي تراقبه في المرآة. كان يتأرجح يميناً ويساراً، ويدير مقود الدراجة في هذا الاتجاه وفي ذاك، ويقف على الدوَّاستين من حينٍ لآخر ليلتفت خلفه.

لقد كان دائماً شخصية صغيرة غريبة، ثم أتت المأساة الأخيرة فزادت من ذلك. لقد أخذه باتريك إلى صيد السمك مرتين أو ثلاثاً بعد موت كاتي. كان بهذا يقدم معروفاً للويز وآليك حتى يمنحهما بعض الوقت لنفسيهما. أمضيا عند النهر ساعات وساعات، لكن باتريك قال إن الصبي لم يكد ينطق كلمة واحدة.

فيما بعد، قال باتريك لهيلين: «عليهما أن يرحلا به من هذا المكان. يجب أن يرحلا».

أجابته برقة: «أنت لم ترحل».

هز رأسه وقال: «هذا شيء مختلف. عليّ أن أبقى هنا. لديّ عمل أقوم به».

بعد تقاعده، ظل باتريك هنا من أجلهما. ظل من أجلها ومن أجل شون. ليس من أجلهما تماماً، بل حتى يكون قريباً منهما، لأنهما كل ما لديه: هما الاثنان، والبيت، والنهر. لكن الزمن كان ينفد. لم يقل أحد شيئاً، لأن طبيعة الأسرة كانت هكذا؛ لكن باتريك ما كان بخير. كانت هيلين تسمعه يسعل في الليل، تسمعه يسعل ويسعل ويسعل. وكانت ترى كم تؤلمه الحركة كل صباح. وكان الشيء الأسوأ من ذلك إدراكها أن هذا ما كان شيئاً جسدياً فحسب. لقد كان رجلاً حاد الذهن طيلة حياته، أما الآن فقد صار كثير النسيان، بل مشوَّش أحياناً. كان يأخذ سيارتها ثم ينساها حيث تركها، أو يعيدها إليها بعض الأحيان وقد ملأها بسقط المتاع... مثلما فعل قبل يومين. أهي مهملات عثر عليها؟ حُليّ أخذها من مكان ما؟ غنائم؟ لم تسأله، ولم ترد معرفة شيء. كانت خائفة عليه.

كانت خائفة على نفسها أيضاً. عليها الاعتراف بهذا إن كانت تريد الصدق. صارت في الآونة الأخيرة تتجول في المكان كله، تتجول شاردة الذهن، غير منطقية. وكانت تظن أنها قد جنت أحياناً. كانت تحسُّ أنها تفقد قبضتها على الأشياء.

ليست هذه طبيعتها. كانت هيلين عملية، منطقية، حاسمة. وكانت تنظر بعناية في خياراتها، ثم تتصرف. كان باتريك يقول لها إنها تفكر كأنها رجل؛ يقول إنها تستخدم النصف الأيسر من دماغها. لكنها لم تكن على طبيعتها في الآونة الأخيرة. لقد أحدثت مجريات السنة الماضية اضطراباً في نفسها، أخرجتها عن مسارها. تجد نفسها الآن تتساءل عن

أشياء في حياتها كانت تعتبرها آخر ما يمكن التساؤل عنه: زواجها، وحياتها الأسرية، بل حتى كفاءتها في عملها.

بدأ الأمر من شون. كانت لديها شكوك أول الأمر، ثم صارت (من خلال باتريك) حقيقة مؤكدة مروّعة. اكتشفت في الخريف الماضي أن زوجها... زوجها الصلب، الثابت، الأخلاقي على نحو لا يتزعزع... ما كان مثلما ظنَّته على الإطلاق. وجدت نفسها ضائعة تماماً. وهجرها تصميمها وتفكيرها المنطقي وقدرتها على الحسم. ماذا تفعل؟ أترحل؟ أتترك بيتها ومسؤولياتها؟ هل توجه إليه إنذاراً أخيراً قاطعاً؟ هل تصرخ عليه؟ هل تتملَّقه؟ هل عليها أن تعاقبه؟ إن كان الأمر كذلك، فكيف؟ هل تمزق قمصانه المفضّلة، أم تكسر قصبات الصيد، أم تحرق كتبه في فناء البيت؟ بدت هذه الأشياء كلها غير عملية أو طائشة أو سخيفة، بكل بساطة. وهكذا اتجهت إلى باتريك تطلب مشورته. أقنعها باتريك بالبقاء. لقد أكدَّ لها أن شون قد عاد إلى رشده، وأنه شديد الندم على عدم وفائه لها، وأنه سيعمل حتى يكسب مغفرتها. قال لها: «لكن، في الوقت نفسه، فإنه سيفهم وسأفهم أنا أيضاً إذا أحببت أن تأخذي هذه الغرفة الإضافية هنا. سيكون جيداً لك أن تحظي ببعض الوقت لنفسك. وأنا واثق من أنه سيستفيد إذا ذاق شيئاً من طعم الخسارة التي يمكن أن تصيبه». مرَّت على ذلك سنة تقريباً، ولا تزال تنام في غرفتها في بيت باتريك معظم الليالي.

كانت غلطة شون، مثلما صار معروفاً، مجردَ بداية للأمر. فبعد أن انتقلت هيلين إلى بيت باتريك، وجدت أنها أصيبت بأرق مخيف: جحيم اليقظة المرهق الذي يرميها في لُجة القلق. اكتشفت أيضاً أن حماها يشاركها هذا الجحيم. ما كان قادراً على النوم. مرَّت عليه سنوات على هذه الحال. هكذا قال لها. وهكذا ظلا أرقين معاً. كانا يسهران معاً... يقرءان، ويحلان الكلمات المتقاطعة، أو يجلسان ورفيقهما الصمت.

كان باتريك يحب أن يتحدث أحياناً، إذا شرب شيئاً من الويسكي. يحدثها عن حياته التي أمضاها في الشرطة، وعن أحوال البلدة في ذلك الوقت. أحياناً، كان يخبرها أشياء تقلقها. قصص عن النهر، وشائعات قديمة، وحكايات كريهة دفنت منذ زمن بعيد لكنها نبشت الآن من جديد وأعيد إحياؤها ونشرها كأنها حقائق على يد نيل آبوت. كانت قصصاً عن عائلتهم؛ كانت أشياء مؤذية. من المؤكد أنها كذب واختلاق وافتراء! قال باتريك إن الأمر لن يصل إلى حدِّ الافتراء الذي يمكن الذهاب به إلى القضاء. لكنه قال لها أيضاً: «لن ترى أكاذيبها النور أبداً. سوف أهتم بهذا».

لكن المشكلة ما كانت هنا. قال باتريك إن المشكلة هي الضرر الذي سببته بالفعل... الضرر الذي سببته لشون وللأسرة: «أتظنين حقاً أنه كان يمكن أن يتصرّف مثلما تصرّف لولا تأثيرها هي، لولا أنها ملأت رأسه بهذه القصص وجعلته يشك في نفسه ويشك في أهله؟ لقد تغيّر، ألا ترين أنه تغيّر يا حبيبتي؟ هي من فعل هذا؟» خشيت هيلين أن يكون باتريك محقاً، وخشيت ألا تعود الأمور أبداً إلى ما كانت عليه في السابق، لكنه أكد لها أنها ستعود. سوف يهتم بهذا أيضاً. ضغط على يدها وشكرها لأنها تصغي إليه ثم قبّل جبينها وقال لها: «أنت فتاة طيبة حقاً».

تحسَّنت الأمور بعض الوقت. ثم عادت أسوأ من ذي قبل. فعندما وجدت هيلين أنها صارت قادرة على النوم أكثر من ساعتين دفعة واحدة، تماماً عندما وجدت أنها قد عادت تبتسم لزوجها بالطريقة القديمة، تماماً عندما أحسَّت أن أسرتها تعود إلى سابق عهدها وإلى توازنها المستقر المريح، ماتت كاتي ويتاكر.

كاتي ويتاكر، نجمة المدرسة، الطالبة المهذبة المجتهدة، الطفلة الهانئة... كانت تلك صدمة، كانت شيئاً لا يمكن تفسيره. وكانت هي

المخططة. لقد خذلت كاتي ويتاكر. خذلوها كلهم: أبوها وأمها ومعلموها ومجتمعها كله. لم يلاحظوا أن كاتي السعيدة في حاجة إلى عون منهم، ولم يلاحظوا أنها ما عادت سعيدة أبداً. بينما تلهَّت هيلين بمشكلاتها البيتية، ووقعت فريسة الأرق وغزاها شكُّها في نفسها، أفلتت من يدها إحدى مهماتها.

كان المطر قد توقف عندما وصلت هيلين إلى السوبرماركت. بانت الشمس، وبدأ البخار يتصاعد من أسفلت الشارع حاملاً معه رائحة الأرض. بحثت هيلين في حقيبة يدها عن قائمة التسوق: عليها أن تشتري لحماً للعشاء، وبعض الخضار والبقول. إنها في حاجة أيضاً إلى زيت الزيتون والبن وكبسولات من أجل آلة غسل الأطباق.

وقفت في قسم السلع المعلَّبة تبحث عن نوع من الطماطم المقطعة تعتبره الأطيب نكهةً. وعندها لاحظت امرأة تقترب منها. أدركت مذعورة أنها لويز.

كانت سائرة نحوها بخطوات بطيئة؛ وكان وجهها خالياً من أي تعبير. كانت تدفع أمامها عربة تسوق ضخمة شبه فارغة. ذعرت هيلين وهربت. تركت عربتها وأسرعت إلى موقف السيارات فاختبأت في سيارتها إلى أن رأت لويز تخرج وتركب سيارتها وتنطلق بها فتخرج إلى الطريق.

أحسَّت أنها غبية وأنها تصرفت تصرفاً يدعو إلى الخجل. كانت تعرف أنها ليست هكذا. قبل سنة من الآن، ما كان يمكن أن تتصرف بهذه الطريقة المخزية. كانت ستتحدث مع لويز وستضغط على يدها وتسألها عن زوجها وابنها. لو حدث هذا قبل سنة، لتصرفت بطريقة مشرّفة.

لم تعد هيلين هي نفسها مثلما كانت! فكيف بغير هذا يمكنها تفسير الأفكار التي تأتيها في الآونة الأخيرة، كيف يمكنها تفسير تصرفاتها؟

هذا الشكُّ كله، هذا الإحساس بالذنب كله... شيء يأكل النفس أكلاً. كان هذا يغيرها، يشوهها. ما عادت هي المرأة التي اعتادت أن تكونها. صارت تشعر بأنها تنزلق، كأنها تسلخ جلداً؛ لكنها غير مرتاحة لملمس اللحم النيء تحت ذلك الجلد، لا تحب رائحته. كان هذا يجعلها تحسُّ نفسها هشَّة ضعيفة، يجعلها تحس نفسها خائفة.

شون

امتنعتُ عن الكلام أياماً كثيرة بعد موت أمي. لم أقل أي كلمة. هذا ما أخبرني به أبي على أية حال. لست أذكر الكثير عن ذلك الزمن رغم أنني أذكر تماماً كيف صدمني أبي حتى أخرج عن صمتي: أمسك بيدي اليسرى فثبتها فوق اللهب إلى أن صرخت. كان هذا قاسياً، لكنه كان فاعلا. وبعد ذلك، سمح لي بأن أحتفظ بقداحة السجائر. (ظلت معي سني كثيرة. كنت أحملها معي دائماً. لكني فقدتها منذ فترة ولا أذكر أين).

يؤثِّر حزن الفقد والصدمة على الناس بطرق غريبة. رأيت أشخاصاً يستجيبون للأنباء السيئة بالضحك، أو بالتظاهر بعدم المبالاة، أو بالغضب، أو بالخوف. قُبلة جولز في السيارة بعد الجنازة... ما كانت قبلة ناتجة عن شهوة بل عن ألم الفقد، عن الرغبة في الإحساس بشيء ما أي شيء غير ذلك الحزن. لعل صمتي عندما كنت طفلاً جاء نتيجة الصدمة، نتيجة الرض النفسي. قد لا يكون فقْد الأخت مثل فقد أحد الأبوين، لكنني أعرف أن جوش ويتاكر كان شديد القرب من أخته؛ وهذا ما يجعلني أنفر من الحكم عليه وأرفض استنتاج أكثر مما يجب انطلاقاً مما يقوله أو يفعله، أو من سلوكه.

اتصلت بي إيرين وأخبرتني أن هنالك شيئاً حدث على الأطراف

الجنوبية الشرقية للبلدة: اتصل أحد الجيران وقال إنه وصل إلى بيته فرأى نوافذ البيت المعني مكسورة، ورأى صبياً يغادر المكان على دراجة. إنه بيت واحد من المعلمين في المدرسة المحلية؛ أما الصبي فقد كنت متأكداً من أنه جوش... صبي داكن الشعر يرتدي قميصاً أصفر قصير الكمين ويقود دراجة حمراء.

كان العثور عليه سهلاً. وجدته جالساً على جدار الجسر وقد استندت دراجته إلى الجدار أيضاً. كانت ثيابه مبتلة كلها، وساقاه ملطختان بالطين. لم يهرب عندما رآني. بل أستطيع القول إنه بدا مرتاحاً عندما حيَّاني، بدا مهذباً كما هو دائماً: «مرحباً يا سيد تاونسند».

سألته إن كان بخير، وقلت له مشيراً إلى ملابسه الرطبة: «سوف يصيبك البرد». فابتسم نصف ابتسامة.

قال لي: «لا بأس، إنني بخير هكذا».

قلت: «جوش! هل كنت تقود دراجتك في طريق سيوارد بعد ظهر اليوم؟».

أومأ برأسه إيجاباً. فسألته: «وهل حدث أن ذهبت إلى بيت السيد هندرسون؟».

عض على شفته السفلى واتسعت عيناه الناعمتان البنيَّتان: «لا تخبر أمي يا سيد تاونسند. أرجوك، لا تخبر أمي. إن لديها هموماً تكفيها». أحسست غصَّة في حنجرتي، وكان علي أن أبتلع دموعي. إنه ليس أكثر من صبي صغير... صبي يبدو عليه الضعف والهشاشة. ركعت إلى جانبه.

سألته آملاً في سماع إجابة تريحني: «جوش! ماذا كنت تفعل، بحق الرب؟ هل كان هنالك أحد آخر معك؟ ربما كان معك أولاد أكبر منك سناً؟».

هزَّ رأسه لكنه لم ينظر إليَّ. قال: «لقد كنت وحدي».

«حقاً! هل أنت متأكد من هذا». أشاح بوجهه عني... «أقول هذا لأنني رأيتك قبل ذلك تتحدث مع لينا بالقرب من قسم الشرطة. هل أنت متأكد من أن لينا لا علاقة لها بالأمر؟»

صاح بصوت متألم يشبه عواء ذليلاً: «لا علاقة لها! لا! لقد كنت وحدي. أنا فقط. رميت نافذته بالحجارة. رميت بها نافذة ذلك... الوغد». نطق كلمة «الوغد» بعناية وتأنٍّ كأنه يقول تلك الكلمة أول مرة في حياته.

«ولماذا تفعل هذا، بحق السماء؟».

نظر في عيني عند ذلك. كانت شفته السفلى ترتجف. قال لي: «لأنه يستحق هذا. ولأنني أكرهه كثيراً».

بدأ الصبي يبكي.

قلت له وأنا أمسك بدراجته: «هيا بنا! سوف آخذك بالسيارة إلى البيت». لكنه أمسك بمقود الدراجة.

قال منتحباً: «لا! لا تأخذني إلى البيت! لا أريد أن تسمع أمي شيئاً عن هذا الأمر، ولا أبي. لا يجوز أن يسمعا بهذا، لا يمكنهما أن...»

قرفصت إلى جانبه من جديد ووضعت يدي على مقعد الدراجة: «اسمع يا جوش! لا بأس بهذا. ليس الأمر سيئاً كما تتصور. سوف نجد له ترتيباً ما. أقول لك هذا صادقاً. هذه ليست نهاية العالم». بدأ يصيح عندما سمع هذه الكلمات: «أنت لا تفهم شيئاً. لن تسامحني أمي أبداً إذا...» عند ذلك، كتمت رغبتي في الضحك وقلت له: «بل ستسامحك بالطبع. سوف تغضب قليلاً أول الأمر، أنا واثق من هذا، لكنك لم تفعل شيئاً فظيعاً جداً... أنت لم تؤذ أحداً و...»

اهتز كتفاه: «أنت لا تفهم شيئاً يا سيد تاونسند. أنت لا تفهم ما فعلت».

أخذته معي إلى القسم آخر الأمر. لم أرَ ما يمكنني فعله غير ذلك لأنه رفض أن آخذه إلى البيت. وما كنت قادراً على تركه على قارعة الطريق في حالته تلك. جعلته يجلس في غرفة المكتب الداخلية وقدمت له فنجاناً من الشاي، ثم طلبت من كالي أن تخرج فتشتري له بعض البسكويت.

قالت لي كالي وقد بدا عليها حذر مفاجئ: «لا يمكنك أن تستجوبه يا سيدي. لا يمكنك فعْل ذلك من غير وجود شخص راشد مناسب برفقته».

أجبتها بحدة: «لا أريد استجوابه. إنه خائف؛ وهو ليس راغباً بعد في العودة إلى بيته».

أيقظتْ هذه الكلمات شيئاً في ذاكرتي: إنه خائف؛ وهو ليس راغباً بعد في العودة إلى بيته. كنت أصغر سناً من جوش، كنت في السادسة فقط، وكانت الشرطية ممسكة بيدي. لا أعرف أبداً كيف أميِّز بين ذكرياتي الحقيقية وذكرياتي غير الحقيقية... لقد سمعت قصصاً كثيرة عن تلك الفترة، سمعتها من مصادر مختلفة كثيرة إلى حد يجعل من الصعب علي التمييز بين الذكريات والأساطير. لكني تذكرت الآن أنني كنت في ذلك الوقت مرتجفاً خائفاً، وكانت إلى جانبي شرطية ممتلئة الجسم. كان وجودها مريحاً لي، وكانت واقفة إلى جانبي تضمُّني بذراعها إلى وركها كأنها تحميني بينما كان رجال يتحدثون من فوْقي.

قالت لهم: «إنه خائف؛ وهو ليس راغباً بعد في العودة إلى بيته».

قال أبي: «هل تستطيعين أخذه معك يا جيني؟ هل يمكن أن تأخذيه معك الآن؟» نعم، هكذا كان اسمها... جيني... إنها الشرطيَّة جيني سيج.

***

رن هاتفي فأعادني إلى نفسي.

إنها إيرين: «سيدي! رأى الجار الذي يقع بيته إلى الناحية الأخرى من ذلك البيت فتاة تجري مبتعدة في الاتجاه المعاكس. إنها مراهقة طويلة الشعر، وكانت في بنطلون قصير من الجينز وقميص أبيض قصير الكمَّين».

«هذه لينا، بالطبع».

«صحيح، يبدو أنها لينا. هل تريد أن أذهب لآتي بها؟».

أجبتها: «اتركيها اليوم. لقد تعرضتُ اليوم لأشياء كثيرة. هل تمكنت من الوصول إلى مالك ذلك البيت... إلى هندرسون؟».

«ليس بعد. لقد حاولت الاتصال معه عدة مرات. لكن الاتصالات كانت تتحول مباشرة إلى البريد الصوتي. عندما تحدثت معه آخر مرة، قال لي شيئاً عن خطيبته في إدنبره؛ لكني لا أعرف رقم هاتفها. قال لي إنهما سيسافران. ربما يكونان الآن في الطائرة».

أتيت لجوش بفنجان آخر من الشاي. قلت له: «انظر! علينا أن نتصل مع والديك. أريد فقط أن أقول لهما إنك هنا معي وإنك بخير. ما رأيك في هذا؟ لست مضطراً إلى قول أي شيء لهما؛ لا حاجة إلى هذا الآن. سأقول لهما فقط إنك كنت منزعجاً بعض الشيء فأتيت بك إلى مكتبي حتى نتحدث قليلاً. هل يبدو لك هذا مناسباً؟» أومأ برأسه موافقاً... «وبعد ذلك، يمكنك إخباري عن الشيء الذي يزعجك، ثم نرى ما يمكن أن نفعله». أومأ برأسه موافقاً من جديد... «لكن سيكون عليك، في وقت ما، أن تفسِّر لي ما حدث عند ذلك البيت».

جلس شون يرتشف الشاي. كان يحوزق من حين لآخر... لم يخرج بعد تماماً من حالته الانفعالية الشديدة. كانت يداه ملتفتان بإحكام على

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فنجان الشاي، وكان فمه يتحرك كأنما يجد صعوبة في العثور على الكلمات التي يريد قوْلها لي.

وأخيراً، رفع رأسه ونظر إلي وقال: «مهما يكن الشيء الذي أفعله، فإن هنالك من سيكون غاضباً مني». هزَّ رأسه قليلاً... «لا، ليس هذا صحيحاً في حقيقة الأمر. إذا فعلت الصواب فسوف يغضب مني الجميع؛ وإذا فعلت الشيء الخاطئ فلن يغضبوا. يجب ألا يكون الأمر هكذا، أليس كذلك؟»

أجبته: «لا يجوز أن يكون الأمر هكذا؛ لا! لكنني لست واثقاً من أنك غير مخطئ فيما تقول الآن. لا أستطيع تخيل حالة يؤدي فيها فعْل الشيء الصحيح إلى جعْل الجميع يغضب منك. قد يغضب منك شخص، أو شخصان، ربما، لكن من المؤكد أن بعضاً منا، إن كان ما تفعله هو الصواب حقاً، سوف يرى أنك على حق وأنك تفعل الصواب، إذا كان ذلك هو الصواب حقاً. وسوف نكون شاكرين لك عند ذلك؟».

عضَّ على شفته من جديد. قال لي وقد عادت الرعشة إلى صوته: «المشكلة هي أن الضرر قد وقع بالفعل. لقد تأخرتُ كثيراً. فات أوان فعل الشيء الصحيح الآن». بدأ يبكي من جديد، لكن ليس كبكائه السابق. ما كان مذعوراً، ولم ينتحب بصوتٍ مرتفع. صار يبكي الآن كأنه شخص فقد كل شيء، كأنه شخص فقد كل أمل. كان قانطاً، محبطاً. لم أستطع احتمال هذا.

قلت له: «جوش! عليّ أن أطلب من والديك المجيء إلى هنا. عليّ أن أفعل هذا»... لكنه تعلق بذراعي عندما سمع هذه الكلمات.

قال لي: «أرجوك يا سيد تاونسند. أرجوك».

«أريد مساعدتك يا جوش. أريد هذا حقاً. أخبرني من فضلك عن الشيء الذي يجعلك في هذا الضيق كله».

(تذكرت كيف كنت جالساً في مطبخ دافئ، ليس في مطبخ بيتنا، وكنت آكل خبزاً محمصاً عليه شرائح من الجبن. كانت جيني هناك، كانت جالسة قبالتي. قالت لي: ألن تقول لي ما حدث يا عزيزي؟ أخبرني من فضلك. لم أقل لها شيئاً. لم أنطق كلمة واحدة... لم أقل لها أي كلمة على الإطلاق).

لكن جوش كان مستعداً للكلام. مسح عينيه وتمخط، ثم سعل قليلاً وجلس منتصباً في كرسيه. قال لي: «الأمر متعلق بالسيد هندرسون. إنه متعلق بالسيد هندرسون وكاتي».

الخميس، 20 آب/أغسطس

لينا

بدأ الأمر مزاحاً. أعني ذلك الأمر مع السيد هندرسون. كان لعبة! وكنا قد لعبنا تلك اللعبة من قبل. لعبناها مع مدرس البيولوجيا، السيد فريار؛ ومع مدرب السباحة السيد ماكنتوش. كانت اللعبة هي أن نجعل الواحد منهم يحمر خجلاً. وكنا نفعل ذلك على التعاقب: تحاول واحدة منا، وإذا فشلت، يأتي دور الأخرى. يحق للواحدة منا أن تفعل ما تريد، ويحق لها أن تفعله حينما تريد. لكن القاعدة الوحيدة هي أن الأخرى يجب أن تكون موجودة حتى تكون واثقة من نجاح رفيقتها. لم نشترك مع أية بنت أخرى. كانت اللعبة لعبتنا نحن، أنا وكاتي. لا أذكر من منّا أتت بهذه الفكرة.

بدأنا بفريار. أنا التي بدأت؛ ولم يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين ثانية. ذهبت إلى طاولته فابتسمت له وعضضت شفتي قليلاً عندما كان يشرح لي شيئاً عن التوازن العضوي في الكائنات الحية. انحنيت فوق الطاولة حتى انفتح قميصي قليلاً. نجح الأمر. نجحت في المحاولة.

أما مع ماكنتوش فقد تطلب الأمر عملاً أكثر قليلاً لأنه كان معتاداً على رؤيتنا في ملابس السباحة؛ وهذا يعني أنه لن يفقد صوابه إذا رأى بعض

اللحم. لكن كاتي نجحت آخر الأمر... ظهرت أمامه حلوة خجولاً محرَجة قليلاً عندما راحت تسأله عن أفلام الكونغ فو التي كنا نعرف أنه يحب مشاهدتها.

إلّا أن الحكاية كانت مختلفة مع السيد هندرسون. ذهبت كاتي أولاً لأنها فازت في الجولة السابقة مع السيد ماكنتوش. انتظرتْ حتى انتهى الدرس. وبينما رحت أنا أضع كتبي في حقيبتي ببطء مقصود، مضت هي إلى طاولته وجلست على حافتها. ابتسمت له وهي تميل صوبه قليلاً، وبدأت تحدثه. لكنه دفع كرسيه إلى الخلف فجأة ونهض واقفاً، ثم تراجع خطوة إلى الخلف. تابعت كاتي، لكنها لم تعد متحمِّسة تماماً. وعندما خرجنا من الغرفة رمانا بنظرة غاضبة. حاولت أنا بعد ذلك، لكنه تثاءب. قمت بكل ما استطعت القيام به. وقفت قريباً جداً منه وابتسمت ولمست شعري ورقبتي وعضضت قليلاً على شفتي السفلى، فتثاءب... تثاءب بطريقة واضحة تماماً. تثاءب كأنني أسبب له الضجر.

لم أستطع إبعاد هذا الأمر عن ذهني. لم أستطع نسيان كيف نظر إلي كأنني لا شيء، كأنني لا أثير أدنى قدرٍ من الاهتمام. ما عدت راغبة في اللعب بعد ذلك. ما عدت راغبة في اللعب معه لأن الأمر ما كان ممتعاً. لقد تصرف بطريقة حقيرة. سألتني كاتي: «هل تظنين هذا؟» فقلت لها إن هذا ما أراه. قالت: «فليكن». انتهى الأمر هكذا.

لم أكتشف أنها خرقت القاعدة المتفق عليها بيننا إلّا في وقت لاحق. لم أكتشف ذلك إلّا بعد شهور. لم تكن لدي أية فكرة عما كان يحدث. وعندما جاء جوش لرؤيتي يوم الفالنتاين وأخبرني بأعجب قصة سمعتها في حياتي، أرسلتُ إليها رسالة قصيرة من هاتفي المحمول كتبت فيها: عرفت أخبارك يا صديقتي. ك. و. م. هـ. إلى الأبد؛ ووضعت ضمن الرسالة صورة قلب صغير أيضاً. أتتني منها رسالة بعد ثوانٍ قليلة. قالت

فيها: احذفي هذه الرسالة. لست أمزح. احذفيها فوراً! كتبت لها: ماذا أصابك؟ فأجابتني: احذفيها فوراً وإلّا فإنني أقسم أنني لن أكلمك أبداً بعد الآن. قلت في نفسي: شيء عجيب؛ اهدأي!

تجاهلتني في المدرسة صباح اليوم التالي. لم تقل لي حتى مرحباً! وعندما انصرفنا، أمسكت بذراعها في طريق خروجنا من المدرسة.

«كاتي؟ ما الذي يجري؟».

نترت ذراعها حتى أفلتت مني. قلت لها: «ما الأمر يا كاتي؟ ماذا بك؟».

قالت بصوت منخفض كالفحيح: «لا شيء. أزعجتني رسالتك كثيراً. هذا كل ما في الأمر. هل فهمتِ؟» رمتني بتلك النظرة التي صرت أتلقّاها منها أكثر فأكثر... كأنني كنت طفلة بينما صارت هي كبيرة، ناضجة... «ثم... ما الذي جعلك تفعلين هذا؟».

كنا آنذاك واقفتين في آخر الحمام، تحت النافذة. قلت لها: «جاء جوش لرؤيتي. قال لي إنه رآك مع السيد هندرسون. كانت أيديكما متشابكة في موقف السيارات...». رُحت أضحك عند ذلك.

لم تضحك كاتي. استدارت مبتعدة عني ووقفت عند المغسلة. نظرت إلى صورتها في المرآة وقالت: «ماذا؟». أخرجت الماسكارا من حقيبتها... «ماذا قال لك بالضبط؟» بدا لي صوتها غريباً؛ ليس صوتاً غاضباً، ولا منزعجاً؛ كانت كأنها خائفة.

«قال إنه كان ينتظرك بعد المدرسة، ثم رآك مع هندرسون. كانت أيديكما متشابكة...» بدأت أضحك من جديد... «يا إلهي، ماذا بك؟ ليس الأمر مأساة كبيرة. كان جوش يحاول اختراع قصة، لأنه يريد دائماً أن يكون لديه سبب حتى يأتي ليراني. كان ذلك يوم الفالنتاين، وهكذا...».

أغمضت كاتي عينيها وشدت عليهما: «يا إلهي! أنت نرجسيَّة مقرفة...» قالت هذه الكلمات بصوت هادئ... «أنت تعتقدين حقاً أن كل شيء يدور من حولك؟».

أحسست كما لو أنني تلقيت صفعة: «ماذا؟»... لم أعرف كيف حتى أجيبها؛ كان هذا شيئاً لا يشبهها أبداً. كنت لا أزال واقفة أفكر فيما يمكن أن أقول لها عندما سقطت الماسكارا من يدها ووقعت في المغسلة، فأمسكت بالحافة وبدأت تبكي.

«كاتي!»... وضعت يدي على كتفها فاشتد بكاؤها. طوَّقتها بذراعي: «أوه، يا إلهي! ماذا بك يا كاتي؟ ماذا حدث؟».

نشقت بأنفها وقالت: «ألم تلاحظي شيئاً؟ ألم تلاحظي أن هنالك شيئاً مختلفاً؟ ألم تلاحظي يا لينا؟».

لقد لاحظتُ طبعاً. صارت مختلفة، بعيدة، حيناً من الزمن. كانت مشغولة طيلة الوقت. لديها واجبات مدرسية في البيت ولا تستطيع التسكع معي بعد المدرسة، أو ستذهب للتسوق مع أمها ولا تستطيع أن تذهب معي إلى السينما، أو عليها أن تظل في البيت مع جوش ولا تستطيع أن تأتي لتنام عندي. لقد كانت مختلفة بطرق أخرى أيضاً. صارت أكثر هدوءاً في المدرسة. لم تعد تدخن. بدأت تحاول تخفيض وزنها. وبدا عليها أيضاً أن ذهنها يشرد بعيداً خلال أحاديثنا كأن ما أقوله، يضجرها، كأن لديها أشياءً أفضل تريد التفكير فيها.

بالطبع، لقد لاحظت! وقد جرحني هذا. لكنني ما كنت أعتزم قول أي شيء لها. وذلك لأن جَعل الآخر يرى أنك جُرحت أسوأ شيء يمكنك فعله، أليس كذلك؟ ما كنت أريد أن أبدو ضعيفة أو محتاجة إلى العطف، لأن أحداً لا يريد الاقتراب من أي شخص يفعل هذا.

قلت لها: «لقد ظننت... لست أدري، لست أدري يا كاتي... ظننت أنك ضجرت مني... أو شيء يشبه ذلك».

اشتد بكاؤها فاحتضنْتها.

قالت لي: «لست ضجرة منك، لست ضجرة منك يا لينا. لكنني لم أستطع إخبارك، ما كنت قادرة على إخبار أحد...» انتزعت نفسها من بين يدي فجأة وابتعدت عني قليلاً. مضت إلى آخر الغرفة وسقطت على ركبتيها، ثم حبْت في اتجاهي وهي تنظر تحت كل باب من أبواب المراحيض.

«كاتي! ماذا تفعلين؟»

لم أبدأ إدراك الأمر إلّا في تلك اللحظة. نعم، كان تفكيري بعيداً عن هذا تماماً، بعيداً إلى هذا الحد. قلت عندما وقفت على قدميها من جديد: «أوه، يا ربي! هل أنت... هل تقولين لي حقاً إنك...» خفضت صوتي حتى صار همساً... «هل تقولين إن هنالك شيء يحدث بينكما؟» لم تقل شيئاً لكنها حدقت في عيني ففهمت أن الأمر صحيح... «اللعنة. اللعنة! هذا غير ممكن... هذا جنون. لا يمكنك يا كاتي. عليك أن تتوقَّفي قبل... قبل أن يحدث شيء».

نظرت إليَّ كما لو أنني غبية، كما لو أنها مُشفقة عليَّ: «لينا، لقد حدث بالفعل». ابتسمت نصف ابتسامة وهي تمسح دموعها عن وجهها... «إنه يحدث منذ تشرين الثاني».

لم أقل للشرطة شيئاً من ذلك. هذا ليس من شأنهم.

جاؤوا إلى البيت في المساء عندما كنت جالسة في المطبخ مع جوليا. كنا نتناول طعام العشاء. تصحيح: كنت أتناول طعام العشاء. كانت جوليا جالسة فقط تحرك طعامها من جهة إلى أخرى في صحنها من غير أن

تأكل شيئاً. مثلما تفعل دائماً. قالت لي أمي إنها لا تحب الأكل أمام الآخرين (هذا شيء باقٍ لديها منذ أن كانت سمينة). لم نكن نتكلم أيضاً. لم تكن واحدتنا تقول أي شيء للأخرى منذ أن عدت إلى البيت يوم أمس فوجدتها في غرفة أمي تعبث بأشيائها. وهذا ما جعل صوت جرس الباب يبدو لي مريحاً عندما سمعته.

عندما رأيت أن القادم هو شون مع المحققة مورغان (إيرين، هكذا يفترض أن أدعوها بما أننا صرت أراها كثيراً) ظننت أن الأمر متعلق بتكسير النوافذ رغم أنني أحسست بشيءٍ من المبالغة لأنهما كانا قادمين معاً من أجل أمر تافه. اعترفت بالأمر فوراً.

قلت لهما: «سوف أدفع قيمة إصلاح الأضرار. أستطيع الدفع الآن، أليس كذلك؟» شدت جوليا على شفتيها كأنها تراني خيبة أمل متجسدة أمامها. نهضتْ وبدأتْ ترفع الطعام عن الطاولة رغم أنها لم تأكل شيئاً.

أخذ شون كرسيها فقربه حتى صار جالساً إلى جانبي. قال لي: «سوف نتحدث في هذا لاحقاً». ظهر على وجهه تعبير جاد حزين... «لكن علينا أولاً أن نتحدث معك عن السيد هندرسون».

أحسست بالبرد وتقلصت معدتي مثلما يحدث عندما تدرك أن هنالك شيئاً سيئاً حقاً على وشك الحدوث. إنهم يعرفون. أحسست بالضياع وبالراحة في وقت واحد، لكني بذلت كل ما أستطيع حتى يبقى وجهي بريئاً خالياً من أي تعبير. قلت: «نعم، أعرف هذا. لقد حطمت نوافذ بيته».

سألتني إيرين: «لماذا حطمت نوافذ بيته؟».

«لأنني كنت ضجرة، ولأنه شخص تافه. ولأن...».

قاطعني شون قائلاً: «هذا يكفي يا لينا! كفي عن المراوغة». بدا عليه

انزعاج وغضب حقيقيين... «تعرفين أننا نتحدث عن شيء مختلف! ألا تعرفين هذا؟» لم أقل شيئاً. اكتفيت بالنظر من النافذة. قال: «لقد تحدثت اليوم مع جوش ويتاكر...» تقلصت معدتي من جديد. أظنني كنت أعرف دائماً أن جوش لن يتمكن من البقاء على صمته فيما يتعلق بهذا الأمر. لكنني كنت آمل أن يجعله تخريب بيت هندرسون يحس شيئاً من الرضا، لفترة على الأقل... «لينا؟ هل تصغين إلى ما أقول؟» كان شون منحنياً في اتجاهي. لاحظت أن يديه ترتعشان قليلاً... «لقد أخبرنا جوش بمزاعم خطيرة جداً فيما يتعلق بالسيد هندرسون. قال لنا إن مارك هندرسون كان على علاقة على علاقة جنسية مع كاتي ويتاكر في الشهور التي سبقت موتها».

قلت محاولة أن أضحك: «هذا كلام فارغ! هذا كلام فارغ تماماً!» كانوا ينظرون إلي جميعاً، وكان من المستحيل أن أمنع وجهي من الاحمرار. قلت لهم مرة أخرى: «هذا كلام فارغ».

سألني شون: «ولماذا يخترع جوش قصة من هذا النوع يا لينا؟ لماذا يخترع شقيق كاتي الصغير قصة بهذا الشكل؟».

أجبته: «لست أدري. لا أعرف أبداً. لكن كلامه غير صحيح». كنت أحدق في الطاولة وأحاول التفكير في شيء أقوله لهم. لكن وجهي ظل يزداد حرارة واحمراراً.

قالت إيرين: «لينا!... من الواضح أنك لا تقولين لنا الحقيقة. لكن الأمر الأقل وضوحاً هو ما يجعلك تكذبين في أمر من هذا النوع. لماذا تحاولين حماية رجل استغل صديقتك بهذه الطريقة البشعة؟».

«أوه... كفي عن قول هذه القذارات...».

سألتني وهي تقرب وجهها من وجهي: «ماذا؟ أتقولين أن أكف عن

هذه القذارات؟» كان هنالك شيء فيها... في اقترابها الشديد مني، وفي التعبير الذي ظهر على وجهها... شيء جعلني راغبة في صفعها.

«لم يستغلها! لم تكن كاتي طفلة!».

بدت راضية حقاً عن نفسها الآن؛ ووددت أكثر من ذي قبل أن أصفعها. لكنها واصلت كلامها: «إن كان لم يستغلها، فلماذا تكرهينه إلى هذا الحد؟ هل أحسست بالغيرة؟».

قالت جوليا: «أظن أن هذا كافٍ!»... لكن أحداً لم يلتفت إليها.

واصلت إيرين كلامها؛ ظلت تهاجمني وتهاجمني: «هل أردت أن تأخذيه لنفسك، هل كان الأمر هكذا؟ هل غضبت كثيراً لأنك كنت تظنين نفسك أجمل منها، لأنك ظننت أنك يجب أن تحظي بالاهتمام كله؟»

فقدت صوابي عند ذلك. كنت أعرف أنني سأضربها إن هي لم تخرس: «لقد كرهته؛ كرهته أيتها العاهرة الغبية. كرهته لأنه أخذها مني».

صمت الجميع برهة، ثم قال شون: «أخذها منك؟ كيف فعل هذا يا لينا؟».

لم أستطع منع نفسي. كنت مرهقة إلى حد فظيع، وكان واضحاً أنهم سيكتشفون الأمر على أية حال، سيعرفون كل شيء بعد أن فتح جوش فمه الكبير. لكني كنت مرهقة من مواصلة الكذب خاصة، وهكذا جلست هناك، في مطبخنا، وخُنتها.

لقد وعدتها! بعد مشاجرتنا، وبعد أن أقسمتْ لي على أنهما انفصلا وعلى أنها ما عادت تراه أبداً، جعلتني أقسم بدوري: جعلتني أقسم على أنني لن أخبر أحداً عنهما مهما حدث... مهما حدث. ذهبنا إلى البركة

معاً. كانت تلك المرة الأولى منذ زمن بعيد. جلسنا تحت الأشجار حيث لا يستطيع أحد رؤيتنا. وهناك بكت وأمسكت بيدي. قالت لي: «أعرف أنك ترين هذا شيئاً خاطئاً. ترين أنني ما كان يجب أن أكون معه. أفهم هذا. لكني أحببته يا لينا. لا أزال أحبه. هو كل شيء عندي. لا أستطيع إيذاءه... فقط لا أستطيع. لا أستطيع احتمال هذا. أرجوك يا لينا، أرجوك لا تقولي لأحد شيئاً يمكن أن يؤذيه. أرجوك يا لينا... احفظي هذا السر من أجلي. لا تعتبري الأمر متعلِّقاً به فأنا أعرف أنك تكرهينه. افعلي هذا من أجلي أنا».

وقد حاولت! لقد حاولت حقاً! حتى عندما جاءت أمي إلى غرفتي وقالت لي إنهم وجدوها في النهر، حتى عندما جاءت لويز إلى بيتنا نصف ميتة لشدة حزنها، حتى عندما قال ذلك التافه القذر لصحيفة محلية، إن كيت كانت طالبة رائعة وإنها محبوبة كثيراً ومحط إعجاب المدرسة كلها، بطلبتها ومعلميها. حتى عندما جاء إليَّ في جنازة أمي، وقدم تعازيه... حرصت على أن أستمر في العض على لساني حتى لا أقول شيئاً.

لكني لا أزال أعض على لساني؛ أعض وأعض وأعض طيلة شهور. إذا لم أتوقف سوف أقطعه. سوف أختنق بلساني.

وهكذا قلت لهم: نعم، كانت هنالك علاقة بين كيت ومارك هندرسون. بدأت العلاقة في الخريف. وانتهت في آذار أو نيسان. ثم بدأت من جديد، أواخر أيار/ مايو على ما أظن. لكنها لم تستمر طويلاً. لقد أنهت العلاقة بنفسها. لا، ليس لديَّ دليل على ما أقول.

قلت لهم: «لقد كانا حريصين حقاً: لا بريد إلكتروني، ولا رسائل نصية، ولا ماسنجر، لا شيء إلكترونياً على الإطلاق. كانت هذه قاعدة بينهما. وكانا ملتزمين بها تماماً».

سألتني إيرين: «هل كانا متمسكين بها معاً أم أنه هو الذي أصر عليها؟»

رميتها بنظرة حانقة: «الحقيقة أنني لم أناقش الأمر معه أبداً، ألا تفهمين هذا؟ هذا ما قالته لي بنفسها. هكذا كانت القاعدة بينهما».

سألتني إيرين: «متى عرفت بهذا الأمر أول مرة يا لينا؟ عليك الآن تعودي إلى البداية».

قالت جوليا فجأة: «لا! في الواقع، أظن أنه ليس عليها أن تفعل ذلك». كانت واقفة عند الباب. أما أنا فكنت قد نسيت وجودها في الغرفة أصلاً... «أظن أن لينا متعبة كثيراً، وأظن أن عليكما أن تتركاها وحدها الآن. يمكننا المجيء إليكم غداً لمواصلة هذا في قسم الشرطة، أو يمكنكما المجيء إلينا. أما اليوم، فهذا كافٍ». أردت معانقتها في الحقيقة! لأول مرة منذ التقيتها، أحسست أن جوليا واقفة إلى جانبي، أحسستُ أنها في صفِّي. كانت إيرين على وشك الاعتراض، لكن شون قال: «نعم، أنت محقة»، ثم نهض وسارا خارجين من المطبخ إلى الممر. سرت خلفهما. وعندما بلغا باب البيت، قلت لهما: «هل تدركان ما سيفعله هذا بأمها وأبيها؟... عندما يكتشفان الحقيقة؟».

استدارت إيرين وواجهتني: «لا بأس... سيكونان قد أدركا سبب ما حدث... على الأقل».

قلت: «لا، لن يدركا السبب. لن يكون لديهما سبب مقنع. ما كان هنالك سبب لأن تفعل ما فعلته. انظري... إنك تبرهنين على هذا الآن. من خلال وجودك هنا، أنت تثبتين أنها قامت بفعلتها من أجل لا شيء».

«ماذا تقصدين بهذا الكلام يا لينا؟» كانوا واقفين هناك جميعاً يحِّدقون إليَّ... منتظرين.

«لم تفعل ذلك لأنه كسر قلبها أو لأنها أحسَّت بالذنب أو لأي شيء

من هذا القبيل. لقد فعلت هذا لكي تحميه. لقد ظنَّت أن شخصاً ما قد اكتشف الأمر. وظنَّت أن الشرطة ستعرف، وأن الصحف ستكتب عن الأمر. ظنت أن محاكمة ستجري، وأنه سيدان فيها وسيذهب إلى السجن بجريمة اعتداء جنسي. ظنت أنه سيتعرض للضرب، أو للاغتصاب، أو لتلك الأشياء كلها التي تحدث للرجال من أمثاله هناك، في السجن. وهكذا قررت أن تتخلص من الدليل». قلت هذا لهم وبدأت أبكي فوقفت جوليا أمامي وطوَّقتني بذراعيها. كانت تقول لي: «ششش، كفى يا لينا، لا بأس عليك، كل شيء بخير، ششش».

لكن كل شيء ما كان خيراً. قلت لهم: «هذا ما كانت تفعله، ألا تفهمون؟ لقد كانت تتخلص من الدليل».

الجمعة، 21 آب/أغسطس

إيرين

الكوخ إلى جانب النهر، الكوخ الذي رأيته عندما ذهبت إلى الجري، لقد صار بيتي الجديد. صار بيتي على المدى القصير، على الأقل، فقط إلى أن ننتهي من هذا الأمر مع هندرسون. كان شون صاحب الاقتراح: سمعني أتحدث مع الشرطية كالي وأقول لها إنني كنت على وشْك التعرض لحادث سيارة هذا الصباح لأنني متعبة مشغولة الذهن. قال عندها: «إن كان الأمر هكذا، فإننا لا نستطيع قبوله. عليك البقاء في البلدة. يمكنك استخدام كوخ آل وارد. إنه عند النهر، وهو فارغ. ليس فاخراً بالطبع، لكنه لن يكلّفك شيئاً. سوف آتيك بالمفاتيح هذا المساء».

ابتسمت كالي لي عندما خرج: «كوخ وارد، أوه! احترسي من آني المجنونة».

«عفواً، لم أفهم!».

«إنه ذلك المكان عند النهر، المكان الذي جعله باتريك تاونسند كابينة لصيد الأسماك. يطلقون عليه اسم كوخ آل وارد. لقد كان اسمها آن وارد! إنها واحدة من تلك النسوة. ويقولون إن...» خفضت صوتها حتى

صار همساً... «يقولون إنك إذا نظرت جيداً يمكنك رؤية أثر الدم على الجدران». لا بد أن الخوف قد ظهر على وجهي ما كانت عندي فكرة عن هذه القصة لأنها ابتسمت عند ذلك وقالت: «هذه قصة فحسب، قصة من تلك القصص القديمة. إنها حكاية من حكايات بيكفورد العتيقة». ما كنت أعتزم الاهتمام كثيراً بقصص بيكفورد التي يبلغ عمرها قرناً. لديَّ قصص أحدث عهداً لكي أشغل ذهني بها.

لم يكن هندرسون يجيب على الاتصالات الهاتفية. اتخذنا قراراً بتركه ريثما يعود. إن كانت قصة كاتي ويتاكر صحيحة، وإذا أحسَّ بأننا قد اكتشفنا أمره، فمن الممكن ألا يعود أبداً.

وفي انتظار عودته، طلب مني شون أن أستجْوب زوجته هيلين التي هي مديرة المدرسة، أي أنها مديرة هندرسون في العمل. قال لي: «أنا واثق من أنه ليس لديها أدنى شك فيما يتعلق بمارك هندرسون. أظنها تقدره كثيراً. لكن على أحد منا أن يتحدث معها. ومن الواضح أنني لا أصلح لهذه المهمة». قال لي إنها ستكون في المدرسة، وأنها ستكون في انتظاري.

إن كانت تنتظري حقاً، فمن المؤكد أنها لم تتصرف بطريقة توحي بهذا. وجدتها في مكتبها جاثية على يديها وركبتيها وقد ألصقت خدها بالسجادة الرمادية ولوَت رقبتها حتى تنظر تحت رفوف خزانة الكتب. سعلت سعلة خفيفة مهذبة فرفعت رأسها فجأة. لقد فاجأتها.

قلت لها: «مرحباً يا سيدة تاونسند. إنني الشرطية المحققة مورغان. إيرين مورغان».

قالت: «أوه، نعم». احمرَّ وجهها ورفعت يدها إلى رقبتها. قالت لي: «لقد ضاع قرطي».

أجبتها: «أرى أن هنالك قرطين ضائعين».

ضحكت ضحكة غريبة تشبه الصهيل وأشارت إلي بأن أجلس. شدت ياقة قميصها ومسدت بنطلونها الرمادي بيدها قبل أن تجلس. لو طلب مني تخيُّل شكل زوجة المفتش لتصوَّرتها امرأة مختلفة تماماً. امرأة جذابة، أنيقة الملبس، وربما رياضية الجسم أيضاً... عداءة للمسافات الطويلة، أو امرأة تمارس ألعاب القوى. لكن ملابس هيلين كانت مناسبة لامرأة أكبر منها بعشرين عاماً. كانت شاحبة اللون، وكانت أطرافها ليِّنة ناعمة كأنها شخص لا يرى ضوء الشمس إلَّا قليلاً.

قالت لي وهي تنظر عابسة قليلاً إلى كدسة من الأوراق أمامها على المكتب: «أنت تريدين الحديث معي عن مارك هندرسون».

هذا يعني أن ما من حاجة إلى أحاديث جانبية أولاً، ما من حاجة إلى أية مقدمة... الدخول في الموضوع مباشرة. لعل هذا ما يعجب المفتش في هذه المرأة.

قلت لها: «هذا صحيح. أظنك سمعت عن مزاعم جوش ويتاكر ولينا آبوت، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها واختفت شفتاها الرقيقتان عندما شدت عليهما. «أخبرني زوجي بهذا يوم أمس. كانت تلك أول مرة أسمع فيها شيئاً من هذا النوع. أستطيع أن أؤكد لك هذا». فتحت فمي لأقول شيئاً... «لقد قمت بتعيين مارك هندرسون منذ سنتين. جاء الرجل برسائل توصية ممتازة من المدارس التي عمل فيها قبل ذلك، وكانت نتائجه هنا مشجعة حتى الآن. قلّبت الأوراق التي أمامها... «لدي أشياء محدّدة إن كنت في حاجة إليها!» هززتُ رأسي فبدأت كلامها من جديد قبل أن أتمكن من طرْح سؤالي الثاني... «كانت كاتي ويتاكر طالبة مجتهدة. لدي درجاتها

هنا. طرأ على أدائها شيء من التراجع خلال الربيع الماضي. لكنه استمر فترة قصيرة فقط ثم عادت فتحسَّنت قبيل... قبيل...» مسحتْ عينيها بيدها... «قبيل الصيف». تراخى جسدها قليلاً في مقعدها.

«هذا يعني أنك ما كنت تشكِّين في أي شيء؛ ألم تكن هنالك شائعات...؟» مالت برأسها جانباً: «أوه، لم أقل شيئاً عن الشائعات. لم أقل شيئاً أيتها المحققة... أوه... مورغان. إن الشائعات التي تطير هنا وهناك في أي مدرسة ثانوية يمكن أن تجعل شعرك ينتصب واقفاً. إنني واثقة...» قالت هذا ولوت شفتيها قليلاً... «من أنك إذا فكرت في الأمر قليلاً فإنك قد تكونين قادرة على تخيل الأشياء التي يقولونها ويكتبونها عنِّي وعن مدرس الرياضة السيد ميتشل... إنهم يكتبونها في تويتر أيضاً. هل قابلت مارك هندرسون؟».

«نعم، قابلته».

«أنت تفهمين إذن. إنه شاب. وهو حسن المظهر. تقول الفتيات مختلف الأشياء عنه... هذه مشكلة مع الفتيات دائماً... إنهن يقلن كل ما يمكنك تخيله. لكن عليك أن تتعلمي كيف تميزين بين الضجيج والحقائق. وأظن أنني تعلمت هذا. لازلت أظن أنني فعلت هذا». ومن جديد، أردتُ أن أتكلم، ومن جديد تابعتْ من غير توقف. قالت لي وهي ترفع صوتها قليلاً: «عليَّ إخبارك بأنني أشك كثيراً في هذه المزاعم كلها. أقول إنني أشك كثيراً بسبب مصدرها وبسبب التوقيت أيضاً».

«أنا...»

«أفهم أن تلك المزاعم جاءت أولاً من جوش ويتاكر، لكنني سأكون مستغربة تماماً إذا اتضح أن لينا آبوت لم تدفعه إلى قول هذا كله. إن جوش متعلّق بها كثيراً. إذا رأت لينا أنها تريد حرْف الأنظار عن أفعال

سيئة قامت بها شراء أدوية غير مشروعة من أجل صديقتها، على سبيل المثال فإنني واثقة من قدرتها على إقناع جوش بحكاية هذه القصص».

«يا سيدة تاونسند...».

تابعت من غير أن تسمح لي بمقاطعتها: «عليَّ أن أقول شيئاً آخر ألا وهو إنه كانت هنالك أشياء بين لينا آبوت ومارك هندرسون».

«أشياء؟».

«هنالك بعض الأشياء. بداية، كان سلوكها غير لائق في بعض الحالات».

«غير لائقة بأي طريقة؟».

«كانت تغازله. لم يكن ذلك مع مارك وحده. الظاهر أن لديها فكرة تقول إن تلك هي الطريقة المثلى لكي تحصل على ما يريد. بنات كثيرات يفكرن هكذا، لكن حالة سلوك لينا تجاه مارك بدت كأنها تجاوزت الحدود المألوفة. كانت تقول له أشياء، وتلمسه...».

«تلمسه؟».

«تلمسه على ذراعه، لا شيء فاحش في هذا! كانت تقترب أكثر مما يجب عندما تقف إلى جانبه... هنالك أغنية تقول شيئاً من هذا القبيل. لا بد لي من الحديث معها عن هذا الأمر». بدت كأنها انكمشت بعض الشيء عندما تذكرت هذه المواقف... «لقد تلقت توبيخاً على ذلك رغم أنها لم تكن تنظر إلى الأمر كله نظرة جدية، كانت تلعب بالطبع. أظنها قالت شيئاً من قبيل إنه يتمنّى ذلك». ضحكتُ عندما سمعت هذه الكلمة، لكنها عبست... «ليس الأمر مضحكاً في الحقيقة، أيتها المحققة. من الممكن أن تنتج عن هذه الأشياء أضرار جدية».

«بالطبع، نعم. أعرف هذا. إنني آسفة».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شدت على شفتيها مستعيدة مظهر مديرة المدرسة من جديد: «نعم، لا بأس... لم تكن أمها تتعامل مع الأمر بجدية أيضاً. لا يكاد هذا يكون شيئاً مفاجئاً...» احمرَّت قليلاً وظهرت بقعة حمراء غاضبة على رقبتها؛ ارتفع صوتها... «ليس مفاجئاً على الإطلاق. حركات الغزل تلك كلها، ورفرفة الأهداب التي لا تنتهي، واللعب بالشعر، وذلك الإيحاء المضجر المستمر بأنها متاحة جنسياً... أين تظنين لينا تعلمت هذه الأشياء كلها؟». استنشقتْ نفساً عميقاً، ثم زفرت وأزاحت شعرها عن عينيها. قالت وقد صارت الآن أكثر هدوءاً وأكثر تأنِّياً: «كان الأمر الثاني حادثة وقعت في الربيع. لم تكن غزلاً، بل تهجُّماً. اضطر مارك إلى إخراج لينا من غرفة الصف لأنها صارت عدوانية وراحت توجه الإساءات مستخدمة ألفاظاً نابية خلال مناقشة نص كانوا يدرسونه». ألقت نظرة على الأوراق التي أمامها... «أظنه كان لوليتا» رفعت حاجبها قليلاً.

قلت لها: «نعم، هذا شيء... يثير الاهتمام».

«تماماً. بل يمكن أن يوحي أيضاً بالمصدر الذي استقت منه هذه الاتهامات». قالت هيلين هذا، لكنه كان شيئاً مخالفاً تماماً لما كنت أفكر فيه.

قدت السيارة في المساء إلى بيتي المؤقت. بدا أكثر وحدة وانعزالاً في ظلمة الغسق، وبدت أشجار البتولا المتألقة من خلفه أشبه بالأشباح، وما عادت ثرثرة النهر مبهجة مرحة بقدر ما صارت مهددة... توحي بالخطر. لم أر أحداً على ضفتي النهر ولا على سفح التل المقابل. ما من أحد هنا حتى يسمع صرخةً. عندما مررت بهذا المكان خلال الجري، بدا لي مكاناً هادئاً مسالماً على نحو مثالي. أما الآن فرأيته شيئاً يشبه تلك الأكواخ المنعزلة التي نراها في مئات من أفلام الرعب.

فتحت الباب وجلت بنظري في أرجاء المكان محاولة (هكذا حاولت)

ألا أبحث عن «آثار دم على الجدران». لكني وجدت المكان نظيفاً مرتباً فيه رائحة مواد التنظيف الحامضية الواخزة. كان الموقد خالياً من الرماد وإلى جانبه انتصبت كومة من قطع الحطب المرتبة بطريقة أنيقة. كان المكان صغيراً؛ إنه أقرب إلى كابينة الصيد منه إلى بيت حقيقي: غرفتان فقط؛ غرفة معيشة يتفرع عنها مطبخ صغير ضيق، وغرفة نوم فيها سرير مزدوج صغير عليه مجموعة من الشراشف والبطانيات النظيفة. فتحت الباب والنوافذ حتى أتخلَّص من الرائحة الليمونيَّة، ثم فتحت واحدة من زجاجات البيرة التي اشتريتها من المتجر التعاوني في طريقي إلى هذا المكان، وجلست على العتبة أنظر إلى أجمات السرخس على سفح التل المقابل وقد راح لونها يتحول من البرونزي إلى الذهبي في ضياء الشمس المتجهة إلى الغروب. وعندما استطالت الظلال، تحوَّلت العزلة إلى إحساسٍ بالوحدة فأخرجت هاتفي غير عارفة بمن أريد الاتصال. ثم انتبهت أوه، بالطبع لا توجد شبكة. نهضت واقفة وتجوَّلت أمام الكوخ رافعة الهاتف في الهواء... لا شيء، لا شيء، لا شيء، إلى أن صرت على حافة النهر تماماً فظهر خطان على شاشة الهاتف. وقفت هناك قليلاً، وكان الماء يكاد يلامس قدمي. نظرت إلى النهر الأسود الجاري أمامي سريعاً ضحلاً. كنت أسمع صوتاً يشبه صوت شخص يضحك. لكنه كان صوت الماء فحسب... ماء ينزلق فوق الحجارة رشيقاً.

مرَّ زمن طويل قبل أن أغرق في النوم. وعندما استيقظت فجأة (كنت أشعر بحرارة شديدة، كأنني محمومة)، كان الظلام كالحبر... ذلك النوع من الظلام الذي يجعلك غير قادر على رؤية يدك إذا رفعتها أمام وجهك. كنت واثقة من أن شيئاً قد أيقظني: صوت؟ نعم... إنه صوتُ سعالٍ.

مددت يدي إلى هاتفي فأوقعته على الأرض إلى جانب الطاولة الصغيرة. في هذا الصمت، بدا الصوت الصادر عن اصطدامه بالأرض

شديداً إلى حد أخافني. بحثت عنه وقد استولى علي ذعر مفاجئ من أنني إذا أشعلت المصباح فسوف أرى شخصاً واقفاً في الغرفة. سمعت نعيق بومة بين الأشجار خلف الكوخ. ثم سمعت الصوت نفسه من جديد: شخص يسعل. صار قلبي يخفق سريعاً. وانتابني خوف أحمق من أنني إذا أزحت الستارة عن النافذة فوق سريري فسأرى وجهاً على الناحية الأخرى من الزجاج ينظر إلي.

وجه من ذلك الذي توقعت رؤيته؟ وجه آن وارد؟ وجه زوجها؟ شيء سخيف! قلت هذا حتى أطمئن نفسي. ثم أدرت مفتاح المصباح وأزحت الستارة عن النافذة. لا شيء، ولا أحد. أمر طبيعي. نزلت عن السرير فارتديتُ بنطلوني الرياضي وقميصاً خفيفاً، ثم ذهبت إلى المطبخ. فكرت في صنع فنجان من الشاي، لكني صرفتُ النظر عن ذلك عندما وجدت في المطبخ زجاجة ويسكي تاليسكر مليئة حتى منتصفها. صببت لنفسي مقدار إصبعين، ثم شربت الويسكي بسرعة. وضعت حذائي الرياضي، ثم وضعت هاتفي في جيبي وأخذت المصباح الكاشف الذي كان على طاولة المطبخ، ثم فتحت باب البيت.

كانت بطاريات المصباح الكاشف ضعيفة. ولم يفلح شعاع الضوء الضعيف في اجتياز مسافة أكثر من مترين أو ثلاثة أمتار أمامي. ومن خلف ذلك كان ظلام مطبق. وجَّهت المصباح بحيث أرى الأرض أمام خطواتي وسرت في ذلك الليل.

كان العشب مثقلاً بالندى. بعد خطوات قليلة، ابتل حذائي وبنطلوني حتى أحسست بالبلل يصل إلى جلدي. سرت ببطء ودرت حول الكوخ أنظر إلى ضوء المصباح المتراقص على لحاء أشجار البتولا الفضّي الذي صار يحاكي جماعة من أشباح شاحبة. كان الهواء لطيفاً منعش البرودة، وكانت في النسيم رائحة مطر. سمعت صوت البومة من جديد،

وسمعت ثرثرة النهر الخفيضة، وسمعت نقيق الضفادع الرتيب. أنهيت الدورة حول الكوخ واتجهت صوب ضفة النهر. عند ذلك، توقف نقيق الضفادع فجأة، ومن جديد، سمعت صوت السعال. لم يكن صوتاً قريباً على الإطلاق بل كان آتياً من السفح المقابل، من مكان ما بعد النهر؛ ثم إنه لم يبد لي هذه المرة شديد الشبه بالسعال أيضاً. صوت أقرب إلى الثغاء. خروف!

أحسست بالخوف كأنني خروف بدوري، فعدت إلى الكوخ وسكبت لنفسي جرعة أخرى من الويسكي، ثم أخرجت من حقيبتي مخطوط كتاب نيل آبوت. تكورت على الكنبة في غرفة المعيشة وبدأت القراءة.

بركة الغارقات

آن وارد، 1920

كان في البيت، منذ الآن. لقد كان هناك. لا شيء يسبب الذعر في الخارج لأن الخطر داخل البيت. لقد كان ينتظر، بل كان منتظراً هناك طيلة الوقت، منذ اليوم الذي عاد فيه إلى البيت.

رغم هذا، ما كان الخوف مشكلة آن آخر الأمر، بل كان إحساسها بالذنب. كانت معرفتها، المعرفة الباردة القاسية كأنها حجر التُقط من مجرى النهر، معرفتها بما كانت تتمناه، وذلك الحلم الذي سمحت لنفسها به في الليل عندما صار كابوس حياتها أشد مما تستطيع احتماله. كان الكابوس هو، كان مستلقياً في السرير إلى جانبها، أو جالساً عند الموقد من غير أن يخلع حذاءه، كأسه في يده. كان الكابوس عندما انتبهت إليه يراقبها ورأت التقزز في وجهه كما لو أنها مقرفة منفرة جسدياً. ما كان الأمر مقتصراً عليها وحدها؛ كانت تعرف هذا. كان يشمل النساء جميعاً، والأطفال جميعاً، وكبار السن، وكل رجل لم يشارك في القتال. إلَّا أن شدة كرهه إيَّاها كانت شيئاً يسبِّب لها جرحاً حين تراه، وحين تحسُّه... شيء أقوى وأشد وضوحاً من كل ما أحسَّته في حياتها.

إلَّا أنها ما كانت تستطيع القول إنها لم تكن تستحقه، أليست هذه حقيقة؟ كان الكابوس حقيقياً، وكان يعيش في بيتها، لكن ما يعذبها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان ذلك الحلم الذي سكنها، الحلم الذي أباحت لنفسها أن تتوق إليه وتشتهيه. في حلمها، تكون وحيدة في بيتها. كان ذلك في صيف 1915، وكان قد ذهب قبل مدة وجيزة. في الحلم، يكون الوقت مساء، ويكون الضياء آخذاً في التلاشي على السفح المقابل، خلف النهر، وظلمة تتجمع في زوايا البيت؛ ثم يُسمع طرق على الباب. ويكون هنالك رجل ينتظر، رجل في ملابس عسكرية يسلمها برقية. تعرف عند ذلك أن زوجها لن يعود أبداً. عندما كانت تحلم بهذا وقت يقظتها، ما كان لديها اهتمام كبير بكيفية حدوث الأمر. ما كانت تبالي إن مات بطلاً، أو مات وهو ينقذ صديقاً، أو مات جباناً هارباً أمام العدو، ما كانت تهتم طالما أنه صار ميتاً.

لو حدث هذا لكان الأمر أسهل عليها. ألم تكن حقيقة الأمر هكذا؟ فلماذا لا يكرهها إذاً؟ لو أنه مات هناك لأقامت عليه حداداً، ولشعر الناس بالأسف والحزن عليها وعلى زوجها وأصدقائها، وكذلك على إخوته (من بقي منهم حياً). لو حدث ذلك، لساعدها الناس، ولكانوا من حولها، ولكانت قادرة على اجتياز تلك المحنة. لو حدث ذلك لحزنت عليه زمناً طويلاً، لكن الحزن كان سينتهي ذات يوم. لو حدث ذلك، لكان عمرها ثمانية عشر، عشرين، واحداً وعشرين عاماً، ولوجدت الحياة ممتدة أمامها.

كان محقاً في كرهها. ثلاث سنوات، قرابة ثلاث سنوات أمضاها هناك غارقاً في الخراء وفي دم رجال أشعل لهم السجائر بنفسه، لكنها تتمنى الآن لو أنه لم يعد. كانت تلعن اليوم الذي لم تصل فيه تلك البرقية.

أحبته منذ كانت في الرابعة عشرة، ولا تستطيع تذكّر كيف كانت الحياة قبل أن يأتي. كان في الثامنة عشر عندما بدأت الحرب، وكان في العشرين عندما ذهب إليها؛ ثم كان يعود أكبر سناً في كل مرة، أكبر لا بشهور، بل بسنين، بعقود، بقرون.

كان لا يزال هو نفسه عندما عاد أول مرة. لقد بكى في الليل، وارتجف مثلما يرتجف رجل محموم. قال لها إنه لا يستطيع العودة؛ قال إنه خائف كثيراً. وفي الليلة التي سبقت موعد عودته، وجدته عند النهر فجرّته إلى البيت (ما كان عليها أن تفعل هذا أبداً، كان ينبغي لها أن تتركه يمضي آنذاك). كان إيقافه فعلاً أنانياً من جانبها. أما الآن، فانظروا إلى ما جنته!

لم يبك عندما عاد إلى البيت ثاني مرة. كان صامتاً، محطماً، وما كان ينظر إليها إلَّا قليلاً، إلَّا نظرة مواربة خبيثة، إلَّا نظرة جانبية من تحت أجفان مسدلة. وما كان ينظر إليها أبداً عندما يكونان في الفراش معاً. كان يقلبها ويعلوها، ثم لا يتوقف حتى عندما ترجوه أن يتوقف، حتى عندما تنزف. كان يكرهها في ذلك الوقت، كان كرْهه قد بدأ. لم ترَ ذلك لكنها أخبرته ذات مرة عن الحزن الذي تحسُّه تجاه المعاملة التي تلقاها الفتيات في السجن، حدَّثته أيضاً عن المحتجين من أصحاب الضمير الذين يعارضون الحرب، وكل ذلك، فما كان منه إلَّا أن صفعها على وجهها وبصق عليها وقال إنها عاهرة ملعونة خائنة.

عندما عاد إلى البيت ثالث مرة، ما كان موجوداً هناك أبداً. عرفت عندها أنه لن يعود أبداً بعد الآن. لم يبق فيه شيء من الرجل الذي اعتاد أن يكونه. أما هي، فلم تستطع الرحيل، لم تستطع أن تذهب وتقع في حب شخص آخر لأنه كان كل ما لديها طيلة حياتها، ولأنه ذهب الآن... ذهب الآن. لكنه لا يزال جالساً عند الموقد من غير أن يخلع حذاءه. جالساً يشرب ويشرب وينظر إليها كأنها هي العدو؛ أما هي فتتمنى لو أنه مات.

أية حياة هذه؟

تمنَّت آن أن تكون لديها طريقة أخرى. تمنت لو أنها تعرف الأسرار التي كانت النساء الأخريات يعرفنها. لكن ليبي سيتون ماتت منذ زمن

طويل وأخذت أسرارها معها. كانت آن تعرف بعض الأشياء بطبيعة الحال، أشياء من تلك التي تعرفها نساء القرية كلهن تقريباً. كانت النساء تعرف أنواع الفطر التي يجب جنيها، والأنواع التي يجب تركها؛ وكانت النساء تعرف خطر نبتة السيدة الجميلة، بيلادونا، ويعرفن أنه لا يجوز لمْسها أبداً، أبداً. كانت تعرف أين تنمو هذه النبتة في الغابات، وكانت تعرف مفعولها أيضاً، لكنها لم تكن تريد أن يذهب بهذه الطريقة.

كان يظل خائفاً طيلة الوقت. كانت ترى هذا، وكانت تستطيع قراءته في وجهه كلما نظرت إليه: عيناه صوب الباب دائماً، وطريقة نظره إلى الخارج عند الغسق محاولاً أن يرى ما خلف الأشجار. كان خائفاً، وكان ينتظر قدوم شيءٍ ما. لكنه كان ينظر في الاتجاه الخاطئ، طيلة الوقت، لأن العدو ما كان هناك، في الخارج، كان العدو قد صار في الداخل، في داخل البيت. كان جالساً عند الموقد.

ما كانت تريد أن يحسَّ خوفاً. وما كانت تريد له أن يرى الظل يهوي عليه. وهكذا انتظرت إلى أن كان نائماً، جالساً في كرسيه من غير أن يخلع حذاءه، وزجاجة فارغة إلى جانبه. كانت هادئة، وكانت سريعة. وضعت النصل على رقبته من الخلف، ثم دفعته بقوة فلم يكد يستيقظ. وهكذا رحل إلى الأبد.

هكذا أفضل.

لكن المكان صار في حالة رهيبة، بالطبع صار في حالةٍ رهيبةٍ! وهكذا ذهبتْ إلى النهر بعد ذلك... لتغسل يديها.

الأحد، 23 آب/ أغسطس

باتريك

كان الحلم الذي يراه باتريك عن زوجته هو نفسه دائماً. الوقت ليل، وهي في الماء. ترك شون على الضفة وغاص ثم سبح وسبح. لكنه، كلما صار قريباً منها إلى حد يظن معه أنه صار قادراً على الإمساك بها، فإنها تندفع مبتعدة عنه، بطريقة ما، ويصير عليه أن يسبح من جديد. كانت البركة في الحلم أوسع منها في الحياة الحقيقية. ما كانت بركة، بل بحيرة، بل كانت محيطاً. بدا كأنه يسبح إلى الأبد. وعندما استبد به التعب وصار واثقاً من أن قواه قد استنفدت، تمكن من الإمساك بها، تمكن من جذبها نحو. وعندما جذبها، دار جسدها بطيئاً في الماء، وصار وجهها قبالته. كانت تضحك رغم أن فمها محطَّم ممتلئ دماً. يتكرر الحلم نفسه دائماً، إلّا في الليلة الماضية... عندما دار الجسد في الماء وصار الوجه أمامه، كان ذلك الوجه وجه هيلين.

استيقظ مذعوراً بشكل فظيع، وكان قلبه يقفز كأنه على وشك الانفجار. جلس في السرير باسطاً يديه على صدره غير راغب في الإقرار بخوفه ولا بأن إحساساً عميقاً بالخجل يخالط ذلك الخوف. أزاح الستارة وانتظر حتى تحول لون السماء من الأسود إلى الرمادي قبل أن يذهب

إلى الغرفة المجاورة، إلى غرفة هيلين. دخل الغرفة بهدوء، وبرفق حمل الكرسي من أمام طاولة الزينة ووضعه إلى جانب سريرها. جلس هناك. كان وجهها إلى الناحية الأخرى، تماماً مثلما كان في الحلم. فراح يقاوم ذلك الدافع الذي يدعوه إلى وضع يده على كتفها وهزها حتى تستيقظ لكي يتأكد من أن فمها غير ممتلئ دماً وأسناناً متكسرة.

عندما تحركت أخيراً وانقلبت ببطء في اتجاهه، أجفلت عندما رأته فارتد رأسها بعنف فاصطدم بالجدار من خلفها.

«باتريك! ماذا حدث؟ شون، هل به شيء؟».

هزَّ رأسه: «لا، لا شيء».

«إذن...».

سألها: «هل... هل تركت بعض الأشياء في سيارتك؟ في ذلك اليوم؟ أخذت بعض الأشياء التي لا قيمة لها من الكوخ وكنت أريد رميها، لكن القطة... لقد تشتت ذهني، وأظن أنني نسيت الأشياء في السيارة. هل رأيتها؟».

ابتلعت ريقها وأومأت برأسها. كانت عيناها داكنتين يضغط بؤبؤاهما على حدقتيهما فيجعلانهما مثل قطعتين بنيتَّين فضيَّتين. أجابته: «نعم، أنا... من الكوخ؟ تقول إنك أخذت هذه الأشياء من الكوخ؟»، عبس وجهها كما لو أنها تحاول أن تستنتج شيئاً من هذا الكلام.

«نعم، أخذتها من الكوخ. ماذا فعلت بها؟ ماذا فعلت بذلك الكيس؟».

جلست في السرير وقالت: «لقد رميته. كانت تلك أشياء لا قيمة لها، أليس كذلك؟ بدا لي أنها مجرد قمامة».

«صحيح. مجرد قمامة».

سبحت عيناها بعيداً عنه ثم عادتا إليه: «أبي! أتظن أن الأمر بدأ مرة أخرى؟» تنهدت... «هو وهي. هل تظن...؟».

انحنى باتريك عليها وأزاح بيده خصلة شعر عن جبينها. «الحقيقة أنني لست واثقاً تماماً. ربما! أظن أنه يمكن أن يكون قد بدأ مرة أخرى. لكن الأمر انتهى الآن، ألم ينته؟» حاول الوقوف على قدميه، لكنه وجد أن ساقيه ضعيفتين وأنه في حاجة إلى الاستناد بيده على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. كان يحسُّ بها تراقب حركته فأحسَّ بالخجل. سألها: «ما رأيك في شيء من الشاي؟»

قالت وهي تزيح الغطاء جانباً: «سوف أعدها أنا».

«لا، لا. لا تتحركي. أنا سأعد الشاي». استدار نحوها عندما بلغ الباب. سألها من جديد: «هل رميت ذلك الكيس؟... تلك القمامة؟» أومأت هيلين برأسها. نزل السلم ومضى إلى المطبخ ببطء. كانت أطرافه متخشِّبة، وكان صدره يؤلمه. ملأ غلاية الماء وجلس إلى الطاولة. أحسَّ بقلبه ثقيلاً في صدره. لم تكذب هيلين عليه من قبل، لكنه متأكد تماماً الآن، متأكد من أنها كذبت... هناك في غرفة نومها.

لعله يجب أن يكون غاضباً منها، لكن أكثر غضبه كان متجهاً إلى شون لأن غلطته هي ما أوصلهم إلى هنا. ما كان يجب حتى أن تكون هيلين في هذا البيت! يجب أن تكون في بيتها، في فراش زوجها. وهو أيضاً ما كان يجوز وضعه في هذا الوضع. هذا الوضع غير اللائق الذي يجد فيه نفسه مضطراً إلى إزالة ما يخلفه ابنه وراءه. وضع غير لائق أن ينام في غرفة مجاورة لغرفة تنام فيها كنَّته. أحسَّ وخزاً على جلد ذراعه تحت الضماد فحك تلك المنطقة شارد الذهن.

لكن أيضاً، إن أراد الصدق، وهو ما يحاوله دائماً، فما الذي يجعل

من حقه أن ينتقد ابنه؟ تذكر كيف يكون الأمر عندما يكون المرء شاباً، لكنه عاجز عديم الحول بفعل البيولوجيا. لقد كان اختياره لنفسه سيئاً، ولا يزال ذلك الاختيار يجعله خجلاً من نفسه حتى الآن. اختار فتاة جميلة، ضعيفة، فتاة جميلة أنانية، امرأة مفتقرة إلى ضبط النفس في كل شيء تقريباً. اختار امرأة لا تعرف الشبع. وقد وضعت نفسها في طريق يدمِّرها. لا يفاجئه الآن، عندما يفكر في الأمر، إلّا طول الزمن الذي مرَّ قبل أن تصل لورين إلى ذلك الدمار. كان باتريك يعرف ما لم تفهمه لورين أبداً... كان يعرف كم من المرات اقتربت إلى حد خطير من نقطة فقدان حياتها.

سمع وقع خطوات على السلم فاستدار. كانت هيلين واقفة بباب المطبخ؛ لا تزال في بيجاماتها... قدماها حافيتان.

«أبي؟ هل أنت بخير؟» نهض واقفاً وهمَّ بإعداد الشاي، لكنها وضعت يدها على كتفه وقالت: «اجلس أنت. سوف أعدُّ الشاي».

كان اختياره سيئاً ذات مرة، لكنه ما كان كذلك في المرة الثانية، وذلك لأن هيلين كانت من اختياره هو. ابنة واحد من زملائه، هادئة بسيطة مجدة. أدرك على الفور أنها ستكون مستقرة محبة مخلصة. وكان لا بد من إقناع شون. كان شون قد وقع في حب امرأة كانت شرطيَّة متدربَّة. لكن باتريك أدرك أن هذا لا يمكن أن يستمر. ثم أنهاه بنفسه عندما استمر أكثر مما ينبغي له الاستمرار. ينظر الآن إلى هيلين ويعرف أن اختياره من أجل ابنه كان صائباً: هيلين امرأة مستقيمة واضحة متواضعة ذكية ليس لديها أي اهتمام بمتابعة توافه المشاهير وبالنميمة وبالأخبار الفاضحة التي يبدو أنها تستحوذ على عقول أكثر النساء. ما كانت تضيع وقتاً على التلفزيون أو على القصص بل تعمل باجتهاد ولا تشتكي. كانت رفقتها هينة، وكانت ابتسامتها حاضرة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت تبتسم له الآن عندما ناولته الشاي: «تفضل!... أوه!» استنشقت الهواء بحدة عبر أسنانها... «لا يبدو هذا جيداً». كانت تنظر إلى ذراعه التي حكّها قبل قليل فأزاح الضماد عنها. كان الجلد محمرّاً متورمًّا، وكان الجلد قاتم اللون. أتت بماء دافئ وصابون ومادة مطهرة وضماد جديد. نظَّفت جرحه ثم ضمدت ذراعه. وعندما انتهت، مال عليها وقبّل فمها.

قالت: «أبي!»... دفعته عنها بلطف.

قال لها: «إنني آسف... إنني آسف» ثم عاوده إحساسه بالخجل، كان طاغياً الآن، ومعه إحساس بالغضب أيضاً.

كانت النساء تشعرنه بأنه وضيع دائماً. لورين في البداية، ثم جيني، وغيرها، وغيرها. لكن ليس هيلين. بالتأكيد ليس هيلين! لكنها كذبت عليه هذا الصباح. رأى هذا في وجهها، رآه في وجهها الصريح الذي لم يألف الخداع، فارتعد. فكر في حلمه من جديد... لورين تنقلب في الماء، وتاريخ يكرر نفسه... لكن النساء يصرن أسوأ من ذي قبل.

نيكي

قالت جيني إن الوقت قد حان لكي يفعل أحد شيئاً فيما يتعلق بهذا.

لكن نيكي قالت معترضة: «يسهل عليك قول هذا. لكنك غيرت نغمتك الآن، أليس كذلك؟ عادة، كان عليَّ أن أطبق فمي... من أجل سلامتي. أما الآن فأنت تقولين لي أن أطرح الحذر جانباً!» ظَّلت جيني صامتة فيما يتعلق بهذا... «نعم، إنني أحاول على أية حال. تعرفين أنني أحاول. إنني أشير إلى الاتجاه الصحيح. تركتُ للأخت رسالة، وأنت تعرفين هذا! ليس ذنبي أن أحداً لا يصغي إلى ما أقول. أوه، هل أنا رقيقة

أكثر مما يجب؟ رقيقة أكثر مما يجب! هل تطلبين مني أن أتجوَّل مطلقة العنان لفمي؟ انظري ما فعله كلامك بك!» ظلتا تتجادلان طيلة الليل... «ليس الذنب ذنبي! يمكن لك القول إنني مذنبة. لم أقصد أبداً أن أجعل نيل آبوت تتورَّط في المتاعب. أخبرتها ما أعرفه، هذا كل شيء. تماماً مثلما كنت تخبرينني. لا أستطيع التغلب عليك، حقاً، لا أستطيع. ولست أدري لماذا أهتم بهذا أصلاً».

كانت جيني ترهق أعصابها. لا تريد أن تصمت أبداً! وأسوأ ما في الأمر، ليس أسوأ ما في الأمر لأن الأسوأ كان عدم قدرتها على النوم،... ثاني أسوأ أمر هو أنها قد تكون محقة. كانت نيكي تعرف ذلك طيلة الوقت، منذ ذلك الصباح الأول عندما كانت جالسة عند نافذتها، عندما أحسَّت الأمر. واحدة أخرى. سابحة أخرى. لقد فكَّرت فيما يمكن أن تفعل آنذاك؛ بل فكرت في التحدث مع شون تاونسند. لكنها أحسنت صُنعاً عندما أمسكت لسانها: لقد رأت كيف كانت ردة فعله عندما ذكرت اسم أمه؛ رأت تكشيرة الغضب، ورأت قناع اللطف ينزلق عن وجهه. إنه ابن أبيه بعد كل حساب.

«فمن عساه يكون إذاً؟ من عساه يكون يا فتاتي؟ من عساه يكون ذلك الذي يمكن أن أتحدث معه؟ لن أتحدث مع الشرطية. لا تفكري في هذا أبداً. إنهم متشابهون جميعاً! ستذهب وتخبر رئيسها على الفور، ألن تفعل هذا؟» ليست الشرطية، فمن إذاً؟ شقيقة نيل؟ لا شيء في تلك الشقيقة يوحي بالثقة. إلَّا أن الفتاة مختلفة! قالت جيني إن الفتاة مجرد طفلة، لكن نيكي أجابتها، «وماذا؟ إن في جسدها الصغير استعداداً للحركة والفعل أكثر مما يملكه نصف سكان هذه البلدة».

نعم، سوف تتكلم مع الفتاة. لكنها ما كانت بعد واثقة مما ستقوله عندما تتكلم معها.

لا تزال صفحات نيل موجودة عند نيكي. تلك الصفحات التي عملتا عليها معاً. تستطيع أن تجعل الفتاة تراها. إنها مطبوعة، ليست مكتوبة بخط اليد، لكن من المؤكد أن لينا سوف تتعرف على كلمات أمها، على نبرتها! بالطبع، إن تلك الصفحات لا تفصح عن الأشياء مثلما أرادت نيكي. كان هذا جزءاً من السبب الذي جعل نيل تسقط. اختلافات فنية! لقد غضبت نيل كثيراً وقالت إنهما تهدران الوقت إن لم تكن نيكي قادرة على قول الحقيقة؛ لكن ما الذي تعرفه عن الحقيقة؟ كانوا جميعاً يحكون قصصاً فحسب.

سألتها جيني: ألا تزالين جالسة هنا؟ ظننت أنك ذاهبة للحديث مع الفتاة! أجابتها نيكي: «لا بأس! لا تغضبي كثيراً! سوف أذهب. سأفعل هذا فيما بعد. سأفعل هذا عندما أكون مستعدة».

كانت تتمنى أحياناً أن تصمت جيني وتتركها وشأنها، وفي أحيان أخرى تتمنى أكثر من أي شيء آخر أن تكون معها هنا، في هذه الغرفة، جالسة معها عند النافذة، تنظران. كان ينبغي أن تشيخا معاً حتى ترهق كل منهما أعصاب الأخرى على نحو ملائم بدلاً من هذه المشاجرات عبر أمواج الهواء... مثلما تفعلان الآن.

كانت نيكي تتمنى، عندما ترى جيني، أن لا تراها مثلما كانت عندما جاءت إلى هذه الشقة آخر مرة. كان ذلك قبل يومين فقط من رحيل جيني عن بيكفورد إلى الأبد. كانت شاحبة مصدومة، وكانت ترتعش خوفاً. لقد جاءت لتخبر نيكي أن باتريك تاونسند قد ذهب ليراها. لقد حذرها من أنه، إن ظلت تتكلم مثلما كانت تفعل، وإن واصلت طرح الأسئلة، وإن واصلت محاولة تدمير سمعته، سوف يعمل على أن يلحق بها الأذى. قال لها: «لن أفعل هذا بنفسي، ولن أمسك أبداً. سأجعل شخصاً آخر يقوم بهذه المهمة القذرة. بل لن يكون شخصاً واحداً فقط.

سأحرص على أن يكونوا بضعة أشخاص، وعلى أن يوقع بك الأذى كل واحد منهم. تعرفين أنني أعرف أشخاصاً، ألا تعرفين هذا يا جين؟ لا أظنك تشكّين في أنني أعرف أشخاصاً يمكن أن يقوموا بأشياء من هذا القبيل. هل تشكِّين في هذا يا بنت؟».

لقد وقفت جيني هناك، في تلك الغرفة، وجعلت نيكي تعدها، جعلتها تقسم على أنها ستترك هذا الأمر... «لا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن. وما كان يجب أن أقول لك شيئاً أبداً».

قالت نيكي: «لكن، الولد! ماذا عن الولد؟».

مسحت جيني الدموع عن عينيها: «إنني أعرف، أعرف! يؤلمني التفكير في هذا. لكن علينا أن نتركه هناك. وعليك أن تلزمي الهدوء وألا تقولي شيئاً. أقول هذا لأن باتريك سيفعل بي ما قاله يا نيكي، وسيفعله بك أنت أيضاً. إنه لا يمزح في هذا الأمر».

رحلت نيكي بعد يومين من ذلك، ثم لم تعد أبداً.

جولز

قولي لي، قولي بصدق. ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟

استيقظت وصوتك في رأسي. كان الوقت عصراً. لا أستطيع النوم في الليل، لأن هذا البيت يهتز ويتمايل مثل سفينة. ولأن صوت الماء يصم أذني. على نحو ما، لا يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحد في النهار. على أية حال، لا بد أن النوم غلبني لأنني استيقظت على صوتك في رأسي. كان يسألني:

ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟ أحب أم استمتع؟ أو لعل الكلمة الصحيحة أراد؟ لا أستطيع التذكر الآن. لا أذكر غير أني سحبت

يدي من بين يديك ثم رفعتها لأصفعك... وتلك النظرة في وجهك، غير قادرة على الفهم.

سرُت متثاقلة عبر الصالة فدخلت الحمام وفتحت الماء. كنتُ أكثر إرهاقاً من أن أستطيع خلع ثيابي؛ وهكذا جلست هناك بينما راح البخار يزداد ويزداد. ثم أغلقتُ الماء وقمت إلى المغسلة فغسلت وجهي. وعندما رفعت وجهي رأيت حرفين ظاهرين في بخار الماء المتكثف على المرآة. حرف «ل» وحرف «س». أصابني ذعر رهيب جعلني أصرخ.

سمعت باب غرفة لينا ينفتح ثم بدأت تدق باب الحمام: «ماذا؟ ماذا يحدث يا جوليا؟».

فتحت الباب لها، فتحته حانقة وسألتها: «ماذا تفعلين؟ ما الذين تحاولين فعله بي؟» قلت هذا وأنا أشير إلى المرآة خلفي.

«ماذا؟»... بدا عليها الانزعاج... «ماذا؟».

«تعرفين جيداً يا لينا. لا أعرف ما تظنين أنك تحاولين فعله، لكن...».

أدارت ظهرها لي ومشت مبتعدة عني: «يا إلهي!... إنك مجنونة حقاً!».

وقفت أنظر إلى الحرفين بعض الوقت. لم أكن أتخيل شيئاً لأنهما كانا واضحين هناك: «ل» و«س». كان ذلك من نوع الأشياء التي اعتدتِ فعلها طيلة الوقت: تتركين لي رسائل غامضة على المرآة، أو ترسمين نجوماً صغيرة بطلاء الأظافر الأحمر على باب غرفتي. كنت تتركين هذه الأشياء حتى أخاف. كنت تحبين إفزاعي، ولا بد أنك أخبرت لينا بهذه الأشياء. لا بد أنك أخبرتها. وهي الآن أيضاً تفعلها بي.

لماذا «ل» و«س»؟ لماذا «ليبي سيتون»؟ لماذا هذا الإصرار عليها؟ كانت ليبي بريئة. كانت امرأة شابَّة جرَّها إلى الماء رجال يكرهون النساء، رجال يلومون النساء على أشياء فعلوها هم، فعلوها هم أنفسهم. لكن لينا تظن أنك ذهبت بمحض إرادتك؛ فماذا ليبي؟ لماذا «ل» و«س»؟

لففت نفسي بمنشفة وسرت في الممر، ثم دخلت غرفتك. بدا لي أن أحداً لم يمسها. لكنها كانت عابقة برائحة ما، برائحة حلوة... ليست رائحة عطرك، بل رائحة أخرى. رائحة فيها شيء متخم، شيء مثقل بشذى ورود نضجت ثم ذبلت قليلاً. كان الدرج الذي إلى جوار سريرك مغلقاً. وعندما فتحته كان كل شيء فيه مثلما تركته... باستثناء شيء واحد. اختفت القداحة، القداحة التي حفرتِ عليها الحرفين الأولين من اسم ليبي. كان أحد ما في هذه الغرفة. لقد أخذ القداحة أحد ما.

عدت إلى الحمام وغسلت وجهي من جديد، ثم مسحت الحرفين عن المرآة. عندما فعلت ذلك رأيتك واقفة خلفي، وتلك النظرة نفسها على وجهك... نظرة عدم الفهم. استدرت فرفعت لينا يديها أمامها كأنها تحاول الدفاع عن نفسها: «يا إلهي، يا جوليا! اهدئي... ما الذي يحدث لك؟».

هززت رأسي: «إنني فقط... إنني فقط...».

جحظت عيناها: «إنك فقط ماذا؟».

«إنني في حاجة إلى بعض الهواء النقي».

***

لكنني كدت أصرخ من جديد عندما صرت على عتبة البيت لأنني رأيت هناك امرأتين كلتيهما رأيتهما عند البوابة في ملابس سوداء، كانتا متلاصقتين، معوجّتين، متداخلتين على نحو ما. نظرت إحداهما إليَّ.

إنها لويز ويتاكر، والدة الفتاة التي ماتت. جرجرت نفسها مبتعدة عن المرأة الأخرى. كانت تكلمها غاضبة وهي تبتعد عنها

«اتركيني! اتركيني وحدي! لا تقتربي مني!».

لوحت الأخرى بيدها لها، أو لعلها لوحت لي، لم أكن متأكدة من ذلك، ثم استدارت وسارت متثاقلة في الطريق.

قالت لويز بعنف عندما اقتربت مني: «هذه الغبية! إنها شؤم... هذه المرأة، نيكي سيج. لا تتكلمي معها، أقول لك هذا. لا تسمحي لها بدخول بابك. إنها كاذبة فنانة في الخداع. لا تريد إلّا المال». توقفتْ لحظة حتى تلتقط أنفاسها، ثم كشّرت: «نعم، يبدو شكلك بائساً مثلما أحسُّ نفسي تقريباً». فتحت فمي ثم أطبقته من جديد... «هل ابنة أختك في البيت؟»

أدخلتها إلى البيت. قلت لها: «سوف أناديها الآن». لكن لويز وقفت عند أسفل السلم وصاحت تنادي لينا. مضت إلى المطبخ بعد ذلك وجلست عند الطاولة منتظرة. ظهرت لينا بعد لحظة. زال عن وجهها التعبير الذي يظهر عليه عادة، ذلك المزيج من الترفع والضجر، المزيج الذي يذكّرني بك. حيّت لويز بوداعة رغم أنني ما كنت واثقة إن كانت لويز لاحظتها لأن عينيها كانتا متّجهتين إلى مكان آخر. كانتا تنظران إلى النهر في الخارج أو إلى مكان ما خلف النهر.

جلست لينا إلى الطاولة ورفعت يديها لتربط شعرها خلف رقبتها. رفعت ذقنها قليلاً كأنها تستعد لشيء ما، لمقابلة! كأنها تستعد لاستجواب. لعلي كنت غير مرئية لأنهما ما كانتا منتبهتين إليَّ أبداً، لكنني بقيت في المطبخ. وقفت عند المجلى. لم أقف مسترخية بل متأهبة مستعدة للحركة إن رأيت حاجة إلى التدخل.

رفرفت لويز بعينيها، ببطء، ثم استقرت نظراتها على لينا أخيراً. نظرت لينا في عينيها لحظة ثم خفضت عينيها إلى الطاولة.

«إنني آسفة يا سيدة ويتاكر. أنا آسفة حقاً».

لم تقل لويز شيئاً. جرت دموعها على وجهها، جرت في تلك الخطوط العميقة التي حفرتها شهور من حزن لا يهدأ.

قالت لينا من جديد: «إنني آسفة». كانت الآن تبكي أيضاً. تركت شعرها ينسدل من جديد وراحت تلفه على أصابعها كأنها بنت صغيرة.

قالت لويز آخر الأمر: «أتساءل إن كنت ستعرفين في يوم من الأيام كيف يكون الإحساس عندما تدركين أنك لم تعرفي طفلتك أبداً». أخذت نفساً عميقاً مضطرباً: «لدي أشياؤها كلها. ملابسها وكتبها وتسجيلاتها الموسيقية. لدي الصور التي تحبها كثيراً. أعرف أصدقاءها والناس الذين يعجبونها، وأعرف ما تحبُّه. لكن ذلك كله ما كان هي... لأنني لم أعرف من الذي كانت تحبه. كانت لها حياة... حياة كاملة... لم أعرف عنها شيئاً. ذلك الجزء الأكثر أهمية فيها، لم أكن أعرفه». حاولت لينا أن تقول شيئاً، لكن لويز تابعت كلامها... «المسألة هي، يا لينا، أنك كنت قادرة على مساعدتي. كنت تستطيعين إخباري بالأمر. كنت تستطيعين إخباري عندما عرفت به. كان يمكنك أن تأتي إلي وتخبريني بأن ابنتي قد جعلت نفسها تَعلَق في شيء ما، في شيء لم تكن قادرة على التحكم فيه، في شيء كنت تعرفين... لا بد أنك عرفت... أنه سينتهي بما هو مؤذٍ لها».

«لكني لم أستطع... لم أستطع...» ومن جديد، حاولت لينا أن تقول شيئاً، لكن لويز لم تتركها تتكلم.

«حتى إن كنتِ عمياء أو غبية أو مهملة إلى الحد الذي لا يجعلك تدركين

حجم المشكلة التي تورَّطت فيها، فقد كنت قادرة على مساعدتي رغم ذلك. كان يمكنك أن تأتي إليَّ بعد موتها وتخبريني بالأمر، وتقولي لي إن ذلك لم يحدث بسبب شيء فعلته أنا أو بسبب شيء لم أفعله. كان يمكن أن تقولي لي إن الذنب ليس ذنبي، وإنه ليس ذنب زوجي. كنت قادرة على منعنا من إغراق نفسنا في الجنون. لكنك لم تفعلي هذا. اخترت ألا تفعلي هذا. لم تقولي شيئاً خلال ذلك الوقت كله. بل إنك، خلال ذلك الوقت... بل أسوأ من ذلك، حتى أسوأ من ذلك... لقد تركْتِه...» علا صوتها ثم اختفى في الهواء كأنه دخان.

أكملت لينا جملتها: «تركته يُفلت بفعْلته؟» ما عادت تبكي الآن؛ ورغم ارتفاع صوتها، فقد ظلَّ قويّاً ولم يظهر فيه ضعف... «صحيح. لقد تركته ينجو بفعلته، وهذا ما يصيبني بالغثيان. يصيبني بغثيان مُقرف، لكنني فعلت هذا من أجلها. كل ما فعلته كان من أجل كاتي».

كان لويز فحيحاً: «لا تقولي اسمها لي. إياك أن تجرؤي على ذلك».

«كاتي، كاتي، كاتي!» صارت لينا نصف واقفة الآن، كانت منحنية الآن وصار وجهها على مسافة سنتيمترات من أنف لويز. ثم سقطت جالسة على كرسيها وقالت لها: «يا سيدة ويتاكر، لقد كنت أحبها. تعرفين كم كنت أحبها. فعلتُ ما أرادتْ أن أفعله. فعلتُ ما طلبتْ مني فعله».

«لم يكن اتخاذ القرار من حقك يا لينا. لم يكن من حقك أن تخفي عني شيئاً على هذه الدرجة من الأهمية، فأنا أمها...»

«لا، لم يكن قراري أنا: كان قرارها! أعرف أنك تعتبرين من حقك أن تعرفي كل شيء، لكن هذا ليس من حقك. لم تكن كاتي طفلة، لم تكن بنتاً صغيرة».

«كانت فتاتي الصغيرة!» صار صوت لويز نواحاً، عويلاً. أدركت أنني

أقبض على حافة المجلى بقوة، وأدركت أنني على وشك البكاء، أنا أيضاً.

تكلمت لينا من جديد، وقد صار صوتها الآن أكثر نعومة، صار مستعطفاً: «لقد أقدمت كاتي على خيار. اتخذت قراراً فاحترمت قرارها». وبصوت أكثر رقَّة كما لو أنها تعرف أنها تتحرك على أرض خطرة... ثم إنني لست الشخص الوحيد في هذا. أخفى جوش الأمر أيضاً».

رفعت لويز يدها وصفعت لينا بقوة شديدة، صفعتها على وجهها. رددت جدران المطبخ أصداء تلك الصفعة. قفزتُ فأمسكت بذراع لويز صائحة: «لا! هذا يكفي! هذا يكفي!» حاولت أن أجعلها تقف على قدميها... «عليك أن تذهبي».

قالت لينا بنبرة حادة: «اتركيها». كانت الجهة اليسرى من وجهها قد احمرت، لكن تعبيرها ظل هادئاً... «لا تتدخلي يا جوليا. يمكنها أن تضربني إن أرادت ذلك. يمكنها أن تقتلع عيني، وأن تنتزع شعري. يمكنها أن تفعل بي ما تريد. ما أهمية الأمر الآن».

كان فم لويز مفتوحاً. شممت رائحة أنفاسها الكريهة. تركتها.

قالت وهي تمسح الزبد عن فمها: «لم يقل جوش شيئاً بسببك أنت. أنت طلبت منه ألا يقول شيئاً».

«لا يا سيدة ويتاكر». جاء صوت لينا متزناً تماماً لكنها كانت قد وضعت ظهر يدها اليمنى على خدها لتخفيف الألم... «هذا غير صحيح. ظل فم جوش مطبقاً بسبب كاتي، لأنها هي من طلب منه ذلك. ثم، في وقت لاحق، لأنه أراد حمايتك وحماية أبيه. ظنَّ أن ذلك سيسبب لكما ألماً شديداً. لو عرفتما أنها كانت في...» هزَّت رأسها... «إنه صغير، وقد ظنَّ...»

قالت لويز: «لا تحدثيني بما ظنَّه ابني. لا تقولي لي ما كان يريد تحقيقه. كفي عن هذا».

ارتفعت يدها إلى رقبتها. هل هي موشكة على التقيؤ؟ لا، ليس الأمر كذلك: أمسكت بالطائر الأزرق المعلَّق من السلسلة. أمسكت به بين أصابعها. قالت: «هذا... هذا لم يكن هدية منك، أليس كذلك؟»، ترددت لينا لحظة قبل أن تهزَّ رأسها نفياً... «كان هدية منه. أليس هذا صحيحاً؟ لقد أعطاها إياه». دفعت لويز كرسيها إلى الخلف فأصدرت قوائمه زعيقاً على البلاط. نهضت واقفة، ثم انتزعت السلسلة من رقبتها بحركة عنيفة وألقت بها على الطاولة أمام لينا... «لقد أعطاها هذا الشيء، وأنت تركتني أضعه حول رقبتي».

أغمضت لينا عينيها لحظة وراحت تهز رأسها من جديد. كانت الفتاة الوديعة المهادنة التي أتت إلى المطبخ منذ بضع دقائق قد اختفت الآن وجلست في مكانها فتاة مختلفة، فتاة أكبر سناً، فتاة كأنها الابنة الناضجة للويز اليائسة الغاضبة. وفي لحظة واحدة، تذكرتكِ، بكل وضوح. كنتِ أصغر قليلاً من لينا. وكانت تلك واحدة من اللحظات القليلة التي وقفت فيها إلى جانبي ودافعتِ عني. اتهمتني معلمة في مدرستي بأنني أخذت شيئاً لم يكن ملكاً لي. أذكر كيف رحت توبخينها. كنتِ صافية الذهن، باردة الأعصاب، ولم ترفعي صوتك عندما رحت توضحين لها كم كانت مخطئة عندما أطلقت اتهاماتها من غير دليل. أما المعلمة فقد تراجعت أمامك. أذكر كم كنت فخورة بك آنذاك. كان لديَّ الإحساس نفسه تجاه لينا في هذه اللحظة، ذلك الشعور بالحرارة في صدري.

بدأت لويز تتكلم من جديد، وكان صوتها شديد الانخفاض. قالت وهي تجلس من جديد: «إذن، فسري هذا لي بما أنك تعرفين إلى هذا الحد. بما أنك تعرفين هذه الأمور كلها. إن كانت كاتي قد أحبَّت ذلك

الرجل، وإن كان قد أحبَّها، فلماذا؟ لماذا فعلت ما فعلته؟ ما الذي فعله لها حتى دفعها إلى ذلك؟»

اتجهت نظرات لينا إليَّ، بدت خائفة، على ما أظن، أو لعلها كانت غير قادرة على الإجابة. لم أستطع قراءة تعبير وجهها. نظرتْ إليَّ لحظة قبل أن تغمض عينيها وتنهال الدموع منهما. عندما تكلمت من جديد، كان صوتها مشدوداً مرتفعاً أكثر من ذي قبل.

تنهدت وقالت: «لم يدفعها إلى ذلك. ليس هو من دفعها. لقد جرت مناقشة عنيفة بيني وبينها. أردت منها أن توقف الأمر كله، وأن تمتنع عن رؤيته. كنت أرى أن ذلك سيئ. وقدّرتُ أنها ماضية إلى المتاعب. ظننت أنها...» هزَّت رأسها... «فقط، أردت منها ألا تراه بعد ذلك».

عبرتْ وجه لويز لمحة فهم؛ لقد فهمتْ، فهمتْ في تلك اللحظة مثلما فهمت أنا.

قلت للينا: «لقد هددتها بكشف الأمر كله».

قالت لينا بصوت لا يكاد يسمع: «نعم؛ لقد هددتها».

ذهبت لويز من غير أن تقول كلمة أخرى. وجلست لينا جامدة تحدق في النهر من نافذة المطبخ. ما كانت تبكي، ولا كانت تتكلم. وما كان عندي شيء أقول لها... لم أجد طريقة تجعلني أصل إليها. رأيت فيها شيئاً كان عندي أيضاً، شيئاً لعله يكون عند كل إنسان في تلك السن... شيئاً أساسياً لا سبيل إلى معرفته. فكرت كم هو غريب أن يعتقد الآباء والأمهات أنهم يعرفون أطفالهم، أنهم يفهمون أطفالهم. ألا يذكرون كيف كان الأمر معهم عندما كانوا في الثامنة عشرة، أو في الخامسة عشرة، أو في الثانية عشرة؟ ربما ينسى المرء أنه كان هكذا، ينساه بعد أن ينجب أطفالاً. أتذكرك في السابعة عشرة، وأنا في الثالثة عشر، وأنا واثقة من أن أهلنا ما كانت لديهم فكرة عن حقيقة ما كُنّاه.

قطع صوت لينا سلسلة أفكاري: «لقد كذبت عليها». لم تتحرك. لا تزال جالسة تنظر إلى الماء.

«كذبتِ على من؟ على كاتي؟» هزَّت رأسها نفياً.

سألتها من جديد: «كذبتِ على لويز؟ ما الذي كان كذباً؟».

قالت لينا: «لا معنى إخبارها الحقيقة. ليس الآن. سوف تلومني في الحالتين. أنا موجودة هنا، على الأقل... إنها في حاجة لوجود شخص تصبَّ عليه هذا الكره كله».

«ماذا تعنين يا لينا؟ عن أي شيء تتحدثين؟».

التفتت عيناها الخضراوان الباردتان إلى عيني. بدت أكبر سناً من ذي قبل. بدت مثلما بدوتِ أنت في ذلك الصباح بعد أن أخرجتني من الماء. بدت لينا مختلفة، متعبة، حزينة: «لم أهددها بإخبار أحد. ما كان يمكن أن أفعل هذا بها. كنت أحبها. لا يبدو أن أحداً منكم يفهم معنى هذا... كأنكم لا تعرفون معنى الحب أصلاً. كنت مستعدة لفعل أي شيء من أجلها».مكتبة الرمحي أحمد

«إذن، إذا كنت لم تهدديها، فـ...».

أظن أنني عرفت الإجابة قبل أن تنطق بها.

قالت لي: «لقد هددتها أمي».

جولز

صار المطبخ أكثر برودة؛ ولو كنت أومن بالأرواح لقلت إنك انضممت إلينا.

كانت لينا تقول: «لقد تجادلنا، مثلما قلت قبل قليل. لم أكن أريدها أن

تراه بعد ذلك. قالت إنها غير مبالية بما أراه، وإن ذلك لا أهمية له عندها. قالت إنني غير ناضجة وإنني لا أفهم معنى أن يكون المرء في علاقة حب حقيقية. دعوتها بالعاهرة، فدعتني متهكمة بالعذراء. إنه ذلك النوع من العراك. شيء غبي، شيء مخيف. بعد أن ذهبت كاتي أدركتُ أن أمي في غرفتها، في الغرفة المجاورة. كنت أظنها خارج البيت. لقد سمعت حديثنا كله. قالت لي إن عليها أن تخبر لويز بالأمر. رجوتها ألا تفعل، وقلت لها إن ذلك سيدمر حياة كاتي كلها. عند ذلك قالت إن أفضل شيء قد تكون قادرة على فعله هو الحديث مع هيلين تاونسند لأن مارك يفعل شيئاً خاطئاً ولأن هيلين رئيسته في العمل. قالت إنهم يتمكنون من طرده من غير أي إشارة إلى كاتي. قلت لها إن هذه فكرة غبية وإنها تدرك ذلك. لن يكونوا قادرين على طرده هكذا لأن الأمر في حاجة لإجراءات رسمية. ستصير الشرطة طرفاً في القصة. وسيذهب الأمر إلى المحكمة. سيصبح ذلك كله علنياً. وحتى إذا لم يظهر اسم كاتي في الصحف فإن أبويها سيكتشفان الأمر، وسيعرفه كل من في المدرسة أيضاً... أشياء من هذا النوع لا تبقى سرّاً». أخذتْ نفَساً عميقاً ثم زفرت ببطء: «لقد أخبرتُ أمي في ذلك الوقت... قلت لها إن كاتي تفضِّل الموت على أن تتعرض لهذا كله».

انحنت لينا وفتحت نافذة المطبخ، ثم بحثت في جيوبها وأخرجت علبة سجائر. أشعلت سيجارة ونفثت الدخان إلى الخارج، في الهواء: «لقد رجوْتها. أعني ما أقول؛ لقد توسلت إليها فعلاً. قالت أمي إن عليها أن تفكر في الأمر. قالت أيضاً إن عليَّ إقناع كاتي بأن تكف عن رؤيته لأن ذلك يعتبر إساءة استخدام لموقعه، ولأنه شيء خاطئ تماماً. وعدتني بأنها لن تفعل شيئاً قبل أن تمنحني وقتاً لإقناع كاتي». سحقت لينا على إطار النافذة سيجارتها التي لم تدخن منها إلّا قليلاً ورمتها في اتجاه النهر.

«لقد صدقتها. لقد وثقت بما قالته»... استدارت فواجهتني من جديد...

«لكنني رأيتها بعد يومين في موقف السيارات عند المدرسة. كانت تتحدث مع السيد هندرسون. لا أعرف عن أي شيء كانا يتحدثان، لكن الحديث لم يبد لي ودياً على الإطلاق. عرفتُ أن علي أن أقول شيئاً لكاتي، من باب الاحتياط فقط، لأنها يجب أن تعرف، لأنها يجب أن تكون مستعدة...» تكسر صوتها. ابتلعت ريقها... «ماتت بعد ذلك بثلاثة أيام».

نشقت لينا بأنفها ثم مسحت بظهر يدها: «المسألة هي أننا عندما تحدثنا عن الأمر بعد ذلك أقسمت لي أمي أنها لم تذكر كاتي في حديثها أبداً مع مارك هندرسون. قالت إنهما كانا يتجادلان فيما يتعلق بي أنا. فيما يتعلق بالمشكلات التي كنت أسببِّها في غرفة الصف».

«إذن... توقفي لحظة يا لينا، لأنني لا أفهم. أتقولين إن أمك لم تهددهما بفضح الأمر؟».

«وأنا لم أكن قادرة على فهم هذا أيضاً. لقد أقسمتْ على أنها لم تقل أي شيء. لكنها بدت كأنها تشعر بالذنب؛ كنت قادرة على رؤية هذا. أعرف أنني أنا المخطئة، لكنها ظلّت تتصرف كما لو أنها هي من أخطأت. كفّت عن السباحة في النهر، وصارت مسكونة بهاجس قول الحقيقة. ظلّت تكرر ذلك وتعيده دائماً وتقول إن من الخاطئ تماماً أن يخاف المرء مواجهة الحقيقة أو أن يخاف أن يسمح للآخرين بمعرفة الحقيقة. كانت تقول هذا، وتكرره، وتكرره».

(لم أعرف حقاً إن كان هذا غريباً أو منسجماً تماماً مع شخصيتك: لم تكوني تقولين الحقيقة؛ لم تقولي الحقيقة أبداً والقصص التي تروينها ما كانت هي الحقيقة... كانت حقيقتك أنت، كانت شيئاً من صنيعك أنت. كان يجب أن أعرف لأنني عشت معظم حياتي على الجانب القذر من حقائقك).

«لكنها لم تفعل ذلك! لم تخبر أحداً أبداً، ولم تكتب عن مارك هندرسون في... في قصتها عن كاتي. ليس له ذكر فيها أبداً».

هزّت لينا رأسها: «لا، لأنني ما كنت لأسمح لها بهذا. تعاركنا وتعاركنا، وكنت أقول لها دائماً إنني أتمنى أن أرى ذلك القذر ذاهباً إلى السجن لكن هذا سيحطم قلب كاتي. لو حدث هذا لكان معناه أنها فعلت ما فعلته من أجل لا شيء». غصت قليلاً... «أعني... إنني أعرف. أعرف أن ما فعلته كاتي كان شيئاً غبيّاً، كان شيئاً لا معنى له على الإطلاق. لكنها ماتت لكي تحميه. إذا ذهبنا إلى الشرطة، سيعني ذلك أن موتها لا يعني شيئاً. لكني أمي واصلت كلامها عن الحقيقة وعن أن من عدم المسؤولية أن تُترك الأمور تجري على هواها. لقد كانت... لست أدري». رفعت رأسها ونظرت إلي. كانت نظرتها باردة مثل تلك النظرة التي ثبتتها على وجه لويز. قالت: «لو تحدثتِ معها يا جوليا، لو تحدثتِ معها فقط لعرفت كل ما أقوله لك الآن».

«لينا، إنني آسفة. إنني آسفة على هذا. لكنني ما زلت غير قادرة على فهم سبب...».

«هل تعرفين كيف عرفت أن أمي قتلت نفسها؟ هل تعرفين ما يجعلني واثقة من ذلك؟» هززت رأسي فتابعت... «لأننا تشاجرنا يوم موتها. بدأ الأمر من لا شيء. لكنه انتهى بالحديث عن كاتي، مثلما كان يحدث دائماً. كنت أصرخ عليها وأقول إنها أم سيئة وأقول إنها، لو كانت أماً جيدة، لتمكنت من مساعدتنا، من مساعدة كاتي، ولما كان حدث شيء مما حدث. أجابتني بأنها قد حاولت مساعدة كاتي. قالت إنها رأتها عائدة إلى البيت في وقت متأخر ذات يوم فتوقفت لكي تعرض عليها توصيلها بالسيارة. قالت إن كاتي كانت حزينة محبطة، لكنها لم تخبرها عن سبب حزنها. قالت لها أمي: لستِ مضطرة إلى معاناة هذا الأمر وحدك. أستطيع مساعدتك. قالت لها أيضاً: أبوك وأمك يستطيعان مساعدتك أيضاً. وعندما سألتُها عن السبب الذي جعلها تمتنع عن إخباري عن هذا من قبل، رفضت أن تجيبني بشيء. سألتها عن وقت حدوث ذلك فقالت إنه كان في أول الصيف، يوم الحادي والعشرين من حزيران. ذهبت كاتي

إلى البركة في تلك الليلة. كانت أمي هي من دفعها من فوق تلك الحافة، من غير أن تقصد ذلك. وهكذا، بالطريقة نفسها، دفعت كاتي أمي من فوق تلك الحافة أيضاً».

عصفت بي موجة حزن. كانت قوية إلى حد كان يمكن معه أن أسقط عن الكرسي. هل كان الأمر هكذا يا نيل؟ بعد هذا كله، قفزت بنفسك حقاً... فعلت هذا لأنك تشعرين بالذنب ولأنك كنت قانطة يائسة! كنت يائسة لأنك لم تجدي من تلجئين إليه... لا إلى ابنتك الغاضبة الحزينة على صديقتها، ولا إلى أختك، بالتأكيد، لأنك كنت تعرفين أنني لن أجيب على اتصالك إذا اتصلت بي. هل أصابك القنوط يا نيل؟ هل قفزت؟

أحسست بلينا تنظر إلي، تراقبني، وعرفت أنها قادرة على رؤية خجلي وإحساسي بالعار. كانت قادرة على رؤية أنني فهمت الأمر أخيراً، أن اللوم واقعٌ عليَّ أنا أيضاً. لكنها لم تبد منتصرة، ولا راضية. بدت متعبة فقط.

«لم أخبر الشرطة بأي شيء من هذا لأنني لم أكن أريد أن يعرفه أحد. لم أكن أريد أن يلومها أحد... أكثر مما يلومونها أصلاً. لم تفعل ذلك بسبب الكره. وقد عانت بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ عانت أشياء ما كان يجب أن تعانيها لأن الذنب لم يكن ذنبها. لم يكن الذنب ذنبها ولم يكن ذنبي أنا». ابتسمت لي ابتسامة صغيرة حزينة... «ولم يكن ذنبك أنت أيضاً، ولم يكن ذنب لويز، ولا جوش. لم يكن ذنبنا».

حاولت معانقتها، لكنها دفعتني بعيداً عنها. قالت: «لا تفعلي هذا! من فضلك، إنني فقط...» سكتت لحظة ورفعت ذقنها... «أريد أن أكون وحدي، قليلاً فقط. إنني ذاهبة لكي أمشي في الخارج».

تركتها تذهب.

فعلت نيكي مثلما قالت لها جيني فذهبت لتتحدث إلى لينا آبوت. كان الطقس قد صار أبرد قليلاً؛ نفحة خريفية آتية قبل أوانها جعلت نيكي تلتف بمعطفها الأسود وتضع صفحات نيل آبوت في جيبه الداخلي ثم تسير إلى بيت الطاحون. لكنها وصلت وجهتها فوجدت أن هنالك أشخاصاً آخرين. ما كان الزحام مواتياً لمزاجها، ليس بعد ما قالته تلك المرأة، ويتاكر، خاصة... قالت إنها لا تهتم إلَّا بالمال وباستغلال أحزان الناس. لم يكن هذا منصفاً في حقها على الإطلاق. لم يكن هذا ما أرادته أبداً... فقط لو أن الناس يصغون إليها! وقفت قرب البيت برهة؛ كانت تراقب، لكن ساقاها آلمتاها وامتلأ رأسها ضجيجاً، فعادت أدراجها ومشت المسافة كلها من جديد في اتجاه البيت. تشعر بأنها في عمرها الحقيقي بعض الأيام، لكنها تشعر أنها في عمرها أمها في أيام أخرى.

ما كانت مستعدة هذا اليوم، ما كانت مستعدة للمشاجرة التي تنتظرها. عادت إلى غرفتها وأغفت قليلاً في مقعدها، ثم استيقظت فظنت أنها يمكن أن تكون قد رأت لينا متجهة إلى البركة. لكن هذا قد يكون حلماً، أو إحساساً داخلياً ينبئ بشيء ما. لكنها صارت واثقة فيما بعد، بعد وقت غير قليل، عندما حل الظلام، من أنها رأت الفتاة فعلاً، رأتها تتحرك في الساحة كأنها شبح، كأنها شبح ماضٍ مسرعاً إلى هدفه. أحسَّت نيكي بالهواء ينشق عندما مرَّت لينا. وأحسَّت بالطاقة مشعة منها، وظلت تحس تلك الطاقة تصلها وهي جالسة هناك في غرفتها الصغيرة المظلمة... أنعشتها تلك الطاقة وأسقطت عنها عبء السنين. كانت لينا ذاهبة في مهمة. وكانت النار متَّقدة في بطن تلك الفتاة... كانت فتاة خطيرة. إنها من ذلك النوع الذي يُستحسن ألا تعبث معه.

عندما رأت نيكي لينا على تلك الحال، تذكرت نفسها منذ زمن بعيد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عندما كانت هذه الطاقة تجعلها راغبة في النهوض والرقص، تجعلها راغبة في العواء على القمر. لا بأس... لعل أيام الرقص قد ولَّت بالنسبة إليها، لكنها قررت أن تذهب إلى النهر تلك الليلة سواء آلمها الذهاب أو لم يؤلمها. كانت تريد أن تحسَّ بالقرب من تلك النساء المثيرات للمشاكل، كلهن، تلك الفتيات المثيرات للمشاكل، النساء الخطيرات المفعمات حيوية. أرادت أن تحسَّ روحهن وأن تسبح فيها.

تناولت أربعة أقراص من الأسبرين، ثم أمسكت بعصاها ونزلت السلم ببطء وحذر. خرجت من الباب الخلفي إلى الزقاق الممتد خلف المتاجر. وبعد ذلك سارت تعرج في الساحة متجهة إلى الجسر.

بدا لها أن ذلك يستغرق زمناً طويلاً جداً. كل شيء يستغرق زمناً طويلاً هذه الأيام. لا ينذرك أحد بهذا عندما تكون أصغر سناً، ولا يقول أحد لك كم سيصير كل شيء بطيئاً، وكم ستكون ضَجراً من بطئك. كان عليها أن تتوقع هذا، أن تراه قبل حدوثه؛ هكذا قالت في نفسها ثم ضحكت من نفسها في الظلام.

تستطيع نيكي أن تتذكر زمناً كانت فيه سريعة المشي، كانت سريعة كالغزال. في تلك الأيام، عندما كانت صبية، كانت تتسابق مع أختها عند النهر فتجريان مسافة غير قليلة صوب أعلاه. كانتا تنطلقان بعد أن تجمعا تنورتيهما في سرواليهما الداخليين، تجريان وتحس أقدامهما الناعمة بكل حجر وبكل شقٍّ في الأرض القاسية. ما كان شيء يستطيع إيقافهما. وبعد وقت، بعد وقت طويل، عندما صارتا أكبر سناً، عندما صارتا أبطأ قليلاً، كانتا تلتقيان في البقعة نفسها عند أعالي النهر فتمشيان معاً، تمشيان أميالاً بعض الأحيان وتظلان صامتتين معظم الوقت.

كانتا في واحدة من تلك النزهات عندما شاهدتا لورين جالسة على الدرجات أمام كوخ آن وارد. كانت في يدها سيجارة، وكان رأسها مائلاً

إلى الخلف مستنداً على الباب. نادتها جيني، وعندما رفعت لورين رأسها بان جانب وجهها مصطبغاً بألوان الغروب كلها. قالت جيني عند ذلك: «إنه شيطان... رجلها العجوز».

يقولون إنك تذكر الشيطان فتحسُّ بحضوره. عندما وقفت نيكي هناك، تتذكر أختها، ومرفقاها مستندان إلى حجارة سور الجسر الباردة وذقنها مستقرة على يديها وعيناها تنظران إلى الماء في الأسفل... أحسَّت بوجوده. أحسَّت به قبل أن تراه. لم تكن قد نطقت اسمه، لكن لعل همس جيني هو الذي استدعاه، هو الذي استدعى شيطان هذه البلدة الصغيرة. التفتت نيكي فرأته سائراً في اتجاهها قادماً من الناحية الأخرى للجسر حاملاً عصاه في يده وسيجارة في اليد الأخرى. بصقت نيكي على الأرض مثلما تفعل دائماً وتمتمت تعويذاتها.

إنها لا تفعل أكثر من هذا عادة، أما في هذه الليلة (ومن يدري لماذا... لعلها كانت تحسُّ بروح لينا أو ليلي أو آن أو جيني) فقد نادته قائلة: «لن يطول الأمر الآن». توقف باتريك. رفع رأسه كأنه فوجئ برؤيتها. قال مكشراً: «ماذا؟ ماذا قلت؟»

«قلت إن الأمر لن يطول طويلاً».

تقدم باتريك خطوة نحوها فأحسَّت بالروح من جديد، أحسَّت بها حارة إلى حد الغضب منبعثة من بطنها إلى صدرها إلى فمها: «إنهن يتحدثن معي في الآونة الأخيرة».

لوح باتريك بيده تلويحة تعبر عن عدم اهتمامه بما قالته، ثم قال شيئاً لم تستطع سماعه. تابع طريقه، لكن إسكات تلك الروح ما كان ممكناً. نادته بصوت مرتفع: «أختي! وزوجتك! ونيل آبوت أيضاً! كلهن، كلهن يتحدثن معي. ثم إن لديها رقمك، أليس كذلك؟ نيل آبوت؟».

قال باتريك بنزق: «اخرسي أيتها العجوز المجنون». تظاهر أنه آتٍ إليها، تظاهر بذلك فحسب، لكن نيكي أجفلت. ضحك واستدار مبتعداً وهو يصيح بها من فوق كتفه: «عندما تتحدثين مع أختك في المرة المقبلة أبلغيها سلامي وتمنياتي».

جولز

انتظرتُ في المطبخ عودة لينا إلى البيت. اتصلتُ بهاتفها، وتركت لها رسائل صوتية. جلست قلقة عاجزة، وفي رأسي، كان صوتك يوبخني لأنني لم أذهب خلفها مثلما ذهبتِ أنت خلفي. أنت وأنا... نروي الحكايات بطريقتين مختلفتين. أعرف هذا لأنني قرأت كلماتك. عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذتُ أختي من الغرق. كنتِ بطلة، لكن من غير أن تذكري شيئاً عن سياق الحكاية. لم تكتبي كيف صرتُ هناك، ولم تكتبي عن لعبة كرة القدم، ولا عن الدم، ولا عن روبي.

ولا عن البركة أيضاً! عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذت أختي من الغرق؛ هكذا تقولين، فما هذه الذاكرة الانتقائية عندك يا نيل! لا أزال قادرة على الإحساس بيدك على رقبتي من الخلف، ولا أزال قادرة على تذكر أنني قاومتك، على تذكر عذاب الرئتين من غير هواء، والذعر البارد عندما عرفت (حتى في ثملي المخمور الغبي العاجز) أنني سوف أغرق. لقد أمسكتِ بي وأبقيتِني تحت الماء يا نيل.

ليس لوقت طويل! لقد غيرت رأيك. أطبقت ذراعكِ على رقبتي وسحبتِني صوْب الضفة، لكنني كنت أعرف دائماً أن جزءاً منك كان راغباً في تركي هناك.

قلتِ لي يومها ألا أخبر أحداً بالأمر أبداً، وجعلتني أعدك بهذا (من أجل أمنا)؛ وهكذا تناسيتُ الأمر. أظنني كنت أقول لنفسي دائماً إننا

سنفتح هذا الأمر من جديد ذات يوم في المستقبل البعيد عندما نتقدّم في السن وعندما تتغيرين، عندما تصيرين آسفة لما حدث. سنتحدث عما جرى بيننا، عما فعلتُه وعما فعلتِه، عما قلتِه، وكذلك عما جعل كلاً منا تكره الأخرى. لكنك لم تقولي أبداً إنك آسفة. ولم تفسري لي أبداً كيف تمكنت من معاملتي، أنا أختك الصغيرة، مثلما كنت تفعلين. لم تتغيري أبداً؛ ذهبتِ ومُتِّ فحسب، أما أنا فأحسست بأن قلبي قد انتزع من صدري.

أتمنى يائسة، أتمنى من كل قلبي، أن أراك من جديد.

انتظرتُ لينا إلى أن غلبني الإعياء أخيراً فمضيت إلى السرير. كنت أعاني كثيراً من مشكلات النوم منذ عودتي إلى هذا المكان، وكانت قلة النوم تترك أثرها علي. نمتُ منهارة تجرفني الأحلام إليها وتلفظني خارجها إلى أن سمعت صوت الباب في الأسفل، وسمعت خطوات لينا على السلم، سمعتها تدخل غرفتها وتشغِّل الموسيقى؛ كان الصوت مرتفعاً إلى حد جعلني أسمع صوت امرأة تغني:

That blue-eyed girl
said '*No more*',
and that blue-eyed girl
became blue-eyed whore[1].

جرفني النوم من جديد. وعندما استيقظت مرة أخرى، كانت الموسيقى لا تزال مستمرة... إنها الأغنية نفسها، لكن الصوت الآن

---

(1) تلك الفتاة زرقاء العينين
قالت: «هذا يكفي»
تلك الفتاة زرقاء العينين
صارت عاهرة زرقاء العينين.

أكثر ارتفاعاً. أردت أن يتوقف هذا الصوت، أردت كثيراً أن يتوقف، لكني وجدت نفسي غير قادرة على النهوض من فراشي. تساءلت إن كنتُ صاحية لأنني، إذا كنت صاحية، فما هذا الثقل على صدري؟ ما هذا الثقل الذي يسحقني؟ كنت غير قادرة على التنفس، وغير قادرة على الحركة، لكني سمعت صوت المغنية مستمراً:

Little fish big fish, swimming in the water -
Come back here man, gimme my daughter [1].

فجأة، زال الثقل عن صدري فنهضت من السرير. كنت غاضبة. خرجت إلى الممر وصحت قائلة للينا أن تخفض صوت الموسيقى. أمسكت بمقبض بابها، ثم فتحت الباب. كانت الغرفة فارغة. المصباح مضيء، والنافذة مفتوحة، وسجائر في صحن السجائر، وكأس قرب السرير الخالي. بدا لي أن صوت الموسيقى يشتد ويشتد؛ اهتز رأسي وآلمني فكاي وظللت أصرخ رغم عدم وجود أحد هناك. عثرت على السلك الكهربائي فانتزعته بعنف من مكانه في الجدار... وأخيراً، أخيراً، ما عدت أسمع إلّا صوت تنفسي ونبض الدم في أذني.

عدت إلى غرفتي واتصلت بلينا من جديد. عندما لم يجبني أحد، جربت الاتصال بشون تاونسند إلّا أن المكالمة تحولت مباشرة إلى البريد الصوتي. نزلت إلى الأسفل فوجدت باب البيت مقفلاً، ووجدت المصابيح مضيئة في كل مكان. مضيت من غرفة إلى غرفة أطفئ المصابيح واحداً فواحداً، وأتعثر كما لو أنني سكرى، كما لو أنني مخدرة. استلقيت على المقعد تحت النافذة حيث اعتدت الجلوس وقراءة الكتب مع أمي، حيث اغتصبني صديقكِ منذ إحدى وعشرين سنة مضت. سقطت نائمة من جديد.

---

(1) أسماك صغيرة، أسماك كبيرة، تسبح في الماء
عد أيها الرجل، أعطني ابنتي!

حلمت بأن الماء يرتفع. كنت في الأعلى، في غرفة نوم أبي وأمي، كنت مستلقية على السرير مع روبي؛ كان إلى جانبي، وفي الخارج، كان المطر منهمراً، وكان النهر يواصل ارتفاعه. عرفت، على نحو ما، أن الماء بدأ يُغرق الطابق السفلي. بدأ بطيئاً أول الأمر، ليس أكثر من تسرب للماء من تحت إطار الباب، ثم صار أكثر سرعة وانفتحت الأبواب والنوافذ. تدفق الماء القذر إلى البيت، ثم بدأ يبتلع درجات السلم. رأيت غرفة الجلوس غارقة في ماء عَكِرٍ أخضر، ورأيت النهر يستولي على البيت، ورأيت الماء يصل إلى رقبة الكلب الغارق في اللوحة على الجدار. الآن فقط... ما عادت هذه صورة حيوان مرسومة، بل صار كلباً حقيقيّاً. كانت عيناه مبيضّتين متّسعتين ذعراً، وكان يكافح من أجل حياته. حاولت النهوض حتى أنزل وأنقذه، لكن روبي لم يتركني أذهب، كان يشدُّ شعري.

استيقظت مجفلة... ذعرٌ أخرجني من كابوسي. تفقدت هاتفي فوجدت أن الساعة تجاوزت الثالثة صباحاً. كنت أسمع شيئاً يتحرك في أنحاء البيت. كانت لينا في البيت. الشكر للرب. سمعتها تهبط نازلة درجات السلم، وسمعت صوت شبشبها يصفع الأرض الحجرية. توقفت، ظهرت ضمن إطار الباب، وكان الضوء القادم من خلفها يجعلها تبدو خيالاً.

بدأت تتحرك في اتجاهي. كانت تقول شيئاً، لكني لم أستطع سماعها. رأيت أنها لم تكن ترتدي شبشبها على الإطلاق... رأيت حذاءها ذا الكعب المرتفع، الحذاء الذي ارتدته في الجنازة، ورأيت الفستان الأسود نفسه يقطر رطوبة. كان شعرها ملتصقاً بوجهها، وكان لون جلدها رمادياً وشفتاها زرقاوين. كانت ميتة.

استيقظت لاهثة. كان قلبي يضرب مثل مطرقة في صدري، وكان

المقعد من تحتي غارقاً في العرق. جلست مشوشة ونظرت إلى اللوحات على الجدار فبدا لي أنها تتحرك. تساءلت إن كنت لا أزال نائمة، إن كنت لا أستطيع الاستيقاظ... لا أستطيع الاستيقاظ. قرصت جلدي بأشد ما استطعت، وغرست أظافري في لحم ذراعي فرأيت آثاراً حقيقية وأحسست ألماً حقيقياً. كان البيت مظلماً صامتاً لا صوت فيه إلّا ثرثرة النهر الهادئة. صِحت باسم لينا.

جريت إلى الأعلى، ثم جريت في الممر. كان باب غرفة لينا مفتوحاً قليلاً، وكان مصباح غرفتها مضاء. وجدت الغرفة مثلما تركتها قبل ساعات... كأس الماء والسرير غير المرتب ومنفضة السجائر لم يمسها أحد. ما كانت لينا في البيت.

لم تعد لينا إلى البيت. لقد رحلت.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

القسم الثالث

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الاثنين، 24 آب/أغسطس

مارك

كان الوقت متأخراً عندما وصل إلى البيت، كانت الساعة الثانية صباحاً. تأخرت رحلة الطائرة من إسبانيا، ثم اكتشف أنه أضاع تذكرة موقف السيارات فلم يستطع العثور على سيارته إلَّا بعد خمسة وأربعين دقيقة جعلت غضبه يبلغ أقصاه.

يتمنى الآن لو أن ذلك استغرق وقتاً أطول، يتمنى لو أنه لم يجد السيارة أبداً، يتمنى لو أنه اضطر إلى المبيت في فندق. لو حدث هذا لكان من الممكن أن ينجو، أن ينجو ليلة إضافية فقط. لكنه، عندما أدرك في الظلمة أن نوافذ البيت كانت محطمة، عرف أنه لن ينام، لا تلك الليلة ولا أية ليلة أخرى. انتهت الراحة، وانتهى خلو البال. لقد تعرَّض للخيانة!

تمنى أيضاً لو أنه كان أكثر بروداً، أكثر صلابة، بحيث يستطيع أن يأتي بخطيبته معه. في هذه الحالة، عندما يأتون من أجله، فسوف يكون قادراً على القول لهم: «هل تتكلمون عني أنا؟ لقد وصلت الآن من إسبانيا. أمضيت أربعة أيام في الأندلس مع خطيبتي... صديقتي الجذابة التي تعمل في وظيفة اختصاصية جيدة، خطيبتي ذات التسعة والعشرين عاماً».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لكن ذلك ما كان يمكن أن يعطي أي نتيجة! لن يكون ما يقوله لهم مهماً، ولا ما يفعله، ولا كيف يعيش حياته: سيصلبونه رغم ذلك كله. لن يكون مهماً في نظر الصحف أو في نظر الشرطة أو المدرسة أو المجتمع أنه ليس شخصاً منحرفاً له ماضٍ في مطاردة فتيات في نصف سنِّه. لن يكون مهماً أنه أحبها، ولن يكون مهماً أنها أحبَّته. ستكون هذه العاطِفة المتبادلة بينهما موضع تجاهل نُضج كاتي، وجديتها، وذكاؤها، واختيارها لن تكون هنالك أهمية لشيء من هذا كله. لن ينظروا إلَّا إلى سِنّه، تسعة وعشرين عاماً، وإلى سنّها، خمسة عشر عاماً. ثم يمزقونه إرباً.

وقف على العشب أمام البيت يحدق في نوافذه التي غطتها ألواح خشبية، وراح يبكي. لو كان باقياً في البيت شيء قابل للتحطيم لحطمه بنفسه عند ذلك. وقف على العشب ولعنها... لعن اليوم الذي رآها فيه... تلك الفتاة التي كان جمالها يفوق كثيراً ما لدى صديقاتها السخيفات المعجبات بأنفسهن. لعن اليوم الذي سارت فيه بخطوات بطيئة متجهة إلى مكتبه، ردفان ممتلئان يتمايلان تمايلاً ناعماً وابتسامة على شفتيها... سألته: «سيد هندرسون! هل أستطيع أن أطلب مساعدتك في شيء ما؟» كيف انحنت في اتجاهه وصارت قريبة منه فشم رائحة جلدها النظيف غير المعطر. لقد أجفل أول الأمر، ثم غضب، ظن أنها تتلاعب به. ظن أنها تحاول استثارته. ألم تكن هي من بدأ هذا كله؟ فلماذا يكون هو من بقيَ وحيداً حتى يعاني العواقب؟ وقف على العشب، والدموع في عينيه، والذعر يتصاعد في حنجرته. كَرِه كاتي، وكره نفسه، وكره الورطة اللعينة التي ألقى بنفسه فيها، والتي لا يجد الآن مخرجاً منها.

ماذا يفعل؟ أيدخل البيت ويحزم حقائبه ويرحل؟ هل يهرب؟ لف الضباب عقله: إلى أين الذهاب، وكيف؟ هل هم يراقبونه الآن؟ لا بد أنهم يراقبونه. إذا سحب مالاً، فهل سيعرفون؟ إذا حاول مغادرة البلاد

من جديد، فهل سيكونون هناك؟ تخيّلَ المشهد، تخيَّل الموظف ينظر إلى صورته ثم يرفع سماعة الهاتف فيأتي رجال في ملابس رسمية ويجرّونه خارج صف المسافرين لقضاء عطلاتهم. تخيل النظرات المستغربة الفضولية على وجوههم. هل سيعرفون حقيقته عندما يرونه؟ ليس تاجر مخدرات، وليس إرهابياً... لا: لا بد أن يكون شيئاً آخر، لا بد أن يكون شيئاً أسوأ من هذا. نظر إلى نوافذ البيت، النوافذ المغطاة بألواح خشبية، وتخيَّل أنهم في الداخل، تخيَّل أنهم في انتظاره هناك. لقد فتشوا أشياءه كلها، فتشوا كتبه وأوراقه، لقد قلبوا البيت رأساً على عقب مفتِّشين عن دليل على ما ارتكبه.

لن يجدوا شيئاً. أحسَّ نفحة أملٍ واهية. لا يمكن العثور على شيء. لا رسائل حب، ولا صور لها على كمبيوتره، ولا شيء يشير إلى أن قدمها وطأت هذا البيت (لقد غيّر مفارش السرير منذ زمن بعيد، ونظف البيت كله، وعقمه، وأزال كل أثر لها). أي دليل سيكون لديهم غير خيالاتِ مراهقةٍ حاقدة عليه؟ فتاة مراهقة جربت نفسها معه وأرادت أن تستميله فتلقَّت صدّاً شديداً. ما كان أحد يعرف شيئاً مما حدث، لا أحد يعرف حقاً ما جرى بينه وبين كاتي، ولا حاجة إلى أن يعرف أحد ذلك. كانت نيل آبوت رماداً، ولا وجود الآن إلَّا لكلام ابنتها الذي ليست له قيمة أكثر من الرماد.

صرَّ على أسنانه وبحث عن مفاتيحه في جيبه، ثم التف حول البيت وفتح الباب الخلفي.

هاجمته قبل أن يفلح في إشعال المصباح؛ هاجمته بجسدها فقط... لا شيء إلَّا وجه مظلم وأسنان وأظافر. ضربها فألقاها بعيداً، لكنها أتته من جديد. ماذا بقي أمامه من خيارات؟ أي خيار تركته له.

والآن، هنالك دم على الأرض وليس لديه وقت للتنظيف. بدأت السماء تضيء. وعليه أن يرحل.

فهمتُ الأمر بشكل مفاجئ تماماً. إنه التجلي! كنت مذعورة خائفة، وفي اللحظة التي تلت ذلك ما كنت مذعورة ولا خائفة، لأنني عرفت. لم أعرف أين هي لينا، لكنني عرفت مَن هي. ومع هذه المعرفة، يمكنني أن أبدأ البحث عنها.

كنت جالسة في المطبخ ورأسي يدور. كنت ثملة تماماً. تركني عناصر الشرطة، ذهبوا عائدين إلى النهر لمواصلة البحث. قالوا لي أن أظلَّ منتبهة، من باب التحسب فقط، في حال عودتها إلى البيت. قالوا لي أن أتصل بهم... وأن يظل هاتفي جاهزاً... «هل اتفقنا يا جوليا؟ يجب أن يكون هاتفك جاهزاً». كانوا يتحدثون معي كأنني طفلة.

أظن أنني ما كنت قادرة على لومهم على هذا لأنهم كانوا جالسين هنا يطرحون عليَّ أسئلة لم أستطع الإجابة عنها. كنت أعرف متى رأيت لينا آخر مرة، لكن لم أستطع أن أقول لهم متى كانت في البيت آخر مرة. ولم أعرف ما كانت ترتديه عندما خرجت. ما كنت أعرف كيف كانت ملابسها عندما رأيتها آخر مرة. كنت عاجزة على التمييز بين الحلم والحقيقة: هل كانت الموسيقى حقيقة، أم تخيلت ذلك؟ من أقفل الباب؟ ومن أضاء مصابيح البيت كلها؟ كان المحققون ينظرون إليَّ بريبة وخيبة أمل: كيف تتركينها تذهب إن كانت حزينة مكروبة إلى ذلك الحد بعد مواجهتها مع لويز ويتاكر؟ كيف لم أجرِ خلفها... حتى أحاول أن أخفف عنها؟ رأيت النظرات التي تبادلوها، تلك الأحكام التي لم يقولوها. أي نوع من الوَصيّ على فتاة قاصر يمكن أن تكونه هذه المرأة؟

وأنتِ... أنت كنت في رأسي أيضاً، كنت توبخينني: لماذا لم تذهبي خلفها مثلما ذهبت خلفك؟ لماذا لم تنقذيها مثلما أنقذتك؟ عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، أنقذت أختي من الغرق. ماذا فعلتِ عندما كنت

في السابعة عشرة يا نيل؟ لقد دفعتِني بنفسك تحت الماء وأبقيتِني هنا. (ذلك الجدل القديم بيني وبينك تقولين فأقول، ثم تقولين فأقول. لقد ضقت ذرعاً بهذا كله ولا أريد الاستمرار فيه). هكذا كان الأمر في ذلك الإعياء المسكِر، في ارتعاش الخوف الذي يثير الغثيان، رأيت شيئاً، التقطت لمحة من شيء ما. كان ذلك كأن شيئاً تحرك، بل كأن ظلاً اجتاز مجال رؤيتي. كنت تسألينني: هل كنت أنا حقاً من دفعك إلى الماء؟ هل كان ذلك أنت؟ أم كان روبي؟ أم أنه كان مزيجاً منكما؟

أحسست كأن الأرض تميد بي فأمسكت بطاولة المطبخ حتى أثبت نفسي. «مزيج منكما». أحسست بأنفاسي متقطعة، وبصدري ضيقاً كأنني غارقة في نوبة ذعر. انتظرت أن يصير العالم بياضاً أمام عيني، لكنه ظل على حاله. ظللت واقفة، وظللت أتنفس. «مزيج ما». جريت إلى السلم فصعدت درجاته قفزاً ودخلت غرفتك، وهناك...! تلك الصورة، صورتك مع لينا، الصورة التي تبتسم فيها ابتسامة كائن مفترس... إنها ليست ابتسامتك. هذه ليست ابتسامتك. إنها ابتسامته هو، ابتسامة روبي كانون. أستطيع رؤية الأمر الآن... أتذكر كيف ابتسم لي وهو فوق جسدك يدفع بكتفيك في الرمل. هذه هي لينا، هذه هي حقيقتها. إنها مزيج منكما أنتما الاثنين. لينا ابنتك، ولينا ابنته. لينا هي ابنة روبي كانون.

جولز

جلست على السرير. كانت الصورة في يدي. أنت وهي تبتسمان لي وتجعلان دموعاً حارة تتسلل إلى عيني. أخيراً، بكيت عليك مثلما كان ينبغي لي البكاء في جنازتك. فكرت في شكله ذلك اليوم، في طريقة نظره إلى لينا... لقد أسأتُ فهم تلك النظرة تماماً. ما كانت نظرة مُفترِس بل نظرة امتلاك. ما كان ينظر إلى فتاة يحب أن يغويها، يحب أن يمتلكها.

كانت لينا له بالفعل، ابنته! إذن، فلعله جاء من أجلها، لعله جاء من أجل ما هو حق له!

لم يكن العثور عليه صعباً. كان أبوه يملك سلسلة معارض سيارات ناجحة على امتداد منطقة الشمال الشرقي كلها. كان اسم الشركة «سيارات كانون». لكنها لم تعد موجودة لأنها أفلست منذ سنين. لكن هنالك نسخة عنها في غيتزهيد، نسخة أصغر حجماً وأكثر كآبة وأقل قيمة. عثرت على موقع إنترنت سيئ التصميم، وعلى صفحته الرئيسية صورة له. كانت صورة مأخوذة قبل بعض الوقت؛ هكذا كانت تبدو. كان أقل بدانة، وكان لا يزال محتفظاً بلمحة من الوسامة، ولا تزال ملامح الصبي الجلف ظاهرة في وجهه.

لم أتصل بالشرطة لأنني كنت واثقة من أنهم لن يصغوا إلى ما أقول. أخذت مفاتيح السيارة وانطلقت. كنت أحسُّ نفسي مسرورة تقريباً عندما قدت السيارة خارجة من بيكفورد لقد فهمت الأمر، وأنا مُمسكة بالزمام الآن. كلما ابتعدت عن القرية كلما ازداد هذا الإحساس قوة وانقشع ضباب التعب، كلما استرخت أطرافي. أحسست بالجوع، بجوع متوحش فاستمتعت بهذا الإحساس. مضغت باطن خدي، مذاق الدم الحديدي. جزء من نفسي، جزء غاضب، بقيةٌ من أثر قديم طفت إلى السطح: تخيَّلت نفسي أهجم عليه، أمزِّقه بأظافري. تخيلت نفسي امرأة بدائية متوحِّشة مستمتعة بتقطيع أوصاله.

كان متجر السيارات في القسم البائس من المدينة تحت قناطر جسر سكة القطار. مكان مشؤوم. لم أعد شجاعة عندما بلغت ذلك المكان. كانت يدي ترتعش عندما أحرك عصا القيادة أو عندما أمدها إلى مفتاح مصباح الإشارة... صار الطعم في فمي حامضاً، ما عاد دماً. كنت أحاول التركيز على ما يجب أن أفعله العثور على لينا، وجعلها في أمان. لكن

طاقتي تلاشت كلها نتيجة الجهد الذي كنت أبذله لإبعاد الذكريات التي ظلَّت مختفية طيلة نصف عمري، ذكريات راحت تعوم الآن في رأسي كأنها جذوع أشجار يجرفها ماء النهر.

أوقفت السيارة عند الرصيف المقابل. كان هنالك رجل واقف في الخارج، يدخن سيجارة... رجل أصغر سناً، ليس روبي كانون. خرجت من السيارة وعبرت الطريق بساقين مرتعشتين حتى أكلمه.

قلت له: «أريد الحديث مع روبي كانون».

قال وهو يشير إلى السيارة من خلفي: «هذه سيارتك، أليس كذلك؟ يمكنك إدخالها...».

«لا، الأمر لا علاقة له بالسيارة. أريد أن أتكلم مع... هل هو هنا؟».

«شيء لا علاقة له بالسيارة؟ إنه في المكتب». قال هذا وهو يشير برأسه إلى الخلف... «يمكنك الدخول إن أردت».

ألقيت نظرة على ذلك المكان المظلم كأنه كهف، فانقبضت معدتي. قلت له بأقصى نبرة قاطعة استطعتها: «لا! أفضل أن أتحدث معه في الخارج، هنا».

كشر قليلاً ورمى سيجارته التي لم يدخن أكثر من نصفها، وقال: «كما تريدين». ثم دخل المكان.

وضعت يدي في جيبي فأدركت أنني تركت هاتفي في حقيبة يدي التي لا تزال على المقعد في السيارة. استدرت في اتجاه السيارة عارفة أنني لن أعود إذا ذهبت إليها... أدركت أنني إذا صرت في أمان خلف مقْود سيارتي فسوف أفقد شجاعتي كلها... سأشغل المحرك وأذهب.

«بماذا أستطيع أن أخدمك؟» تجمدت في مكاني... «هل تريدين مني شيئاً أيتها الظريفة؟».

استدرت فرأيته. كان أكثر بشاعة مما رأيته يوم الجنازة. صار وجهه ثقيلاً متهدلاً، وصار أنفه محمراً داكناً تنتشر فيه عروق زرقاء متفرِّعة صوْب خديَّه كأنها مصب نهر. كانت مشيته وهو يقترب مني مألوفة... يميل من جانب إلى جانب كأنه سفينة. نظر إلي وقال: «هل أعرفك؟».

سألته: «هل أنت روبرت كانون؟».

قال: «نعم. أنا روبي».

شعرت بالحزن عليه، جزءاً من الثانية فقط. كان ذلك بسبب طريقة قوله اسمه: لا يزال يستخدم صيغة التصغير. روبي اسم طفل، اسم صبي صغير يجري في باحة البيت ويتسلق الأشجار ليس هذا اسماً لشخص فاشل زائد الوزن، لشخص مفلس يدير معرضاً بائساً للسيارات في جزء بائس من هذه المدينة. خطا صوْبي فشمَمت نفحة من رائحته... رائحة جسمه مختلطة برائحة الشراب... فتبخرت شفقتي العابرة تجاهه عندما تذكرَ جسدي إحساسه بضغط جسده عندما كان يسحقني ويقطع أنفاسي.

قال: «حبيبتي... انظري، إنني مشغول كثيراً». شددت قبضتي يدي. سألته: «هل هي هنا؟»

«هي... مَن هي؟» تجهم وجهه، ثم جحظت عيناه دهشة ومد يده إلى جيب بنطلونه الجينز ليخرج علبة سجائره... «آه، اللعنة على هذا... ألست واحدة من صديقات تشيلي؟ لقد قلت لرجلها العجوز إنني لَم أرَ تلك العاهرة منذ أسابيع. إن كنت آتية من أجل هذا فعليك أن تذهبي؛ هل فهمتِ؟».

قلت له بصوت شبه هامس: «لينا آبوت. هل لينا هنا؟».

أشعل سيجارته، لمع شيء من خلف عينيه البنيتين البليدتين... «أنت تبحثين عن... من تقولين الآن؟ ابنة نيل آبوت؟ من أنت؟» تلفت ناظراً

حوله... «لماذا تظنين أن ابنة نيل يمكن أن تكون هنا؟» لم يكن يتصنَّع ذلك. إنه أكثر غباء من أن يستطيع التصنُّع. كان هذا واضحاً. لا يعرف مكان لينا. ولا يعرف من هي لينا. استدرت لأذهب. كلما بقيتُ أكثر كلما جعلته يتساءل أكثر... كلما بحثُ له بأشياء أكثر.

قال وهو يضع يده على كتفي: «انتظري!» فاستدرت بعنف وأبعدت يده عن كتفي.

قال وهو يرفع يديه أمام وجهه وينظر حول كأنما يبحث عن مساندة: «مهلك! ما الذي يجري هنا؟ هل أنت...» نظر إليَّ مضيّقاً عينيه... «لقد رأيتك... كنت في الجنازة». عرفني آخر الأمر... «جوليا؟» ظهرت ابتسامة على وجهه... «جوليا! يا للجحيم. لم أعرفك قبل هذه اللحظة...».

نظر إليّ من رأسي إلى قدمي... «جوليا. لماذا لم تقولي شيئاً؟».

اقترح أن يقدم لي فنجان شاي. بدأتُ أضحك ولم أستطع التوقف عن الضحك. ضحكت حتى جرت الدموع على وجهي بينما ظل هو واقفاً هناك... ضحك معي قليلاً أول الأمر إلى أن تلاشت بهجته غير الواثقة فظل واقفاً في مكانه، بليداً، غبياً، غير فاهم شيئاً... كان ينظر إليَّ.

سألني منزعجاً: «ما الذي يجري؟»

مسحتُ دموعي بظهر يدي وقلت له: «لقد هربت لينا. إنني أبحث عنها في كل مكان. ظننت أنها، ربما...»

«فهمت. إنها ليست هنا. لماذا ظننت أصلاً أنها يمكن أن تكون هنا؟ إنني لا أعرف تلك الطفلة ولم أرها في حياتي إلّا مرة واحدة، في الجنازة. لقد لفتت نظري قليلاً، إن أردت الصدق. إنها تشبه نيل كثيراً». استعاد ملامح وجهه وجعلها معبرة عن شيء من الاهتمام... «لقد حزنت عندما

سمعت بما حدث. حزنت فعلاً يا جوليا». حاول أن يلمسني من جديد، لكنني ابتعدت عنه. اقترب مني خطوة... «إنني، فقط... لا أستطيع تصديق أنك جوليا. يبدو شكلك مختلفاً كثيراً». ظهرت ابتسامة قبيحة كأنها لطخة على وجهه... «لا أعرف كيف استطعتُ أن أنسى»... قال هذا بهدوء، بصوت منخفض... «لقد فقأتُ كرزَتك، أليس كذلك أيتها الفتاة؟» ضحك بعد ذلك... «مرَّ الآن زمن طويل على ذلك اليوم».

فقأتُ كرزتك. فقأتُ! صوت مبهج يذكر بالبالونات وحفلات عيد الميلاد. و... الكرز، حلو على الشفتين، لذيذ، دبق. أشياء بعيدة ألف ميل عن ذكرى لسانه اللزج في فمي وأصابعه القذرة تفتح ساقيّ. ظننت أنني موشكة على التقيؤ.

قلت له: «لا يا روبي»... فوجئت بوضوح صوتي وقوته وثباته... «أنت لم تفقأ كرزتي. لقد اغتصبتني».

انزلقت الابتسامة من وجهه واختفت. ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه قبل أن يخطو صوبي من جديد. علا الصخب في رأسي، وتسارعت أنفاسي. شددت على قبضتي يدي وجعلت نفسي أثبت في مكاني. قال هامساً: «فعلتُ ماذا؟ ماذا تقولين؟ أنا لم... أنا لم أغتصبك». قال هذه الكلمة بصوت هامس، أغتصبك، كأنه خاف أن يسمعها أحد.

قلت: «كان عمري ثلاثة عشر عاماً. قلتُ لك أن تتوقف. وكنت أصرخ حتى كادت عيوني تنفجر، كنت...» كان علي أن أكف عن الكلام لأنني أحسست بالدموع تملأ حنجرتي وتغرق صوتي... ما كنت أريد أن أبكي أمام هذا الحقير الآن.

قال لي بصوت منخفض كأنه يحاول استرضائي: «لقد صرختِ لأنها كانت أول مرة، لأنك تألمتِ قليلاً. لم تقولي أبداً إنك لا تريدين ذلك،

لم تقولي لا». ثم علا صوته، صار واثقاً... «أنت، أيتها العاهرة الكاذبة، لم تقولي لا أبداً». ثم بدأ يضحك... «كنتُ قادراً على الحصول على أي شيء أريده، ألا تذكرين هذا؟ كانت بنات بيكفورد يجرين خلفي وقد أنزلن سراويلهن. كانت لديَّ أختك، ألذ فتاة في القرية كلها. هل تظنين حقاً أنني كنت في حاجة إلى اغتصاب بقرة سمينة مثلك؟».

إنه يُصدّق هذا. كان واضحاً لي أنه يصدق كل كلمة قالها؛ وفي تلك اللحظة هُزمت. لم يكن يشعر بالذنب طيلة هذا الوقت كله... طيلة هذا الوقت. لم يزعجه ضميره لحظة واحدة لأنه ما كان يعتبر فِعْلته اغتصاباً. طيلة هذا الوقت، حتى الآن... لا يزال يظن أنه قدم خدمة لطيفة للفتاة السمينة.

سرتُ مبتعدة عنه. سمعته خلفي، يلحق بي، يشتمني بصوت منخفض... «لقد كنت عاهرة مجنونة طيلة الوقت، ألست كذلك؟ كنتِ هكذا دائماً. لا أصدق أنك آتية الآن لكي تقولي لي هذه القذارات، لكي تقولي...».

توقفت فجأة قبل أمتار قليلة من سيارتي. كانت نيل تقول لي: ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟ تحرك شيء ما في عقلي! إن كان روبي لم يقل لها شيئاً، فكيف ظنَّت أنه اغتصبني؟ عن أي شيء كنت تتحدثين يا نيل؟ عن أي شيء تسألينني؟ جزء مني أحب... ماذا؟

استدرت من جديد. كان روبي واقفاً خلفي وقد تدلت يداه إلى جانبيه كقطعتي لحم كبيرتين. كان فمه مفتوحاً. سألته: «هل كانت تعرف؟».

«تعرف ماذا؟».

صرخت به: «هل كانت نيل تعرف؟».

كشَّرت شفتاه: «هل كانت نيل تعرف ماذا؟ تعرف أنني ضاجعتك؟

هل تمزحين؟ تخيلي ما كان يمكن أن تقوله عند ذلك... لو أخبرتها أنني ضاجعت أختها الصغيرة بعد أن كنت معها!»... ضحك عند ذلك... «لقدَ أخبرتها بالجزء الأول فقط؛ أخبرتها كيف حاولت أنت أن تَصلي إلى ذلك معي، وكيف كنت مخمورة، قذرة، وكيف كنت تميلين عليَّ وترفعين عينيك وتنظرين إليّ بذلك الوجه السمين الحزين وتتوسلين إليَّ... أرجوك! كنتِ مثل كلبة صغيرة، تدورين من حولنا دائماً، وتنظرين إلينا دائماً... كلما كنتُ معها، تتجسسين علينا؛ كنتِ تحبين النظر إلينا حتى عندما نكون في السرير، أليس هذا صحيحاً؟ كنت تظنين أننا لا نلاحظ ذلك!».

ضحك وتابع يقول: «كنا نلاحظ وكنا نسخر منك، نتبادل النكات عن المُنحرفة الصغيرة الحزينة السمينة التي لم يمسها أحد، التي لم يُقبّلها أحد، التي تحب أن ترى أختها المثيرة تستمتع بذلك كله». هزَّ رأسه... «اغتصاب؟ لا تجعليني أضحك منك. كنت تريدين أن تذوقي طعم ما تحصل عليه نيل؛ وقد كان ذلك واضحاً كالشمس».

تخيَّلت نفسي جالسة تحت الأشجار، واقفة عند باب غرفة النوم، أنظُر إليهما. لقد كان محقّاً في قوله إنني كنت أراقبهما، لكن ليس بشهوة ولا بحسد بل بنوع من الافتتان المخيف. كنت أراقبهما مثلما تراقب طفلة، لأنني كنت طفلة. كنت طفلة صغيرة لا تريد أن ترى ما يُفعل بأختها (لأن الأمر كان يبدو هكذا، كان يبدو دائماً كأن هنالك شيئاً يُفعل بك)، لكن تلك الطفلة ما كانت قادرة على عدم النظر.

«قلتُ لها إنك حاولتِ ذلك معي ثم جريتِ مبتعدة باكية عندما رفضتك».

كانت هنالك صور مختلطة متضاربة في رأسي: صوت كلماتك، وحرارة غضبك، وضغط يديك عندما أمسكت بي تحت الماء ثم قبضت على شعري وجذبتني إلى الضفة.

يا عاهرة؛ أيتها العاهرة السمينة الغبية... ماذا فعلتِ؟ ما الذين تحاولين فعله؟

أم لعل ذلك كان... أيتها العاهرة الغبية، ماذا كنت تفعلين؟

لكنه كان... أعرف أنه آلمك، لكن ماذا كنت تتوقَّعين؟

وصلت إلى السيارة وأخرجت المفتاح بيد مرتعشة. كان روبي لا يزال واقفاً خلفي. لا يزال يتكلم: «نعم، اهربي الآن، اهربي أيتها الكلبة القذرة الكاذبة. لم تكوني تظنين أن تلك الفتاة هنا! كان هذا حجة فقط، أليس كذلك؟ لقد أتيت لرؤيتي. هل كنت تريدين تجريب مذاق ذلك مرة أخرى؟».

سمعته يضحك مبتعداً، ثم يقذفني بجملته الأخيرة عبر الشارع: «لا فرصة لك يا كلبة، لا فرصة لك هذه المرة. لعلكِ صرت أقل وزناً، لكنك لا تزالين مُنفِّرة قذرة مثلما كنت».

أدرت محرك السيارة وحاولت الانطلاق، لكن المحرك توقف. بدأت أشتم، وشغَّلت المحرك من جديد وخرجت بالسيارة إلى الشارع. ضغطت على دواسة البنزين بأقصى قوتي حتى تزداد المسافة سريعاً بيني وبينه، بيني وبين ما حدث قبل قليل. كنت أعرف أنني يجب أن أكون قلقة على لينا، لكني ما كنت قادرة على ذلك لأنني لم أستطع التفكير إلَّا في شيء واحد: لم تعرفي شيئاً يا نيل.

لم تعرفي أنه اغتصبني.

عندما قلتِ لي، يؤسفني أنه آلمك، كنت تقصدين أنك آسفة لأن الرفض آلمني. وعندما قلت لي: ماذا كنت تتوقعين؟ كنت تعنين أنه سيرفضني بالطبع لأنني لا أزال طفلة. وعندما سألتني، ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟ فإنك لم تكوني تتحدثين عن الجنس بل عن الماء.

سقطتْ القشور. لقد كنت عمياء لا أرى. وأنت ما كنت تعرفين شيئاً.

انحرفت بالسيارة إلى حافة الطريق وبدأت أبكي. كان جسدي ينتفض كله تحت وقع الإدراك الرهيب، الفظيع: لم تعرفي شيئاً. كل هذه السنين يا نيل! كل هذه السنين كنت أنسب إليك أبشع أنواع القسوة، فماذا فعلتِ لكي تستحقي ذلك؟ ماذا فعلتِ لكي تستحقي ذلك؟ مرت هذه السنين كلها ولم أكن أصغي إليك، لم أصغ إليك أبداً. والآن، يبدو لي شيئاً مستحيلاً أنني لم أستطع أن أرى ولم أستطع أن أفهم أنك عندما سألتِني، ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟ كنت تتحدثين عن النهر، كنت تتحدثين عن تلك الليلة عند النهر. كنت تريدين أن تعرفي كيف يكون الإحساس عندما يُسلم المرء نفسه للماء.

توقفت عن البكاء. سمعتك تتمتمين في رأسي: ليس لديك وقت لهذا يا جوليا. وعند ذلك ابتسمت وقلت لك بصوت مرتفع: «أعرف، أعرف». ما عدت مهتمة بما يظنه روبي، وما عدت مهتمة إن كان سيمضي حياته وهو يقول لنفسه إنه لم يفعل شيئاً خاطئاً... هذا ما يظنه الرجال الذين مثله. وما أهمية ما يظنه؟ إنه لا يعني لي شيئاً. ما يهمني هو أنت، ما عرفتِ وما لم تعرفي؛ ما يهمني هو أنني كنت أعاقبك طيلة حياتك على شيء لم تفعليه. والآن، ليست عندي وسيلة لكي أخبرك عن مقدار أسفي.

عندما عدت إلى بيكفورد أوقفت سيارتي فوق الجسر، ثم نزلت مجتازة الدرجات الحجرية التي كستها الطحالب وسرت في الدرب الممتدة مع النهر. كان الوقت بداية العصر، وكان الهواء قد بدأ يبرد قليلاً مع اشتداد النسيم. ليس يوماً مناسباً للسباحة، لكني أنتظر منذ زمن بعيد، لكني أردت أن أكون هناك، معك. كانت تلك الطريقة الوحيدة التي تسمح لي بالاقتراب منك، الشيء الوحيد الذي بقيَ لي.

خلعت حذائي ووقفت على الضفة بقميصي ذي الكمين القصيرين وبنطلون الجينز. بدأت السير إلى الأمام، خطوة، ثم خطوة. أغمضت عيني وشهقت عندما غرقت قدماي في الطين البارد، لكنني لم أتوقف. تابعت السير؛ وعندما انغلق الماء فوق رأسي، أدركت مذعورة أنه شعور حسن. لقد كان شعوراً حسناً!

مارك

تسرَّب الدم عبر الضماد الملفوف حول يد مارك. لم يضمد يده جيداً. حاول كثيراً أن يداري جرح يده لكنه لم يستطع منْع نفسه من الإمساك بعجلة القيادة بقوة زائدة. ألمٌ في فكه، وألمٌ ساطع واخِز ينبض خلف عينيه. عادت الملزمة تضغط عليه من جديد، تطبق فكيها على صدغيه. كان يحسُّ بالدم ينعصر في شرايين رأسه ويكاد يسمع صوت تحطم جمجمته. اضطر إلى التوقف مرتين إلى جانب الطريق، حتى يتقيَّأ.

لم يكن يعرف إلى أين يهرب. بدأ بالتوجه شمالاً، صوب إدنبره؛ لكنه غير رأيه عند منتصف الطريق. هل سيتوقعون ذهابه في هذا الاتجاه؟ وهل سيجد حواجز عند مدخل المدينة، هل سيضيء مصباح كاشف في وجهه فتمسك به أيدٍ قاسية فتخرجه من السيارة وتخبره أصوات خفيضة بأن ما ينتظره أسوأ من هذا؟ أسوأ بكثير! انعطف وسلك مساراً آخر. ما كان قادراً على التفكير ورأسه مصدوع هكذا. كان في حاجة إلى التوقف، إلى التنفس، إلى وضع خطة. ترك الطريق الرئيسي وقاد سيارته في اتجاه الساحل.

سيحدث كل ما كان يخشاه. رأى مستقبله ممتداً أمامه، ثم كرر المشهد في ذهنه مرة بعد مرة: الشرطة عند الباب، والصحفيون يصرخون بأسئلة موجهة إليه بينما يجرُّه رجال الشرطة إلى السيارة ورأسه مغطىً ببطانية.

نوافذ البيت تُستعاد، ثم تُحطم من جديد. شتائم بذيئة مكتوبة على الجدران، وغائط في علبة البريد. والمحاكمة. أوه، يا رب، المحاكمة! ملامح وجهي أبويه عندما تعرض لينا اتهاماتها، والأسئلة التي ستطرحها عليه المحكمة: متى وأين، وكم مرة؟ إنه العار. إنها الإدانة. إنه السجن. إنه كل ما حذر كاتي منه، كل ما قال لها إنه سيواجهه. لن يستطيع البقاء حياً عبر هذا كله. لقد قال لها إنه لن يستطيع البقاء حياً.

ما كان يتوقع قدومها إليه في تلك الأمسية في حزيران، يوم الجمعة. قالت له أنها ذاهبة إلى عيد ميلاد إحداهن... دعوة لم تستطع التخلص منها. تذكرت كيف فتح لها الباب واندفاعة السعادة التي يعرفها كلما نظر إليها... قبل أن يدرك النظرة التي كانت في وجهها. قلقٌ، وتوجس. قالت له إنه شوهد بعد الظهر يتحدث مع نيل آبوت في موقف السيارات عند المدرسة. عن أي شيء كانا يتحدثان؟ ولماذا كان يتحدث مع نيل آبوت أصلاً؟

«شوهدت؟ ومن الذي شاهدني؟».

رأى تلك الأسئلة طريفة؛ وظن أنها تغار عليه.

استدارت كاتي مبتعدة عنه ووضعت يدها على رقبتها من الخلف مثلما تفعل عندما تكون متوتِّرة أو عندما تكون مشغولة البال.

«كاتي! ما الأمر؟».

قالت كاتي بهدوء من غير أن تنظر إليه: «إنها تعرف». مادت الأرض به وقذفته إلى العدم. أمسك بذراعها فأدارها حتى صارت في مواجهته.

قالت له من جديد: «أظن أن نيل آبوت تعرف». وعند ذلك، جاءته الحقائق كله، جاءته مندفعة، جاءته الأشياء كلها التي كذبت عليه فيها، الأشياء التي كانت تكتمها عليه. لينا تعرف بالأمر منذ شهور، وشقيق كاتي يعرف بالأمر.

«يا ربي! يا ربي! كاتي، كيف لم تخبريني بهذا؟ كيف استطعت أن... أوه... يا ربي!» لم يصرخ عليها قبل الآن أبداً. كان يرى مقدار ذعرها وكم هي خائفة حزينة، لكنه لم يستطع منْع نفسه... «هل تدركين ما سيفعلونه بي؟ هل تدركين حقاً كيف يكون الأمر عندما يذهب المرء إلى السجن بجريمة اعتداء جنسي؟».

صاحت به: «لكنك لست كذلك».

أمسك بذراعها (لا يزال يحسُّ حرارة العار، إلى الآن)... «لكني كذلك؟ هكذا أنا بالضبط. هذا ما فعلتِهِ بي».

قال لها أن تذهب، لكنها رفضت. رجته، وتوسلت إليه. أقسمت له على أن لينا لن تخبر أحداً. لن تقول لينا شيئاً لأي كان. لينا تحبني، ولن تؤذيني أبداً. كانت قد أقنعت جوش بأن الأمر قد انتهى وبأنه لم يحصل شيء في الواقع. أقنعته بأن ما من سبب يدعو للقلق. وأقنعته بأنه إن قال شيئاً فسوف يحطم قلب والديهما. لكن، ماذا عن نيل؟

قالت له كاتي: «إنني لست واثقة من أنها تعرف حقاً. قالت لي لينا إنها ربما تكون قد سمعت شيئاً...» سكتت فأدرك من نظرتها أنها تكذب. لم يستطع تصديقها، ولم يستطع تصديق أي شيء مما قالته. هذه الفتاة الجميلة التي فتنت لبه، التي سحرته. لا يستطيع الثقة بها.

قال لها إن كل شيء قد انتهى، ورأى وجهها يتقلص ألماً. خلص نفسه منها عندما حاولت أن تلفه بذراعيها. دفعها عنه، برفق في البداية، ثم بقوة أكبر: «لا. استمعي، استمعي إليَّ! لا أستطيع رؤيتك بعد الآن، ليس هكذا. لا أريد أن أراك أبداً. هل تفهمين؟ لقد انتهى الأمر. لم يحدث شيء أبداً. لا شيء بيننا... لم يكن بيننا أي شيء».

«أرجوك، لا تقل هذا يا مارك، أرجوك» كانت تنتحب بشدة حتى صارت

شبه عاجزة عن التنفس. انكسر قلبه... «أرجوك، لا تقل هذا، إنني أحبك».

أحسَّ بنفسه يضعف وتركها تحتضنه، تركها تقبله، وأحسَّ بتصميمه يتهاوى. ضغطت بجسدها عليه فانبعثت في رأسه صورة مفاجئة واضحة لضغط جسديٍّ آخر، ليس ضغط جسد واحد بل أجساد كثيرة: أجساد ذكور تضغط على جسده المضروب المحطم المنتهك. رأى هذا فدفعها عنه بعنف.

«لا! لا! هل لديك أية فكرة عما فعلته بي؟ لقد دمرتي حياتي، هل تدركين هذا؟ عندما يصير الأمر معروفاً... عندما تذهب تلك العاهرة إلى الشرطة وتخبرهم... وهي سوف تخبر الشرطة بالتأكيد... فإن حياتي ستكون قد انتهت. هل تعرفين ماذا يفعلون بالرجال الذين مثلي في السجن؟ تعرفين هذا، ألا تعرفين؟ أتظنين أنني أستطيع البقاء حيّاً بعد ذلك كله؟ لن أبقى حيّاً. ستكون حياتي قد انتهت».

رأى ذعرها، ورأى الألم في وجهها، لكنه قال رغم ذلك... «وسوف يكون الذنب ذنبكِ أنتِ».

عاقب مارك نفسه عندما أخرجوا جسدها من البركة. ظل أياماً لا يكاد يستطيع مغادرة الفراش، لكنه كان مضطراً إلى مواجهة العالم، كان مضطراً إلى الذهاب إلى المدرسة وإلى النظر إلى مقعدها الفارغ. كان مضطراً إلى مواجهة حزن أصدقائها وأهلها وإلى عدم إظهار شيء من حزنه هو. هو الذي أحبها أكثر منهم جميعاً... ما كان مسموحاً له أن يحزن عليها مثلما تستحق. ما كان مسموحاً له أن يحزن عليها مثلما يستحق لأنه، رغم أنه عاقب نفسه على ما قاله لها في لحظة غضب، كان يعرف أن الذنب ليس ذنبه هو. ما كان مذنباً في شيء من هذا، أبداً... كيف يمكن أن يكون الذنب ذنبه. من الذي يستطيع التحكم بمَن يقع في حبه؟

سمع مارك صدمة فأجفل وانحرفت به السيارة إلى منتصف الطريق. صحح مسار السيارة من جديد فجعلها محاذية لحافة الطريق المفروشة بالحصى. نظر في المرآة الخلفية. ظن أنه صدم شيئاً ما، لكنه لم ير شيئاً هناك... لا شيء غير الإسفلت. أخذ نفساً عميقاً وشد على عجلة القيادة من جديد فتألمت يده المجروحة عندما انضغطت. شغل الراديو ورفع الصوت إلى أقصاه.

لا فكرة عنده حتى الآن عما سيفعله بلينا. فكر أول الأمر في التوجه شمالاً إلى إدنبره، وترك السيارة في موقف للسيارات، ثم السفر إلى القارة الأوروبية بالعبارة البحرية. سوف يعثرون عليها سريعاً. على أية حال، سيعثرون عليها آخر الأمر. قد يخلق هذا إحساساً فظيعاً لديه، لكن عليه أن يذكّر نفسه باستمرار بأن الذنب ليس ذنبه. هي التي هاجمته، وليس العكس. عندما حاول مواجهة هجومها، عندما حاول صدها عنه، هجمت عليه من جديد، ثم واصلت مهاجمته وتصيح وتخمش بأظافرها، وهي تشهر مخالبها. سقط على أرض المطبخ، وانزلقت حقيبته بعيداً عنه. ومن تلك الحقيبة، وقع السوار كأنما بفعل قوة عليا لديها حسٌّ مريضٌ بالفكاهة. إنه السوار الذي يحمله معه أينما ذهب منذ أن أخذه من درج مكتب هيلين تاونسند. يحمل هذا الشيء قوة لم يتوصّل بعد إلى معرفة كيفية التحكم فيها. سقط السوار من الحقيبة وانزلق سريعاً عبر المسافة الفاصلة بينهما.

نظرت لينا إليه كما لو أنه شيء من الفضاء الخارجي. وظهر على وجهها تعبير غريب كأنها رأت شيئاً ساماً. ثم زال ارتباكها فصارت فوقه من جديد، لكن يدها كانت قابضة على مقص المطبخ هذه المرة. كانت تهاجمه بعنف محاولة الوصول إلى وجهه، إلى رقبته، كانت تهوي بالمقص عليه، تريد قتله. رفع يديه مدافعاً عن نفسه فجرح المقص كفَّه. ينبض جرحه الآن، ينبض غاضباً متزامناً مع دقات قلبه المتسارعة.

دقة، دقة، دقة. نظر في المرآة من جديد، لا أحد خلفه، ثم داست قدمه على الفرامل. سمع خبطة عنيفة عندما اصطدم جسدها بالمعدن في صندوق السيارة. أحسَّ بالرضا، وصار كل شيء هادئاً من جديد.

عاد بالسيارة إلى حافة الطريق، لا لأن الغثيان هاجمه هذه المرة، بل لأنه أراد أن يبكي. أراد أن يبكي على نفسه، على حياته المدمرة. بكي بنشيج عنيف... إحباط ويأس وقنوط. راح يضرب مقود السيارة بيده اليمنى مرة بعد مرة بعد مرة حتى آلمته مثل أختها اليسرى.

كان عمر كاتي خمسة عشر عامًا وشهرين عندما ناما معاً أول مرة. لو انتظرا عشرة شهور لصار كل شيء قانونياً. ما كان لأحد أن يستطيع مسَّهما بشيء... من الوجهة القانونية على أية حال! لو حدث هذا، لكان عليه أن يترك وظيفته، ولقذفه بعض الناس بالحجارة، ولقذفه غيرهم بالشتائم؛ لكنه كان يستطيع أن يعيش رغم هذا كله. كانا قادرين على العيش رغم هذا كله. عشرة شهور لعينة فقط! كان عليهما أن ينتظرا. كان عليه أن يُصرّ على الانتظار. لكن كاتي كانت مستعجلة وما كانت تطيق أن تظل بعيدة عنه. كاتي هي من أجبرته على هذا الأمر كله، هي من أرادت أن تجعله لها... لا يمكن إنكار هذا. والآن رحلت كاتي وكان هو الذي سيدفع الثمن.

أحرقه هذا الظلم، اخترق لحمه كأنه مادة حارقة، وواصلت الملزمة ضغطها على رأسه، كانت تضغط أشد، فأشد. تمنَّى أن تسحقه، أن تحطم رأسه مثلما تحطَّم رأسُها، مثل كاتي... حتى ينتهي من الأمر كله.

لينا

أصابني الذعر عندما استيقظت لأنني لم أعرف أين أنا. لم أستطع رؤية أي شيء. كان الظلام مطبقاً. لكنني أدركت من الصوت والحركة ورائحة البنزين أنني في سيارة. كان الألم شديداً في رأسي، وفي فمي

أيضاً. وكان الجو خانقاً، كما أن شيئاً كان يحفر ظهري، شيئاً صلباً كأنه مسمار. أدخلت يدي تحت ظهري لأحاول الإمساك به وإبعاده، لكنه كان مثبتاً.

كان ما حدث مؤسفاً، مخجلاً، لأنني كنت في حاجة إلى سلاح. كنت مذعورة، لكني أدركت أنه لا يجوز أن أسمح لخوفي بالاستيلاء عليّ. يجب أن أفكر بوضوح. يجب أن أفكر بوضوح وسرعة لأن السيارة ستتوقف عاجلاً أو آجلاً، وعند ذلك، إما أنا أو هو. ما كان يمكن لي أن أتركه يفوز، أن أتركه يفوز فيقتلني بعد أن قتل كاتي وأمي. لا يجوز أبداً. كان علي أن أقتنع بهذا، وكان علي أن أواصل التكرار لنفسي مرة بعد مرة: سينتهي الأمر بأن أكون حية وبأن يكون هو ميتاً.

خلال الأسابيع التي انقضت بعد موت كاتي، فكرت في طرق كثيرة حتى أجعل مارك هندرسون يدفع ثمن ما فعله؛ لكني لم أفكر في القتل أبداً. لقد فكرت في أشياء أخرى: رسم أشياء على جدران بيته، وتحطيم نوافذ بيته (ذهبت أخيراً وفعلت ذلك)، والاتصال بصديقته وإخبارها بكل ما أخبرتني كاتي به: كم مرة، ومتى، وأين. كنت أريد إخبارها كيف كان يحب أن يدعوها «كلبة الأستاذ». فكرت أيضاً في جعْل بعض الأولاد من صف أعلى في المدرسة يضربونه ضرباً مبرحاً. فكرت أيضاً في قطع قضيبه وجعله يأكله. لكنني لم أفكر في قتله، لم أفكر في قتله قبل اليوم.

كيف انتهيت إلى هذا المكان؟ لا أستطيع تصديق كم كنت غبية عندما سمحت له بأن يتغلب عليَّ. ما كان يجوز أبداً أن أذهب إلى بيته من غير خطة واضحة ومن غير أن أعرف تماماً ما أريد فعله.

لم أفكر في شيء لأنني كنت أتخذ القرار لحظة بلحظة. كنت أعرف أنه عائد من عطلته... سمعت شون وإيرين يتحدثان عن هذا. ثم...

بعد كل ما قالته لويز، وبعد الحديث الذي جرى بيني وبين جوليا عن أن الذنب ما كان ذنبي ولا ذنب أمي، قلت في نفسي... هل تعرفين؟ لقد حان الوقت. أردت فقط أن أقف أمامه وأجعله يتحمل نصيباً من المسؤولية عما حدث. أردت أن يقرَّ بالأمر، وأن يعترف بما فعله وبأن ما فعله غير صائب. وهكذا ذهبت إلى بيته، فحسب. كانت نافذة الباب الخلفي محطمة كبقية النوافذ، أي أن دخول البيت كان أمراً سهلاً.

كانت في البيت رائحة قذارة كأنه سافر من غير أن يفرغ القمامة أو ينظف شيئاً. وقفت برهة في المطبخ واستخدمت ضوء هاتفي حتى أنظر من حولي. لكني قررت بعد ذلك تشغيل المصابيح لأن الضوء لا يكون مرئياً من الشارع. وحتى إذا رأى الجيران هذا الضوء فسوف يظنون أنه عاد إلى بيته.

كان البيت فائحاً برائحة القذارة لأنه قذر. كان شيئاً مقززاً بالفعل... أطباق وصحون وسخة في المجلى، وأغلفة وجبات جاهزة فيها بقايا طعام لا تزال ملتصقة بها، وآثار دسم دبِقة على كل ما في المطبخ من سطوح. كانت هنالك أيضاً كميات كبيرة من زجاجات النبيذ الأحمر الفارغة الملقاة في سلة المهملات المخصصة للأشياء القابلة للتدوير. ليس هذا ما توقعته أبداً. انطلاقاً من مظهره في المدرسة، كنت أظنه شخصاً موسوساً بالنظافة... متأنق دائماً، وأظافره نظيفة مقلمة جيداً.

مضيت إلى غرفة المعيشة ونظرت فيها مستخدمة المصباح الكاشف في هاتفي. لم أشغل المصباح لأن ضوء هذه الغرفة يُرى من الشارع. كانت الغرفة عادية تماماً. أثاث رخيص، وكتب كثيرة، وتسجيلات... لا لوحات على الجدران. كانت غرفة معيشة عادية، قذرة، حزينة.

أما في الأعلى، فكان الوضع أسوأ. كانت غرفة النوم في حالة يُرثى لها: سرير غير مرتب، وخزانات الملابس مفتوحة، ورائحة بشعة...

رائحة مختلفة عن الرائحة في الأسفل، رائحة حامضة تشبه رائحة العرق... كأنها رائحة حيوان مريض. فتحت إحدى النوافذ وأغلقت الستائر، ثم ضغطت على مفتاح المصباح الموجود إلى جانب السرير. كان الوضع هنا أسوأ حتى مما هو في الأسفل لأن الغرفة بدت مثل مكان يعيش فيه شخص عجوز... جدران قبيحة صفراء، وستائر بنية، وملابس وأوراق ملقاة على الأرض. فتحت درجاً فوجدت فيه سَّدادات للأذنين، وأداة لتقليم الأظافر. وفي الدرج السفلي، كانت هناك واقيات ذكرية وكريم مُزّلق وأصفاد للمعصمين ملفوفة بمادة قماشية ناعمة.

داهمني الغثيان فجلست على حافة السرير، ثم لاحظت أن الشرشف كان مزاحاً عن الفراش قليلاً عند الزاوية المقابلة. رأيت على الفراش بقعة بنية. ظننت حقاً أنني موشكة على التقيؤ. كان مؤلماً، مؤلماً جسدياً، تفكيري في أن كاتي كانت معه هنا في هذه الغرفة المريعة في هذا البيت المقرف. كنت أهمُّ بالذهاب. فعلى أية حالة، كانت فكرة سخيفة أن آتي من غير خطة. أطفأت المصباح، وعدت إلى الأسفل. بلغت الباب تقريباً عندما سمعت صوتاً في الخارج وسمعت خطوات قادمة في اتجاه البيت. انفتح الباب عند ذلك فرأيته أمامي. بدا قبيحاً. كان محمر الوجه والعينين؛ وكان فاغراً فمه. هاجمته على الفور. أردت أن أقتلع عينيه من وجهه القبيح، أردت أن أسمعه يصرخ.

لا أعرف ما حدث عند ذلك. أظنه سقط. وأظن أنني كنت على ركبتيّ فرأيت شيئاً ينزلق على الأرض في اتجاهي. قطعة معدن كأنها مفتاح. مددت يدي إليها فوجدت أنها ليست مسننة كالمفاتيح، بل ملساء. كانت دائرية. حلقة فضية لها مشبك أسود من العقيق. حملتها في يدي. كنت أسمع صوت دقات الساعة الجدارية في المطبخ مرتفعاً، وكنت أسمع صوت أنفاس مارك. قال لي: «لينا»، فرفعت رأسي ولاقيت عينيه. رأيت فيهما أنه

خائف. نهضت واقفة على قدمي. قال لي من جديد: «لينا»، ثم تقدم مني. أحسست بأنني أبتسم لأنني رأيت من زاوية عيني شيئاً آخر فضي اللون أيضاً، شيئاً حاداً، فعرفت تماماً كيف ستكون خطوتي التالية. سوف آخذ نَفَساً عميقاً لأستعيد تماسكي، وسأنتظر إلى أن يقول اسمي مرة أخرى، ثم سأمسك بالمقص الموضوع على طاولة المطبخ وأطعنه في رقبته الملعونة.

قال: «لينا» ثم مد يده إلي فحدث كل شيء بسرعة بعد ذلك. أمسكت بالمقص وانقضضت عليه، لكنه أطول مني... رفع يديه... لا بد أنني أخطأته، ألم أخطئه؟ هو ليس ميتاً. إنه يقود السيارة. وأنا محبوسة في صندوقها وفي رأسي إصابة مؤلمة.

بدأت أصرخ، وكان هذا شيئاً غبياً حقاً... فمن سيسمعني هنا؟ كنت أحسُّ بأن السيارة ماضية بسرعة كبيرة، لكني ظللت أصرخ... أخرجني من هنا، أخرجني من هنا أيها الحقير الغبي! بدأت أضرب بقبضتيْ يديَّ على غطاء الصندوق المعدني فوقي وأزعق بأعلى ما استطعت؛ وعند ذلك، مفاجأة! توقفت حركة السيارة فارتطمتُ بحافة الصندوق رطمة عنيفة، ثم تركت نفسي أبكي.

لم أبك بسبب الألم وحده. كنت أفكر، لسبب ما، في النوافذ التي حطمناها، أنا وجوش؛ وكنت أفكر في أن هذا شيء من شأنه أن يسبب حزناً شديداً لكاتي. سوف تكره ما فعلناه، سوف تكرهه كله: ستكره اضطرار شقيقها إلى قول الحقيقة بعد شهور من الكذب، وستكره أن أكون مصابة هكذا، لكنها ستكره تلك النوافذ المحطمة أكثر من أي شيء آخر لأنها كانت الشيء الذي تخشاه. كانت تخشى تحطيم نوافذ بيته، وتخشى أن تكتب على جدرانه كلمات مسيئة إليه، وأن يضع أحد القاذورات في علبة بريده، وأن يقف الصحفيون على الرصيف، وأن يبصق الناس ويلوحوا بقبضات أيديهم.

بكيت بسبب الألم، وبكيت حزناً على كاتي، لأن هذا يحطم قلبها. لكني وجدت نفسي أهمس لها كأنني امرأة مجنونة، مثلما تتمتم جوليا لنفسها في الظلام: لكن، هل تعرفين يا كاتي؟ إنني آسفة. إنني آسفة حقاً لأن هذا ليس ما يستحقه. أستطيع قول ذلك الآن لأنك رحلت، ولأنني راقدة في صندوق سيارته بفم نازف ورأس مشقوق... أستطيع قول هذا قطعاً: لا يستحق مارك هندرسون المطاردة، ولا الضرب. يستحق أسوأ من هذا. أعرف أنكِ أحببته، لكنه لم يدمر حياتك أنتِ فقط، بل دمَّر حياتي أنا أيضاً. لقد قتل أمي.

إيرين

كنت في المكتب الداخلي عندما جاء الخبر. مدَّت رأسها من الباب شرطية شابةٌ شاحبة على وجهها تعبير صدمة شديدة وقالت: «هنالك واحدة أخرى يا سيدتي. شاهدها شخص من فوق الجسر. رأى شخصاً في الماء، رأى شابة».

كانت النظرة التي ظهرت على وجه شون توحي بأنه على وشك السقوط.

قلت: «هذا غير ممكن. هنالك شرطيون في أرجاء المكان كله. كيف يمكن أن تكون هناك واحدة أخرى؟»

عندما وصلنا إلى المكان، وجدنا حشداً من الناس عند الجسر. وكان رجال الشرطة يحاولون إبقاءهم فوقه. جرى شون فلحقت به. جرينا نشق طريقنا تحت الأشجار. كنت أريد الإبطاء، كنت أريد التوقف. ما كنت أريد رؤيتهم يخرجون تلك الفتاة من الماء.

لكنها لم تكن هي... إنها جولز! كانوا قد أخرجوها إلى ضفة النهر

عندما وصلتُ. وكان في الهواء صوت غريب كأنه نعيق غراب ساخر. مرَّت لحظات قبل أن أدرك أن هذا الصوت آت منها، من جولز. إنه صوت اصطكاك أسنانها. كان جسدها ينتفض كله. وكانت ثيابها كلها ملتصقة على جسدها النحيل البائس المنطوي على نفسه كأنه واحد من تلك الكراسي القابلة للطيِّ. صحت باسمها فنظرت إلي. كانت عيناها المحمرتان تنظران في اتجاهي مباشرة، لكنهما تنظران من خلالي كأنها لا تستطيع تركيزهما، كأنها لم تعرفني. خلع شون سترته ووضعها على كتفيها.

كانت تدمدم بشيء، كأنها ممسوسة. لم تقل لنا أية كلمة، بل بدا عليها أنها لا تكاد تلاحظ وجودنا من حولها. جلست فقط، وكانت ترتجف وتحدق في الماء الأسود. كانت شفتاها ترتجفان مثلما رأيتهما تفعلان عندما رأت أختها ممددة على الطاولة. شفتان تتحركان من غير صوت، لكنهما تقولان شيئاً كأنما تخوضان جدالاً مع خصم لا نراه.

لم يطل إحساسنا بالارتياح (لأنها لم تمت إلَّا بضع دقائق) قبل أن تأتي الصدمة التالية. كان رجال الشرطة الذين ذهبوا ليكونوا في انتظار مارك عندما يصل عائداً من عطلته قد وجدوا البيت فارغاً. لم يجدوه فارغاً فقط، بل وجدوا فيه دماً أيضاً: وجدوا إشارات تدل على عراك جرى في المطبخ، ورأوا الدم على الأرض وعلى مقابض الأبواب. لم يجدوا سيارة هندرسون.

قال شون: «أوه، يا إلهي... لينا!».

صحت: «لا!» بقدر ما كنت أحاول إقناع شون بهذه الكلمة، كنت أحاول إقناع نفسي أيضاً. كنت أفكر بالكلام الذي جرى بيني وبين هندرسون قبل أن يسافر في عطلته. كان فيه شيء آنذاك، كان فيه شيء من الضعف. كان فيه شيء جريح. لا شيء أخطر من رجل جريح هكذا...

«لا، هنالك رجال شرطة في البيت. لقد كانوا في انتظاره. ولا يمكن أن...»

لكن شون هز رأسه وقال: «لا، لم يكن هنالك رجال شرطة. لم يكونوا هناك. وقع حادث سير كبير على الطريق رقم 68 الليلة الماضية، وكانوا في حاجة إلى الجميع. اتخذ قراراً بإعادة انتشار عناصر الشرطة المتوفرين. لم يكن أحد منهم في بيت هندرسون حتى هذا الصباح».

«ما أسوأ هذا! اللعنة!»

«صحيح».

«لا بد أنه عاد فرأى نوافذ بيته محطمة كلها، وتوصل إلى الاستنتاج الصحيح وهو أن لينا آبوت قد أخبرتنا شيئاً».

«وماذا بعد ذلك؟ هل ذهب إلى بيتها وأخذها، ثم جاء بها إلى بيته؟».

قال شون بحدة: «وكيف لي أن أعرف؟ إنها غلطتنا. كان يجب أن نراقب البيت، وكان يجب أن نراقبها... اختفاؤها غلطتنا نحن».

جولز

كان الشرطي يريد أن يدخل البيت معي (ليس الشرطي الذي قابلته من قبل). كان شاباً، لعله في الخامسة والعشرين، لكن وجهه الملائكي الذي لا شعر فيه جعله يبدو أصغر من ذلك. أصررت على ذهابه رغم لطفه كله. ما كنت أريد نفسي وحيدة في البيت مع رجل، مهما بدا مسالماً.

صعدت إلى الأعلى، وفتحت الماء في الحمام. ماء، ماء، ماء، في كل مكان. ما كانت عندي رغبة في أن يغمرني الماء من جديد لكنني

لم أستطع التفكير في وسيلة أفضل لطرد البرد من عظامي. جلست على حافة حوض الاستحمام أعض على شفتي حتى أوقف اصطكاك أسناني. كان هاتفي في يدي. ظللت أحاول الاتصال مع لينا، مرة بعد مرة، فكنت أسمع رسالتها المبتهجة، أسمع صوتها الممتلئ نوراً، ذلك الصوت الذي لم أستطع سماعه عندما كانت تكلمني.

دخلت الحوض عندما بلغ الماء منتصفه. كانت أسناني تصطك فزعاً ونبض قلبي يرتفع مع الماء الذي يغمر جسدي. لا بأس عليك، لا بأس عليك، لا بأس عليك. كنت تقولين هذا. في تلك الليلة، عندما كنا هنا معاً، عندما كنت تسكبين الماء الساخن على جلدي، عندما رحت تهدئينني. كنت تقولين: لا بأس عليك، لا بأس عليك يا جوليا، كل شيء بخير. ما كان كل شيء بخير، بالطبع، لكنك لم تكوني تعرفين هذا. كل ما ظننت أنه حدث هو أنني مررت بيوم فظيع... سخروا مني، وأهانوني، ثم رفضني ولد يعجبني. وأخيراً، تصرَّفتُ تصرفاً ميلودرامياً فذهبت إلى بركة الغارقات وألقيت نفسي فيها.

كنتِ حانقة نتيجة ظنِّك أنني فعلتها لكي أزعجك، لكي أسبب لك المشاكل، لكي أجعل أمي تحبني أكثر من ذي قبل، أكثر مما كانت تحبني. ظننتِ أنني أريد أن أجعلها تنبذك لأنك أنت ستكونين أنت المخطئة، أليس كذلك؟ كنت تضايقينني بينما كان من واجبك أن تحميني وتنتبهي إليَّ... حدث هذا كله وأنا تحت رقابتك.

مددت ساقي وزدت تدفق الماء بإصبع قدمي، ثم تركت جسدي ينزلق في الحوض؛ غمر الماء كتفي، ثم غمر رقبتي، ثم رأسي. كنت أستمع إلى أصوات البيت، مشوَّهة، مكتومة، تصلني غريبة بفعل الماء. صوت صدمة مفاجئ جعلني أنتصب جالسة في الهواء البارد. أصغيت. لا شيء. إنني أتخيل.

لكنني، عندما انزلقت في الماء من جديد، كنت واثقة من أنني سمعت صريراً على السلم، وأصوات خطوات بطيئة منتظمة تسير في الممر. انتصبت جالسة من جديد، ممسكةً بحافة الحوض. سمعت صريراً آخر. قبضة باب تدور.

صحت فبدا صوتي طفولياً ضعيفاً واهياً: «لينا؟ لينا، هل أنت هنا؟».

أجابني الصمت ورن في أذني، وفي ذلك الصمت تخيلت أنني أسمع أصواتاً.

إنه صوتك. صوت مختلف عن صوتك في الهاتف، إنه صوتك الأول. إنه صوتك الأول بعد مشاجرتنا يوم الجنازة، بعد الليلة التي سألتِني فيها تلك الأسئلة المفزعة. وبعد ذلك بوقت غير طويل، بعد أسبوع أو أسبوعين، عندما اتصلتِ معي في وقت متأخر في الليل وتركت لي رسالة صوتية. كنت خائفة وكانت كلماتك متقطعة، صوتك غير مسموع تقريباً. قلت لي إنك عائدة إلى بيكفورد، وإنك سترين هناك صديقاً قديماً. كنتِ في حاجة إلى الحديث مع أحد ما، وكنتُ عديمة النفع لك. لم أفكر في الأمر ذلك الوقت، ولم أهتم.

لكنني أفهم الآن فقط، وأرتعش رغم دفء الماء. كنت ألومك طيلة هذا الوقت، لكن الأمر كان يجب أن يكون معكوساً. عدتِ إلى بيكفورد لتري صديقاً قديماً. كنت تبحثين عن سُلوان لأنني رفضتك، ولأنني لم أقبل أن أتحدث معك. لقد ذهبتِ إليه. أما أنا فقد خذلتك، وكنت أخذلك دائماً. جلستُ، وطوَّقت ذراعي ركبتيّ بإحكام، وراحت موجات الحزن تكتسحني: لقد خذلتك، آذيتك، وما يقتلني الآن هو أنك لم تعرفي السبب أبداً. أمضيتِ حياتك كلها تحاولين فهم ما جعلني أكرهك هذا الكره كله، وما كان عليَّ إلّا أن أقول لك. ما كان عليَّ إلّا أن أجيب الهاتف عندما تتصلين. فات الأوان، تأخر الوقت كثيراً.

سمعت صوتاً آخر، صوتاً أشد... صرير، صوت شيء ينسحب على الأرض... لست أتخيل هذه المرة. هنالك أحد في البيت. تحاملت على نفسي ونهضت من الحوض فارتديت ثيابي بأسرع ما استطعت. قلت لنفسي، إنها لينا، إنها هي. إنها هي. دخلت غرف الطابق العلوي كلها، لكنني لم أجد أحداً فيها. وفي كل مرآة، كان وجهي المذعور يسخر مني... إنها ليست لينا. إنها ليست لينا!

يجب أن تكون هذه لينا، لكن أين هي؟ أين يمكن أن تكون؟ ستكون في المطبخ، ستكون جائعة... سأنزل وأراها هناك، سأراها وقد أدخلت رأسها في البراد بحثاً عن طعام. نزلت السلم على أطراف أصابعي، وعبرت الصالة. مررت أمام باب غرفة المعيشة. وهناك، رأيت من زاوية عيني... رأيت ظلاً... رأيت شكل إنسان. رأيت شخصاً جالساً على المقعد تحت النافذة.

إيرين

كان كل شيء ممكناً. عندما تسمع صوت الحوافر فإنك تتوقع رؤية حصان، لكن لا تستطيع استبعاد أن ترى حماراً. ليس هذا مستحيلاً. ولهذا السبب، عندما أخذ شون كالي معه لإلقاء نظرة على ما حدث في بيت هندرسون، كنت ذاهبة في مهمة للحديث مع لويز ويتاكر عن تلك «المواجهة» التي كانت بينها وبين لينا قبل اختفاء لينا مباشرة.

عندما بلغت بيت آل ويتاكر، فتح جوش الباب مثلما يبدو لي أنه يفعل دائماً. ومثلما يبدو لي دائماً، بدا لي الآن أنه أحسَّ بالخطر عندما رآني. سألني: «ماذا يجري؟ هل وجدتم لينا؟».

هززت رأسي: «ليس بعد. لكن، لا تقلق...».

استدار متنحياً عني وقد تهدل كتفاه. تبعته إلى داخل البيت. وفي أسفل السلم استدار فواجهني: «هل هربت لينا بسبب أمي؟» سألني هذا وقد احمرَّ خداه قليلاً.

«لماذا تسألني هذا السؤال يا جوش؟».

أجابني بصوت حزين: «تحدثتْ معها أمي فأزعجَتْها كثيراً. الآن، بعد أن فقدت لينا أمها، صارت أمي تلومها على كل شيء. هذا غباء. الذنب ذنبي بقدر ما هو ذنبها، لكنها تلومها على كل شيء. والآن، رحلت لينا...» قالها من جديد وقد علا صوته... «رحلت لينا».

نادته لويز من الأعلى: «مع من تتكلم يا جوش؟» تجاهلها ابنها فأجبتها أنا: «هذه أنا يا سيدة ويتاكر. إنني الشرطية المحققة مورغان. هل يمكنني الصعود إليك؟».

كانت لويز في بدلة رياضية قديمة بعض الشيء. كان شعرها مربوطاً إلى الخلف، ووجهها شاحب مصفر. قالت لي بدلاً من التحية: «إنه غاضب مني. يلومني على هرب لينا. يظن أنني مذنبة في هذا». تبعتها في الممر... «هو يلومني، وأنا ألوم نيل، وأنا ألوم لينا، وهكذا يدور اللوم بيننا ويدور ويدور». توقفتُ أمام باب غرفة النوم. كانت الغرفة شبه خالية. سرير من غير أغطية، وخزانة ملابس فارغة. كانت على الجدران ذات اللون الليلكي الخفيف مادة لاصقة خلّفتها أشياء نزعت عن الجدار بسرعة. ابتسمت لويز ابتسامة حزينة: «يمكنك الدخول. كدت أنتهي من هذه الغرفة». ركعت على الأرض عائدة إلى العمل الذي لا بد أنني قاطعتها وهي تقوم به. كانت تضع كتباً في صناديق من الكرتون. جثْوت إلى جانبها لأساعدها، لكنها وضعت يدها على ذراعي بحركة حازمة قبل أن أتمكن من التقاط أول كتاب: «لا، شكراً لك. أفضِّل فعْل هذا بنفسي».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نهضتُ واقفة فقالت لي: «لا أقصد أن أكون وقحة، لكني لا أريد أن يمسّ غيري أشياءها. هذا سخف مني، أليس كذلك؟» قالت هذا وهي ترفع رأسها وتنظر إلي بعينين لامعتين... «لا أريد لمسة إنسان غيرها على هذه الأشياء. أريد أن يكون عندي شيء باقٍ منها، على أغلفة الكتب، وعلى مفارش السرير، وعلى فرشاة الشعر...» توقفت لحظة وأخذت نفساً عميقاً... «يبدو أنني لا أحقق تقدماً كبيراً. لا أتحرك إلى الأمام، لا أتحرك لأتجاوز الأشياء، لا أتحرك على الإطلاق».

قلت لها برقة: «لا أظن أحداً يتوقع منك ذلك. ليس...»

«ليس بعد؟ يعني هذا أنني، عند لحظة معينة، لن أحسَّ كما أحسُّ الآن. لكن الشيء الذي يبدو أن الناس لا يدركونه هو أنني لا أريد أن أحسَّ هذا الإحساس. كيف أستطيع ألا أحسَّه؟ إحساسي بالحزن هو الشيء الصحيح. إنه... إن ثقله الفادح صحيح، صائب، في محله تماماً... يسحقني كما يجب أن يسحقني. غضبي لا شائبة فيه، وهو يحطمني. نعم...» تنهدت... «لكن ابني الآن يظن أنني مسؤولة عن فقدان لينا. أتساءل أحياناً إن كان يعتقد أنني أنا من دفع نيل آبوت من فوق الجرف». نشقت بأنفها ثم تابعت: «على أية حال، يعتبرني جوش مسؤولة عن أن لينا أصبحت هكذا، على هذه الحال، من غير أم، وحيدة».

كنت واقفة في وسط الغرفة طاويةً ذراعي على صدري باحتراس محاولة ألا ألمس شيئاً. كنت كأنني في مسرح جريمة، كأنني لا أريد أن ألوث شيئاً.

قلت لها: «إنها من غير أم. لكن، هل هي من غير أب؟ هل تصدِّقين حقاً أن لينا لا تعرف شيئاً عن هوية أبيها؟ هل تعرفين إن كان قد جرى أي حديث عن هذا بينها وبين كاتي؟».

هزت لويز رأسها: «أنا واثقة تماماً من أنها لا تعرف أبيها. هذا ما كانت تقوله نيل دائماً. كنت أرى هذا أمراً غريباً. إنه غريب مثل كثير من خيارات نيل فيما يتعلق بابنتها... ليست خياراتها غريبة فقط، بل هي غير مسؤولة أيضاً. أعني... ماذا لو كانت هنالك مشكلة وراثية، أو مرض، أو شيء من هذا القبيل؟ كان هذا يبدو لي غير مُنصف في حق لينا، فكيف لا تحظى الطفلة بفرصة معرفة أبيها؟ عندما ضغطتُ عليها، وقد كنت أضغط عليها عندما كنا صديقتين، قالت لي إن لينا كانت ثمرة لقاء دام ليلة واحدة مع شخص قابلَتْه عندما انتقلت للعيش في نيويورك. زعمت أنها لم تعرف اسمه الكامل. وعندما فكرت في ذلك بعد فترة، أيقنت أن كلامها كان كذباً، لأنني رأيت صورة لها في أول شقة سكنتها في نيويورك؛ كان قميصها مشدوداً كثيراً على بطنها لأنها كانت حبلى قبل أن تسافر إلى نيويورك».

توقفت لويز عن وضع الكتب في الصندوق. هزت رأسها من جديد وقالت: «لهذا المعنى، فإن جوش مُحق. إنها وحيدة فعلاً. ليس لها أقارب غير خالتها. أو ربما لم أسمع بأن لها غيرها. أما فيما يتعلق بأصدقائها من الرجال...» ابتسمت لويز ابتسامة حزينة... «قالت لي نيل ذات مرة إنها لا تنام إلَّا مع رجال متزوجين لأنهم يكونون كتومين غير متطلبين، ولأنهم لا يمارسون تأثيراً على مجرى حياتها. كانت علاقاتها الغرامية شديدة الخصوصية. لا أشك أبداً في أنها كانت تعرف رجالاً، لكنها ما كانت تفصح عن ذلك أمام الناس. تكون وحدها دائماً عندما ترينها. تكون وحدها أو مع ابنتها...». تنهدتْ قليلاً... «الرجل الوحيد الذي أظن أنني رأيت لينا تظهر عاطفة، ولو غامضة تجاهه هو شون». احمرَّ وجهها قليلاً عندما ذكرت اسمه، واستدارت بعيداً عنِّي كما لو أنها قالت شيئاً ما كان يجوز أن تقوله.

«شون تاونسند؟ أحقاً؟» لم تجبني... «لويز؟» نهضت واقفة لتأتي بكدسة كتب جديدة من الرف... «لويز، ماذا تقولين؟ أتقولين أنه كان شيء ما... شيء غير سَوِيّ بين شون ولينا؟»

«يا إلهي، لا طبعاً!»... ضحكت ضحكة صغيرة... «ليست لينا».

«ليست لينا؟ إذن... هل هي نيل؟ هل تقولين لي إنه كان هنالك شيء بين شون ونيل آبوت؟»

شدت لويز على شفتيها وأدارت رأسها بحيث لا أستطيع رؤية تعبير وجهها.

قلت لها: «تعرفين أن من شأن هذا أن يكون غير سليم على الإطلاق... أن يتولى شون التحقيق في حالة وفاة مشكوك فيها لامرأة كانت له علاقة معها. سيكون ذلك...»

ماذا سيكون ذلك؟ شيء غير مهني، أو غير أخلاقي، أو سبب يدعو إلى استبعاده عن التحقيق؟ شون ليس هكذا. ليس معقولاً أن يفعل ذلك، لا يعقل أن يخفى ذلك عني. لو كان الأمر صحيحاً للاحظت شيئاً، لرأيت شيئاً، أليس كذلك؟ ثم تذكرت كيف بدا لي عندما رأيته أول مرة، كيف كان واقفاً عند ضفة البركة ونيل آبوت مستلقية على الأرض عند قدميه... كان رأسه منحنياً كأنه يصلي عليها. عيناه شبه الدامعتين، ويداه المرتعشتان، وحزنه، وغيابه. لكنني متأكدة من أنه كان يتذكر أمه في تلك اللحظة!

تابعت لويز وضع الكتب في الصناديق. ظلت صامتة. قلت لها وقد رفعتُ صوتي قليلاً حتى أستحوذ على انتباهها كله: «استمعي إلي يا لويز! إن كنتِ على علم بأن علاقة من نوع ما كانت تربط شون ونيل، فإن...».

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

قالت وهي تنظر في عيني مباشرة: «لم أقل هذا. لم أقل شيئاً من هذا القبيل. شون تاونسند رجل جيد». نهضت واقفة... «والآن، إن لديَّ عملاً كثيراً أقوم به أيتها المحققة. أظن أن وقت ذهابك قد حان».

شون

قال لي رجال الشرطة الذين يتولون الرقابة على «مكان الجريمة» إن الباب الخلفي في بيت مارك هندرسون قد تُرك مفتوحاً. لم يكن الباب غير مقفل فحسب، بل مفتوحاً. أحسست بلسعة طعم الحديد في منخريّ فور دخولي. كانت كالي بوكان في الداخل تتحدث مع الصحفيين. سألتني عن شيء ما، لكني ما كنت مصغياً إليها في الحقيقة، لأنني كنت أحاول الإنصات لكي أسمع شيئاً آخر... صوت حيوان، أنين حيوان.

قلت لها: «ششش، استمعي».

قالت كالي: «لقد فتشوا البيت كله يا سيدي. لا يوجد أحد هنا».

سألتها: «هل لديه كلب؟» نظرت إلي غير فاهمة شيئاً... «هل في البيت كلب أو حيوان أليف؟ هل هنالك ما يشير إلى ذلك؟»

«لا، لا شيء على الإطلاق يا سيدي. لماذا تسأل؟».

عدت إلى الإصغاء من جديد، لكن الصوت اختفى وتركني مع إحساس غريب بأنني مررت بهذا من قبل: لقد رأيت هذا من قبل، وقد فعلت هذا من قبل... أصغيتُ إلى أنين كلب ودخلتُ مطبخاً غارقاً بالدم، وخرجتُ إلى المطر.

لكنها لا تمطر اليوم، ولا وجود لكلبٍ هنا!

كانت كالي تنظر إلي. أشارت إلى شيء على الأرض، إلى بقعة دم

كبيرة على البلاط يتوسطها مقص مطبخ: «سيدي! هنالك شيء يستحق الملاحظة. ليس هذا الدم ناتجاً عن جرح بسيط، ألا تظن هذا؟ أقصد أنه قد لا يكون جرحاً خطيراً جداً، لكنه ليس بسيطاً».

«هل تحققتم من المستشفيات؟».

«لا شيء حتى الآن. لا أثر يشير إلى أي منهما». رنَّ هاتفها فخرجت لترد على المكالمة.

بقيت جامداً في المطبخ بينما كان اثنان من رجال الشرطة المتخصصين في تحرِّي مكان الجريمة يعملان بصمت حولي. رأيت واحداً منهما يرفع بملقط بضع شعرات طويلة شقراء كانت ملتصقة بحافة الطاولة. داهمتني موجة غثيان مفاجئة، وفاض فمي لعاباً. لم أصدق هذا: مرت عليَّ مشاهد أسوأ من هذا، أسوأ بكثير، لكنني لم أتأثر بها. ألم يحدث هذا؟ ألم أدخل مطبخاً فيه دم أكثر من هذا؟

لمستُ معصمي بكف يدي وأدركت أن كالي كانت تكلمني من جديد. كانت قد مدَّت رأسها من خلف إطار الباب: «هل يمكنني الحديث معك لحظة يا سيدي؟» لحقت بها إلى الخارج. وعندما كنت أنزع الواقي البلاستيكي عن حذائي، راحت كالي تبلغني آخر الأنباء. قالت: «لقد رصدتْ شرطة المرور سيارة هندرسون. لا أعني أنهم وجدوها، لكن كاميراتهم صورت سيارته الحمراء مرتين». ألقت نظرة على مفكرتها... «لكن المشكلة هي أن الأمر مُحيِّر لأن الصورة الأولى التقطت بُعيد الساعة الثالثة هذا الصباح على الطريق رقم 68 في اتجاه إدنبره، لكن الصورة الثانية كانت بعد ساعتين من ذلك، في الخامسة والربع صباحاً، وكان متجهاً جنوباً على الطريق رقم 1 قرب آيماوث. وهذا قد يعني أنه... ربما ألقى شيئاً هناك؟»

تقصد أنه تخلَّص من شيء ما، تخلص من شيء ما أو من شخص ما.

«أو لعله يحاول تضليلنا؟».

قلت: «وربما غير رأيه فيما يتعلق بالمكان الذي يريد الفرار إليه. أو لعله في حالة ذعر».

هزَّت رأسها: «ينطلق هنا وهناك مثلما تفعل دجاجة مقطوعة الرأس».

لم تعجبني تلك الفكرة... لا أريد له، ولا لأي أحد غيره، أن يكون مقطوع الرأس، أريده أن يكون هادئاً. سألتها: «هل كان ممكناً تمييز ما إذا كان هنالك شخص آخر في السيارة؟... شخص جالس على المقعد إلى جانبه؟».

هزَّت رأسها وشدَّت على شفتيها كأنها استغربت سؤالي: «لا. بالطبع لا». سكتتْ فجأة.

بالطبع، لا يعني هذا عدم وجود شخص آخر في السيارة. يعني فقط أن الشخص الآخر لم يكن جالساً في المقعد.

جاءني من جديد ذلك الإحساس الغريب بأنني مررت بهذا من قبل... لمحة من ذكرى لا أحسُّها جزءاً من ذكرياتي. لكن، كيف يمكن أن تكون جزءاً من ذكريات أحد غيري؟ لا بد أنها جزء من قصة، من شيء رواه لي أحد لا أذكره الآن. امرأة مستلقية، أو ملقاة، على مقعد سيارة؛ امرأة مريضة، متشنجة، يسيل لعابها. ليست هذه القصة... لم أستطع أن أتذكر البقية. كنت أعرف فقط أن التفكير فيها يثير غثياني.

أزحت ذلك كله جانباً.

كانت كالي تقول: «يبدو لي أن وجهته الواضحة هي مدينة نيوكاسل. أقصد... إذا أراد الفرار. إن في نيوكاسل طائرات وقطارات وعبّارات

بحرية... العالم كله أمامه. لكن الأمر الغريب هو أنهم لم يلتقطوا أي صورة أخرى للسيارة بعد الخامسة صباحاً. وهذا يعني أنه توقف أو أنه ترك الطريق الرئيسي. لعله بدأ يسير في طرق فرعية صغيرة؛ أو ربما سلك الطريق الساحلي...».

قاطعت كلامها وسألتها: «ألم تكن هنالك صديقة له، خطيبة؟ امرأة في إدنبره؟».

قالت كالي وقد ارتفع حاجباها: «الخطيبة الشهيرة! لم ننسَ أمرها. اسمها تريسي ماكبرايد، وقد حددوا مكانها هذا الصباح. يرافقها الآن شرطي في الطريق إلى بيكفورد لكي نتحدث معها. لكن، علي أن أنبهك فقط إلى أن تريسي تزعم أنها لم ترَ مارك هندرسون منذ زمن طويل، منذ سنة في واقع الأمر».

«ماذا تقولين؟ ألم يذهبا معاً إلى تلك العطلة؟».

«هذا ما قاله هندرسون عندما تحدثت معه المحققة الشرطية مورغان. لكن تريسي تقول إنها لم تره إطلاقاً منذ أن قام بإنهاء العلاقة بينهما خلال الخريف الماضي. تقول إنه تركها من غير سابق إنذار. قال لها إنه واقع في حب امرأة أخرى».

لم تكن تريسي تعرف شيئاً عن المرأة الأخرى وعما فعلتْه. قالت لي فجأة: «ولا أريد أن أعرف أيضاً!» كانت جالسة في غرفة المكتب الداخلية في قسم الشرطة في بيكفورد ترشف الشاي من فنجانها... «لقد كنت... لقد كنت مصدومة تماماً. ذهبتُ إلى السوق لأبحث عن فستان زفاف، فاتصل بي وقال إنه لا يستطيع الاستمرار لأنه عثر على حب حياته». ابتسمت لي ابتسامة حزينة وهي تُمرر أصابعها في شعرها القصير الداكن... «وبعد ذلك، قطعتُ كل علاقة لي به. حذفت رقمه من هاتفي،

وحذفته من قائمة أصدقائي في فيس بوك؛ قمت بتلك الأشياء كلها. أخبرني من فضلك، هل أصابه شيء؟ ألن يخبرني أحد بما يجري هنا؟».

هززت رأسي وقلت لها: «إنني آسف، لكن الحقيقة هي أنه ليس لدينا ما نقوله في الوقت الراهن. لكننا لا نظن أنه مصاب بأي أذى. نريد أن نعثر عليه فقط لأننا نريد الحديث معه عن شيء ما. هل تعرفين أين يمكن أن يكون؟ هل تعرفين أين يمكن أن يذهب إذا أحسَّ أنه في حاجة إلى الابتعاد؟ والدان، أصدقاء في المنطقة...».

تجهَّم وجهها: «لا تقل لي أن الأمر متعلق بتلك المرأة التي ماتت. قرأت تلك الأخبار في الصحف، وقرأت أيضاً أنه كانت هنالك واحدة أخرى بعدها بأسبوع أو بأسبوعين. أعني... أنه لم يكن... هل كانت هي المرأة التي يراها؟».

«لا، لا، لا علاقة الأمر بهذا أبداً».

بدت مرتاحة: «لا بأس، لا بأس. أظن أنها كانت كبيرة بعض الشيء بالنسبة إليه، أليس كذلك؟».

«ولماذا تقولين هذا؟ هل كان يحب الفتيات الصغيرات؟».

بدت الحيرة على وجه تريسي: «لا... أقصد... ما الذي تعنيه بهذا، ماذا تعني بكلمة صغيرات؟ تلك المرأة كانت... أظنها كانت في الأربعينيات! أليس هذا صحيحاً؟ مارك لم يبلغ الثلاثين بعد، وهذا...»

«صحيح ما تقولين».

سألتني: «ألا تستطيع حقاً أن تخبرني بما يجري؟».

«هل بدَرَ عن مارك أي عنف تجاهك؟ هل كان يفقد أعصابه مثلاً، أو أي شيء مما يشبه هذا؟».

«ماذا؟ يا إلهي... لا، أبداً!» استندت إلى ظهر مقعدها. كانت عابسة... «هل يتهمه أحد بشيء ما؟ إنه ليس هكذا. مارك أناني، ولا شكَّ في ذلك، لكنه ليس شخصاً سيئاً، ليس بهذه الطريقة».

خرجتُ معها إلى السيارة حيث كان الشرطي ينتظرها ليعود بها إلى إدنبره. كنت أتساءل في نفسي عمَّا كان سيئاً في مارك هندرسون، بأية طريقة كان سيئاً... وكنت أتساءل إن كان قد تمكن من إقناع نفسه بأن حبه يبرر سوءَه.

قالت تريسي عندما وصلنا إلى السيارة: «سألتني أين يمكن أن يذهب. تصعب الإجابة عن هذا السؤال من غير معرفة الملابسات، لكن هنالك مكاناً قد يذهب إليه. إننا نملك... أعني أن والدي يملك... بيتاً على شاطئ البحر. ذهبنا، مارك وأنا، إلى ذلك البيت مرَّات كثيرة في عطلات نهاية الأسبوع. إنه بيت معزول تماماً ولا يعيش أحد بالقرب منه. كان مارك يقول دائماً إنه مكان مثالي للاختباء».

«هل يعيش أحد في ذلك المكان؟»

«إنه ليس مستخدماً كثيراً. إننا نترك المفتاح تحت واحد من أُصُص الورود، لكنا اكتشفنا في وقت سابق من هذه السنة أن أحداً كان يستخدمه من غير إذن. كنا نجد كؤوساً متروكة، أو قمامة، أو أشياء من هذا القبيل. وهكذا لم نعد نترك المفتاح هناك».

«متى حدث هذا آخر مرة؟ متى استخدمه أحدٌ آخر مرة من غير إذن؟».

تجهم وجهها: «أوه، كان ذلك منذ زمن. منذ نيسان/ أبريل على ما أظن! نعم، منذ نيسان/ أبريل. منذ عطلة عيد الفصح».

«أين يقع هذا البيت تحديداً؟».

قالت: «إنه في هاويك. قرية صغيرة ليس فيها شيء تقريباً. إنها على شاطئ البحر قرب كراستر».

لينا

اعتذرَ عندما أخرجني من صندوق السيارة. قال لي: «إنني آسف يا لينا؛ لكن ماذا كان يمكنني أن أفعل؟» بدأتُ أضحك لكنه قال لي أن أصمت. شد على قبضتي يديه فظننت أنه سيضربني من جديد. وهكذا صمتت.

كنا في بيت على البحر: بيت فقط، بيت منعزل على الجرف تماماً وله حديقة وسور وطاولة في الحديقة تشبه طاولات المقاهي. بدا لي البيت مقفلاً، غير مستخدم، وما كان هنالك أحد بالقرب منه. ما كنت قادرة على رؤية أي بيت آخر حولنا. لم أرَ إلّا درباً يمر بالبيت، ليس حتى طريقاً حقيقياً. لم أكن أسمع أي شيء أيضاً، لا أصوات سيارات ولا أي شيء من هذا القبيل... وحدها أصوات النوارس وضجيج تكسّر الأمواج على الصخور.

قال لي كأنه يقرأ ما في رأسي: «لا معنى للصراخ هنا». ثم أمسكني من ذراعي وأخذني إلى الطاولة. أعطاني منديلاً لأمسح به فمي.

قال لي: «سوف تتحسن حالتك».

سألته: «هل ستتحسن حقاً؟» لكنه أدار وجهه.

مرَّ وقت طويل ونحن جالسان هناك جنباً إلى جنب. لا تزال يده على ذراعي، لكن قبضتها تراخت شيئاً بعد شيء، وتباطأت أنفاسه. لم أسحب ذراعي. لا معنى للمقاومة الآن. ليس الآن. إنني مصابة. وساقاي ترتجفان كالمجنونتين تحت الطاولة. لا أستطيع إيقاف ارتجافهما. لكني

أحسست أن هذا الارتجاف أمرٌ حسن. أحسست أنه يفيدني. أحسست بشيء من القوة مثلما أحسست عندما وجدني في البيت، عندما تعاركنا. نعم، لا بأس، لقد فاز؛ لكنه فاز فقط لأنني لم أتعمد قتله مباشرة، فقط لأنني ما كنت واثقة مما يواجهني. كانت تلك جولةً أولى فحسب. إن كان يظنني هُزمت فسوف يرى شيئاً آخر.

لو كان يعرف بما أحسُّه، بما أفكر فيه، فلا أظنه سيظل ممسكاً بذراعي بل سيجري هارباً لينجو بحياته اللعينة.

عضضت بقوة على شفتي. أحسست طعم دم جديد على لساني. أحببت الطعم، بدا لي حسناً. كنت أحب هذا الطعم المعدني، وأحب أن أحسَّ بالدم في فمي... أحبُّ أن يكون في فمي شيء أبصقه عليه... عندما يحين الوقت. كانت لدي أشياء كثيرة أريد سؤاله عنها، لكنني لم أعرف من أين أبدأ فاكتفيت بالقول: «لماذا احتفظت به؟».

كنت أحاول جاهدةً أن أحافظ على توازن صوتي بحيث لا يتقطع أو يهتز أو يرتجف أو يكشف له أنني خائفة. لم يقل شيئاً فسألته من جديد: «لماذا احتفظتَ بسوارها، لماذا لم ترمِه؟ لماذا لم تتركه في معصمها؟ لماذا أخذته؟».

ترك ذراعي. لم ينظر إليَّ. ظل ينظر إلى البحر. قال بصوت حزين: «لست أدري. صدقاً، ليس لدي فكرة عما جعلني آخذه. ضمان... أظن. التمسك بقشة. حتى يكون لديَّ شيء ضد شخص آخر...» توقف فجأة وأغمض عينيه. لم أفهم شيئاً مما قاله، لكنني أحسست كما لو أنني فتحت شيئاً، كما لو أن فرصة قد لاحت لي. تزحزحتِ قليلاً مبتعدة عنه، ثم تزحزحت مبتعدة مرة أخرى. فتح عينيه من جديد، لكنه لم يفعل شيئاً. ظلَّ ينظر إلى البحر. كان وجهه خالياً من أي تعبير. بدا لي مرهقاً. بدا لي مهزوماً. بدا لي شخص ما عاد لديه شيء. ابتعدت قليلاً فوق ذلك

المقعد. أستطيع الجري. إنني سريعة حقّاً عندما أحتاج إلى السرعة. ألقيت نظرة على الدرب خلف البيت. ستكون لي فرصة طيبة في الفرار منه إذا انطلقت في ذلك الدرب مباشرة، إذا قفزت من فوق الجدار الحجري وجريت عبر الحقول. إن فعلت هذا، فلن يكون قادراً على ملاحقتي بالسيارة، وستكون لديَّ فرصة.

لم أفعل ذلك. لم أفعل ذلك رغم علمي بأنها قد تكون فرصتي الأخيرة. بقيت في مكاني. في آخر الأمر، هكذا كنت أقول في نفسي، سأكون من الأفضل أن أموت وأنا عارفة بما حدث لأمي؛ سيكون ذلك أفضل من العيش والتساؤل دائماً من غير أن أعرف شيئاً أبداً. ما كنت أظن أنني أستطيع احتمال ذلك.

نهضتُ واقفة فلم يتحرك. كان ينظر إلي فقط. درت حول الطاولة وجلست على المقعد المقابل؛ أجبرته على النظر إليَّ.

«هل تعرف أنني ظننتُ أنها تركتني؟ أمي. عندما وجدوها ثم أتوا إلى البيت وأخبروني ظننت أن ذلك كان اختيارها. ظننت أنها اختارت الموت لأنها أحسَّت بالذنب نتيجة ما حدث لكاتي، أو لأن ذلك كان يجعلها تشعر بالعار، أو... لست أدري. ربما لمجرد أنها كانت منجذبة إلى الماء أكثر من انجذابها إلي».

لم يقل شيئاً.

«كنت مقتنعة بهذا!» قلت ذلك بصوت مرتفع إلى أقصى ما استطعت فقفز في مكانه... «كنت مقتنعة بأنها تركتني! هل تفهم كيف يكون هذا الإحساس؟ والآن يتضح لي أنها لم تتركني. لم تختر أمي أي شيء. أنت أخذتها. أنت أخذتها مني مثلما أخذت كاتي».

ابتسم لي فتذكرتُ كيف كنا نراه وسيماً. تقلَّصت معدتي!

قال لي: «لم آخذ كاتي منك. كاتي لم تكن لك يا لينا. كانت لي، أنا».

وددت أن أصرخ عليه، أن أخمش وجهه. لم تكن لك! لم تكن لك! كاتي لم تكن لك. لم تكن لك! غرست أظافري في كفي يدي بأقصى ما استطعت من قوة وعضضت على شفتي فأحسست بطعم الدم من جديد.

رحت أستمع إليه وهو يبرر لنفسه.

«لم أكن أرى نفسي واحداً من ذلك النوع من الأشخاص الذين يمكن أن يسقطوا في حب فتاة صغيرة؛ أبداً! كنت أظن أن الناس الذين يحدث لهم هذا أشخاص سخفاء. كنت أظنهم فاشلين بؤساء لا يستطيعون الحصول على نساء في سنهم».

قلت ضاحكة: «بالضبط، كان تفكيرك سليماً».

«لا، لا! هذا ليس صحيح. ليس هذا التفكير سليماً. انظري إليَّ. لم تكن لديَّ أية مشكلة في الحصول على النساء. كانت النساء تأتي إليَّ طيلة الوقت. أنت تهزين رأسك غير مصدقة الآن. لكنك رأيت ذلك بنفسك. أوه... يا ربي... لقد فعلتِ ذلك بنفسك أيضاً».

«لم أفعل ذلك أبداً».

«لينا...».

«هل تظن حقاً أنني أردتك؟ أنت واهم! كانت تلك لعبة. لقد كانت...» توقفت عن الكلام. كيف يمكنني حتى أن أشرح شيئاً من هذا النوع لرجل مثله؟ كيف أشرح له أن الأمر ما كان متعلِّقاً به، بل كان كل شيء متعلقاً بك أنت؟ كيف أجعله يفهم أن الأمر كله (فيما يخصني، على أية حال) كان متعلقاً بي وبكاتي وبالأشياء التي كنا نستطيع فعلها معاً. أما الأشخاص الذين كنا نفعل ذلك بهم فكانوا متغيرين، عابرين. كانوا أشخاصاً لا أهمية لأي منهم في ذاته.

سألته: «هل تعرف كيف يكون الأمر عندما يكون مظهرك مثل مظهري؟ أعني... أعرف أنك تظن نفسك جذاباً، أو أي شيء من هذا النوع، لكنك لا تدرك أبداً كيف يكون الأمر عندما يكون مظهرك مثل مظهري. هل تعرف كم هو سهل بالنسبة إلي أن أجعل الناس يفعلون ما أريد منهم فعله، أن أجعلهم لا يعرفون طعم الراحة؟ لا يلزمني إلّا أن أنظر إليهم بطريقة معينة، أو أن أقف بالقرب منهم، أو أن أضع أصابعي في فمي وأمصَّها، فأراهم يحمرون أو ينتصبون، أو أي شيء. هذا ما كنت أفعله معك أيها المتخلِّف. كنت أسخر منك. لم أكن أريدك».

ضحك ضحكته الصغيرة الهازئة غير المقتنعة وقال: «نعم، لا بأس! إن كنت تقولين هذا يا لينا، فلا بأس. فماذا كنت تريدين إذاً؟ عندما رحت تهدِّدين بفضح أمرنا، عندما رحت تثرثرين بصوت مرتفع حتى سمعتك أمك، ماذا كنت تريدين؟».

«كنت أريد، كنت أريد، كنت أريد...».

لم أستطع إخباره بما كنت أريده آنذاك لأن ما أردته كان عودة الأمور مثلما كانت من قبل. أردت أن نعود إلى الوقت الذي كانت فيه كاتي معي دائماً، عندما كنا نمضي كل ساعة من كل يوم معاً، عندما كنا نسبح في النهر فلا ينظر أحد إلينا، عندما كان جسدانا لنا. أردت أن أعود إلى الزمن الذي سبق اختراعنا تلك اللعبة... قبل أن ندرك ما نستطيع فعله. لكن هذا ما كنت أريده أنا فقط. لم ترده كاتي. كانت كاتي تحب أن ينظر الناس إليها. لم يكن الأمر لعبة فحسب بالنسبة إليها؛ كان أكثر من ذلك. عندما بدأ الأمر، في البداية تماماً، عندما اكتشفتُ ما حدث ودار بيننا جدل حوله، كنت تقولين لي: «أنت لا تعرفين كيف يكون الإحساس بذلك يا لينا. هل تستطيعين تخيل الأمر؟ هل تتخيلين كيف يكون لديك شخص يكون مستعداً للمخاطرة بكل شيء من أجلك... بكل شيء...

بعمله وبعلاقاته، وبحريته أيضاً. أنت لا تفهمين كيف يكون الإحساس بهذا».

كنت أحسُّ به يراقبني، ينظر إليَّ منتظراً أن أتكلم. حاولت العثور على طريقة أقول بها ما فكرت فيه. كنت أحاول العثور على شيء يجعله يرى أنها ما كانت مفتونة به بل بسلطانها عليها. كنت أتمنى أن أتمكن من إخباره بهذا، من مسح تلك النظرة من وجهه، النظرة التي كانت تقول إنه يعرفها أما أنا فلا أعرفها معرفة حقيقية. لكني لم أستطع العثور على الكلمات في ذلك الوقت؛ ثم إن ذلك لم يكن القصة كلها على أية حال لأن أحداً لا يستطيع إنكار أنها أحبته فعلاً.

أحسست بألم خلف عينيّ، أحسست ضغطاً حاداً جعلني أدرك أنني موشكة على البكاء من جديد، فنظرت إلى الأرض لأنني لم أكن أريد السماح له برؤية الدموع في عيني. رأيت إلى جانب قدمي تماماً مسماراً كبيراً غطاه التراب. كان مسماراً طويلاً؛ عشرة سنتيمترات أو أكثر. حركت قدمي قليلاً حتى غطت طرفه، ثم ضغطت عليه حتى ارتفعت نهايته الأخرى قليلاً.

قال هندرسون: «لقد كنت تشعرين بالغيرة، ليس أكثر، يا لينا. تلك هي الحقيقة، أليس كذلك؟ كنت تشعرين بالغيرة دائماً. وأظن أن غيرتك كانت منا نحن الاثنين، أليس الأمر هكذا؟ كنت تغارين مني لأنها اختارتني. وكنت تغارين منها لأنني اخترتها. لم يردكِ أين منا. وهكذا فقد جعلتِنا ندفع الثمن. أنت وأمك، أنت...»

تركته يتكلم، تركت هذا الهراء الغبي يتدفق، ولم أكن مبالية حتى بأنه مخطئ إلى هذا الحد فيما يتعلق بكل شيء؛ وذلك لأنني ما كنت قادرة لحظتها إلّا على تركيز انتباهي على ذلك المسمار الذي رفعته بقدمي. تركت يدي تنزلق تحت الطاولة. توقف مارك عن الكلام.

قلت له: «ما كان يجب أن تكون معها أبداً».

كنت أنظر إلى مكان ما خلفه، من فوق كتفه، محاولة تشتيت انتباهه...

«أنت تعرف هذا. لا بد أنك تعرف هذا».

«كانت تحبني، وكنت أحبها... بالكامل».

قلت له: «لكنك كبير!» ظلَّت عيني معلقة بالفراغ الذي خلفه. نجح الأمر... التفت لحظة وألقى نظرة من فوق كتفه فتركت ذراعي تنزلق بين ساقي. مددت أصابعي. المعدن البارد في قبضة يدي. نصبت ظهري، وتأهبت... «أتظن حقاً أن هنالك أية أهمية لإحساسك تجاهها؟ لقد كنت معلِّمها. وعمركَ ضعف عمرِها. أنت من كان مُنتَظراً منه أن يفعل ما هو صحيح».

قال من جديد: «لقد أحبتني»؛ قالها بطريقة ذليلة... شيء بائس.

قلت وأنا أشد بقوة على المسمار الذي بيدي: «كانت أصغر منك بكثير. كانت أحسن منك بكثير».

انقضضت عليه، لكن سرعتي لم تكن كافية. لحظة نهوضي واقفة، علقت يدي لحظة تحت الطاولة، لحظة واحدة. اندفع مارك في اتجاهي وأمسك بيديَّ اليسرى ثم جذبها في اتجاهه بأقصى ما استطاع من شدة فصرتُ فوق الطاولة تقريباً.

قفز واقفاً على قدميه: «ماذا تفعلين؟» ظل ممسكاً بي، ثم جذبني جانبياً ولوى ذراعي خلف ظهري. صرخت متألمة. صاح بي من جديد: «ماذا تفعلين؟» ضغط ذراعي الملوية خلف ظهري إلى الأعلى وفك قبضتي عن المسمار بأصابعه. أخذ المسمار من يدي وألقاه على الطاولة. كانت يده ممسكة بشعري، وكان جسمه فوقي. أحسست بنتوء معدني يضغط على رقبتي، وأحسست بثقله فوقي... تماماً مثلما يجب أن تكون قد

أحسَّت به عندما كانا معاً. شعرت بأنني على وشك التقيؤ. لكنني بصقت تلك الكلمات من جديد: «كانت أفضل منك بكثير! كانت أفضل منك بكثير!» كررتها مرة بعد مرة إلى أن قطع ضغط أصابعه أنفاسي.

جولز

صوت تكتكة. تكتكة ثم حفيف. تكتكة ثم حفيف. وبعد ذلك: «أوه! ها أنت هنا. لقد سمحت لنفسي بالدخول. آمل ألا يزعجك هذا».

إنها المرأة العجوز. المرأة ذات الشعر الأرجواني والكحل الأسود؛ تلك التي تزعم أنها روحانية والتي تتجول في البلدة باصقةً قاذفة الناس بلعناتها. إنها المرأة التي رأيتها يوم أمس تتجادل مع لويز أمام البيت. كانت جالسة على المقعد عند النافذة تؤرجح ساقَيْها المتورّمَتَيْن.

«بل يزعجني!» قلتها بصوت مرتفع محاوِلة عدم إظهار أنني خائفة، أو أنني لا أزال خائفة منها... على نحو غبيّ سخيف... «يزعجني كثيراً. ماذا تفعلين هنا؟»

تكتكة ثم حفيف، تكتكة ثم حفيف. كانت القداحة في يدها، القداحة الفضية المحفور عليها الحرفان الأولان من اسم ليبي... «هذه... من أين أتيت بها؟ إنها قدَّاحة نيل!» هزت رأسها نفياً... «بل هي قدَّاحة نيل! كيف حصلت عليها؟ هل أتيت إلى هذا البيت قبل الآن؟ هل أتيت وأخذت أشياء؟ هل...»

لوّحت أمامي بيدها السمينة المثقلة بالحلي: «أوه، اهدئي من فضلك!» ابتسمتْ فظهرت أسنانها البنية الوسخة... «اجلسي! اجلسي يا جوليا! تعالي واجلسي معي». أشارت إلى الكنبة التي أمامها.

أصابتني الدهشة وارتبكت إلى حد جعلني أفعل ما قالته. عبرت

الغرفة وجلست أمامها، أما هي فتململت في مقعدها. قالت: «ليس هذا المقعد مريحاً تماماً، ألستِ معي في هذا؟ إنه في حاجة إلى حشية إضافية، رغم أن هنالك من يقول إن لدي ما يعوّضني عن ذلك»، ثم راحت تضحك من نكتتها.

سألتها: «ماذا تريدين؟ وماذا تفعل قداحة نيل معك؟».

«ليست لنيل؛ إنها ليست لنيل! انظري!» أشارت إلى الحرفين المحفورين على القداحة... «انظري إلى هذين الحرفَيْن ل. س.»

«أعرف هذا. ل. س.... ليبي سيتون. لكنها لم تكن ملكاً لليبي في واقع الأمر، فأنا لا أظنهم كانوا يصنعون قداحات من هذا النوع في القرن السابع عشر».

أجابتني نيكي: «هذه ليست قداحة ليبي! كنت تظنين أن حرفَيْ ل. س. يعنيان ليبي سيتون! لا، لا، لا! هذه قداحة لورين. لورين تاونسند. كان اسمها لورين سليتر قبل زواجها».

«لورين سليتر؟».

«نعم! لورين سليتر! وهي أيضاً لورين تاونسند. وهي والدة المفتش المحقق».

«والدة شون؟» كنت في تلك اللحظة أفكر في الصبي الذي صعد تلك الدرجات، الصبي الذي وقف فوق الجسر... «هل تعنين أن لورين التي في القصة هي والدة تاونسند؟».

«هذا صحيح. يا إلهي! أنت لست ذكية جداً، أليس كذلك؟ ثم إنها ليست قصة، ألا تفهمين هذا؟ ليست مجرد قصة. تزوَّجت لورين سليتر من باتريك تاونسند. وكان لها ابن تحبه حباً لا يوصف. كان كل شيء

في أحسن حال. وبعد ذلك... هذا ما تريد الشرطة أن نصدقه... ذهبت لورين وألقت بنفسها في النهر...» انحنت إلى الأمام وابتسمت لي... «ليس حدوث هذا أمراً كبير الاحتمال، ألا ترين؟ قلت هذا في ذلك الوقت، قلته بالطبع، لكن أحداً لم يصغ إليَّ».

هل شون هو ذلك الصبي حقاً؟ هل كان الصبي الذي سار على الدرجات الحجرية ورأى أمه تسقط، أو لم يرها تسقط، بحسب القصة التي نصدقها؟ هل كان هذا صحيحاً بالفعل وليس شيئاً مختلقاً فحسب؟... ماذا يا نيل؟ هل كانت لورين هي المرأة التي عاشت علاقة غرامية، التي كانت تشرب كثيراً، وكانت جامحة الشهوات... أماً سيئة؟ ألم تكن قصتها هكذا؟ أليست هي لورين التي كتبتِ في صفحتها: ليست بيكفورد مكاناً للانتحار. بيكفورد مكان يتخلصون فيه من النساء اللواتي يسببن المتاعب. ما الذي كنت تحاولين قوْله لي؟

كانت نيكي مستمرة في كلامها. قالت وهي تشير إليَّ بإصبعها: «أرأيت؟ أرأيت؟ هذا ما أعنيه. لا يصغي أحد إليَّ. أنت جالسة هنا وأنت جالسة أمامي، لكنك لا تصغين إليَّ».

«إنني مصغية، إنني مصغية إليك. لكنني، فقط... أنا لا أفهم».

تنتحنت وسعلت وقالت: «لو أصغيت إلى كلامي لفهمتِ. أترين هذه القداحة؟ إنها قداحة لورين. هل فهمت؟ أنت تسألين نفسك الآن، لماذا كانت هذه القداحة هناك، في الأعلى، مع أشياء أختك؟».

«في الأعلى؟ هذا يعني أنك أتيت إلى هذا البيت! لقد أخذت القداحة، أنت أيتها... هل أنت من أخذها؟ هل دخلت إلى الحمام؟ هل كتبت شيئاً على المرآة؟».

نهضت واقفة على قدميها: «استمعي إلي! لا تشغلي بالك بهذه

الأشياء لأنها ليست مهمة». سارت خطوة باتجاهي وانحنت صوبي. ثم أشعلت القداحة. تراقص اللهب بيننا. شممت رائحتها... رائحة بن محروق وورود ذابلة. مِلتُ مبتعدة عنها وعن رائحة العجائز المنبعثة منها.

قالت لي: «هل تعرفين في أي شيء كان يستخدم هذه القداحة؟».

«من الذي كان يستخدمها؟ هل هو شون؟».

«لا، يا غبية». نظرت إلي بعينين متسعتين، مستغربتين، ثم عادت فجلست في مقعدها الذي أصدر صريراً متألماً تحت ثقلها... «إنه باتريك! باتريك العجوز. لم يكن يستخدمها لإشعال سجائره. بعد موت زوجته، أخذ كلَّ أشياءها... ملابسها ولوحاتها وكل شيء تملكه... ثم وضع ذلك كله في الخارج وأضرم النار فيه. أحرق أشياء كثيرة». أشعلت القداحة مرة أخرى... «استخدم هذه القداحة لإشعال النار».

قلت لها وقد بدأ صبري ينفد: «لا بأس، فهمت. لكني لم أفهم بعد ما الذي جعل نيل تحصل عليها؟ ولماذا أخذتِها منها؟».

قالت نيكي مبتسمة: «أسئلة، أسئلة! لا بأس. فيما يتعلق بالسبب الذي جعلني آخذها، فهو أنني كنت في حاجة إلى شيء منها. هل تفهمين هذا؟... حتى أكون قادرة على الحديث معها بطريقة مقبولة. كنت أسمع صوتها بوضوح جيد، لكن، لكن... لكنك تعرفين... تصبح الأصوات مكتومة بعض الأحيان!».

قلت لها ببرود: «في الحقيقة، ليست عندي فكرة عن هذه الأشياء».

«أوه! لقد قلت لك منذ البداية! أنت لا تصدقينني. أتقولين لي إنك لم تتحدثي مع الموتى أبداً؟» ضحكتْ ضحكة العارف فشعرت بتنميل في جلد رأسي... «كنتُ في حاجة إلى شيء أستحضرها به. ها هي!» قدمت

لي القداحة... «يمكنك استردادها. كنت أستطيع بيعها، أليس كذلك؟ وكنت أستطيع أن آخذ أشياء أخرى لأبيعها، لأن أختك تملك أشياء ثمينة، أليس كلامي صحيحاً... كانت تملك مجوهرات وأشياء أخرى! لكنني لم آخذ شيئاً».

«هذا سلوك حسن».

ابتسمت لي: «وإليك إجابتي على سؤالك الثاني: لماذا كانت هذه القداحة عند أختك؟ الحقيقة أنني لا أستطيع أن أكون واثقة من السبب».

استولى عليَّ الانزعاج والغضب. قلت لها بحدة: «حقاً؟ ظننت أنك قادرة على الكلام مع الأرواح؟ ظننت أن هذا ما تستطيعين فعله!» نظرتُ من حولي في الغرفة... «هل هي موجودة الآن؟ لماذا لا تسألينها بشكل مباشر؟».

قالت بنبرة توحي بأنني جرحتها: «ليس الأمر بهذه السهولة! إنني أحاول جعلها تكلمني، لكنها صامتة». كادت تخدعني بهذه الكلمات... «لا حاجة إلى الغضب. إنني أحاول المساعدة. كل ما أحاول فعله هو إخبارك بأن...»

قاطعتها بنبرة متوترة: «لا بأس، قولي لي! انطقي!».

قالت لي وقد برزت شفتها السفلية وبدأت ذقنها تهتز: «صبراً، صبراً! كنت أخبرك، لكنك لا تستمعين. القداحة قداحة لورين، ثم صارت مع باتريك. هذا هو الأمر المهم. لا أعرف كيف صارت مع نيل. لكن وجودها عندها هو الشيء الذي يجب أن نفكر فيه. هل تفهمين؟ إما أنها أخذتها منه أو أنه أعطاها إياها. على أية حال، ليس هذا بالأمر المهم. لورين هي الشخص المهم هنا. هذا كله أختك نيل لا علاقة له بكاتي ويتاكر المسكينة أو بذلك المعلم السخيف أو بأم كاتي أو بأي شيء من ذلك. الأمر كله متعلق بلورين وباتريك».

عضضت شفتي: «وكيف هو متعلِّق بهما؟».

تململت في جلستها: «نعم... لقد كانت تكتب قصصها عنهم، ألم تكن تفعل هذا؟ وقد حصلتْ على تلك القصة من شون تاونسند لأنه، في نهاية الأمر، كان شاهداً على ما جرى. وهكذا ظنَّت أنه كان يقول لها الحقيقة. لماذا لا تصدقه؟».

«لماذا لا تصدقه؟ أقصد أنك تقولين إن شون كذب فيما يتعلق بما حدث لأمه، أليس كذلك؟»

شدت على شفتيها ثم قالت: «هل قابلت والده؟ إنه شيطان، شيطان حقيقي... لست أقول هذه الكلمة بأي معنى إيجابي».

«هذا يعني أن شون كذب فيما يتعلق بموت أمه، لأنه كان خائفاً من أبيه».

رفعت نيكي كتفيها: «لا أستطيع أن أكون واثقة من هذا. لكن، إليك ما أعرفه: القصة التي سمعَتها نيل النسخة الأولى أي القصة التي تقول إن لورين هربت في الليل، وأن زوجها وابنها لحقا بها، لم تكن قصة صحيحة. لقد قلت هذا الكلام لنيل. وقد عرفتُ أنها غير صحيحة لأن جيني أي أختي كانت هنا في ذلك الوقت. لقد كانت هنا. في تلك الليلة...» وفجأة، أدخلت يدها في معطفها وبدأت تبحث عن شيء ما... «لقد أخبرتُ أختَك نيل بقصة جيني فكتبَتْها هنا».

أخرجت كدسة أوراق من جيب معطفها الداخلي فمددت يدي لآخذها منها، لكن نيكي أبعدتها.

قالت لي: «انتظري لحظة! يجب أن تفهمي أن هذا...» لوحت بالأوراق في وجهي... «ليس القصة كلها. على الرغم من أنني أخبرتها بالقصة كلها، فإنها لم تكتبها مثلما سمعتها. امرأة عنيدة، أختك هذه! هذا جزء من السبب الذي جعلني أحبها كثيراً. وهذا سبب الخلاف الصغير

الذي نشأ بيننا». استقرت في مقعدها واستندت إلى الخلف وراحت تؤرجح ساقيها بسرعة أكبر... «لقد أخبرتها عن أختي جيني التي كانت شرطية عندما ماتت لورين». سعلت بصوت مرتفع ثم تابعت... «لم تقتنع جيني بأن لورين قفزت إلى الماء من غير أن يدفعها أحد لأن هنالك أشياء كثيرة كانت تجري في ذلك الوقت. كانت جيني تعرف أن زوج لورين شيطان وأنه كان يضربها ويروي للناس قصصاً عن أن لها عشيقاً تذهب للقائه في كوخ آن وارد، رغم أن أحداً لم ير ذلك الرجل على الإطلاق. هذا ما كان يُفترض أنه السبب؛ هل فهمت؟ الرجل الذي كانت ترتكب الفاحشة معه، هرب وتركها فحزنت كثيراً وألقت بنفسها في الماء». لوحت نيكي بيدها أمام وجهي... «هراء! كلام فارغ! هل تفعل امرأةٌ هذا ولديها في البيت طفل عمره ست سنوات؟ كلام فارغ!».

قلت لها: «في الحقيقة... من المعروف أن الاكتئاب شيء معقد...». قالت: «أوففف!» أسكتتني بتلويحة من يدها... «لم يكن هنالك عشيق! لم يكن هنالك ذلك الرجل الذي لا يراه أحد. كان يمكنك سؤال جيني، أختي، عن هذا الأمر لولا أنها ميتة الآن. وأنت تعرفين مَن فعل ذلك بها، ألا تعرفين الآن؟».

عندما كفت عن الكلام آخر الأمر، سمعت الماء يهمس في ذلك الهدوء. قلت لها: «أتقولين إن باتريك قتل زوجته وإن نيل عرفت بالأمر؟ أتقولين إنها كتبت ذلك؟».

قالت نيكي بانزعاج: «لا! هذا ما أقوله لك الآن. لقد كتبت أختك بعض الأشياء، لكنها لم تكتب أشياء أخرى. وهذا هو سبب خلافنا. لأنها كانت سعيدة تماماً بأن تكتب الأشياء التي أخبرتني بها جيني عندما كانت على قيد الحياة، لكنها لم ترد كتابة الأشياء التي أخبرتني بها جيني بعد موتها. وهذا لا معنى له على الإطلاق».

«إذن...»

«لا معنى له على الإطلاق. لكن عليك أن تستمعي إلي. وإذا لم تستمعي إلي...» قالت هذا وهي تدفع بالأوراق في اتجاهي... «يمكنك أن تستمعي إلى كلام أختك. أقول هذا لأنه قتلهن. إنه معتاد على هذا. قتل باتريك تاونسند زوجته لورين، ثم قتل أختي جيني، وإن لم أكن مخطئة فقد قتل نيل أيضاً».

بركة الغارقات

لورين، مرة أخرى، 1983

خرجت لورين ذاهبة إلى كوخ آن وارد. ازداد ذهابها إلى ذلك المكان هذه الأيام كان مكاناً هادئاً مسالماً بطريقة لا يجدها المرء في أي مكان آخر في بيكفورد. كانت تحسُّ صلة من نوع غريب تجمع بينها وبين آن المسكينة. هي أيضاً كانت محبوسة في زواجٍ لا حب فيه مع رجل لا يطيقها. هنا، كانت لورين تستطيع أن تسبح وتدخن وتقرأ من غير أن يزعجها أحد. هكذا كان الوضع عادة.

وذات صباح، رأت لورين امرأتين تسيران وتتحدثان. عرفتهما: شرطية اسمها جيني... شرطية عادية متوردة الوجه ممتلئة الجسم. وكانت معها أختها نيكي، تلك التي تتكلم مع الموتى. كانت لورين تحب نيكي لأنها طريفة، ولأنها تبدو لطيفة أيضاً، رغم كونها فنانة في الاحتيال.

نادتها جيني لكن لورين لوَّحت لها بيدها على نحو يوحي بأنها تريد منهما الذهاب. عادة ما تأتي إلى نيكي لتتحدث معها. لكن وجهها كانت عليه آثار الضرب، ولم تكن في مزاج يسمح لها بالحديث عن ذلك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذهبت لتسبح. كان لديها إحساس بأنها تفعل الأشياء كلها آخر مرة: آخر نزهة، وآخر سيجارة، وآخر قُبلة على جبين ابنها الشاحب، وآخر سباحة في النهر (بل قبل الأخيرة). عندما غطست تحت الماء، كانت تسأل نفسها إن كان هذا هو الإحساس، إن كانت ستحس بهذا حقاً، إن كانت ستحس بأي شيء. كانت تتساءل أين اختفت قدرتها على القتال.

كانت جيني أول من وصل إلى النهر. كانت قبل ذلك في قسم الشرطة تتابع أخبار العاصفة عندما جاءها اتصال: إنه باتريك تاونسند يصيح مذعوراً بكلام غير متسق، يصيح في اللاسلكي بشيء عن زوجته. لقد ذكر زوجته وذكر بركة الغارقات أيضاً. عندما وصلت جيني إلى المكان، كان الصبي جالساً تحت إحدى الأشجار واضعاً رأسه على ركبتيه. ظنَّته نائماً أول الأمر، لكنه رفع رأسه ونظر إليها بعينين متسعتين مظلمتين.

خلعت معطفها ولفَّته به. كان مُزرقاً من البرد، وكان يرتجف. كانت بيجامته غارقة بالماء وقد كسا الطين قدميه العاريتين. قالت له: «شون! ماذا حدث؟».

قال لها: «ماما في الماء. وعلي أن أبقى هنا إلى أن يعود؟».

«من هو؟ هل هو أبوك؟ أين هو الآن؟».

أخرج شون ذراعه النحيلة من المعطف وأشار إلى مكان خلفها فنظرت جيني ورأت باتريك يجر نفسه إلى الضفة جرّاً. كانت أنفاسه متقطعة باكية، وكان الألم يعتصر وجهه.

ذهبت جيني إليه: «سيدي، إنني... إن سيارة الإسعاف قادمة. ستصل خلال أربع دقائق...».

قال باتريك وهو يهز رأسه: «فات الأوان، لقد وصلت متأخراً. لقد ذهبت».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وصل الآخرون: «رجال الشرطة والعاملون الطبيون، ومحقق أو اثنان. كان شون قد نهض واقفاً وقد التفَّ بمعطف جيني كأنه عباءة. تعلَّق بأبيه».

قال أحد المحققين لجيني: «هل تستطيعين أخذه إلى البيت؟».

بدأ الصبي يقول متوسِّلاً: «أرجوكم. لا! لا أريد. لا أريد الذهاب».

قال لها باتريك: «جيني، هل يمكنك أخذه إلى بيتك؟ إنه مذعور ولا يريد العودة إلى البيت الآن». ركع باتريك في الطين واحتضن ابنه، ثم وضع يده على رأسه وهمس بكلمات في أذنه. وعندما نهض واقفاً. بدا الصبي هادئاً مطيعاً. وضع يده في يد جيني وسار معها من غير أن يلقي نظرة وراءه.

عندما وصلا إلى شقتها، خلعت جيني عن شون ملابسه المبللة. لفته ببطانية وأطعمته جبناً وخبزاً محمَّصاً. جلس شون يأكل بهدوء منحنياً إلى الأمام فوق صحنه حتى لا تتساقط كسرات الخبز على الأرض. سألها عندما انتهى من الأكل: «هل ستكون ماما بخير؟».

تشاغلت جيني عن سؤاله بتنظيف الطاولة، ثم سألته: «هل تشعر بالدفء يا شون؟».

«نعم، أنا مرتاح هكذا».

أعدت جيني فنجانين من الشاي ووضعت في كل منهما قطعتي سكر سألته: «أتريد أن تخبرني عما حدث يا شون؟» هز رأسه... «لمَاذا؟ كيف ذهبت إلى النهر؟ لقد كنت ملطخاً بالوحل إلى حد فظيع؟».

«ذهبنا بالسيارة، لكني لم أستطع اللحاق بأبي بعد ذلك».

«فهمت. هل يعني هذا أن أباك أخذك معه بالسيارة إلى هناك؟ أم أمك أخذتك معها؟»

قال لها شون: «ذهبنا كلنا معاً».

«هل كنتم كلكم معاً؟».

تقلص وجه شون: «كانت هنالك عاصفة عندما استيقظت. وكان صوتها شديد الارتفاع. ثم سمعت أصواتاً غريبة في المطبخ».

«وماذا كانت تلك الأصوات الغريبة؟».

«كانت مثل... كانت كأنها صوت كلب... عندما يكون حزيناً».

«مثل صوت الكلب عندما يئن؟».

أومأ شون برأسه وقال: «لكننا لا نملك كلباً لأن ذلك ليس مسموحاً لي. يقول أبي إنني لن أعتني به على نحو جيد، وهذا يعني أنه سيكون مضطراً إلى الاهتمام به». شرب جرعة من الشاي، ثم دعك عينيه... «لم أكن أريد البقاء وحدي في البيت، بسبب العاصفة. وهكذا وضعني أبي معه في السيارة».

مكتبة الرمحي أحمد

«وماذا عن أمك؟».

عبس وجهه: «الحقيقة... لقد كانت في النهر، وكان عليَّ أن أنتظر تحت الأشجار. لا يجوز لي الحديث عن هذا الأمر».

«ماذا تعني يا شون؟ ماذا تقصد بأنه لا يجوز لك الكلام عن هذا الأمر؟».

هز رأسه ورفع كتفيه ولم يقل أية كلمة أخرى.

شون

هاويك! بالقرب من كراستر! كيف يعيد التاريخ نفسه هكذا وكأنه يلعب معي؟ ليست هاويك بعيدة عن بيكفورد، فالمسافة لا تتجاوز ساعة بالسيارة، لكني لم أذهب إليها أبداً. لا أذهب إلى الشاطئ، ولا إلى

القلعة. ولم أذهب أبداً لكي آكل اللحم المدخن الشهير مع الخبز البُني. كان هذا شيئاً يخص أمي، كان أمنية عندها. لم يأخذني والدي أبداً؛ ثم كبرت ولم أذهب أبداً.

تأثرتُ عندما أخبرتني تريسي عن موقع البيت، عن ذلك المكان الذي يجب أن أذهب إليه. أحسست بالذنب. أحسست مثلما كنت أحسُّ عندما كنت أتذكر كيف وعدتني أمي بأن تأخذني إلى ذلك المكان في عيد ميلاد، لكني رفضت وفضلت الذهاب إلى برج لندن. لو لم أكن جاحداً إلى هذا الحد، ولو قلت إنني أريد الذهاب معها إلى الشاطئ، وإلى القلعة، فهل كانت ستبقى معي؟ هل كان كل شيء سيسير بشكل مختلف؟

كانت تلك الرحلة التي لم أقم بها أبداً واحداً من الأمور التي شغلت عقلي بعد موت أمي، أي عندما صار كياني كله منشغلاً في إنشاء عالم جديد، في إنشاء واقع بديل ما كان عليها فيه أن تموت. لو ذهبنا في تلك الرحلة إلى كراستر، ولو كنت أنظف غرفتي عندما تطلب مني ذلك، ولو أنني لم أوسِّخ بالوحل حقيبتي المدرسية الجديدة عندما ذهبت للسباحة في النهر، ولو كنت أصغي إلى أبي ولا أعصيه كثيراً، فهل كانت ستموت؟ لكني صرت أقول في نفسي، في وقت لاحق، إنه ما كان يجب أن أصغي إلى أبي، ربما كان عليَّ أن أعصيه، ربما كان علي أن أظل ساهراً تلك الليلة بدلاً من الذهاب إلى النوم! لو فعلت ذلك، فربما كنت قادراً على إقناعها بألا تذهب.

لم يفلح أي سيناريو بديل مما كان يرسمه خيالي في الإتيان بأي نتيجة. وفي النهاية، بعد سنوات من ذلك، بدأت أفهم أنني ما كنت قادراً على فعل شيء. لم يكن ما أرادته أمي أمراً أستطيع أن أفعل شيئاً من أجله، كان يجب أن يفعل ذلك الشيء شخصٌ آخر... أو كان عليه أن

يمتنع عن فعْل شيء ما: كان ما أرادته هو الرجل الذي أحبته، الرجل الذي كانت تلاقيه سراً، الرجل الذي كانت تخون أبي معه؛ كانت تريد ألا يتركها. كان رجلاً من غير اسم، رجلاً لم يره أحد. كان خيالاً، كان خيالاً بالنسبة إلينا... أنا وأبي. لقد وفَّر لنا السبب. أعطانا شيئاً يريحنا: لم نكن مخطئين في شيء، وما كان الذنب ذنبنا. (كان الذنب ذنبه، أو كان ذنبها هي، أو كان ذنبهما معاً... أمي الخائنة وعشيقها. ما كنا قادرين على فعل شيء أحسن مما فعلناه، ذلك أنها لم تكن تحبنا حقاً). أعطانا ذلك الرجل شيئاً يمكّننا من الاستيقاظ كل صباح، يمكّننا من متابعة العيش.

ثم جاءت نيل.

كانت تسأل عن أبي عندما أتت إلى بيتنا أول مرة. وكانت تريد الحديث معه عن موت أمي. لم يكن أبي في البيت ذلك اليوم، ولم أكن أنا في البيت أيضاً. وهكذا تكلمت نيل مع هيلين التي أفهَمَتْها أن عليها أن تنصرف. قالت لها هيلين إن باتريك لن يمتنع عن الحديث معها فحسب، بل سيعتبر أسئلتها تدخُّلاً فظّاً. ولن يتحدث معها شون... لن يتحدث معها أيٌّ منا. قالت لها هيلين أنها مسألة خاصة، وإنها من الماضي. تجاهلتها نيل وأصرت على الحديث مع أبي. حيّرتها ردة فعله. لم يغضب مثلما كانت تتوقع منه؛ ولم يقل لها إن الحديث عن هذا الأمر مؤلم جداً، وإنه لا يستطيع احتمال الخوض في ذلك من جديد. قال لها إنه ما من شيء للحديث عنه. لم يحدث شيء. هذا ما قاله لها. لم يحدث شيء.

وأخيراً، أتت نيل لكي تتحدث معي. كان ذلك في منتصف الصيف. كنت خارجاً من اجتماع في قسم الشرطة في بيكفورد فوجدتها مستندة إلى سيارتي. كانت في فستان طويل يمسُّ الأرض، وكان في قدميها اللتين لوحتهما الشمس صندل من الجلد. كان على أظافر قدميها طلاء

أزرق لامع. رأيتها في القرية قبل ذلك؛ لاحظتُ وجودها... كانت امرأة جميلة يصعب ألا يلاحظها المرء. لكني لم أرها عن قرب قبل ذلك اليوم. لم أدرك كم كانت عيناها خضراوان وكم كانتا تمنحانها مظهراً مختلفاً... ليست من خارج هذا العالم تماماً، لكنها ليست من هذا المكان بكل تأكيد. كان مظهرها غريباً، مجلوباً.

أخبرتْني بما قاله لها أبي، لم يحدث شيء، ثم سألتني: «أهذا ما تحسه أنت أيضاً؟»

قلت لها إنه لم يقصد هذا، لم يقصد أنه لم يحدث شيء. كان يريد القول إنه لا يحب الكلام عن هذا الأمر، وإنه صار ماضياً، لقد وضعناه خلف ظهورنا.

قالت وهي تبتسم لي: «نعم، لقد فعلتم هذا بالتأكيد. إنني أفهم، لكني أعمل على هذا الموضوع كما ترى. إنني أعِدُّ كتاباً. وقد أقيمُ معرضاً أيضاً. وأنا...».

قلت لها: «لا! أعني أنني أعرف ما تقومين به، لكني، لكننا، لا نستطيع أن نكون جزءاً من هذا المشروع. إنه شيء مُشين».

تراجعتْ إلى الخلف خطوة، لكنها ابتسامتها لم تختف من وجهها: «مشين؟ غريب أن تستخدم هذه الكلمة. ما الأمر المشين؟»

قلت: «إننا نراه مشيناً... يراه مشيناً». (نراه، أو يراه... لا أذكر أية كلمة قلت).

غابت ابتسامتها عند ذلك وبدا عليها الاضطراب والقلق: «أوه! لا. ليس مشيناً... لا! هذا ليس أمراً مشيناً. ولا أظن أن هنالك من لا يزال يراه مشيناً».

«هو يراه كذلك».

قالت لي: «أرجوك! ألن تتحدث معي؟».

أظن أنني استدرت أريد الابتعاد عنها في تلك اللحظة لأنها وضعت يدها على ذراعي. نظرتُ إلى يدها فرأيت الخواتم الفضية في أصابعها والسوار في معصمها وطلاء أظافرها الأزرق المتشقق. قالت لي: «أرجوك يا سيد تاونسند. أرجوك يا شون. إنني راغبة منذ زمن طويل في الحديث معك في هذا الأمر».

كانت تبتسم لي من جديد. طريقتها في الحديث معي جعلت من المستحيل عليَّ أن أرفض طلبها... طريقتها في مخاطبتي بطريقة مباشرة ودية. أدركتُ عند ذلك أنني ماضٍ إلى المتاعب، وأدركت أنها ستأتي لي بالمتاعب... ذلك النوع من المتاعب الذي كنت أنتظره طيلة حياتي بعد أن تجاوزت الطفولة.

وافقتُ على إخبارها بما أذكره عن ليلة موت أمي. قلت لها إنني سأذهب إليها في بيتها، بيت الطاحون. وطلبت منها أن تُبقي هذا اللقاء طي الكتمان لأنه سيكون شيئاً مزعجاً لأبي. سيكون مزعجاً لزوجتي. أجفلت عندما سمعت كلمة زوجتي، ثم ابتسمت من جديد.

عرفنا، كلانا، بما سوف يحدث. لم نتحدث عن شيء أبداً عندما ذهبت للحديث معها أول مرة.

وهكذا كان عليَّ أن أذهب مرة أخرى. ظللت أذهب إليها من غير أن يجري بيننا ذلك الحديث. كنت أمضي ساعة عندها، أو ساعتين، لكني أخرج فأحسُّ أن تلك المدة كانت أياماً. وكنت أقلق أحياناً من أنني أنساق هكذا وأنسى الزمن. لازلت أفعل هذا أحياناً. يقول أبي إنني «أُغيّبُ نفسي» كأن ذلك شيئ أفعله متعمِّداً، كأنه شيء أستطيع التحكم فيه؛ لكنه ليس كذلك. يحدث لي هذا طيلة حياتي، حتى عندما كنت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

طفلاً: أكون هنا في لحظة، ثم لا أكون هنا. لا أتعمد حدوث هذا. أدرك أحياناً أنني انجرفت وغبت، بل أستطيع أن أعيد نفسي بعض الأحيان... علّمتُ نفسي منذ زمن بعيد: ألمس الندبة التي على معصمي. عادة ما تنجح هذه الطريقة، لكن ليس في كل مرة.

لم أستطع جعل نفسي أخبرها بالقصة، ليس في البداية. كانت تضغط علي، لكنني كنت أجد إلهاءها سهلاً إلى حد ممتع. تخيلتُ أنها كانت واقعة في غرامي وأننا سنرحل معاً، أنا وهي ولينا، تخيَّلت أننا سنقتلع أنفسنا من هذا المكان ونترك القرية ونترك البلاد. تخيلت أنني سأتمكن من النسيان آخر الأمر. تخيَّلت أن هيلين لن تحزن على رحيلي، بل ستتحرك سريعاً وتجد لنفسها شخصاً غيري يناسب طيبتها الراسخة المستقرة. تخيلت أيضاً أن أبي سيموت وهو نائم.

كانت تستلُّ القصة مني، خيطاً بعد خيط. وكان من الواضح لي أن أملها قد خاب. ما كانت تلك هي القصة التي أرادت سماعها. لقد أرادت سماع الأسطورة، القصة المخيفة؛ أرادت الصبي الذي كان ينظر إلى أمه وهي تموت. أدركتُ عند ذلك أن محاولتها مع أبي كانت طبق المُقبِّلات فحسب: كنت أنا الطبق الرئيسي. كانت تريد أن تجعلني في قلب مشروعها لأن الأمر بدأ عندها على هذا النحو: ليبي ثم أنا.

استطاعت أن تجعلني أقول أشياء ما كنت أريد قولها لها. كنت أعرف أن عليَّ أن أتوقف، لكنني لم أستطع. كنت أعرف أنني أنجرُّ إلى شيء لن أستطيع تخليص نفسي منه، وكنت أعرف أنني أصير عاجزاً. توقفنا عن اللقاء في بيتها لأن عطلة المدرسة بدأت وصارت لينا موجودة في البيت أكثر الوقت. بدلاً من ذلك، صرنا نذهب إلى الكوخ. كنت أعرف أن هذه مخاطرة، لكن ليس في المنطقة فنادق يمكن استئجار غرفة فيها... فأين يمكن الذهاب؟ لم يخطر في ذهني أبداً أنني يجب أن أتوقف عن رؤيتها. بدا هذا الخاطر مستحيلاً في ذلك الوقت.

يخرج أبي ليمشي عند الفجر. ولست أعرف السبب الذي جعله يكون هناك بعد الظهر. لكنه جاء فرأى سيارتي. انتظرَ بين الأشجار إلى أن ذهبت نيل، ثم ضربني. لكمني فألقاني أرضاً وراح يرفسني في صدري وكتفي. تكوَّرت على الأرض وحميت نفسي، مثلما تعلمت. لم أقاومه، لأنني أدركت أنه سيتوقف عندما سيكتفي أو عندما يعرف أنني لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك.

انتزع مني المفاتيح بعد ذلك ووضعني في السيارة وأخذني إلى البيت. كانت هيلين متوهّجة غضباً: تجاه أبي أول الأمر، لأنه ضربني؛ ثم تجاهي عندما بينَّ لها السبب. لم أرها غاضبة من قبل، أبداً، ليس بهذا الشكل. لم أبدأ التفكير فيما يمكن أن تفعله، وفي ما يمكن أن يكونه انتقامها، إلّا عندما رأيت غضبها البارد المخيف. كنت أتخيل أنها ستحزم حقائبها وترحل، وأنها ستستقيل من عملها في المدرسة. تخيلت الفضيحة أيضاً. وتخيلت غضب أبي. هكذا كان انتقامها الذي تخيلتُه. لكنني كنت مخطئاً.

لينا

شهقتُ. أخذت نفَساً عميقاً إلى أقصى حد، ثم ضربته بمرفقي بين أضلاعه. صاح متألِّماً، لكنه ظل ممسكاً بي. جعلتني أنفاسُه الحارة في وجهي على وشك إفراغ كل ما في جوفي.

ظللت أقول له: «أفضل منك بكثير. كانت أفضل منك بكثير. كانت أفضل بكثير من أن تلمسها، أفضل بكثير من أن تضاجعها... لقد جعلتَها تخسر حياتها. أنت أيها القذر. لا أعرف كيف تفعل ذلك، كيف تستيقظ كل صباح، كيف تذهب إلى عملك كيف تنظر في عيني أمها...»

انغرست أظافره في رقبتي فأغمضتُ عيني وانتظرت النهاية.

قال لي: «أنت لا تعرفين مدى معاناتي. لا فكرة لديك أبداً». وبعد ذلك أمسك شعري بقبضة يده وشد رأسي إلى الأعلى بقوة ثم أرخى قبضته فجأة فاصطدم رأسي بالطاولة. لم أستطع منْع نفسي. بدأت أبكي.

تركني مارك وانتصب واقفاً. تراجع عدة خطوات إلى الخلف، ثم التف إلى الجهة الأخرى من الطاولة فصرت أمامه تماماً. وقف ينظر إلي فتمنيت أكثر من أي شيء تمنيته في حياتي أن تنشق الأرض وتبتلعني. كان أي شيء أهون من أن يراني أبكي. نهضت. كنت أنتحب كأنني طفلة صغيرة فقدت دميتها. بدأ يقول لي: «كفي عن هذا! كفي عن هذا يا لينا! لا تبكي بهذه الطريقة. لا تبكي بهذه الطريقة!» كان الأمر غريباً لأنه بدأ هو يبكي أيضاً. استمر يقول لي مرة بعد مرة: «كفي عن البكاء يا لينا. كفي عن البكاء!» توقفت عن البكاء. كان كل منا ينظر إلى الآخر وفي عيني كل منا دموع. لا يزال المسمار في يده. قال لي: «لم أفعل ذلك. لم أفعل ما تظنين أنني فعلته. لم ألمس أمك أبداً. لقد فكرت في الأمر. فكرت في أن أفعل لها أشياء كثيرة، لكنني لم أفعل شيئاً».

قلت: «بل فعلت. إن لديك سوارها، وأنت...»

قال لي: «لقد أتت لرؤيتي بعد موت كاتي. قالت لي إن علي أعترف... من أجل لويز!» ضحك وتابع يقول: «قالت هذا كأنها مهتمة بالأمر حقاً!... كأنها امرأة يمكن أن تهتم بأمر أي إنسان! أعرف السبب الذي جعلها تريد مني أن أقول شيئاً. كانت تشعر بالذنب لأنها وضعت أفكاراً في رأس كاتي. كانت تشعر بالذنب وأرادت أن يتحمَّل اللوم أحد غيرها. أرادت أن تضع الأمر كله علي، تلك العاهرة الأنانية». كنت أنظر إليه وهو يقلب المسمار بين يديه، وتخيلت نفسي أنقض عليه من جديد فأنتزع المسمار منه وأغرسه في عينه. كان فمي جافاً. لعقتُ شفتيَّ. طعم الملح.

لم يتوقف عن الكلام: «طلبت منها منحي بعض الوقت. قلت لها إنني سوف أتحدث مع لويز لكنني في حاجة إلى الاستعداد لما سأقوله لها؛ يجب أن يكون واضحاً لي كيف سأشرح لها الأمر. أقنعتها بهذا». نظر إلى المسمار بين يديه ثم نظر إليَّ... «أنت ترين يا لينا أنني ما كنت في حاجة إلى فعل أي شيء لها. ليس العنف بطريقة مناسبة للتعامل مع نساء من هذا النوع، مع نساء كأمك. بل يجب إرضاء غرورهن. لقد عرفت نساء مثلها من قبل. نساء أكبر مني... تجاوزن الخامسة والثلاثين وبدأن يفقدن جمالهن. إنهن يردن أن يشعرن بأنهن مرغوبات. يمكن للمرء أن يشم رائحة يأسهن على مسافة ميل. كنت أعرف ما يجب أن أفعله. ورغم هذا كان التفكير في ذلك يجعل جسمي يقشَعِرّ. كان عليَّ أن أستميلها، أن أسحرها، أن أُغويها». توقف عن الكلام لحظة ودعك فمه بيده... «فكرت أنني يمكن أن ألتقط بعض الصور لها، ثم أتوصل إلى تسوية معها. فكرت في التلويح بإذلالها. ظننت أن هذا يمكن أن يجعلها تتركني وشأني، تتركني أحزن على خسارتي». رفع ذقنه قليلاً... «هذه كانت خطتي. لكن هيلين تاونسند تدخلت في الأمر عند ذلك، ولم أعد مضطراً إلى فعْل شيء».

ألقى بالمسمار جانباً. نظرتُ إليه يقفز على الأرض المعشبة ثم يستقر عند الجدار.

قلت له: «ما الذي تتحدث عنه؟ ماذا تعني بهذا؟».

تنهد وقال: «سوف أخبرك. سوف أخبرك. أريدك أن تعرفي فقط أنني لا أنوي إيقاع الأذى بك يا لينا. لم أكن راغباً في إيذائك أبداً. كنت مضطراً إلى ضربك عندما هاجمتني في البيت... ما الذي كنت أستطيع فعله غير هذا؟ لكنني لن أفعلها من جديد؟ لن أفعلها إلّا أذا جبرتني على ذلك. هل تفهمين؟» لم أجبه بشيء... «اسمعي ما أريد منك فعله: أريد أن تعودي

إلى بيكفورد، وأن تقولي للشرطة إنك هربت مني، ثم استوقفتِ سيارة على الطريق وعدت بها. لا أهمية لهذا، قولي ما تشائين. لست أبالي بما تقوليه لهم... قولي فقط إنك كذبت عليهم فيما يتعلق بي. قولي إنك اختلقت الحكاية كلها. قولي إنك اخترعت هذه القصة لأنك أحسستِ بالغيرة، ولأنك كنت مجنونة لشدة حزنك، أو ربما لمجرد أنك حاقدة علي، لمجرد أنك فتاة قذرة تحب أن تستقطب اهتمام الناس... قولي ما تشائين، هذا لا يهمني. هل اتفقنا؟ قولي ما تشائين شرط أن تقولي لهم إنك كذبت عليهم».

نظرت إليه شزراً وقلت: «ولماذا تظن أنني يمكن أن أفعل هذا؟ حقاً... ما الذي سيجعلني أقول هذا؟ لقد فات الأوان على أية حال. أخبرهم جوش بما يعرفه أيضاً. لم أكن الشخص الوحيد الذي...».

«إذن، قولي لهم إن جوش كذب عليهم أيضاً. قولي لهم إنك طلبت من جوش أن يكذب عليهم. وقولي لجوش أن يسحب أقواله أيضاً. أعرف أنك تستطيعين فعل هذا. وأظن أنك ستفعلين هذا أيضاً لأنك إن فعلت هذا فلن أمتنع عن إيذائك فحسب، بل...» وضع يده في جيب بنطلونه الجينز وأخرج السوار... «سوف أخبرك ما تريدين معرفته. افعلي هذا الشيء من أجلي، وسوف أقول لك كل ما أعرفه».

سرت صوب الجدار. كان ظهري في اتجاهه، وكنت أرتعد لأنني أعرف أنه يستطيع اللحاق بي، لأنني أعرف أنه يستطيع قتلي إن أراد. لكني لم أكن أظن أنه يريد ذلك. كنت قادرة على رؤية هذا. كان يريد الهرب. دفعت المسمار قليلاً بإبهام قدمي. السؤال الوحيد هو: هل سأسمح له بالهرب؟

استدرت فصرت في مواجهته، ظهري إلى الجدار. فكَّرت في أخطائي الغبيَّة كلها، في الأخطاء التي ارتكبتها في طريقي إلى هذا المكان وقلت

في نفسي إنني لن أخطئ من جديد. تظاهرت بالذعر، وتظاهرت بأنني ممتنّة له: «هل تعدني بهذا؟ هل ستتركني أعود إلى بيكفورد؟... من فضلك يا مارك، قل لي... هل تعدني؟»

تظاهرت بأنني كنت مرتاحة لعرضه، وتظاهرت باليأس. تظاهرت بالندم. حاولت إقناعه والتلاعب به.

جلس ووضع السوار أمامه في وسط الطاولة.

«لقد عثرت عليه». قالها بصفاقة، فبدأت أضحك.

«هل عثرت عليه؟ ماذا... هل عثرت عليه في النهر حيث ظلت الشرطة تفتش المكان عدة أيام؟ هل تسخر مني؟».

جلس صامتاً بضع ثواني ثم نظر إلي كما لو أنه يكرهني أكثر من أي شيء في هذه الدنيا. لعله يكرهني هكذا حقاً. قال لي: «هل تريدين الاستماع إلى ما أقوله أم لا؟».

استندت إلى الجدار وقلت: «إنني مصغية».

قال: «لقد ذهبت إلى مكتب هيلين تاونسند. كنت أبحث عن...» بدا لي مُحرَجاً في تلك اللحظة... «كنت أبحث عن شيء من أشيائها؛ من أشياء كاتي. لقد أردت... أردت شيئاً. أردت شيئاً أحمله معي».

هل يحاول أن يجعلني أشفق عليه؟ لن ينجح في هذا! قلت: «ثم ماذا؟».

«كنت أبحث عن مفتاح خزانة الملفات. بحثت عنه في أدراج مكتب هيلين فوجدت السوار في أحدها».

«هل وجدت سوار أمي في درج مكتب السيدة تاونسند؟».

أومأ برأسه: «لا تسأليني كيف وصل السوار إلى ذلك المكان! لكن، إن كانت أمك تضعه في ذلك اليوم، فهذا يعني...» كررت آخر ما قلته بغباء: «السيدة تاونسند».

«أعرف أن هذا لا معنى له».

لكن هذا له معنى! أو يمكن أن يكون له معنى. ما كان يمكن أن أتخيل أنها قادرة على ذلك. إنها قاسية متصلبة قذرة، أعرف هذا، لكني لم أكن أتخيل أنها قادرة على إلحاق أذى جسدي بأي كان.

كان مارك ينظر إليّ؛ قال: «لكن هنالك أمراً لا أستطيع فهمه، ألا ترين هذا؟ ماذا فعلتْ لها؟ ماذا فعلتْ لهيلين؟ ماذا فعلت أمك لهيلين؟».

لم أقل شيئاً. أشحت بوجهي عنه. مرَّت غيمة أمام الشمس فأحسست ببرد مثل الذي أحسسته في بيته ذلك الصباح. كان برداً ينبع من الداخل، كان برداً تخلل جسمي كله. سرتُ إلى الطاولة وأخذت السوار، ثم أدخلت أصابعي فيه ووضعته في معصمي.

«هكذا، لقد قلت لك ما أعرفه. لقد ساعدتك، أليس كذلك؟ إنه دورك الآن».

إنه دوري! عدت إلى الجدار فجثوت والتقطت المسمار. استدرت فواجهته.

قال لي: «لينا...» كان واضحاً من طريقة نطْقه اسمي، ومن تنفسه الضحل السريع، أنه خائف... «لقد ساعدتك. إنني...»

أجبته: «أنت تظن أن كاتي أغرقت نفسها لذعرها من إمكانية أن أخونها، أو لأنها خافت أن تفشي أمي سرَّها... خافت أن يفشي أحد سرَّكما المشترك فيعرفه الجميع؛ وعندها ستقع كاتي في مشاكل كثيرة،

وسوف يدمر هذا الأمر أبويها. لكنك تعرف أن هذا غير صحيح، ألا تعرف هذا؟» نكس رأسه وأمسك بحافة الطاولة... «أنت تعرف أن هذا ليس بالسبب الحقيقي. السبب هو أنها خشيت ما قد يصيبك أنت». ظلَّ مطرق الرأس ينظر إلى الطاولة، ولم يتحرك... «لقد فعلت هذا من أجلك. قتلت نفسها من أجلك. فماذا فعلت أنت من أجلها؟» بدأ كتفاه يرتعشان... «ماذا فعلت؟ لقد كذبت وكذبت، لقد أنكرتها إنكاراً تامّاً كأنها لم تكن تعني لك شيئاً، كأنها لم تكن موجودة في حياتك. ألا تظن أنها تستحق أفضل من هذا؟ سرت في اتجاه الطاولة حاملة المسمار في يدي. كنت أسمعه ينتحب ويقول إنه آسف حزين. كان يقول: «إنني آسف، إنني آسف، إنني آسف. سامحيني. فليسامحني الله». قلت له: «لقد تأخر الوقت قليلاً على الأسف؛ ألا تظن ذلك؟».

شون

بدأ المطر عندما قاربت منتصف الطريق إلى ذلك المكان. كان رذاذاً خفيفاً أول الأمر، وفجأة تحوَّل إلى مطر عنيف دافق. صرت شبه عاجزٍ عن الرؤية أمامي فخففت السرعة كثيراً. اتصل بي أحد رجال الشرطة الذين تم إرسالهم إلى هاويك.

قال ذلك الشرطي: «لا شيء هنا».

«لا شيء؟».

«لا أحد هنا. هنالك سيارة حمراء، لكنا لم نعثر على أيِّ أثر له».

«وماذا عن لينا؟»

«لا أثر لأي منهما. البيت مقفل. إننا نبحث. لا نزال نواصل البحث...»

السيارة هناك، لكنهما غير موجودين. يعني هذا أنهما سائران على

الأقدام في مكان ما؛ لكن لماذا يسيران؟ هل تعطَّلت السيارة؟ هل وصل إلى ذلك البيت فاكتشف أنه لا يستطيع دخوله ولا يستطيع الاختباء فيه؟... لماذا لم يكسر باباً أو نافذة؟ سيكون هذا أفضل من مواصلة الفرار سيراً على الأقدام!... إلّا إذا توفر له من يأخذه بسيارته؟ صديق؟ شخص ما يساعده؟ لعله يعرف شخصاً يمكن أن يساعده في الخروج من هذه الورطة. لكننا نتحدث عن معلم مدرسة لا عن مجرم عادي... ما كنت قادراً على تخيل أن يكون لديه ذلك النوع من الأصدقاء الذي يمكن أن يورط نفسه في جريمة خطف.

لم أكن واثقاً إن كان هذا يريحني أم يزيد ضيقي. إذا لم تكن لينا معه، فليس لدينا أي شيء يشير إلى مكان وجودها. لم يرها أحد منذ أربعٍ وعشرين ساعة تقريباً. كان التفكير في هذا كافياً لجعْلي أصاب بالذعر. كنت أريد أن تكون لينا في أمان. ألم أخذل أمها خذلاناً كبيراً؟

توقفت عن رؤية نيل بعد الحادثة مع أبي. والحقيقة أنني لم أُمض بعد ذلك لحظة واحدة على انفراد معها إلّا بعد موت كاتي ويتاكر؛ لم يكن لي خيار عند ذلك. كنت مضطراً إلى استجوابها بالنظر إلى صلتها بكاتي من خلال ابنتها وبالنظر إلى المزاعم التي كانت لويز تلقي بها هنا وهناك.

استجوبتها بصفتها شاهداً. كان ذلك بالطبع أمراً بعيداً عن المهنية (يمكن إطلاق هذه الصفة على قسم كبير من مسلكي خلال السنة الماضية)، لكن هذا صار يبدو شيئاً لا مفر منه منذ أن علِقتُ مع نيل. وما كنت قادراً على فعْل شيء في هذا الخصوص.

أحسست بما يشبه الحزن عندما رأيتها من جديد لأنني أحسست على الفور تقريباً أن نيل التي كانت من قبل، نيل التي ابتسمت لي تلك الابتسامة الحلوة التي استولت عليّ، نيل التي سحرتني، لم تعد موجودة. لم تختف بقدر ما تراجعت، بقدر ما انسحبت إلى داخل ذات أخرى، إلى

داخل ذات لم أكن أعرفها. عند ذلك، بدتْ لي تخيلاتي الفارغة... حياة جيدة معها ومع لينا، وترك هيلين خلفي من غير ندم... خيالات طفولية إلى حد محرج. كانت نيل التي فتحت لي بابها ذلك اليوم امرأة مختلفة، امرأة غريبة لا أعرف شيئاً عنها.

كانت تنضح إحساساً بالذنب خلال تلك المقابلة؛ لكن ذلك كان شيئاً متحولاً، كان إحساساً بالذنب غير واضح وغير محدد. كانت نيل لا تزال ملتزمة بمشروعها. وقد أصرَّت على أن مشروع بركة الغارقات لا علاقة له بكاتي. لكن من الواضح أنها كانت ترى نفسها مذنبة في شيء ما. كانت جملها كلها تبدأ بعبارات من قبيل «كان عليَّ أن» أو «كان علينا أن» أو «لم أكن أدرك». لكننا لم نستطع الوصول إلى الشيء الذي «ما كان يجب» أو الشيء الذي لم «تستطع إدراكه». وبالنظر إلى ما صرت أعرفه الآن، لا أستطيع افتراض إلَّا أن إحساسها بالذنب كان متعلِّقاً بهندرسون، لا بد أنها عرفت شيئاً أو كانت تشك في شيء. لكنها لم تفعل شيئاً.

تركتها في بيت الطاحون بعد تلك المقابلة وذهبت إلى الكوخ فانتظرتها هناك. كان ذلك أملاً أكثر منه توقعاً حقيقيّاً. لكنها أتت.

وصلتْ بعد منتصف الليل: كانت ثملة بعض الشيء، باكية، على وشك الانهيار. وبعد ذلك، عند الفجر، عندما انتهى كل منا من الآخر، خرجنا إلى النهر.

كانت نيل مفرطة النشاط، في حالة هوس تقريباً. كانت تتحدث عن الحقيقة بحماسة مفرطة، وتقول إنها تعبت من القصص المختلقة وإنها لا تريد إلَّا الحقيقة. الحقيقة، والحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة. قلت لها: «لكنك تدركين أن الأمر ليس هكذا! أحياناً، في أمور من هذا النوع، لا تكون هناك حقيقة يمكن العثور عليها. لا نستطيع أبداً أن نعرف ما كان يدور في ذهن كاتي».

هزَّت رأسها وقالت: «ليس هذا، ليس هذا فقط، إنه ليس...» شدَّت بيدها اليسرى على يدي، وكانت يدها اليمنى ترسم دوائر على التراب. همست من غير أن تنظر إليَّ: «لماذا يحتفظ والدك بهذا المكان؟ لماذا يعتني به على هذا النحو؟».

«لأنه...».

«إن كان هو المكان الذي كانت أمك تأتي إليه، إن كان هو المكان الذي تخونه فيه، فلماذا يا شون؟ لا معنى لهذا».

قلت: «لست أدري». كانت هذه الأسئلة قد دارت في ذهني قبل ذلك. لكنني لم أسأله عن الأمر أبداً. نحن لا نتحدث في هذا الأمر.

«وذلك الرجل، عشيقها: لماذا لا يعرف أحد اسمه؟ لماذا لم يره أحد أبداً؟».

«كيف لم يره أحد؟ لمجرد أنني لم أره، يا نيل، فإن هذا لا يعني...».

«أخبرتني نيكي سيج بأن أحداً لم يكن يعرف هوية هذا الرجل».

كنت مضطراً إلى الضحك عند ذلك: «نيكي؟ هل تتحدثين مع نيكي؟ هل تستمعين إلى ما تقوله نيكي؟».

أجابتني بحدة: «لماذا يتغاضى الجميع عما تقوله نيكي؟ ألأنها امرأة عجوز؟ ألأنها قبيحة؟».

«لأنها مجنونة».

تمتمت لنفسها: «صحيح. العاهرات مجنونات».

«أوه، ماذا بكِ يا نيل؟ إنها محتالة. تزعم أنها تتواصل مع الموتى».

«نعم...» غاصت أصابعها في التراب... «نعم، إنها محتالة؛ لكن هذا لا

يعني أن كل شيء يخرج من فمها يجب أن يكون كذباً. ستفاجأ يا شون بأن الكثير مما تقوله نيكي يبدو حقيقة».

«إنها تقرأ أفكارك يا نيل. وفي حالتك، فإنها ليست مضطرة لقراءة أفكارك. إنها تعرف ما تريدين سماعه، تعرف ما تريدين أن تقوله لك».

ظلَّت صامتة. كفت أصابعها عن الحركة. وبعد ذلك قالت هامسة: «ما الذي يجعل نيكي تظن أنني أريد سماع أن أمك ماتت مقتولة؟».

لينا

ما كان هنالك متسع للشعور بالذنب. استغرق الحزنُ الحيّز كله. الحزن... ذلك الشعور الغريب، الشعور بالخفة الذي يأتيك عندما تستيقظ من كابوس فتدرك أنه ليس حقيقة. لكن ذلك... حتى ذلك لم يكن صحيحاً لأن الكابوس كان لا يزال حقيقة. لقد ذهبت أمي، ولم يصبح هذا حقيقياً أقل من ذي قبل. لكنني أعرف أنها لم تتركني مختارة، أعرف أنها لم تختر أن تهجرني. لقد أخذها أحد ما: هذا ليس قليل القيمة لأنه يعني أنني لا أزال قادرة على فعل شيء من أجلها، ومن أجلي. سأفعل كل ما يلزم حتى أتأكد من أن هيلين تاونسند ستدفع الثمن.

كنت أجري على امتداد الدرب الساحلي حاملة سوار أمي في يدي. كنت مذعورة من احتمال سقوطه مني، من احتمال أن يسقط وينزلق عن قمة الجرف إلى البحر. وددت أن أضعه في فمي حتى أحفظه مثلما تفعل التماسيح بصغارها.

كنت أحسُّ أن الجري على هذا الدرب خطير لأنني يمكن أن أسقط؛ لكنه كان آمناً في الوقت نفسه لأنني أستطيع الرؤية إلى مسافة كبيرة في كل اتجاه. وهكذا عرفت أن ما من أحد يجري خلفي. بالطبع، ما من أحد يجري خلفي.

لن يأتي أحد!

لن يأتي أحد خلفي، لا ليمسك بي، ولا ليساعدني. لم يكن هاتفي معي. وما كنت أعرف أبداً إن كان في بيت مارك أو في سيارته، أو أنه أخذه مني ورماه. لا أظن أنني أستطيع سؤاله عنه الآن!

ما كان لديَّ متسعٌ للشعور بالذنب. عليّ التركيز الآن. بمن أستعين؟ من عساهُ يساعدني؟

كنت أرى بيوتاً على مسافة غير كبيرة أمامي. بدأت أجري أسرع من قبل، جريْت بأقصى سرعة استطعتها. تركت نفسي أتخيل أنني سأجد هناك من يعرف ما يجب فعله. سيكون هناك من لديه إجابات عن الأسئلة كلها.

شون

رن هاتفي الذي كان في الحامل المخصص له فأعادني إلى الحاضر.

كانت تلك إيرين: «شون! أين أنت؟».

«إنني في طريقي إلى الساحل. أين أنتِ؟ هل كان لدى لويز ما تقوله؟».

صمتت وظلت صامتة حتى ظننت أنها لم تسمعني: «هل كان لدى لويز أي شيء تقوله فيما يخص لينا؟».

«ممم... لا! لم يبدُ لي صوتها مقنعاً».

«ما الذي يجري؟».

«اسمع!... يجب أن أتحدث معك، لكني لا أريد أن أقول هذا على الهاتف».

«ماذا؟ هل هي لينا؟ قولي لي الآن يا إيرين؛ لا تخفي شيئاً».

«ليس الأمر مُلحاً. ولا علاقة له بلينا. إنه...».

«بحق الله... إذا لم يكن ملحاً، فلماذا تتصلين؟».

قالت: «يجب أن أتحدث معك لحظة تعود إلى بيكفورد». أحسست أنها غاضبة، باردة... «هل فهمت هذا؟» ثم أنهت المكالمة.

تراجعت شدة المطر فزُدت السرعة. مضت السيارة في طرق منحدرة متلوِّية تحيط بها حواف مرتفعة. ومن جديد، جاءني ذلك الإحساس المدوِّخ الذي يشبه ما يحسه المرء عند المضي بسرعة كبيرة في قطار مدينة الملاهي... خفة الرأس، وانفجار الأدرينالين. عبرتُ قنطرة حجرية ضيقة، ثم انحدر الطريق، ثم ارتفع من جديد وتسلَّق حتى قمة أحد التلال. لقد وصلت: ميناء صغير، وقوارب صيد تعلو وتهبط فوق أمواج لا تهدأ.

كانت القرية هادئة، وأظن أن ذلك كان نتيجة الطقس السيء. هذه هي كراستر. تباطأت السيارة من غير أن أدرك أنني استخدمت الفرامل. رأيت بضعة أشخاص في سترات مصنوعة من شيء يشبه القماش المستخدم في الخيام يسيرون بشجاعة عبر برك الماء. توقفت. سرت خلف رجل وامرأة يجريان إلى مكان يقيهما من المطر فوجدت مجموعة من المتقاعدين مجتمعين حول فناجين الشاي في المقهى. جعلتهم يرون صور لينا ومارك. لم يرهما أحد منهم. قالوا إن شرطياً سألهم عنهما منذ نصف ساعة.

عندما سرت عائداً إلى السيارة، مررت بذلك المطعم الذي وعدتني أمي بأن تأخذني إليه لنأكل السمك المدخن. حاولت تذكر وجهها مثلما أفعل أحياناً، لكني لم أنجح في ذلك أبداً. أظنني كنت أريد تخفيف خيبة أملها عندما قلت لها إنني لا أريد الذهاب إلى هذا المكان. أردت أن

أحسَّ الألم، ألمها في ذلك الوقت، وألمي الآن. لكن تلك الذكرى كانت غائمة إلى درجة جعلتني غير قادر على استعادتها.

قدت السيارة مسافة نصف الميل الباقية حتى هاويك. كان العثور على البيت سهلاً، لأنه البيت الوحيد هناك. بيت جاثم في نقطة خطيرة على قمة الجرف، بيت مشرف على البحر. ومثلما قيل لي، كانت السيارة الحمراء متوقِّفة إلى جانب البيت. كان صندوقها مفتوحاً.

تحاملت على نفسي فخرجت من السيارة وسرت بخطوات أثقلها الخوف. جاء أحد عناصر الشرطة الموجودين في المكان ليبلغني بالتطورات... أين يبحثون، وما توصلوا إليه. كانوا يتحدثون مع حرس السواحل. قال لي الشرطي: «البحر هائج جداً. وإذا كان أي منهما في البحر فمن الممكن أن ينجرف مسافة كبيرة خلال وقت قصير. ونحن لا نعرف، بالطبع، متى وصلا إلى هذا المكان، أو...» قادني إلى السيارة فنظرت في صندوقها... «هذا واضح... الظاهر أن أحداً كان في صندوق السيارة». قال هذا وهو يشير إلى بقعة دم في أرض الصندوق وإلى بقعة أخرى على النافذة الخلفية. كانت خصلة شعر صغيرة عالقة بقفل الصندوق؛ تشبه الشعر الذي رأيته في المطبخ.

أشار الشرطي إلى بقية الأشياء: بقع دم على الطاولة في الحديقة، وعلى الجدار، ومسمار صدئ. لقد خذلتُها مثلما خذلت أمي. لا... مثلما خذلت أمها. خذلتها مثلما خذلتُ أمها. كنت قادراً على الإحساس بنفسي أنجرف بعيداً من جديد، على الإحساس بأنني أفقد إدراكي لما حولي. لكن الشرطي قال عند ذلك: «سيدي؟ لقد تلقينا مكالمة هاتفية. إنه صاحب دكان في القرية المجاورة على شاطئ البحر. يقول إن لديه فتاة هناك. ملابسها مبتلَّة تماماً، وتبدو عليها الصدمة. لا تعرف أين هي، لكنها تطلب منه الاتصال بالشرطة».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت جالسة على مقعد خشبي أمام الدكان. كان رأسها مرتداً إلى الخلف وعيناها مغمضتين. رأيت عليها سترة خضراء داكنة أكبر من مقاسها بكثير. فتحت عينيها عندما توقّفت السيارة.

قفزت من السيارة وجريت نحوها صائحاً: «لينا! لينا!» كان وجهها مبيضاً، شبحياً، عدا بقعة الدم اللامعة على ذقنها. لم تقل شيئاً، لكنها انكمشت في مكانها على المقعد كأنها لم تعرفني، كأنها لم ترني في حياتها... «لينا، هذا أنا. لينا. لا بأس عليك، هذا أنا». عندما لم تتغير تعابير وجهها، وعندما مددت يدي إليها فانكمشت مبتعدة، أدركت أن شيئاً سيئاً قد حدث. لقد كانت تراني... ليست في حالة صدمة... وقد عرفتني. عرفت من أكون، لكنها خائفة مني.

أعاد هذا إلى ذاكرتي نظرة رأيتها مرة على وجه أمها، ورأيتها مرة على وجه الشرطية جيني عندما أخذتني إلى البيت. لم تكن نظرة خوف فقط بل كان فيها شيء آخر. الخوف وعدم الفهم، الخوف والرعب. ذكّرتني بالنظرة التي تبدو على وجهي أحياناً عندما أخطئ فأنظر إلى نفسي في المرآة.

جولز

صعدت إلى غرفتك بعد ذهاب نيكي. كان فراشك عارياً فمضيت إلى خزانة ملابسك وأخرجت واحداً من معاطفك. معطف من الكشمير بلون الكراميل، أكثر نعومة وفخامة من أي شيء كان يمكنني أن أحلم بامتلاكه. لففت نفسي بالمعطف لكني أحسست ببرد أشد من ذلك البرد في الماء. استلقيتُ زمناً طويلاً على سريرك وكنتُ متيبسة الجسم مرهقة لا أقوى على الحركة. أحسست كأنني أنتظر حتى تدفأ عظامي قليلاً، حتى يعود دمي إلى الحركة، حتى يعود قلبي إلى النبض. كنت أنتظر سماع صوتك في رأسي، لكنك كنت صامتة.

أرجوك يا نيل، هكذا كنت أقول في نفسي... أرجوك، كلمني. قلت لك إنني آسفة. لكنني تخيلت إجابتك الجليدية: أكلُّ هذا الوقت يا جوليا؟ ما كنت أريد شيئاً غير الحديث معك.

قالت لي أيضاً: كيف استطعتِ أن تظنِّي بي هذا؟ كيف استطعت الظن بأنني يمكن أن أتغاضى عن اغتصابك أو أن أسخر منك لأنك اغتصبت؟

لا أعرف يا نيل! إنني آسفة.

لجأتُ إلى وسيلة أخرى عندما رأيت أنني لا أزال عاجزة عن سماع صوتك. قلت لك: إذن، أخبريني عن لورين. أخبريني عن تلك النساء اللواتي كن يسببن المتاعب. أخبريني عن باتريك تاونسند. أخبريني بما كنت تحاولين قوله لي.

لكنك رفضتِ قول كلمة واحدة. شعرت تقريباً بأن وجهك قد تجهم.

رن هاتفي. نظرت إليه فرأيت على شاشته الزرقاء الساطعة اسم إيرين مورغان. مرت لحظة لم أجرؤ فيها على الإجابة. ماذا أفعل إذا كان قد حدث شيء للينا؟ وكيف يمكنني العيش مع كل الأغلاط التي ارتكبتها إذا كانت قد رحلت هي أيضاً؟ أخذتُ الهاتف بيد مرتجفة. المفاجأة! عاد نبض قلبي من جديد وتدفق الدم الدافئ في أطرافي. إنها سالمة! لينا سالمة. لقد وجدوها. إنهم آتون بها إلى البيت.

بدا لي أن دهراً مضى، ساعات وساعات، قبل أن أسمع صوت باب سيارة خارج البيت فصرت قادرة على إنهاض نفسي. قفزت ورميت عني معطفك ونزلت السلم جرياً. كانت إيرين هناك، واقفة عند أسفل السلم تنظر إلى شون وهو يساعد لينا في النزول من السيارة.

كانت على كتفيها سترة رجالية ضخمة، وكان وجهها شاحباً متسخاً.

لكنها سالمة. إنها في أمان. إنها على ما يرام. لكنها رفعت رأسها ولاقت عيناها عيني فعرفت أن ذلك كله غير صحيح.

كانت تمشي بخطوات غير واثقة وتضع قدماً أمام الأخرى بحذر شديد؛ وكنت أعرف معنى هذا الإحساس. كانت تحتضن نفسها بذراعيها كأنها تحمي نفسها. أجفلتْ وارتدَّت إلى الخلف عندما مدَّ شون يده إليها ليسير بها إلى البيت. فكرتُ في الرجل الذي أخذها، فكرت في ميوله غير الطبيعية. تقلَّصت معدتي وأحسست بحلاوة طعم الفودكا مع عصير البرتقال، أحسست أنفاساً حارة على وجهي، وأحسست ضغط الأصابع المُلحّة على لحمي.

قلت لها: «لينا»، فأومأت برأسها. رأيت أن ما ظنَنَّاه بقعة متسخة على وجهها كان دماً تجمد على فمها وذقنها.

مددت يدي إلى يدها، لكن ذراعاها شدتا على جسمها بقوة أكبر. تبعتها على السلم. وفي الممر، وقفنا متقابلتين. هزت كتفيها فسقطت السترة على الأرض. انحنيت لالتقاطها، لكن إيرين كانت أسرع مني. أخذت السترة وناولتها إلى شون. سرى شيء ما بينهما... نظرة لم أستطع فهمها، شيء يشبه الغضب.

همستُ لشون: «أين هو؟ أين هو؟»

كانت لينا منحنية على المجلى تشرب الماء من الصنبور مباشرة. «أين هو هندرسون؟» كانت لدي رغبة بسيطة متوحشة في إيلامه، في إنزال الألم بهذا الرجل الذي كان محل ثقة فاستغل موقعه. وددت أن أمسك به، أن أقطِّعه إرباً، أن أفعل به ما يستحقه الرجال الذين مثله.

أجابني شون: «إننا نبحث عنه. لدينا من يبحث عنه الآن».

«ماذا تعني بأنكم تبحثون عنه؟ ألم تكن معه؟».

«كانت معه، لكن...».

لا تزال لينا منحنية على المجلى، ولا تزال تعُبّ الماء.

سألت شون: «هل أخذتموها إلى المستشفى؟».

هز رأسه: «ليس بعد. كانت لينا واضحة تماماً عندما قالت إنها لا تريد الذهاب إلى المستشفى». كان في وجهه شيء لم يعجبني، شيء خبيء.

«لكن...».

قالت لينا وهي تنصب قامتها وتمسح فمها بيدها: «لست في حاجة للذهاب إلى المستشفى. لم يصبني شيء. إنني بخير».

كانت كاذبة. كنت أعرف هذا الكذب، أعرفه تماماً لأنني قلت هذه الكذبة بنفسي فيما مضى. ولأول مرة، رأيت نفسي فيها ولم أركِ أنت. كان تعبير وجهها مزيجاً من الخوف والتحدي. وكنت قادرة على رؤية أنها تضم سرَّها إليها كأنه درع تحميها. تظنُّ أن الألم سيكون أقل، وأن الإهانة ستصبح أخف، إذا لم يستطع أحد رؤية شيء. أمسك شون بذراعي وخرج بي من الغرفة قال لي بهدوء شديد: «لقد أصرَّت على المجيء إلى البيت أولاً. لا نستطيع إجبارها على الخضوع للفحص إذا كانت لا تريده. لكن عليك أن تأخذيها إلى المستشفى بنفسك في أقرب وقت ممكن».

«نعم، بالطبع، سآخذها. لكنني لم أفهم إلى الآن لماذا لم تقبضوا عليه. أين هو؟ أين ذهب هندرسون؟»

قالت لينا وقد صارت واقفة إلى جانبي فجأة: «لقد ذهب». لمستْ أصابعها أصابعي؛ كانت باردة مثلما كانت أصابع أمها عندما لمستها آخر مرة.

سألتها: «ذهب، إلى أين؟ ماذا تقصدين بأنه ذهب؟».

لم تنظر إلي. قالت: «ذهب فقط».

قال تاونسند: «إن عناصر الشرطة يبحثون عنه. لا تزال سيارته هناك، وهذا يعني أنه لم يبتعد كثيراً».

سألت لينا وأنا أحاول النظر في عينيها، لكنها أدارت وجهها: «أين تظنين أنه ذهب يا لينا؟».

هز شون رأسه وقد ظهرت كآبة على وجهه. قال برقة: «لقد حاولت! إنها لا تريد الكلام. أظنها مرهقة».

أطبقت أصابع لينا على يدي، جاء صوتها كأنه تنهد عميق: «إنني مرهقة. أريد أن أنام. هل نستطيع تأجيل الكلام إلى الغد يا شون؟ أنا في حاجة شديدة إلى النوم».

تركَنا شون وإيرين مؤكدين أنهما سيعودان وأن على لينا أن تقدم إفادة رسمية. وقفت أنظر إليهما وهما سائران صوب سيارة شون. عندما جلست إيرين في السيارة، أغلقت الباب بعنفٍ شديدٍ إلى درجة ظننت معها أن زجاج النافذة سوف يتناثر.

نادتني لينا من المطبخ.

قالت لي: «أنا جائعة كثيراً. هل يمكنك إعداد سباغتي بولونيز من جديد. مثل السباغتي الذي أعددته في وقت سابق؟» كانت نبرة صوتها جديدة؛ كانت الرِّقة في صوتها جديدة. كان هذا مفاجئاً لي، مثل لمسة يدها.

أجبتها: «بالطبع! سوف أُعدّه الآن».

«شكراً. سوف أصعد إلى الأعلى قليلاً لأنني في حاجة إلى الاستحمام».

وضعت يدي على ذراعها: «لا يا لينا! لا يمكنك أن تستحمي. عليك أن تذهبي إلى المستشفى أولاً».

هزت رأسها وقالت: «لا، ليس عليَّ أن أذهب إلى المستشفى. لم يصبني أي أذى».

«لينا...» لم أستطع النظر في عينيها عندما قلت هذا... «يجب أن تخضعي للفحص قبل أن تستحمي».

بدا عليها التشوُّش لحظة واحدة، لكن كتفيها تهدلا بعد ذلك، ثم هزت رأسها وتقدَّمت مني. بدأت أبكي، رغماً عني.

لفتني بذراعيها. قالت لي: «لا بأس عليك. لا بأس عليك. لا بأس عليك». مثلما قلتِ لي في تلك الليلة، بعد الماء... «لم يفعل بي شيئاً مما تظنين. لم يكن الأمر هكذا. أنت لا تفهمين أنه ليس مفترساً جنسيّاً شريراً. إنه رجل حزين فقط».

قلت: «أوه، الحمد لله! الحمد لله يا لينا!».

ظللنا واقفتين هكذا، تحتضن كل منا الأخرى. استمر ذلك إلى أن توقفتُ عن البكاء فبدأت تبكي هي. كانت تنتحب مثل طفلة صغيرة، وكان جسدها النحيل يرتعد ويتهاوى وينزلق من بين ذراعي إلى الأرض. ركعت إلى جانبها وحاولت أن أمسك يدها، لكن قبضتها كانت مشدودة بإحكام.

قلت لها: «سيكون كل شيء على ما يرام. سيكون كل شيء على ما يرام آخر الأمر. سوف أحرص على هذا». نظرت إلي ولم تقلْ شيئاً؛ بدت غير قادرة على الكلام. مدت يدها بدلاً من ذلك، وانفتحت أصابعها لتكشف الكنز الذي تخفيه... سوار فضي صغير له مشبك من العقيق... وعند ذلك عثرتْ على صوتها من جديد.

قالت وعيناها تلمعان: «أمي لم تقفز». أحسست أن الغرفة صارت شديدة البرودة فجأة... «أمي لم تتركني. لم تقفز».

وقفتُ زمناً طويلاً في الحمام تحت ماء الدوش الحار إلى أقصى ما استطعت تحمله. أردت أن أنظف جلدي، وأردت أن أغسل عنه اليوم الماضي والليلة الماضية والأسبوع الماضي والشهر الماضي. أردت أن أغسله عني، أن أغسل عني بيتَه القذر وقبضتي يديه ورائحته النتنة، رائحة أنفاسه، رائحة دمه.

كانت جوليا لطيفة معي عندما عدت إلى البيت. لم تكن تتصنع اللطف، بل كان من الواضح أنها سعيدة بعودتي. لقد كانت قلقة عليّ. يبدو أنها ظنت أن مارك قد اعتدى علي؛ لعلها تظنه شخصاً منحرفاً لا يستطيع منع نفسه عن المراهقات. إنني أعترف له بهذا: كان مُحقاً في أمر واحد... لا يفهم الناس ما كان بينه وبين كاتي، ولن يفهموا ذلك أبداً.

(هنالك جزء غير طبيعي، جزء صغير مني، يتمنى لو أنني مؤمنة بالحياة بعد الموت، ويتمنى أن يتمكنا من المواصلة هناك. قد تسير أمورهما هناك على ما يرام... ستكون كاتي سعيدة بذلك. بقدر ما أكرهه، فإنني أحب التفكير في شيء يجعل كاتي سعيدة).

عندما أحسست أنني صرت نظيفة، أو على الأقل أنني اقتربت من النظافة إلى أقصى حد ممكن، ذهبت إلى غرفتي وجلست على طوار النافذة، لأن هذا هو المكان الذي أستطيع فيه التفكير جيداً. أشعلت سيجارة وحاولت أن أتبين ما يتعين علي فعله. كنت أريد أن أسأل أمي، أردت كثيراً أن أسألها، لكني لم أستطع التفكير في ذلك لأنني بدأت أبكي من جديد. ليس البكاء مفيداً لها! لم أعرف إن كان عليَّ إخبار جوليا بما قاله لي مارك. لا أعرف إن كنت أستطيع الثقة بأنها ستتصرف بشكل صحيح.

ربما.

عندما قلت لجوليا إن أمي لم تقفز، توقعتُ أن تجيبني بأنني مخطئة أو مجنونة أو بشيء من هذا القبيل، لكنها قبِلت ما قلته. قبلته من غير سؤال. قبلته كأنها تعرفه قبل أن أقوله لها، كأنها كانت تعرفه دائماً.

لست أدري حتى إن كان ذلك القذر مارك قد قال لي الحقيقة رغم أنه سيكون غريباً فعلاً إن كان قد اخترع تلك الحكاية. لماذا يشير إلى السيدة تاونسند بينما يكون هنالك أشخاص أكثر وضوحاً يمكن إلقاء اللوم عليهم، لويز مثلاً! لكن، لعله يشعر بالأسف تجاه آل ويتاكر بعد ما فعله بهم!

لست أدري إن كان يكذب أو يقول الحقيقة لكنه، على أية حال، استحقَّ ما قلته له وما فعلته به. إنه يستحق كل ما أصابه.

جولز

عندما نزلت لينا السلم عائدة إلى المطبخ وكان وجهها قد صار نظيفاً، ويداها كذلك، جلست إلى طاولة المطبخ وبدأت تأكل بنهم. ارتعدتُ بعد ذلك... عندما ابتسمت وشكرتني... لأنني رأيت الآن، لأنني لم أستطع عدم الرؤية... كانت لها ابتسامة أبيها.

(وماذا أخذت عن أبيها أيضاً؟).

سألتني لينا فجأة: «ما الأمر؟ إنك تحدقين فيّ».

قلت وقد بدأ وجهي يحمرّ: «إنني آسفة. إنني فقط... سعيدة بعودتك إلى البيت. إنني سعيدة بسلامتك».

«وأنا سعيدة أيضاً».

ترددت لحظة قبل أن أتابع: «أعرف أنك متعبة، لكني أريد أن أسألك يا لينا عما حدث اليوم. أريد أن أسألك عن السوار».

أشاحت بوجهها عني. نظرت إلى النافذة: «نعم، أعرف هذا».

«هل كان مع مارك؟» أومأت برأسها... «وأنت أخذته منه؟».

تنهدت لينا وقالت: «لقد أعطاني إياه».

«ولماذا يعطيك السوار؟ لماذا كان السوار معه في الأصل؟».

«لست أدري». استدارت من جديد ونظرت إلي. كانت عيناها خاويتين، مقفلتين: «قال لي إنه وجده».

«وجده؟ أين وجده؟» لم تجبني... «لينا! يجب أن نخبر الشرطة بهذا؛ يجب أن نخبرهم».

وقفت وأخذت صحنها إلى المجلى. قالت مديرة ظهرها إلي: «لقد عقدنا اتفاقاً».

«اتفاق؟».

قالت: «اتفقنا أن يعطيني سوار أمي ويتركني أعود إلى البيت إذا وعدته بإخبار الشرطة أنني كذبت عليهم فيما يتعلق بقصته مع كاتي». كان صوتها منخفضاً إلى حد غريب وهي تضع الصحن في المجلى.

«وهل صدّق أنك ستفعلين هذا؟» رفعت كتفيها النحيلين حتى بلغا أذنيها... «أخبريني بالحقيقة يا لينا. هل تظنين... هل تصدقين أن مارك هندرسون هو من قتل أمك؟».

استدارت ونظرت إلي: «إنني أقول الحقيقة وأنا لا أعرف إن كان هو من قتلها. قال لي إنه أخذ السوار من مكتب السيدة تاونسند».

«هل تقصدين هيلين تاونسند؟» أومأت لينا برأسها... «زوجة شون؟ مديرة المدرسة؟ لكن لماذا يكون السوار لديها؟ لا أفهم...».

قالت لينا بصوت هادئ: «وأنا لا أفهم أيضاً؛ لا أفهم أبداً».

أعددت الشاي وجلسنا معاً إلى طاولة المطبخ، جلسنا نشرب الشاي صامتتين. كان سوار نيل في يدي. أما لينا فكانت جالسة وقد تراخت أطرافها وأطرق رأسها. كان من الواضح أنها في غاية التعب. مددت يدي ومسحت بأصابعي على أصابعها.

قلت لها: «أنت مرهقة. يجب أن تذهبي إلى السرير».

أومأت برأسها، ثم نظرت إلي من تحت جفنيها المتراخيين: «هل تأتين معي إلى الأعلى من فضلك؟ لا أريد أن أكون وحدي».

تبعتها فصعدنا السلم وذهبنا إلى غرفتك. لم نذهب إلى غرفتها. تكورت على سريرك ووضعت رأسها على وسادتك ثم ربَّتت بيدها على الفراش إلى جانبها.

قالت لي: «عندما انتقلنا إلى هذا البيت، لم أكن قادرة على النوم وحدي».

سألتها: «بسبب تلك الأصوات كلها، أليس كذلك؟» قلت هذا وأنا أستلقي إلى جوارها وأشد معطفكِ فوقنا.

هزت رأسها: «أصوات الصرير والطقطقة كلها، والأنين...». «وقصص أمك المخيفة أيضاً؟»

«بالضبط. كنت آتي إلى هذه الغرفة وأنام إلى جوارها طيلة الوقت».

أحسست بغصَّة في حلقي، أحسست بحجر في حلقي. لم أستطع بلْع ريقي: «وأنا كنت أفعل هذا أيضاً... آتي وأنام مع أمي».

***

نامت لينا. وبقيتُ ساهرة إلى جوارها أنظر إلى وجهها الذي كان، لحظة هدوئه، مثل وجهك تماماً. تمنيت أن ألمسها، أن أمسد على شعرها، أن أفعل شيئاً أمومياً، لكني لم أرد إيقاظها أو إخافتها، خفت أن أفعل شيئاً غير صحيح. ليست عندي فكرة عن الأمومة. لم أعتنِ بطفل في حياتي كلها. تمنيتُ لو أنك تكلمينني، تمنيت أن تخبريني بما يجب أن أفعله، بما يجب أن أحسُّه. عندما كنت مستلقية إلى جانبها، أظن أنني شعرت بالعطف والرقَّة، لكنني شعرت بهذا تجاهك أنت، وتجاه أمنا؛ ارتعشت لحظة فتحت عينيها الخضراوين ونظرتْ إليَّ.

همست لي نصف مبتسمة: «لماذا تنظرين إلي بهذه الطريقة دائماً؟ إنها نظرة غريبة حقاً».

قلت: «إنني آسفة»، وانقلبت على ظهري.

دست أصابعها بين أصابعي وقالت: «لا بأس. لا بأس إن كان هذا غريباً. قد يكون الشيء الغريب جيداً».

كنا مستلقيتين هناك، جنباً إلى جنب، وقد تشابكت أصابعنا. كنت أصغي إلى صوت تنفسها يتباطأ ثم يسرع ثم يتباطأ من جديد.

همست: «أتعرفين ما الذي لا أفهمه؟... لماذا كنت تكرهينها إلى هذا الحد؟»

«أنا لم...».

«هي لم تكن تفهم هذا أيضاً».

«أعرف. أعرف أنها لم تفهمه».

«هل تبكين؟» همست وهي تمد يدها وتلمس وجهي. مسحت الدموع عن خدِّي.

أخبرتها. أخبرتها بتلك الأشياء كلها التي كان يجب أن أخبرك إياها. أخبرت ابنتك بدلاً عنك. قلت لها إنني خذلتكِ، وإنني صدَّقت أسوأ الأفكار عنك، وإنني سمحت لنفسي بأن ألومك أنت.

«لكن لماذا لم تخبريها ما جرى؟ لماذا لم تقولي لها ما حدث فعلاً؟».

قلت: «كان الأمر معقداً». أحسست أن جسدها قد تيبس.

«معقَّد؟ كيف؟ كيف كان معقداً؟»

«كانت أُمنا تحتضر. وكان الوضع سيئاً بين أبوينا. لم أكن راغبة في فعل أي شيء يزيد الوضع سوءاً».

قالت: «لكن... لكنه اغتصبك. كان يجب أن يذهب إلى السجن».

«لم أر الأمر بتلك الطريقة آنذاك. كنت صغيرة جداً. كنت أصغر منك الآن؛ لا أقصد أنني كنت أصغر سناً فحسب، رغم أنني كنت أصغر سناً بكثير، لكنني كنت ساذجة عديمة الخبرة، كنت لا أعرف شيئاً أبداً. لم نكن نتحدث عن القبول والرضا مثلما تتحدث البنات الآن. لقد ظننت...».

«هل ظننتِ أن ما فعله كان أمراً مقبولاً؟».

«لا، لكني أظن أنني لم أرَ الأمر على حقيقته. لم أفهم أنه كان اغتصاباً. كنت أظن الاغتصاب شيء يفعله رجال أشرار... رجل يقفز عليك في زقاق في ظلمة الليل، أو رجل يضع سكيناً على رقبتك. لم أكن أظن أن الأولاد يفعلونها. لم أكن أظن أن أولاد المدارس، مثل روبي، الأولاد الذين يبدو مظهرهم حسناً، الأولاد الذين يخرجون مع أجمل الفتيات في البلدة؛ لم أكن أظن أنهم يمكن أن يفعلوا بك هذا في غرفة المعيشة في بيتك، ولم أكن أظن أنهم يمكن أن يتحدثوا معك بعد ذلك عما فعلوه

ويسألونك إن كان ذلك قد أعجبك، إن كنتِ قد أمضيت وقتاً ممتعاً. ظننت فقط أنني ربما فعلتُ شيئاً خاطئاً، ربما لم أوضح له تماماً أنني لا أريد ذلك».

ظلت لينا صامتة بعض الوقت، لكن صوتها كان أعلى عندما تكلمت بعد ذلك، كان أكثر إصراراً: «لا بأس، ربما لم ترغبي في قول أي شيء في ذلك الوقت، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ لماذا لم تقولي شيئاً؟ لماذا لم تشرحي لها الأمر فيما بعد؟»

قلت: «لأنني أسأت فهمها. لقد أسأت فهمها تماماً. ظننت أنها عرفت بما حدث تلك الليلة».

«هل ظننت أنها عرفت ولم تفعل شيئاً؟ كيف استطعتِ أن تظني هذا بها؟»

كيف كنت أستطيع تفسير هذا؟ كيف أقول لها إنني خلطتُ بين الكلمات التي قلتها لي تلك الليلة والكلمات التي قلتها لي بعد ذلك، ألم يكن هنالك في نفسك جزء أحب ذلك؟... ثم قلت لنفسي حكايةً عنك بدت لي منطقية... حكاية سمحت لي بأن أواصل حياتي من غير اضطرار إلى مواجهة ما حدث حقيقة.

همستُ لها: «ظننتُ أنها أرادت حمايته. ظننتُ أنها فضَّلته عليّ. لم أكن قادرة على لومها لأنني ما كنت قادرة حتى على التفكير فيه. لو لمتها وفكرت فيه، لصار الأمر حقيقة بالنسبة لي. ولهذا السبب، اكتفيت بأن... اكتفيت بالتفكير في نيل بدلاً من ذلك كله.

صار صوت لينا بارداً: «لا أستطيع فهمك. لا أستطيع فهم أمثالك من الناس الذين يفضلون دائماً لوم المرأة. إن كان هنالك شخصان يفعلان شيئاً خاطئاً، وكان أحدهما فتاة، فإن الذنب يكون ذنبها، أليس كذلك؟».

«لا يا لينا... ليس الأمر هكذا. إنه ليس...».

«نعم، إنه هكذا. هذا يشبه أن يقيم رجل علاقة مع امرأة. لماذا تكره زوجته المرأة الأخرى دائماً؟ لماذا لا تكره زوجها؟ هو الذي يخونها؛ هو الذي أقسم على حبها والبقاء معها إلى الأبد، وكل ذلك. لماذا لا يكون هو من يُلقى به من فوق ذلك الجرف اللعين؟».

الثلاثاء، 25 آب/أغسطس

إيرين

خرجتُ من الكوخ في وقت مبكر. خرجت أجري صعوداً عكس مجرى النهر. أردت الابتعاد عن بيكفورد حتى يصفى رأسي. لكن، على الرغم من الهواء الذي غسله المطر ومن صفاء السماء وزرقتها الخفيفة، فإن الضباب في رأسي كان يتزايد، يصير أكثر كثافة. لا أفهم شيئاً في هذا المكان.

صرتُ في غاية التوتر عندما تركنا لينا وجولز في بيت الطاحون أمس؛ كان انزعاجي من شون شديداً إلى درجة لم أستطع معها التزام الصمت.

قلت له: «ما الذي كان بينك وبين نيل آبوت؟».

ضغط على دواسة الفرامل بقوة ظننت معها أنني سأُقذَف عبر زجاج السيارة الأمامي. توقفنا في وسط الطريق. لكن شون لم يبد اهتماماً بذلك.

قال: «ماذا قلت؟»

نظرت في المرآة لأرى إن كانت هنالك سيارات خلفنا، لكنه لم يكن مهتماً بذلك. سألته: «ألن تتابع السير؟» أحسست أنني غبية لأنني طرحت السؤال بهذه الطريقة من غير تمهيد ومن غير جسِّ نبضه أولاً.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«هل تشككين في نزاهتي؟» كانت في وجهه نظرة لم أرها من قبل، كانت فيه قسوة لم أواجهها بعد... سألني من جديد: «ماذا؟ هل تشككين؟».

قلت محاولة أن أحافظ على اتزان صوتي: «لقد أوحى لي سير الأمور بهذا السؤال. كان هنالك تلميح إلى...».

«تلميح؟».

بدا غير مصدق. أتت سيارة من خلفنا وأطلقت بوقها فتحرك شون بالسيارة ثم قال: «شخصٌ ما ألمح إلى شيء ما، أليس هذا ما تقولين؟ سمعتِ تلميحاً فرأيتِ أن من المناسب استجوابي في شأن ذلك!».

«شون، أنا...».

كنا قد بلغنا موقف السيارات عند الكنيسة. توقف شون، ثم مال في اتجاهي وفتح بابي. سألني: «هل رأيت سجلّي في الخدمة يا إيرين؟ أقول هذا لأنني رأيت سجلّك».

«لم أقصد الإساءة إليك يا سيدي، لكن...».

«أخرجي من السيارة». لم أكد أغلق الباب من خلفي حتى انطلق مسرعاً.

كنت مبهورة الأنفاس عندما بلغت قمة التل إلى الجهة الشمالية من الكوخ. وقفت على قمته حتى ألتقط أنفاسي. كان الوقت لا يزال مبكراً (لم تبلغ الساعة السابعة صباحاً بعد)، وكان الوادي كلّه لي، تماماً لي... هذا الوادي اللطيف. مطّطتُ ساقيّ استعداداً للنزول. أحسستُ حاجةً إلى الانطلاق سريعاً، إلى الطيران، حتى أستنفد ما بنفسي. أليس هذا سبيل الوصول إلى الصفاء؟

كانت ردة فعل شون أشبه بردة فعل رجل يحسُّ ذنباً. أو كانت ردة فعل رجل تلقَّى إساءة؛ رجل يظن أن هنالك تشكيكاً في استقامته ونزاهته من

غير دليل. زدت من سرعتي. كان محقاً عندما زمجر وقارن بين سجلينا في الخدمة. سجله لا تشوبه شائبة... أما أنا فكادوا يطردونني لأنني نمت مع شخص من زملائي أصغر مني سناً. كنت الآن أجري سريعاً، كنت مندفعة بأقصى قوتي في الطريق المنحدر وعيناي مثبتتان على مسار خطواتي. كانت الأجمات القصيرة على الجانبين تمرُّ بي خطفاً. إن لدى شون سجلاً متميزاً في إلقاء القبض على المطلوبين، وهو يحظى باحترام كبير بين زملائه. إنه رجل جيد، مثلما قالت لويز. تعثرت قدمي اليمنى بحجر في الطريق فاندفعت طائرة. سقطت على التراب شبه عاجزة عن التنفس. شون تاونسند رجل جيد.

هنالك رجال جيدون كثيرون. أبي كان رجلاً جيداً. كان ضابطاً محترماً. لكن هذا ما كان يمنعه من ضربي وضرب إخوتي عندما يسوء مزاجه؛ لكنه جيد مع ذلك. عندما اشتكت أمي أمام أحد زملائه بعد أن كسر أنف أخي الأصغر، قال ذلك الزميل لها: «هنالك خط دقيق لا يصح تجاوزه يا عزيزتي؛ أخشى أنك قد تجاوزتيه الآن».

لملمت نفسي ونهضت واقفة، ثم نفضت الغبار عني. يمكنني الامتناع عن قول أي شيء. ويمكنني أن أظل على الجانب الصحيح من ذلك الخط الدقيق الذي لا يصح تجاوزه. يمكنني تجاهل تلميحات لويز والإيحاءات التي أحسستها في كلامها. يمكنني تجاهل الصلة الشخصية المحتملة بين شون ونيل آبوت. لكني، إن فعلت ذلك، أتجاهل حقيقة أن الدافعَ يكون موجوداً حيث يوجد الجنس. كان لديه دافع للتخلص من نيل، وكان لدى زوجته هذا الدافع أيضاً. تذكرت وجهها عندما تحدثتُ معها في المدرسة، تذكرت كيف تحدثتْ عن نيل وعن لينا. ما الذي كانت تزدريه؟ إنه «تعبيرها المُلحُّ المتواصل عن استعدادها للجنس»!

بلغت أسفل المنحدر ودرت ملتفّة حول الأجمات. صار الكوخ

على مسافة مئتي متر مني فرأيت أن هنالك أحداً أمامه. كان شخصاً بديناً منحني القامة في معطف داكن اللون. هذا ليس باتريك ولا شون. اقتربت فتبيَّنت أنها تلك العجوز الروحانية المخبولة نيكي سيج.

كانت مستندة إلى جدار الكوخ، وكان وجهها قرمزياً لشدة احمراره. بدت كأنها على وشك الإصابة بنوبة قلبية.

ناديتها: «سيدة سيج! هل أنت بخير؟».

رفعت رأسها ونظرت إلي. كانت أنفاسها ثقيلة. رفعت قبعتها المخملية الواسعة فوق حاجبيها وقالت: «إنني بخير رغم أنني لم أمش هذه المسافة كلها منذ زمن بعيد». نظرتْ إليَّ من رأسي إلى قدمي وقالت: «يبدو كأنك كنت تلعبين بالطين».

أجبتها وأنا أحاول نفض بقايا الغبار عني: «أوه، هذا صحيح. لقد تعثرت ووقعت». هزَّت رأسها. نصبت قامتها فسمعت صدرها يصفِّر مع أنفاسها... «هل تحبين أن تدخلي وتجلسي؟».

«هناك؟» أومأت برأسها صوب الكوخ... «لا أظن». ابتعدت عن الباب بضع خطوات وقالت لي: «هل تعرفين ما حدث هنا؟ هل تعرفين ما فعلته آن وارد؟».

أجبتها: «لقد قتلت زوجها، ثم أغرقت نفسها بعد ذلك. أغرقت نفسها هنا، في النهر». رفعت نيكي كتفيها ومشت صوب ضفة النهر. سرت خلفها. تابعت تقول: «كان ذلك فعل تطهُّر أكثر منه جريمة قتل... إن سألتني رأيي. كانت تتخلص من الروح الشريرة التي استولت على ذلك الرجل. لقد غادرتْه الروح الشريرة، لكنها لم تغادر المكان! هل تجدين صعوبة في النوم هنا؟».

«الحقيقة أنني...».

«هذا لا يفاجئني، هذا لا يفاجئني على الإطلاق. كان يمكن أن أقول لك هذا، لكن ما كنت ستصغين. الشر يملأ هذا المكان. لماذا تظنين أن باتريك تاونسند يحرص عليه كأنه ملك له؟ لماذا يعتني به كما لو أنه بيته الخاص؟».

قلت: «لا فكرة عندي. أظنه كان يستخدمه من أجل صيد الأسماك».

«صيد الأسماك!» قالت هذا بعجب واستغراب كأنها لم تسمع أسخف من عبارتي في حياتها كلها... «صيد الأسماك!».

«الحقيقة أنني رأيته يصطاد في هذا المكان، لذلك...».

ضحكت نيكي ضحكة هازئة وأسكتتني بإشارة من يدها. كنا واقفتين عند الماء. كنا متجاورتين، وكانت نيكي تخلع حذاءها من قدميها المتورمتين المُبقَّعتين. غمست إبهام قدمها في الماء وأطلقت ضحكة صغيرة راضية.

«الماء بارد هنا، أليس كذلك؟ إنه نظيف». خطت في النهر حتى غمر الماء كاحليها ثم سألتني: «هل ذهبتِ لرؤيته؟ تاونسند؟ هل سألته عن زوجته؟».

«هل تعنين هيلين؟».

استدارت لتنظر إلي وعلى وجهها تعبير ازدراء: «زوجة شون؟ تلك؟ هيلين، صاحبة الوجه الذي يشبه مؤخرة تلقت صفعات كثيرة؟ ما علاقتها بأي شيء؟ لا أهمية لها إطلاقاً! لا... الزوجة التي يُهمك السؤال عنها هي زوجة باتريك... إنها لورين».

«لورين؟ لورين التي ماتت منذ ثلاثين عاماً؟».

«نعم، لورين التي ماتت منذ ثلاثين عاماً! أتظنين أن الموتى لا أهمية

لهم؟ أتظنين أن الموتى لا يتكلمون؟ عليك أن تسمعي ما يريدون قوله». خطت في الماء خطوة أخرى، ثم انحنت فغمرت يديها فيه... «هكذا هو الأمر، هكذا أتت آن لتغسل يديها مثلما أفعل الآن. انظري كيف!... إلّا أنها تابعت سيرها...».

بدأت أفقد اهتمامي بهذا الحديث. قلت لها وأنا أستدير لكي أذهب: «عليَّ الذهاب يا نيكي. لا بد لي من الاستحمام والذهاب إلى العمل. كان الحديث معك لطيفاً». كنت قد اجتزت نصف المسافة إلى الكوخ عندما سمعتها تناديني. قالت: «أتظنين أن الموتى لا يتكلمون؟ عليك الإصغاء إليهم فمن الممكن أن تسمعي شيئاً. إنك عليك البحث عن لورين... هي من بدأ هذا كله».

تركتها عند النهر. كنت أعتزم الذهاب في وقت مبكر حتى أرى شون. فكرت في الذهاب إلى بيته لآخذه بسيارتي إلى القسم؛ وهكذا يكون أسيراً في قبضتي خمس عشرة دقيقة على الأقل. لن يتمكن من تركي، ولن يستطيع إخراجي من السيارة. هذا أفضل من مواجهته في القسم حيث يمكن أن يكون من حولنا أشخاص آخرون.

لا يبعد بيت تاونسند عن الكوخ كثيراً. لعل المسافة ثلاثة أميال على امتداد النهر، لكن ما من طريق مباشر. لا بد من القيادة طيلة الطريق إلى البلدة، ثم العودة من جديد بعد اجتياز النهر. لم أصل إلّا بعد الثامنة صباحاً، لقد تأخرت! لم أجد أية سيارة في فناء البيت. لقد ذهب. كان الشيء المنطقي أن أعود أدراجي وأتجه إلى القسم. كنت أعرف هذا، صوت نيكي وصوت لويز لم يغيبا عن ذهني. قلت في نفسي إنني سأرى إن كانت هيلين في البيت. سأجرِّب حظي.

لم أجدها. طرقت الباب عدة مرات. فلم أتلق إجابة. عدت في اتجاه السيارة عندما قلت في نفسي إن علي أن أطرق باب باتريك تاونسند أيضاً.

لم أجد أحداً. حاول النظر من النافذة لكني لم أستطع رؤية الكثيرة... غرفة معتمة تبدو فارغة. عدت إلى الباب فطرقته من جديد. لا شيء. لكنني جربت إدارة المقبض فانفتح الباب. بدا هذا كأنه دعوة للدخول.

صحتُ من الباب: «مرحباً! سيد تاونسند؟ مرحباً!» لم يجبني أحد. دخلت غرفة المعيشة... مكان متقشف بأرضية خشبية داكنة وجدران عارية. كانت الزينة الوحيدة في تلك الغرفة مجموعة من الصور الموضوعة في إطارات على رف الموقد. باتريك تاونسند في ملابسه الرسمية... ملابس الجيش أولاً، ثم الشرطة... وعدد من صور شون عندما كان طفلاً ثم مراهقاً. رأيته يبتسم للكاميرا ابتسامة جامدة... الوضعية نفسها وتعبير الوجه نفسه في كل صورة من تلك الصور. كانت هنالك أيضاً صورة لشون وهيلين في يوم زفافهما؛ إنهما واقفان أمام الكنيسة في بيكفورد. بدا شون شاباً وسيماً تعيساً. أما هيلين فبدت مثلما تبدو الآن تقريباً... لعلها كانت أنحف قليلاً. لكنها بدت أكثر سعادة من شون. كانت تبتسم بخجل للكاميرا رغم بشاعة ثوبها.

وعلى طاولة خشبية منخفضة عند النافذة، كانت مجموعة أخرى من الإطارات التي تحتوي على شهادات وبطاقات تقدير... كان ذلك كأنه نصب تذكاري لإنجازات الأب والابن. نظرت فلم أجد أية صورة لوالدة شون.

خرجت من غرفة المعيشة وناديت من جديد: «سيد تاونسند؟» تردد صدى صوتي على الجدران وعاد إليّ من الممر. بدا المكان كله مهجوراً، إلّا أنه كان في غاية النظافة... لا غبار على الألواح التي تغلف الجدران ولا على درابزين السلم. صعدت درجات السلم وصرت في فسحة الطابق الثاني. كانت هنالك غرفتا نوم جنباً إلى جنب، وكان أثاثهما قليلاً مثل أثاث غرفة المعيشة في الأسفل. لكن من الواضح أن ثمة من

يعيش هنا. كان مظهر الغرفتين موحياً بشكل واضح أن هنالك من يعيش فيهما. في غرفة النوم الكبيرة ذات النافذة المتسعة المطلة على وادي النهر، رأيت أشياء باتريك: أحذية سوداء لامعة عند الجدار، وبدلات معلقة في خزانة الملابس. وفي الغرفة الأخرى، إلى جانب سرير فردي مرتَّب بعناية وأناقة، كانت سترة رسمية معلقة على ظهر كرسي. عرفت السترة... إنها السترة التي ارتدتها هيلين عندما قابلتها في المدرسة. كان في خزانة الملابس مزيد من ثيابها، سوداء ورمادية وزرقاء... عديمة الشكل كلها.

رُنّ هاتفي بصوت بدا شديد الارتفاع في هدوء البيت وصمته الجنائزيين. نظرت إلى الهاتف فوجدت رسالة صوتية ومكالمة فائتة. إنها جولز. كانت تقول بصوت جاد: «المحققة مورغان! إنني في حاجة إلى الحديث معك. الأمر طارئٌ وملحٌّ. إنني آتية لرؤيتك. أنا... يجب أن نتحدث على انفراد. سأراك في القسم».

أعدت الهاتف إلى جيبي. عدت إلى غرفة باتريك وألقيت نظرة سريعة أخرى. نظرت إلى الكتب على الرفوف. ونظرت في الدرج المجاور للسرير. كانت فيه صور أيضاً، صور قديمة لشون وهيلين معاً يصطادان الأسماك في النهر قرب الكوخ. صورة لشون وهيلين متكئين باعتزاز على سيارة جديدة، وصورة لهيلين أمام مدرستها تبدو فيها فرحةً ومُحرَجة في الوقت نفسه، وصورة لهيلين واقفة في فناء البيت تحتضن قطة بين ذراعيها، هيلين، هيلين، هيلين.

سمعت صوتاً، تكّة القفل، ثم صوت فتح الباب تلاه صوت خطوات على ألواح الأرضية الخشبية. أعدت الصور بسرعة إلى مكانها وأغلقت الدرج، ثم تحركت بأقصى ما استطعت من هدوء فخرجت من الغرفة إلى فسحة السلم. وهناك تجمدت في مكاني. كانت هيلين واقفة أسفل

السلم؛ كانت رافعة رأسها تنظر إليّ. رأيت في يدها اليسرى سكيناً كبيرة كانت تشدُّ على نصلها بقوة جعلت الدم يقطر على الأرض.

هيلين

لم تفهم هيلين أبداً ما جعل إيرين مورغان تقف في بيت باتريك كأنها تملك المكان، لكن بالها كان في تلك اللحظة أكثر انشغالاً بالدم على الأرض. يحب باتريك أن يكون البيت نظيفاً. أتت بخرقة من المطبخ وبدأت تنظف الأرض، إلّا أن الدم واصل تسرُّبه من الجرح العميق في راحة يدها.

قالت للمحققة كأنها توضح ما حدث: «كنت أقطّع البصل؛ وقد أجفلت عندما رأيتك».

لم يكن هذا صحيحاً تماماً لأنها توقفت عن تقطيع البصل عندما رأت سيارة إيرين تتوقّف في الخارج. وقفت ساكنة تماماً، والسكين في يدها عندما أتت إيرين ودقت الباب. ثم راقبتها عندما ذهبت إلى بيت باتريك. كانت تعرف أنه ليس في البيت. وهكذا فقد توقعت أن تنصرف المحققة. لكنها تذكّرت بعد ذلك أنها لم تقفل باب البيت عندما خرجت منه ذلك الصباح. وهكذا سارت عبر الفناء، والسكين لا تزال في يدها، حتى تتأكد.

قالت إيرين: «هذا جرح عميق. يجب تنظيفه وتضميده جيداً».

كانت إيرين تهبط السلم. ووقفت في مستوى أعلى من هيلين. كانت تنظر إليها وهي تمسح الأرض. كانت واقفة هكذا في بيت باتريك كأنها تملك الحق كله في الوجود هناك.

قالت هيلين: «سوف يغضب إذا رأى هذا. إنه يحب أن يكون البيت نظيفاً. هكذا هو دائماً».

«وأنت... أرى أنك تهتمين بنظافة بيته، أليس كذلك؟».

رشقتها هيلين بنظرة حادة: «إنني أقدم العون. يقوم بمعظم العمل بنفسه، لكنه تقدّمَ في السن. وهو يحب أن يكون الأمر هكذا. كانت المرحومة زوجته قَحبة...» قالت هذا وهي ترفع رأسها ناظرة إلى إيرين... «إنها كلمته هو؛ صارت هذه الكلمة قديمة. ما عاد يجوز للمرء أن يستخدمها، أليس كذلك؟ صارت كلمة غير مقبولة».

وقفتْ هيلين أمام إيرين وكانت الخرقة المدماة في يدها، أمامها. كان الألم في يدها حاراً ساطعاً، كان شبيهاً بألم الحرق وله الأثر الكاوي نفسه. شعرتْ بالخوف، لكنها لم تعرف ممن، ولم تدرك تماماً ما يجعلها تشعر بالذنب، لكنها أحسَّت أن عليها أن استبقاء إيرين هنا حتى تعرف ما تريده. عليها أن تحتجزها بعض الوقت أملاً في عودة باتريك لأنها كانت واثقة من أنه يريد الحديث معها.

مسحت هيلين مقبض السكين بالخرقة، ثم توجّهت بالسؤال إلى إيرين: «هل تريدين فنجان شاي أيتها المحققة؟».

أجابتها إيرين: «سيكون هذا شيئاً جميلاً». لكن ابتسامتها المبتهجة خبت عندما رأت هيلين تقفل الباب وتضع المفتاح في جيبها قبل أن تتابع طريقها إلى المطبخ.

قالت لها إيرين: «يا سيدة تاونسند...».

قاطعتها هيلين: «هل تحبين السكر مع الشاي؟».

الطريقة المثلى للتعامل مع هذه المواقف هي دفع الشخص الآخر خارج المسار الذي رسمه للعبته. تعرف هيلين هذا الأمر نتيجة سنوات من العمل في القطاع العام. عندما تفعل ما لا يتوقع منك الناس فعْله فإنك تجعلهم متأخرين عنك خطوة. يمنحك هذا وقتاً حتى إذا لم يفدك في أي شيء آخر. لهذا، وبدلاً من أن تكون حانقة غاضبة من قدوم هذه المرأة إلى بيتهم من غير إذن، راحت هيلين تتصرَّف بتهذيب.

سألت إيرين وهي تقدم لها فنجان الشاي: «هل عثرتم عليه؟ مارك هندرسون؟ هل عاد إلى البلدة؟».

أجابتها: «لا، ليس بعد».

تنهدت هيلين وقالت: «بقيت سيارته على الجرف، وما من أثر له في أي مكان. قد يكون الانتحار اعترافاً بالذنب في هذه الحالات، أليس كذلك؟ من المؤكد أنه سيبدو هكذا. شيء محيِّر!» أومأت إيرين برأسها. رأت هيلين أنها متوترة... ظلت تلتفت صوب الباب وتعبث بشيء في جيبها... «سيكون هذا شديد السوء بالنسبة للمدرسة. سوف يضرّ بسمعة المدرسة. سمعة البلدة كلها... تلطخ من جديد...».

سألتها إيرين: «ألهذا السبب كنت تكرهين نيل آبوت إلى هذا الحد؟ لأنها لطخت سمعة بيكفورد بمشروعها؟».

تجهَّم وجه هيلين: «الحقيقة أن هذا واحدٌ من الأسباب. لقد كانت أُماً سيئة مثلما قلت لك، وكانت تُبدي قلة احترام تجاهي وتجاه تقاليد المدرسة وأنظمتها».

سألتها إيرين: «هل كانت قحبة؟».

فوجئت هيلين، ضحكت: «عفواً؟ ماذا قلت؟».

«كنت أتساءل فقط إن كانت نيل آبوت قحبة! تلك الكلمة التي قلت إنها صارت الآن غير مناسبة؟ سمعت أنه كانت لها علاقات مع بعض الرجال في البلدة...».

قالت هيلين: «لا أعرف أي شيء عن هذا». لكن وجهها بدأ يحمرُّ وأحسَّت أنها بدأت تفقد المبادرة في هذا الحديث. نهضت واجتازت الغرفة فأتت بالسكين المتروكة على الطاولة. وقفت عند المجلى وغسلت السكين من الدم.

قالت بصوت هادئ: «لا أزعم أنني أعرف شيئاً عن حياة نيل آبوت الخاصة». كانت تشعر بعيني المحققة مسلطتين عليها، تراقبان وجهها ويديها. شعرتْ أيضاً بأن احمرار وجهها يمتد إلى رقبتها وصدرها، شعرت بأن جسدها يخذلها. حاولت أن تحافظ على نبرة صوتها المعتدلة: «لكن الأمر لن يفاجئني إذا تبيَّن أنها مُنحلّة أخلاقياً. لقد كانت امرأة ساعية إلى لفت الأنظار».

كانت تريد أن ينتهي هذا الحديث. وكانت تتمنى أن تغادر المحققة البيت وأن يكون شون موجوداً، وباتريك أيضاً. شعرت بشيء يدفعها إلى وضع كل شيء على الطاولة، إلى الاعتراف بخطاياها ومطالبتهما بأن يعترفا بخطاياهما. لقد ارتُكبت أخطاء، هذا شيء لا مفرَّ من الاعتراف به؛ لكن عائلة تاونسند عائلة جيدة. إنهم أناسٌ جيدون. ليس لديهم ما يخشونه. استدارت لتواجه المحققة. كانت ذقنها مرفوعة، واكتسب وجهها أقصى تعبير ترفّع تمكنت من استحضاره، لكن يديها ظلتا ترتعشان إلى درجة خشيت معها أن تسقط السكين من يدها. من المؤكد أنها ليس لديها ما تخشاه!

جولز

تركتُ لينا في الصباح نائمةً في سرير أمها. لا تزال غارقة في نومٍ عميق. كتبت لها ملاحظة قلت فيها إنني سأقابلها في قسم الشرطة عندَ الساعة الحادية عشرة حتى تقدم إفادتها الرسمية. كانت هنالك أشياء أريد القيام بها أولاً لأن من الأفضل أن يجري الكلام بين الكبار. كان عليَّ الآن أن أفكر مثلما يفكر الأهل فيما يتعلق بلينا، أن أفكر كأنني أمها. كان عليّ أن أحميها وأن أبعدها عن أي أذى.

قُدت السيارة في اتجاه قسم الشرطة، لكنني توقفت في منتصف

الطريق لأتصل بإيرين حتى أخبرها بأنني قادمة. أردت التأكد من أنني سأتحدث مع إيرين فقط، وكان عليَّ التحقق من أننا نستطيع الحديث على انفراد.

كانت لينا تتحدث عن شون تاونسند عندما قالت في الليلة الماضية: «لماذا لا يكون هو من يُلقى به من فوق ذلك الجرف اللعين؟» لقد اتضح كل شيء الآن؛ اتضح أن شون وقع في حب نيل وأن نيل، (كما تظن لينا وقعت في حب شون قليلاً). انتهى الأمر منذ فترة، لأن نيل قالت إن الأمر قد «استُنفِد»، لكن لينا لم تصدقها تماماً. على أية حال، لا بد أن هيلين قد اكتشفت الأمر، ولا بد أنها انتقمت. عند ذلك، جاء دوري لكي أغضب أنا أيضاً: لماذا لم تقل لينا شيئاً من هذا قبل الآن؟ لقد كان شون مسؤولاً عن التحقيق في موت نيل؛ وهذا شيء غير مناسب على الإطلاق.

قالت لينا: «لقد كان يحبها. ألا يكون شخصاً جيداً عندما يحاول اكتشاف ما حدث لها؟».

«لكن، يا لينا، ألا ترين أن...».

«إنه شخص جيد يا جوليا. كيف يمكنني أن أقول أي شيء؟ لو قلت شيئاً لسبَّبت له متاعب كثيرة، وهو لا يستحق هذا. إنه رجل جيد».

لم ترد إيرين على اتصالي فتركت لها رسالة صوتية وتابعت طريقي إلى قسم الشرطة. توقفت أمام القسم واتصلت بها من جديد، لكنها لم تجبني. وهكذا قررت انتظارها. مرّ نصف ساعة فقررت الدخول. إن كان شون هنا فسوف أختلق عذراً ما... سأتظاهر بأنني ظننت أن موعد الإدلاء بإفادة لينا كان في الساعة التاسعة وليس في الحادية عشرة. سأفكر في شيء ما.

اتضح أنه لم يكن موجوداً في القسم. لم تكن إيرين هناك أيضاً. قال

لي الشرطي في مكتب الاستقبال إن المفتش تاونسند ذهب إلى نيوكاسل، وسيظل هناك طيلة اليوم. قال أيضاً إنه لا يعرف شيئاً عن مكان وجود المحقِّقة مورغان، لكنه واثق تماماً من أنها يمكن أن تأتي في أية لحظة.

عدتُ إلى السيارة. أخرجتُ سوارك من جيبي. لقد وضعته في كيس من النايلون حتى أحميه، حتى أحمي ما قد يكون عليه. هناك فرصة ضئيلة لأن تكون عليه آثار بصمات أو بقايا DNA... إن لهذا أهميته، وإن تكن فرصة ضئيلة. لقد كان احتمالاً ضئيلاً. لكن هذا الاحتمال الضئيل يمكن أن يكون خطوة في اتجاه الحصول على إجابة. قالت نيكي إنك ميتة، لأنك وجدت شيئاً عن باتريك تاونسند. وقالت لينا إنك ميتة لأنك وقعت في حب شون تاونسند، ولأنه وقع في حبك. كما أن هيلين تاونسند، هيلين الغيورة الميالة إلى الانتقام، يمكن أن تكون لها علاقة بالأمر أيضاً. كيفما اتجه تفكيري، أجد واحداً من عائلة تاونسند.

وللمفارقة، رأيت نيكي سيج، رأيتها فعلاً، تلُوح متحركة في مرآة السيارة. كانت تسير متثاقلة عبر موقف السيارات، كانت تسير ببطء مؤلم وقد احمرَّ وجهها تحت قبعتها الكبيرة. بلغت مؤخرة سيارتي فاستندت عليها. سمعت تنفسها المجهد الثقيل عبر نافذتي المفتوحة.

خرجت من السيارة وقلت لها: «نيكي! هل أنت بخير؟» لم تجبني بشيء... «نيكي؟» اقتربت منها فبدا لي أنها تعيش آخر لحظة من عمرها.

قالت لاهثة: «إنني في حاجة إلى مَن يوصِّلني إلى البيت. أسير على قدميَّ منذ أربع ساعات». ساعدْتها حتى جلست في السيارة. كانت ثيابها مبللة بالعرق. سألتها: «أين كنت تمشين يا نيكي؟ ماذا كنت تفعلين؟».

قالت بصوت متقطع: «كنت أمشي في اتجاه كوخ وارد. كنت أصغي إلى النهر».

«ألا تدركين أن النهر يمر أمام باب بيتك؟ أنت تعرفين هذا!».

هزَّت رأسها: «ليس هو النهر نفسه. تظنين أنه نفسه، لكنه يتغير. إن له روحاً مختلفة هناك. عليك أن ترتحلي أحياناً حتى تسمعي صوته».

انعطفت يساراً قبل الجسر مباشرة، واتجهت صوب الساحة. سألتها: «هنا، أليس كذلك؟» أومأت برأسها... لم تستعد أنفاسها بعد... «قد يكون من الأفضل أن تجعلي أحداً يوصِّلك بالسيارة عندما تجدين نفسك راغبة في الارتحال».

استندت بظهرها على المقعد وأغمضت عينيها: «هل تتطوعين لهذا؟ لم أتخيل أنك باقية هنا؟».

ظلت بعض الوقت جالسة في السيارة، أمام بيتها. لم يطاوعني قلبي على جعلها تصعد السلم مباشرة. وهكذا جلست مصغية إليها بينما راحت تحدثني عن السبب الذي يجعل بقائي في بيكفورد ضرورياً، وكيف سيكون مفيداً للينا أن تبقى قرب الماء. قالت أيضاً إنني لن أسمع صوت أختي إذا ذهبت.

قلت لها: «تعرفين أنني لا أصدق هذه الأشياء كلها يا نيكي».

قالت منزعجة: «أنت تصدقينها، بالطبع».

ما كنت أريد جدالاً: «لا بأس! أفهم الآن أنك ذهبت اليوم إلى كوخ وارد. إنه المكان الذي تقيم فيه إيرين مورغان حالياً، أليس كذلك؟ هل رأيتها هناك؟».

«رأيتها. كانت في الخارج، تجري في مكان ما، ثم انطلقت تجري في مكان آخر... لعلها ذهبت تنبح على شجرة خاطئة. إنها مهتمة بهيلين تاونسند رغم قولي لها إنه ليس عليها أن تشغل بالها بها. لا يصغي أحد إلي ما أقول. قلت لها لورين، ولم أقل هيلين. لكن أحداً لا يصغي إلي أبداً».

أعطتني نيكي عنوان آل تاونسند. أعطتني العنوان وأعطتني معه تحذيراً: «إذا ظنَّ العجوز أنك تعرفين شيئاً فسوف يؤذيك. عليك أن تكوني ذكية!».

لم أخبرها شيئاً عن السوار، ولم أقل لها إنها هي التي تنبح على شجرة خاطئة، وليست إيرين.

إيرين

ظلت هيلين تلتفت صوْب النافذة من حين لآخر كأنها تتوقع مجيء أحد.

سألتها: «أنت ترقبين عودة شون، أليس كذلك؟»

هزَّت رأسها وقالت: «لا. لماذا يعود شون الآن؟ إنه في نيوكاسل. ذهب للحديث مع الإدارة عن قصة هندرسون. لا بد أنك تعرفين هذا».

أجبتها: «لم يقل لي شيئاً. لا بد أنه نسيَ إخباري». رفعت حاجبيها تعبيراً عن عدم التصديق. تابعت: «يكون شون أحياناً شارد الذهن، أليس هذا صحيحاً؟» ازداد حاجباها ارتفاعاً... «لا أعني أن لهذا أثراً سلبياً على عمله، أو أي شيء من هذا القبيل، لكن شون أحياناً...».

قالت بحدة: «كُفّي عن الكلام».

كانت قراءة ما في عقلها مستحيلة لأنها تنتقل فجأة من التأدب إلى الغضب، ومن الخجل والخوف إلى العدوانية... تكون في لحظة حانقة، ثم تصير مذعورة في لحظة أخرى. كان هذا يجعلني في غاية التوتر. هذه المرأة الصغيرة الفأرية التي لا تترك في النفس تأثيراً، هذه المرأة الجالسة قبالتي، كانت تخيفني لأنه لم تكن لديَّ أية فكرة عما يمكن أن تفعله في اللحظة التالية: هل ستقدم لي فنجاناً آخر من الشاي، أم ستهاجمني بالسكين؟

دفعت بكرسيها إلى الخلف فجأة فزعقت قوائمه عندما انزلقت على البلاط. نهضت واقفة وذهبت إلى النافذة. قالت بصوت هادئ: «لقد مضى زمن طويل على ذهابه».

« من تعنين؟ هل هو باتريك؟».

تجاهلتْ سؤالي... «إنه يمشي في الصباح، لكنه لا يتأخر هكذا عادة. ليس في حالة صحية جيدة. وأنا...».

سألتها: «هل تريدين أن أذهب لأبحث عنه. يمكنك الذهاب معي إن أحببت».

قالت كأنها تكلم نفسها، كأنني لست موجودة، كأنها لا تستطيع سماع صوتي: «إنه يمشي حتى الكوخ كل صباح تقريباً. لا أعرف السبب. كان شون يأخذها إلى هناك. وهناك كانا... أوه، لست أدري. لا أدري ما يجب فعْله. لم أعد واثقة حتى من أنني أعرف ما هو الشيء الصحيح». شدت قبضة يدها بقوة فظهرت بقعة دم حمراء على ضمادها النظيف الأبيض.

قالت: «كنت سعيدة عندما ماتت نيل آبوت. أسعدنا ذلك جميعاً. كان موتها راحة لنا، لكنها راحة لم تستمر طويلاً... لم تستمر طويلاً، لأنني الآن لا أستطيع منع نفسي من التساؤل عمّا إذا كان موتها قد سبب لنا مزيداً من المتاعب». استدارت أخيراً ونظرت إليّ... «لماذا أنت هنا؟ لا تكذبي من فضلك، لأنني لست في مزاج مناسب اليوم». رفعت يدها إلى وجهها وعندما مسحت بها فمها لطّخ الدم شفتيها.

وضعت يدي في جيبي وأخرجت هاتفي. قلت لها وأنا أنهض واقفة ببطء: «أظن أنني يجب أن أذهب. أتيت للحديث مع شون. لكن، بما أنه ليس هنا...».

قالت وهي تخطو إلى اليسار خطوة بحيث صارت بيني وبين باب

البيت: «إنه ليس شارد الذهن، وأنت تعرفين هذا. صحيح أنه يشرد أحياناً، لكن هذا شيء مختلف. إذا كان لم يخبرك بأنه ذاهب إلى نيوكاسل، فذلك لأنه لا يثق بك. وإن كان لا يثق بك، فأظن أنني لا أثق بك أيضاً. سأسألك مرة أخرى، مرة واحدة فقط، لماذا أنت هنا؟».

أطرقتْ برأسي وبذلتُ جهداً حقيقيّاً حتى أجعل كتفي يتهدلان، حتى أظل مسترخية. قلت لها: «مثلما أخبرتك؛ كنت أريد الحديث مع شون».

«عن أي شيء تريدين الحديث؟»

قلت: «عن مزاعم متعلقة بخلل مسلكي؛ عن علاقته مع نيل آبوت».

تقدمت هيلين خطوة في اتجاهي فأحسست جسدي يتوتر كله متأهِّباً.

قالت لي وقد ظهرت ابتسامة حزينة على وجهها: «ستكون هنالك عواقب لهذا الأمر، أليس كذلك؟ كيف تركنا أنفسنا نظنُّ أنه لن تكون هنالك عواقب».

قلت لها: «هيلين، أريد فقط أن أعرف...» سمعتُ صوت الباب فتراجعت سريعاً حتى أجعل مسافة بيني وبينها. دخل باتريك الغرفة.

مرَّت لحظة لم يقل فيها أحد منا شيئاً. كان يحدق بي، عيناه في عيني، وفمه يتحرك، بينما كان ينزع سترته ويعلِّقها على ظهر واحد من الكراسي. ثم التفت إلى هيلين. لاحظ الدم على يدها فتحرك سريعاً.

«ماذا حدث؟ هل فعلتْ لك شيئاً يا عزيزتي...؟».

احمرَّ وجه هيلين من جديد وأحسستُ بتقلص في معدتي. قالت له: «هذا لا شيء. إنه لا شيء. ليست هي السبب. انزلقت يدي أثناء تقطيع البصل و...» نظر باتريك إلى يدها الأخرى، إلى السكين التي لا تزال معها. أخذها منها بلطف وسألها من غير أن ينظر إلي: «ماذا تفعلُ هذه المرأة هنا؟».

مالت هيلين برأسها جانباً ونقلت نظرتها من باتريك إليّ، ثم عادت إليه من جديد. قالت له: «إنها تطرح أسئلة، أسئلة عن نيل آبوت وعن...» ابتلعت ريقها... «وعن شون. تطرح أسئلة عن مسلكه المهني».

قلتُ: «علي أن أوضح شيئاً... هذه مسألة إجرائية متعلقة بكيفية التعامل مع التحقيق».

لم يظهر على باتريك أي اهتمام بما قلته. جلس إلى طاولة المطبخ من غير أن ينظر في اتجاهي. قال لهيلين: «هل تعرفين السبب الذي جعلهم ينقلونها إلى هذه البلدة؟ لقد سألتُ... لا أزال أعرف بعض الأشخاص بالطبع، وقد تحدثت مع واحد زملائي السابقين في لندن. قال لي إن هذه المحققة الممتازة موجودة هنا لأنهم نقلوها من عملها في العاصمة بسبب إغوائها شخصاً في العمل، شخصاً أصغر منها سنّاً. لم يكن ذلك زميلاً لها، بل زميلة... امرأة! هل يمكنك تخيل هذا؟» ضحك ضحكة جافة تحولت إلى سعال مدخّن عتيق... «هذه هي. هذه هي التي تطارد زميلك السيد هندرسون رغم أنها مذنبة مثله تماماً: إساءة استخدام نفوذها من أجل متعتها الجنسية. وهي لا تزال محتفظة بوظيفتها». أشعل سيجارة ثم تابع كلامه... «ثم تأتي إلينا هنا وتقول إنها تريد الحديث عن مسلك ابني المهني».

نظر إليَّ أخيراً: «كان يجب طردك من سلك الشرطة كله. لكن، لأنك امرأة، ولأنك سُحاقية، فإن في وسعك أن تفلتي من العقاب. هذا ما يطلقون عليه اسم المساواة». ضحك ضحكة ساخرة... «هل يمكنك تخيُّل ما كان سيحدث لو كان الفاعل رجلاً. لو أمسكوا بشون ينام مع واحدة من مرؤوساته، فسوف يجرُّونه من أذنه ويلقون به خارجاً».

شددت قبضتي يديّ حتى أوقف ارتعاشهما. سألته: «وماذا لو كان

شون ينام مع امرأة انتهى بها الأمر إلى الموت؟ ماذا تظن أنه يمكن أن يحدث له في تلك الحالة؟»

تحرَّك بسرعة غير متناسبة مع سنِّه. وقف على قدميه فاندفع الكرسي الذي كان تحته ووقع. أطبقتْ يده على رقبتي خلال أقل من ثانية. همس لي وهو ينفث في وجهي دخاناً حامض الرائحة: «أمسكي لسانك أيتها العاهرة القذرة». سددت لكمة قوية إلى صدره فأفلتني.

تراجع إلى الخلف مسبلاً ذراعيه. كانت قبضتا يديه مشدودتين. قال بصوت هادئ: «لم يفعل ابني شيئاً خاطئاً. لذلك، إذا تسببت له بأي مشكلة يا فتاتي فسوف أسبب لك مشكلة. هل تفهمين هذا؟ سأعيدُ المشكلة إليك، مع الفوائد».

قالت هيلين: «أبي... هذا يكفي. أنت تخيفها».

التفت إلى كنّته مبتسماً: «أعرف يا حبيبتي. أريد أن أخيفها». نظر إليّ وابتسم من جديد... «عند بعضهم، تلك هي الطريقة الوحيدة التي تجعلهم يفهمون».

جولز

تركت السيارة إلى جانب الطريق المفضي إلى بيت آل تاونسند. لم أكن مضطرة إلى هذا، لأن هناك أماكن كثيرة للوقوف. لكني شعرت بأن عليّ أن أتركها هناك. بدا لي أنها يجب أن تكون مهمة سرية، كأنه يتعين عليَّ أن أفاجئهم بقدومي. تلك البقية التي لا تهاب شيئاً، البقية التي لا تزال عندي، تلك التي ظهرت يوم واجهت مغتصبي... عادت إليّ الآن. كان السوار في جيبي. دخلت فناء البيت الغارق في ضياء الشمس. كنت منتصبة القامة، مصممة. إنني آتية بالنيابة عن أختي، آتية حتى أضع كل شيء في نصابه. كنت مصممة. كنت غير خائفة.

كنت غير خائفة إلى أن فتح لي الباب باتريك تاونسند. كان الغضب ظاهراً على وجهه، ورأيت في يده سكيناً. سألني: «ماذا تريدين؟».

تراجعت عن الباب خطوتين: «أنا...» كان على وشك إغلاق الباب في وجهي، وكنت خائفة إلى درجة جعلتني غير قادرة على إخباره بما أريد. لقد قالت لي نيكي: قتل باتريك زوجته، وقتل أختك أيضاً.

قلت له: «لقد كنت...».

ناداني صوت من الداخل: «جولز؟ هل هذه أنت؟».

كان مشهداً غريباً حقاً. رأيت هناك هيلين. كان الدم على يديها وعلى وجهها. ورأيت إيرين أيضاً، رأيتها تتظاهر بأنها مسيطرة على زمام الموقف، لكن من غير أن تنجح في ذلك. استقبلتني بابتسامة مبتهجة. سألتني: «ما الذي أتى بك؟ كان يجب أن نلتقي في القسم».

«صحيح، أعرف هذا. إنني...».

دمدم باتريك: «انطقي. قولي!».

أحسست بوخز الحرارة في جسدي، صارت أنفاسي متقطعة قصيرة. علا صوته وهو يلقي بالسكين على طاولة المطبخ: «أنتم... آل آبوت! يا إلهي، ما هذه العائلة؟ إنني أذكرك. أتعرفين هذا؟ ألم تكوني سمينة عندما كنت في سن أصغر؟» استدار مخاطباً هيلين: «كانت بقرة سمينة مقرفة. وكان هناك أبوها وأمها أيضاً! شيء محزن». كانت يداي ترتعشان عندما استدار ونظر إليّ... «أظن أن الأم كان لها عذرها لأنها كانت تحتضر؛ لكن كان يجب أن يتولى أحد ما أمرهم. لقد أفلت زمامك تماماً، أليس كذلك... أنت وأختك؟ وانظري الآن كم صارت أموركما جيدة! لقد كانت أختك غير مستقرة عقلياً، وأنت...، ما أنت؟ هل أنت بسيطة العقل؟».

قالت إيرين: «هذا أكثر من كاف يا سيد تاونسند». أمسكتْ بذراعي وقالت لي: «هيا بنا، فلنذهب إلى القسم. علينا أن نأخذ إفادة لينا».

قال باتريك: «آه، نعم، صحيح... الفتاة! سوف تسلك الطريق نفسه الذي سلكته أمها، إن لها المظهر القذر نفسه؛ فم قذر. لها ذلك النوع من الوجوه الذي يحسُّ المرء رغبة في صفعه».

قلت بصوت مرتفع: «أنت تنفق وقتاً كثيراً على التفكير في فعل أشياء لابنة أختي المراهقة، أليس هذا صحيحاً؟ هل تظنُّ هذا سلوكاً حسناً؟» اشتد غضبي من جديد، وما كان باتريك مستعداً له... «ماذا تقول؟ هل تظنه سلوكاً حسناً أيها العجوز المقزز؟» التفتُّ إلى إيرين وقلت لها: «في الحقيقة لست جاهزة للذهاب بعد. لكنني سعيدة بوجودك هنا يا إيرين. أظن أن وجودك الآن أمر حسن لأنني لم آتِ للتحدث معه...» قلت هذا وأنا أشير برأسي صوب باتريك... «بل أتيت للحديث معها. أتيت للحديث معك يا سيدة تاونسند». بيد مرتجفة أخرجت الكيس الصغير من جيبي ووضعته على الطاولة، إلى جوار السكين... «أردت أن أسألك متى أخذت هذا السوار من معصم أختي؟».

اتسعت عينا هيلين فعرفت أنها مذنبة.

سألتني إيرين: «من أين أتى هذا السوار يا جولز؟»

«من لينا. لينا أخذته من مارك هندرسون. ومارك هندرسون أخذه من هيلين. وأما هيلين، وأنا أخمن هذا بالاستناد إلى نظرة الذنب الواضحة على وجهها الآن، فقد أخذته من أختي قبل أن تقتلها».

بدأ باتريك يضحك. كانت ضحكة مرتفعة الصوت، مزيفة، عاوية. قال: «هي أخذته من لينا التي أخذته من مارك الذي أخذه من هيلين التي أخذته من الجنيَّة التي كانت في شجرة عيد الميلاد اللعينة! آسف يا حُبي... لكن، ما هذه القاذورات؟».

«كان في مكتبك، أليس هذا صحيحاً يا هيلين؟» نظرتُ إلى إيرين وقلت: «لا بد أن عليه بصمات، أو DNA، أليس كذلك؟».

ضحك باتريك من جديد لكن هيلين بدت مصدومة: «لا، إنني...» قالت هاتين الكلمتين أخيراً بينما كانت عيناها تنتقلان مني إلى إيرين إلى باتريك... «لقد كان...لا». أخذتْ نفساً عميقاً وقالت: «لقد وجدته. لكني لم أكن أعرف... لم أعرف أنه سوارها. إنني فقط... لقد وجدته فاحتفظت به. كنت أعتزم تسليمه إلى مكتب الممتلكات المفقودة».

سألتها إيرين: «أين وجدته يا هيلين؟ هل وجدته في المدرسة؟».

ألقت هيلين نظرة سريعة في اتجاه باتريك، ثم عادت إلى المحققة كأنها تفكر إن كانت كذبتها قادرة على الصمود. قالت لها: «أظن أنني... نعم، لقد وجدته في المدرسة. ثم... نعم... لم أعرف من هي صاحبته، ولذلك...».

قلت: «كان هذا السوار في يد أختي في ذلك الوقت. إن عليه الأحرف الأولى من اسم أمي. أجد صعوبة في تصديق أنك لم تعرفيه، في أنك لم تدركي أهميته».

قالت هيلين: «لم أعرف ذلك». لكن صوتها صار خافتاً. ازداد احمرار وجهها.

صاح باتريك فجأة: «طبعاً! طبعاً لم تكن تعرف! طبعاً لم تكن تعرف لمن هذا السوار ومن أين جاء». مضى إلى جانبها مسرعاً ووضع يده على كتفها... «كان السوار عند هيلين لأنني تركتُه في سيارتها. كانت هذه قلَّة حرص من جانبي. كنت سأتخلص منه. هذا ما اعتزمتُ فعله، لكن... لكني صرت كثير النسيان. لقد صرت أنسى كثيراً، أليس هذا صحيحاً

يا عزيزتي؟» لم تجبه هيلين بشيء ولم تتحرك أبداً. قال من جديد: «لقد تركتُه في سيارتها».

قالت إيرين: «لا بأس. وكيف حصلت عليه؟».

أجابها وهو ينظر إليّ مباشرة: «كيف تظنين أنني حصلت عليه أيتها الغبية الحمقاء؟ انتزعته من معصم تلك العاهرة قبل أن أدفعها من فوق الجرف».

باتريك

كان يحبها منذ زمن بعيد، لكنه لم يحبها في أي لحظة أكثر من تلك اللحظة التي هبَّت فيها حتى تدافع عنه.

قفزت هيلين وقالت: «ليس هذا ما حدث! ليس هذا... لا تقل هذا! لا تتحمل المسؤولية بهذه الطريقة يا أبي. ليس هذا ما حدث. أنت لم... أنت حتى لم...».

ابتسم باتريك لها ومدَّ يده إليها. أمسكت بيده فجذبها لتصير أقرب إليه. كانت ناعمة، لكنها لم تكن ضعيفة؛ وكان تواضعها ووضوحها الصريح أكثر تأثيراً في النفس من أي جمال سطحي. لقد تأثَّر الآن... شعر بأن دمه يغلي، وصار قلبه العجوز الضعيف أكثر نشاطاً.

لم يتكلم أحد. كانت أخت نيل تبكي بصمت ويتحرك فمها بكلمات ليس لها صوت. وكانت المحققة تنظر إليه وتنظر إلى هيلين. كان في وجهها شيء يوحي بأنها فهمت هذا من قبل.

«هل أنت...؟» هزَّت رأسها لتستعيد كلمات فقدتْها... «سيد تاونسند، إنني...».

«هيا، ماذا بك؟» شعر بالانزعاج فجأة وأراد كثيراً أن يتخلص من الكَرَب الواضح على هذه المرأة... «بحق الرب، أنت شرطية... افعلي ما يتوجب عليك فعله».

أخذت إيرين نفَساً عميقاً وتقدمت صوْبه خطوة: «باتريك تاونسند! إنني أعتقلك بشبهة قتل دانييل آبوت. لست مضطراً إلى قول أي شيء...».

قال بصوت متعب: «نعم، نعم، نعم، لا بأس. أعرف، أعرف هذا كله. يا إلهي. النساء من أمثالك... لا يمكن أن تعرف الواحدة منكن أبداً متى يكون عليها أن تكف عن الكلام».

استدار بعد ذلك إلى هيلين: «لكن أنت، يا حبيبتي، أنت تعرفين. تعرفين متى تتكلمين ومتى تسكتين. أنت تقولين الحق دائماً يا فتاتي». بدأت هيلين تبكي. أراد أكثر من أي شيء أن يكون إلى جانبها الآن، أن يكون معها في الغرفة، في الأعلى، مرة واحدة أخيرة فقط قبل أن يأخذوه بعيداً عنها. قبّل جبهتها، ثم ودَّعها قبل أن يخرج من الباب خلف المحققة.

لم يكن باتريك ميالاً إلى الروحانيات في يوم من الأيام، ولم يكن ميالاً إلى الحدس أو الأحاسيس الداخلية؛ لكنه شعر بالأمر هذا الصباح... إن أراد أن يكون صادقاً مع نفسه: إنه التوقُّع. نهاية اللعبة! شعر بهذا قبل زمن من سحب جثة نيل آبوت الباردة من الماء، لكنه صرف النظر عن إحساسه واعتبره عرضاً من أعراض التقدم في السن. لقد كان دماغه يلعب معه ألعاباً كثيرة في الآونة الأخيرة، كان يعزّزُ ألوان الذكريات القديمة ويضخم أصواتها بينما يشوش معالم الذكريات الحديثة. عرف أن ذلك كان بداية الأمر، بداية الوداع الطويل، وعرف أنه سيتآكل من الداخل إلى الخارج، من اللُّب إلى القشر. لكنه كان قادراً على الشعور

بالامتنان، على الأقل، لأنه لا يزال يملك وقتاً لربط النهايات السائبة، للإمساك بزمام الموقف. أدرك الآن أن ذلك هو السبيل الوحيد لإنقاذ شيء من الحياة التي بناها رغم معرفته أن إنقاذ الجميع غير ممكن.

عندما أجلسوه في غرفة الاستجواب في قسم الشرطة في بيكفورد، ظنَّ أول الأمر أن الإذلال سيكون أشد مما يستطيع احتماله؛ لكنه احتمله. اكتشف أن إحساسه المفاجئ بالارتياح جعل الأمر أسهل مما كان يتوقَّع. لقد أراد أن يحكي قصته. إن كانت القصة ستُحكى، فيجب أن يكون هو من يحكيها طالما أنه لا يزال يملك وقتاً لهذا، طالما أن عقله لا يزال ملكاً له. كان هناك ما هو أكثر من الراحة، كان هناك اعتزاز.

طيلة حياته، كان جزءٌ من نفسه راغباً على الدوام في أن يروي ما حدث ليلة موت لورين، لكنه ما كان قادراً على هذا. امتنع عن قول أي شيء لأنه يحب ابنه.

تكلَّم كلاماً مختصراً، وقال جملاً بسيطة. كان شديد الوضوح. عبَّر عن عزمه على تقديم اعتراف كامل بقتل لورين سليتر سنة 1983 وقتل دانييل آبوت سنة 2015.

وبالطبع، كانت قصة لورين أكثر سهولة. كانت حكاية واضحة مباشرة. لقد تشاجرا في البيت. هاجمته لورين فدافع عن نفسه. وأثناء دفاعه هذا، أصيبت لورين بجرح خطير. كان جرحها خطيراً إلى درجة تجعل إنقاذها مستحيلاً. ولأنه أراد أن يرحم ابنه ويوفر عليه معرفة الحقيقة، ولأنه أراد أن ينقذ نفسه من حكم بالحبس (أقرَّ بهذا أيضاً) وضعها في السيارة وأخذها إلى النهر، ثم حمل جثتها حتى قمة الجرف وألقاها إلى الماء بعد موتها.

استمعت المحققة مورغان إليه بأدب، لكنها أوقفته عند هذه النقطة. سألته: «هل كان ابنك معك في هذا الوقت يا سيد تاونسند؟».

أجابها باتريك: «لم يرَ شيئاً. لقد كان صغيراً جداً، وكان خائفاً جداً بحيث لا يمكنه أن يفهم ما يحدث. لم ير أمه تصاب بذلك الجرح، ولم يرها تسقط».

«ألم يكن ينظر إليك عندما رميتها من فوق الجرف؟».

اقتضى الأمر كل ذرة من القوة لديه حتى يمنع نفسه من القفز عبر الطاولة وصفعها. قال لها: «لم يرَ أي شيء. كان عليّ أن أضعه في السيارة لأنني ما كنت قادراً على ترك طفل عمره ست سنوات وحيداً في البيت خلال عاصفة رعدية. لو كان لديك أطفال لفهمت هذا. إنه لم يرَ شيئاً. لقد كان مشوشاً. وهكذا أخبرته... نسخة من الحقيقة يمكنه فهمها، نسخة يستطيع أن يجد لها معنى».

«نسخة من الحقيقة؟».

«رويت له قصة... هذا ما يفعله المرء مع الأطفال عندما تكون هنالك أشياء لا يستطيعون فهمها. رويت له قصة يستطيع أن يعيش معها، قصة تجعل حياته قابلة للعيش. ألا تفهمين هذا؟» حاول كثيراً، لكنه لم يستطع منع صوته من الارتفاع... «ما كان ممكناً أن أتركه وحده، هل تفهمين؟ لقد رحلت أمه. وإذا ذهبت أنا إلى السجن، فما الذي سيحدث له؟ أي نوع من الحياة يمكن لحياته أن تكون؟ لو حدث هذا لوضعوه في مركز لرعاية الأطفال. لقد رأيت ما يحدث للأطفال الذين يترعرعون في هذه المراكز. لا يخرج منها طفل من غير ضرر أو انحراف. لقد حميتُه». قال باتريك عبارته الأخيرة والاعتزاز يملأ صدره... «حميته طيلة حياته».

أما قصة نيل آبوت، فمن المؤكد أنها كانت أقل سهولة. قلق عندما اكتشف أنها تتحدث مع نيكي سيج وتأخذ تلميحاتها المتعلقة بلورين على محمل الجد. لم يقلقه أبداً احتمال ذهابها إلى الشرطة لأن نيل ما

كانت مهتمة بالعدالة أو بأي شيء من هذا القبيل! كان اهتمامها منصباً على إضفاء جو من الإثارة على فنِّها الذي لا قيمة له. لكنه قلق لأنها يمكن أن تقول شيئاً يحزن شون. لقد حمى ابنه مرة أخرى. قال: «هذا ما يفعله الآباء. أقول هذا رغم معرفتي بأنك قد تكوني غير قادرة على إدراكه فقد قيل لي إن أباك كان سكيراً غير مسؤول». ابتسم لإيرين مورغان عندما انكمشت على نفسها تحت وقع هذه الضربة... «وقيل لي أيضاً إنه كان متقلِّب المزاج كثيراً».

قال لها إنه رتب لقاءً مع نيل آبوت في وقت متأخر ذات مساء حتى يحدثها عن تلك المزاعم.

سألته المحققة مورغان غير مصدقة: «وهل ذهبت للقائك على الجرف؟».

ابتسم باتريك: «أنت لم تعرفيها أبداً. ليست لديك أي فكرة عن غرورها الزائف، عن شدة إحساسها بأهميتها. لم يتطلب الأمر أكثر من الإيحاء لها بأنني أريد جعلها ترى ما حدث بالضبط بيني وبين لورين: سأريها كيف تتالت الأحداث المفزعة في تلك الليلة. سأريها ذلك في المكان نفسه، في البقعة نفسها حيث جرى الحدث. أوحيت لها بأنني سأحكي لها القصة مثلما لم يحْكِها أحد من قبل. وبأنها ستكون أول من يسمعها. بعد ذلك، عندما صارت هناك معي، كانت كل شيء سهلاً. لقد كانت تشرب قبل مجيئها مما جعلها غير مستقرة على قدميها.

«وماذا عن السوار؟».

تململ باتريك في مقعده وأجبر نفسه على النظر مباشرة في عيني المحققة مورغان: «كان هنالك شيء من العراك. لقد أمسكت بذراعها عندما حاولت الهرب مني. وعند ذلك انفكَّ السوار من معصمها».

«قلت لي في المرة السابقة إنك نزعته من معصمها، أليس هذا ما قالته؟» نظرت في دفتر ملاحظاتها... «تقول هنا إنك: انتزعت السوار من معصم تلك العاهرة!».

أومأ باتريك برأسه: «نعم، أعترف بأنني كنت غاضباً. كنت غاضباً لأنها أقامت علاقة مع ابني، لأنها جعلت زواجه في خطر. لقد أغوتْه. حتى أقوى الرجال وأكثرهم فضيلة وأخلاقاً يمكن أن يجد نفسه منقاداً لامرأة تعرض نفسها عليه بتلك الطريقة...».

«بأية طريقة؟»..

شد باتريك على أسنانه: «تعرض تقديم نوعٍ من الانغماس في المتعة الجنسية قد لا يجده في بيته. هذا شيء حزين... أعرف أنه حزين، لكنه يحدث. كنتُ غاضباً لهذا الأمر. إن زواج ابني قوي جداً». رأى باتريك حاجبي المحققة مورغان يرتفعان من جديد فأضاف، حتى يؤكد ما قاله: «كنت غاضباً بسبب هذا. انتزعت السوار من معصمها، ثم دفعتها».

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

القسم الرابع

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أيلول/سبتمبر

لينا

كنت أظن أنني لن أرغب في الرحيل، لكنني صرت غير قادرة على النظر إلى النهر كل يوم، ولا على عبوره كل يوم في طريقي إلى المدرسة. لا أريد حتى السباحة فيه بعد الآن. لقد صار شديد البرودة على أية حال. سوف نذهب إلى لندن غداً. أكاد أفرغ من حزم أمتعتي.

سوف يُعرض البيت للإيجار. ما كنت أريد هذا، وما كنت أريد أن يعيش أشخاص في غرفنا وأن يحتلوا أماكننا، لكن جولز قالت إن أحداً يمكن أن يأتي ويسكن البيت بوضع اليد إذا لم نؤجِّره، أو يمكن أن تبدأ أجزاؤه بالتداعي من غير أن يكون هنالك مَن يصلحها. لم أكن أريد هذا أيضاً، فوافقت.

لكنه سيظل بيتي أنا. لقد تركته أمي لي؛ وعندما أصير في الثامنة عشر (أو في الحادية والعشرين، أو شيء من هذا القبيل)، سيكون البيت لي بكل معنى الكلمة. وسوف أعيش هنا من جديد. أعرف أنني سأعيش هنا من جديد. سأعود عندما لا تكون العودة مؤلمة إلى هذا الحد وعندما أكفُّ عن رؤيتها أينما نظرت.

يخيفني الذهاب إلى لندن، لكن إحساسي تجاه هذه الفكرة صار

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أفضل مما كان قبل الآن. جولز (لا أقول جوليا) غير طبيعية فعلاً؛ وسوف تكون غير طبيعية دائماً. فيها مشكلة حقيقية. إنها معطوبة. لكن فيها أشياء تعجبني. إنها تطبخ وتُناكفني في أشياء كثيرة، وتوبخني بسبب التدخين، وتصرُّ على أن أخبرها متى أخرج من البيت ومتى أعود. إنها تفعل مثلما تفعل أمهات الناس الآخرين.

ثم إني مسرورة بأننا سنكون وحدنا، نحن الاثنتين... لا زوج ولا أصدقاء من الرجال (هذا ما أظنه)، ولا أي شيء من هذا القبيل. ثم إنني سأذهب إلى مدرسة لا أحد فيها يعرفني ولا يعرف عني شيئاً. تقول جوليا إنني أستطيع إعادة صنع نفسي، وهذا مزعج قليلاً... كما لو أنها تقول إنني عندي مشكلة! لكني أعرف ما تعنيه. قصصتُ شعري كله وصرت الآن أبدو مختلفة. لن أكون الفتاة الجميلة عندما أذهب إلى المدرسة الجديدة في لندن، سأكون عادية المظهر فحسب.

جوش

جاءت لينا لتودِّعني. لقد قصت شعرها كله. لا تزال جميلة، لكنها كانت أجمل. قلت لها إنني أفضل شعرها الطويل فضحكت وقالت إنه سينمو من جديد. قالت إن الوقت لن يطول قبل أن أراها مرة أخرى. هذا ما جعلني مرتاحاً لأنها، على الأقل، تظن أننا سنلتقي من جديد، وهو ما لم أكن واثقاً منه لأنها ستكون في لندن ولأننا راحلون إلى ديفون. ليست ديفون قريبة من لندن. لكن لينا قالت إنها ليست بعيدة كثيراً... خمس ساعات فقط، أو شيء ما؛ ثم إنها ستحصل على رخصة قيادة السيارة بعد بضع سنوات فتصير قادرة على القدوم لرؤيتي. وعندها سنرى ماذا يمكن أن نورط أنفسنا فيه من أفعال جنونية.

جلسنا في غرفتي بعض الوقت. كان ذلك غريباً محرجاً بعض الشيء لأن أحداً منا ما كان يعرف ما يقوله للآخر. سألتها إن كانت لديها أخبار

جديدة فبدت نظرتها من غير تعبير تقريباً. قلت إنني أسألها عن السيد هندرسون فهزَّت رأسها نفياً. بدا لي أنها غير راغبة في الحديث عنه. كانت هنالك شائعات كثيرة... يقول الناس في المدرسة إنها قتلته ورمته في البحر. أظن أن هذا كلام فارغ. لكني لن ألومها حتى إن كان صحيحاً.

أعرف أن كاتي لن تكون سعيدة أبداً إذا أصاب السيد هندرسون أي أذى؛ لكن كاتي لن تعرف بالأمر، أليس كذلك؟ لا وجود لحياةٍ بعد الموت. ولا أهمية إلّا للناس الباقين. وأنا أظنُّ أن الأمور تتحسن. أمي وأبي ليسا سعيدين، لكنهما يتحسنان. صارا مختلفين عما كاناه من قبل. لعلهما مرتاحان الآن؛ لعلهما لم يعودا مضطرين إلى التساؤل عن السبب. صار لديهما شيء يستطيعان الإشارة إليه والقول: ها هو؛ هذا هو السبب. صار لديهما شيء يمسكان به، كما قال أحدهم. أنا قادر على رؤية هذا رغم أنني لا أرى معنى لأي شيء من هذا كله.

لويز

صارت الحقائب في السيارة، وصارت على الصناديق لصاقات بمحتوياتها. وسوف يستلمون المفاتيح قبل حلول الظهر. ذهب جوش وآليك في جولة سريعة في بيكفورد لوداع الناس، لكن لويز بقيت في البيت.

هنالك أيام أحسن من غيرها.

بقيت لويز في البيت حتى تودع المكان الذي عاشت فيه ابنتها. إنه البيت الوحيد الذي عرفتْه كاتي في حياتها كلها. كان عليها أن تودع مخطَّط تطوُّر طول الطفل الموضوع في الخزانة تحت السلم، وأن تودِّع الدرجة الحجرية في الحديقة حيث سقطت كاتي وجرحت ركبتها، حيث صار على لويز للمرة الأولى أن تواجه حقيقة أن ابنتها لن تكون

كاملة لا عيب فيها... ستكون فيها شائبة، نُدبة على ركبتها. كان عليها أن تودِّع غرفة نومها حيث كانتا تجلسان وتتحدثان بينما تجفف كاتي شعرها وتضع أحمر الشفاه وتقول إنها ذاهبة إلى بيت لينا وقد تمضي عندها الليل كله، فهل هذا ممكن؟

تسأل لويز نفسها: كم مرة كان هذا كذباً؟

(كان من الأمور التي تجعلها غير قادرة على النوم في الليل واحد من تلك الأمور فقط تذَكُّرها كم تأثَّرت ذلك اليوم عند النهر عندما رأت دموعاً في عيني مارك هندرسون وهو يعزِّيها).

جاءت لينا لوداعهم وأتت معها بالمخطوط الذي كتبته نيل، وبالصور والملاحظات والـUSB التي احتوت كل ما كان على الكمبيوتر من ملفات. قالت لها: «افعلي بها ما تشائين. أحرقيها إن أحببت. لا أريد النظر إلى أي شيء من هذا بعد اليوم».

كانت لويز مسرورة بقدوم لينا، وكانت مسرورة أكثر لأنها لن تضطر إلى رؤيتها بعد ذلك.

سألتها لينا: «هل تظنين أنك تستطيعين الصفح عني؟ هل تظنين أن هذا سيكون ممكناً ذات يوم؟»

قالت لويز إنها سامحتها؛ وكانت هذه كذبة بدافع من العطف.

كان العطف مشروعها الجديد. وكانت تأمل في أن يكون العطف أرق من الغضب على الروح. على أية حال، ورغم معرفتها بأنها لن تستطيع أن تسامح لينا (بسبب القصص التي اخترعتها، ولأنها كتمت السر، ولأنها ظلَّت موجودة بعد أن لم تعد كاتي موجودة)، فإنها ما كانت قادرة على كرْهها أيضاً. لا تستطيع أن تكرهها لسبب واضح واحد على الأقل: إن كان في هذا الرعب كله شيء لا شك فيه أبداً فهو أن لينا تحب كاتي.

كانون الثاني/يناير

نيكي

حزمت نيكي سيج أمتعتها.

صارت البلدة أكثر هدوءاً. تصير بيكفورد أكثر هدوءاً كلما جاء الشتاء، إلَّا أن أشخاصاً كثيرين رحلوا عنها أيضاً. باتريك تاونسند قابع في زنزانته الآن (ها ها!). أما ابنه فقد جرى بعيداً علَّه ينعم ببعض السلام... حظاً طيباً له! صار بيت الطاحون فارغاً لأن لينا آبوت وخالتها انتقلتا إلى لندن. رحل آل ويتاكر أيضاً. يبدو أن البيت ظلَّ معروضاً أقل من أسبوع قبل أن يظهر فيه أشخاص جدد لديهم سيارة رينجروفر وثلاثة أطفال.

صار رأسها أكثر هدوءاً أيضاً. لم تعد جيني تكلمها بصوت مرتفع مثلما كانت تفعل. وعندما تتكلم الآن يكون حديثها أقرب إلى الثرثرة منه إلى التقريع. هذه الأيام، تجد نيكي نفسها تمضي وقتاً أقل في الجلوس عند النافذة والنظر منها، وتمضي وقتاً أطول في السرير. صارت تحسُّ نفسها متعبة كثيراً... تؤلمها ساقاها أكثر من أي وقت مضى.

سوف تسافر إلى إسبانيا في الصباح، وستمضي أسبوعين في الشمس. راحة وشيء من التسلية... هذا ما كانت في حاجة إليه.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جاءها المال مفاجئة: عشرة آلاف جنيه من نيل آبوت جاءت إلى عنوان نيكي سيج في شارع مارش، بيكفورد. من كان يمكن أن يتوقع هذا؟

لكن، ربما لا يجوز لنيكي أن ترى في هذا شيئاً مفاجئاً لأن نيل هي الوحيدة التي أصغت إليها حقّاً. روحٌ نقية! كان أثر ذلك عليها طيباً.

إيرين

عدتُ قبل عيد الميلاد بوقت قصير. لا أستطيع حقاً أن أحدد سبباً لعودتي غير أنني كنت أحلم بالنهر كل ليلة تقريباً. ظننتُ أن رحلة إلى بيكفورد يمكن أن تطرد هذه الروح الشريرة.

تركت السيارة عند الكنيسة وسرت إلى الشمال من البركة، ثم صعدتُ إلى أعلى الجرف ومررت ببضع باقات من الزهور الذابلة الملفوفة بالسيلوفان. مشيت المسافة كلها حتى الكوخ. وجدته محدوْدباً بائساً. كانت ستائره مُسدَلة، وكانت على بابه بقع متناثرة من طلاء أحمر. حاولت فتح الباب، لكنه كان مقفلاً فاستدرت وجلست على العشب الذي جمَّده الصقيع عند النهر. كان النهر شاحباً، أزرق، صامتاً. وكان ضباب رقيق يتصاعد منه كأنه شبح. تعلَّقت أنفاسي بيضاء في الهواء أمامي وأحسست ألماً في أذني لشدة البرد. كان من الأفضل أن آتيَ بقبعة.

جئت إلى النهر لأنني ما كان لدي مكان آخر أذهب إليه، وما كان لدي أحد أكلمه. كان شون الشخص الذي أردت حقاً أن أتحدث معه، لكنني لم أستطع العثور عليه. قيل لي إنه انتقل إلى مكان اسمه «بيتي مي» (أشفقوا علي) في منطقة دورهام يبدو هذا الاسم مصطنعاً، لكنه ليس كذلك. البلدة موجودة حقاً، لكن شون لم يكن فيها. اتضح لي أن العنوان الذي حصلت عليه كان بيتاً خالياً عليه لافتة «للإيجار». حتى

أنني اتصلت بسجن فرانكلاند حيث يمضي باتريك بقية أيامه، لكنهم قالوا إن أحداً لم يزر العجوز منذ وصوله.

كنت أريد سؤال شون عن الحقيقة. وكنت أظنُّ أن من الممكن أن يخبرني لأنه لم يعد الآن شرطياً. ظننت أنه قد يكون قادراً على شرح كيف تمكن من عيش الحياة التي عاشها. أردت أيضاً سؤاله إن كان طيلة الوقت على علم بما فعله والده، خاصة عندما كان يحقق في موت نيل. إذا اتضح أنه كان على علم بذلك، فلن يكون هذا غريباً عنه: لقد ظل يحمي أباه طيلة حياته.

أما النهر نفسه، لم يعطني أية إجابات. كان لدي أمل منذ شهر مضى عندما وجد صياد هاتفاً محمولاً في الطين. لكن هاتف نيل آبوت لم يخبرنا شيئاً أكثر مما عرفناه من سجل اتصالاتها. إن كانت في الهاتف صور يمكنها تفسير كل ما بقي من غير تفسير، فقد كنا عاجزين عن الوصول إليها لأن الهاتف لم يعمل على الإطلاق... كان ميتاً، متآكلاً بفعل الطمي والماء.

بعد رحيل شون، كانت لدينا أكوام من الأوراق التي يجب العمل عليها. كان هنالك بحث وأسئلة مطروحة ظلت من غير إجابة، أسئلة عما عرفه شون، ومتى عرفه، ولماذا جرى التعامل مع الأمر كله بهذا الأسلوب الرديء. لا أقول هذا عن قضية نيل وحدها، بل عن قضية هندرسون أيضاً: كيف كان ممكناً أن يختفي هذا الرجل من غير أثر؟ كيف اختفى من تحت أنوفنا؟

أما أنا فقد عدت إلى تلك المقابلة الأخيرة مع باتريك، عدت إليها مرة بعد مرة، عدت إلى القصة التي رواها. كان باتريك ممسكاً بذراع نيل. انتزع السوار من معصمها... العراك الذي جرى بينهما فوق الجرف قبل أن يدفعها. لكننا لم نجد آثار كدمات في الأماكن التي قال إنه أمسكها

منها. ولم نجد أي علامات على معصم يدها الذي انتزع منه السوار... لا شيء يشير إلى حدوث أي عراك على الإطلاق. لم يكن مشبك السوار مكسوراً.

لقد أشرتُ وقتها إلى هذه الأمور كلها. لكن، بعد كل ما حدث، وبعد اعتراف باتريك واستقالة شون، وذلك الميل العام الذي ظهر عند الجميع عندما راحِ كل شخص يحاول حماية نفسه والتغاضي عن التفاصيل، لم أجد أحداً لديه استعداد لأن يصغي لي.

جلست عند النهر وأحسست ما كنت أحسُّه منذ فترة: أحسست أن هذا كله، قصة نيل ولورين وكاتي... أحسست أن هذا كله ليس مكتملاً، ليس منتهياً. نعم... لم أكن قادرة على رؤية كل ما كان يجب أن يُرى.

هيلين

كانت لهيلين عمة تعيش بالقرب من «بيتي مي»، إلى الشمال من دورهام. وكانت لدى تلك العمة مزرعة. تذكّرت هيلين كيف زارتها ذات صيف، وكيف أطعمت الحمير قِطَعاً من الجزر، وكيف كانت تلتقط التوت البري من الأسيجة. لم تجد عمتها هناك؛ ولم تكن واثقة من مكان المزرعة. وجدت البلدة أكثر فقراً وأسوأ حالاً من الصورة التي كانت في ذاكرتها؛ لم ترَ فيها حميراً أيضاً. إلّا أن البلدة كانت صغيرة لا يعرفها أحد. ولم يبدُ لها أن فيها من يُعرها أي اهتمام.

وجدت لنفسها عملاً أدنى من مؤهلاتها واستأجرت شقة صغيرة في طابقٍ أرضيّ لها فسحة مسقوفة صغيرة من جهة الخلف. كانت الشمس تدخل الشقة بعد الظهر.

استأجرا بيتاً حقيقياً عندما انتقلا إلى تلك البلدة. لكن ذلك لم يستمر

أكثر من أسابيع قليلة استيقظت بعدها ذات صباح ولم تجد شون. وهكذا أعادت المفاتيح إلى صاحب البيت وبدأت تبحث من جديد.

لم تحاول الاتصال به. كانت تعرف أنه لن يعود. لقد تحطمت أسرتهما. كانت دائماً على وشك التحكم لولا وجود باتريك: كان هو المادة الرابطة التي تجمعهما معاً.

كان قلبها محطماً أيضاً، كان محطماً بطريقة لا تحب التفكير فيها. لم تذهب لزيارة باتريك. كانت تعرف أن عليها حتى ألا تشعر بالأسف عليه: لقد اعترف بقتل زوجته وبقتل نيل آبوت بدم بارد.

لا، لم يقتلهما بدم بارد. هذا غير صحيح. كانت هيلين تدرك أن باتريك يرى الأشياء بالأبيض والأسود؛ وكانت تؤمن إيماناً صادقاً بأن نيل آبوت كانت خطراً على أسرتهم، على بقائهم معاً. لقد كانت خطراً حقيقياً. وهذا ما جعله يتصرف. فعل ذلك من أجل شون، وفعل ذلك من أجلها هي أيضاً. ليس هذا دماً بارداً!

لكن الكابوس نفسه كان يعاودها كل ليلة: ترى باتريك ممسكاً بقطتها تحت الماء. في الحلم، تكون عيناه مغمضتين، لكن عيني القطة مفتوحتان. وعندما يدير الحيوان المسكين الذي يكافح من أجل حياته، رأسه في اتجاهها، ترى أن له عينين خضراوين لامعتين، تماماً مثل عيني نيل آبوت.

كان نومها سيئاً، وكانت تعاني الوحدة.

قبل أيام قليلة، سافرت مسافة عشرين ميلاً إلى أقرب مركز لبيع النباتات ومستلزمات الحدائق فاشترت إصيصاً من إكليل الجبل. وستذهب في وقت لاحق من هذا اليوم إلى مركز إنقاذ الحيوانات في تشيستربلو ستريت لاختيار قطة مناسبة.

كانون الثاني/ يناير

جولز

أمرٌ غريب أن أجلس إلى طاولة الإفطار كل صباح فأجدك جالسة قبالتي، وعمرك خمسة عشر عاماً!

إن لها عاداتك السيئة على طاولة الطعام، عاداتك السيئة نفسها، وهي تنظر إليَّ بعينين غاضبتين متسعتين كلما أشرتُ إلى ذلك، مثلما كنت تفعلين.

تجلس إلى طاولة الطعام واضعة قدميها تحتها على الكرسي فتظهر ركبتاها النحيلتان ناتئتين في الاتجاهين، تماماً مثلما كنت تجلسين. يتخذ وجهها ذلك التعبير الحالم نفسه عندما تستمع إلى الموسيقى، أو عندما تغرق في التفكير. وهي لا تصغي أيضاً. إنها قوية الإرادة، مزعجة. وهي تغنّي، تغنّي دائماً، من غير لحن، تماماً مثلما كانت أمّنا تغنّي. إن لها ضحكة أبينا. تقبّلني على خدي كل صباح قبل ذهابها إلى المدرسة.

لا أستطيع تعويضك عن الأشياء التي أخطأت فيها: رفضي الإصغاء إليك، وتمسّكي الدائم بأسوأ الأفكار عنك، وامتناعي عن مساعدتك عندما كنت في حاجة يائسة إلى مساعدة مني، وامتناعي حتى عن محاولة حبك.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً لك الآن، فلا بد أن يكون اعتذاري فعْل أمومة تجاه لينا... أفعال أمومة كثيرة. لم أستطع أن أكون أختاً لك، لكن سأحاول أن أكون أماً لطفلتك.

في شقتي الصغيرة حسنة الترتيب في ستوك نيو وينغتون، تثير ابنتك فوضى رهيبة كل يوم. إنني في حاجة إلى جهد إرادي هائل حتى لا تصيبني تلك الفوضى بالقلق والذعر. لكنني أحاول.

أتذكر تلك النسخة من نفسي، النسخة التي لا تعرف الخوف التي ظهرت يوم واجهت والد لينا: أتمنى أن تعود تلك المرأة. أتمنى أن يكون في نفسي قدر أكبر من تلك المرأة. أن يكون نفسي قدر أكبر منك أنت، وقدر أكبر من لينا.

(عندما أوصلني شون تاونسند إلى البيت يوم جنازتك، قال لي إنني أشبهك فأنكرت ذلك، وقلت إنني عكس نيل تماماً. كنت فخورة بأن أقول إنني عكس نيل. ولم أعد فخورة بهذا).

أحاول الاستمتاع بحياتي التي أعيشها مع ابنتك لأنني لا أملك أقارب غيرها، ولن يكون لدي قريب غيرها الآن. أجد بهجتي فيها؛ وأجد راحة في هذا أيضاً: الرجل الذي قتلك سيظل في السجن حتى يموت، لم يبق له الآن وقت طويل. إنه يدفع ثمن ما فعله بزوجته، وثمن ما فعله بابنه، وثمن ما فعله بك.

باتريك

لم يعد باتريك يحلم بزوجته. يأتيه حلم آخر هذه الأيام يرى فيه بيته في ذلك اليوم، لكنه يتصرف بطريقة مختلفة: بدلاً من الاعتراف أمام المحققة، يأخذ السكين عن الطاولة ويغرسها في قلبها؛ وبعد أن ينتهيَ

منها، يبدأ بأخت نيل آبوت. كانت الإثارة تتزايد في تلك اللحظات، تتزايد وتتزايد، ثم تصل حد الإشباع عندما يسحب السكين من صدر أخت نيل آبوت ويرفع رأسه فيرى هيلين تنظر إليه والدموع جارية على خديها والدم يقطر من يديها.

تقول له: «أبي، لا تفعل هذا! إنك تخيفها».

يفكر دائماً في وجه هيلين عندما يستيقظ، يفكر في تعبير الصدمة الذي ظهر عليها عندما أخبرهم بما فعله. يشكر ربه على أنه ما كان مضطراً إلى رؤية ردة فعل شون.

عندما عاد ابنه إلى بيكفورد ذلك المساء، كان اعتراف باتريك الرسمي قد اكتمل. جاء شون لزيارته في السجن مرة واحدة. كان يشك في أن ابنه سيزوره مرة أخرى، وهذا ما كسر قلبه، لأن كل ما فعله، والقصص التي رواها والحياة التي أعاد بناءها، كان كله من أجل شون.

شون

أنا لست من أظنه أنا.

ولم أكن من ظننت أنه أنا.

عندما بدأت الأمور تتضح، عندما بدأت تتحطم، عندما بدأت نيل تقول أشياء لا يجوز أن تقولها، كنت أحافظ على تماسك العالم من حولي بأن أقول وأكرِّر لنفسي: كل شيء كما هو، كما كان دائماً. ولا يمكن أن يكون مختلفاً عن ذلك.

كنت ابناً لأم منتحرة وأب جيد.

عندما كنت ابناً لأم منتحرة وأب جيد، صرت ضابط شرطة وتزوجت

من امرأة محترمة مسؤولة، وعشت حياة محترمة مسؤولة. كان الأمر بسيطاً، وكان واضحاً.

كانت هنالك شكوك بالطبع. قال لي أبي إنني بقيت ثلاثة أيام لم أقل فيها شيئاً بعد موت أمي. لكن كانت لديَّ ذكرى (كانت لديَّ ما ظننتها ذكرى) عن كلمات قلتها لجيني سيج اللطيفة الحلوة. ألم تأخذني بالسيارة إلى بيتها تلك الليلة؟ ألم نجلس ونأكل جبناً وخبزاً محمصاً تلك الليلة؟ ألم أخبرها بأننا ذهبنا إلى النهر في السيارة معاً؟ سألتني جيني: «هل ذهبتم معاً؟ هل ذهبتم ثلاثتكم معاً؟».

عند ذلك ظننت أن من الأفضل ألا أقول شيئاً، ألا أتكلم أبداً، لأنني ما كنت أريد أن أزيد الوضع سوءاً.

كنت أظن أنني أتذكر ذهابنا نحن الثلاثة بالسيارة، لكن أبي قال لي إن هذا كان كابوساً.

في الكابوس، لم تكن العاصفة هي التي أيقظتني، بل صراخ أبي. أيقظني صراخ أمي أيضاً لأنهما كانا يقولان أشياء بشعة، كان كل منهما يقول للآخر أشياء بشعة. كانت تقول له كلمات مثل: فاشل، حيوان؛ وكان يقول لها: عاهرة، قحبة، لا تصلحي لأن تكوني أماً. سمعت صوتاً حاداً، صوت صفعة. وبعد ذلك سمعت أصوات أخرى. ثم ما عدت أسمع شيئاً أبداً.

ما عدت أسمع غير صوت المطر، صوت العاصفة.

سمعت بعد ذلك صوت كرسي ينزلق على الأرض، وصوت فتح باب البيت. في الكابوس، تسللت نازلاً السلم ووقفت أمام المطبخ ممسكاً أنفاسي. سمعت صوت أبي من جديد، كان منخفضاً، متمتماً. سمعت شيئاً آخر: صوت كلب، صوت كلب يتألم. لكن ما كنا نملك كلباً.

(في الكابوس، كنت أتساءل إن كان أبي وأمي يتشاجران لأن أمي أتت إلى البيت بكلب من الشارع؟ كان هذا نوعاً من الأشياء يمكن أن تفعلها أمي).

في الكابوس، عندما أدركت أنني وحيدٌ في البيت، جريت إلى الخارج وكان أبي وأمي هناك؛ كانا يصعدان إلى السيارة. كانا يتركانني، يهجرانني. فزعت كثيراً وجريت إلى السيارة باكياً فجلست في المقعد الخلفي. جرني أبي من السيارة وهو يصيح ويشتم. تعلقت بالباب ورحت أرفس وأبكي، ثم عضضت يده.

في الكابوس، كنا ثلاثة في السيارة: أبي يقودها وأنا في المقعد الخلفي، وأمي إلى جانب أبي. لم تكن جالسة بشكل صحيح، بل مائلة مستندة إلى الباب. وعندما اجتازت السيارة منعطفاً حاداً، تحركت أمي ومال رأسها إلى الجهة الأخرى، فرأيتها، رأيت الدم على رأسها وعلى جانب وجهها. رأيت أنها كانت تحاول الكلام، لكنني لم أستطع فهم ما كانت تقوله، بدت كلماتها غريبة كأنها تتكلم لغة أجنبية لا أفهمها. بدا وجهها غريباً أيضاً، بدا غير متوازن، بدا فمها معوجاً، وكانت عيناها بيضاوان كأنهما منقلبتان تنظران إلى داخل رأسها. تدلى لسانها من فمها كأنه لسان كلب... كان لسانها وردياً، وتسرب خط من اللعاب من زاوية فمها.

في الكابوس، مدَّت يدها فلمست يدي. أصابني الذعر وانكمشت مرتداً في المقعد، ثم تمسكت بالباب محاولاً الابتعاد عنها.

قال لي أبي: «أمك تمد يدها إليك! كان ذلك كابوساً يا شون. لم يكن حقيقة. إنه يشبه ما قلته لي من أنك تذكر أنك أكلت اللحم المدخن في كراستر مع أمك ومعي؛ لكن عمرك كان ثلاثة شهور فقط. قلت إنك تتذكر مصنع اللحم المدخن، لكنك لم تر في الحقيقة إلّا صورة لذلك المصنع».

كان هذا معقولاً. لم يكن يعطني إحساساً بأنه صحيح، لكنه كان يبدو معقولاً على الأقل!

عندما صرت في الثانية عشرة، تذكرتُ شيئاً آخر. تذكرت العاصفة، وتذكرت كيف جريت تحت المطر. لكن أبي لم يكن يصعد إلى السيارة في هذه الذكرى، بل كان يضع أمي فيها، كان يضعها في المقعد المجاور لمقعده. جاءتني هذه الذكرى واضحة تماماً ولم يبدُ لي أنها جزء من الكابوس... بدت لي طبيعة تلك الذكرى مختلفة. في تلك الذكرى، كنت خائفة، لكنه كان خوفاً من نوع مختلف، لم يكن خوفاً داخلياً كذلك الذي أحسسته عندما مدت أمي يدها لي. أتعبتني تلك الذكرى فسألت أبي عنها.

خلع كتفي عندما ضربني فاصطدمت بالجدار، لكن ما حدث بعد ذلك كان أكثر أهمية. قال لي إن عليه تلقيني درساً. تناول سكين تقطيع اللحم وحز بها رسغي. كان ذلك إنذاراً. قال لي: «هذا حتى تتذكر دائماً، حتى لا تنسى أبداً. إذا نسيت، فسيكون الأمر مختلفاً في المرة المقبلة. سوف أحز ذراعك بطريقة أخرى». وضع رأس السكين على رسغي الأيمن عند نهاية كفي، ثم سار برأسها حتى مرفقي، سار ببطء... «هكذا! لا أريد حديثاً في الأمر بعد الآن يا شون. أنت تعرف هذا. لقد تكلمنا فيه بما يكفي ويزيد. لا أريد أن أسمع ذكراً لأمك. ما فعلته أمك كان مشيناً».

أخبرني عن الدَّرَك السابع من الجحيم حيث يتحول المنتحرون إلى شجيرات شائكة تأكلها طيور كاسرة لها وجوه نساء. سألته عن تلك الطيور، فقال لي إن أمي واحد منها. كان هذا محيِّراً، هل تصير أمي شجيرة شائكة أم تصير طيراً كاسراً له وجه امرأة. فكرت في الكابوس، فكرت فيها جالسة في السيارة تمدُّ يدها إليَّ بفم مفتوح ولعاب مدمى يسيل من شفتيها. لم أكن أريد أن أتركها تأكلني.

عندما شفي رسغ يدي، صارت الندبة الباقية عليه شديدة الحساسية، صارت شديدة الفائدة أيضاً. ألمسها كلما وجدت نفسي أنجرف فتعيدني إلى نفسي، تعيدني إلى الصواب... معظم الأحيان.

كان خطٌّ فالِق موجوداً هنا دائماً، موجوداً في داخلي: بين فهمي لما حدث ولما كنت أعرفه، بين ما كنت أعرفه عن نفسي وعن أبي، وبين ذلك الإحساس الغريب الزَّلِق بأنه هنالك شيئاً غير صحيح. هذا يشبه عدم ورود ذكر الديناصورات في الكتاب المقدس... لا أجد معنى لعدم ذكرها فيه، لكنني أعرف أنها يجب أن تكون مذكورة، يجب أن تكون مذكورة، لأنني تعلمت أن هذه الأشياء صحيحة: قصة آدم وحواء صحيحة، وقصة الديناصورات صحيحة أيضاً. جرت هزّات عارضة على مرِّ السنين، وكنت أحسُّ بارتجاف الأرض فوق ذلك الخط الفالق، لكن الزلزال الحقيقي لم يأتِ إلَّا عندما التقيت نيل.

لم يحدث هذا منذ البداية. كان الأمر في البداية يدور كله من حولها، من حولنا معاً. قبلتْ نيل (بشيء من خيبة الأمل) القصة التي قلتها لها، القصة التي كنت أعرف أنها صادقة. لكنها تغيَّرت بعد موت كاتي. جعلها موت كاتي امرأة مختلفة. صارت تتحدث مع نيكي سيج أكثر فأكثر، وما عادت تصدق ما أقوله لها. كانت قصة نيكي أكثر تناسباً مع رؤية نيل لبركة الغارقات، مع رؤيتها للمكان الذي اختلقتْه: مكان للنساء المضطهدات، للغريبات الضالات المتمردات على أوامر السلطة الأبوية؛ وكان أبي في نظرها تجسيداً لتلك السلطة كلها. قالت لي إنها مقتنعة بأن أبي قتل أمي، فاتسع الخط الفالق واهتزَّ كل شيء. وكلما ازداد الاهتزاز كلما عاودتني تلك الرؤى الغريبة، كلما عاودتني أكثر... كانت تأتيني على هيئة كوابيس أول الأمر، ثم صارت ذكريات.

«سوف تودي بك»... هذا ما قاله لي أبي عندما اكتشف علاقتي بنيل. لقد

فعلت بي أكثر من ذلك: أعادت صُنعي. إن كنت أصغي إليها، وإن كنت أصدق قصتها، فإنني لا أكون ذلك الابن المأساوي لأم منتحرة ورجل أسرة محترم. سأكون ابناً لوحش.

أكثر من هذا، بل أسوأ من هذا أيضاً: سأكون الطفل الذي رأى أمه تموت أمامه ولم يقل شيئاً. سأكون الصبي، المراهق، الرجل الذي ظلَّ يحمي قاتلها، الذي ظلَّ يعيش مع قاتلها... الذي أحب قاتلها.

اكتشفت أن ذلك الرجل سيكون رجلاً مختلفاً.

ليلة موتها، التقينا في الكوخ مثلما كنا نلتقي من قبل. فقدتُ نفسي. كانت تريد كثيراً أن أصل إلى الحقيقة، وقالت إن الحقيقة ستحررني من نفسي ومن حياة ما كنت أريدها. لكنها كانت تفكر في نفسها أيضاً وفي الأشياء التي اكتشفتها، وفي ما يمكن أن تعينه هذه الأشياء بالنسبة إليها وإلى عملها وحياتها وبيتها. كانت تفكر في ذلك أكثر من أي شيء: لم يعد ذلك المكان مكاناً للانتحار. كان مكاناً للتخلص من النساء اللواتي يُثِرن المتاعب.

عدنا إلى البلدة معاً، عدنا سيراً على الأقدام. لقد فعلنا هذا من قبل... منذ أن اكتشف والدي أمرنا في الكوخ لم أعد أوقف السيارة عنده بل أتركها في البلدة. كان الشراب والجنس قد دوَّخاها؛ وتجدد عزمها. قالت لي إن عليَّ أن أتذكر ما حدث. قالت إن عليَّ أن أقف هناك، على الجرف، وأنظر وأتذكر. علي أن أتذكر الأمر مثلما حدث؛ الآن، في الليل.

قلت لها إن تلك الليلة كانت ماطرة. كانت ليلة ماطرة عندما ماتت أمي. لم تكن ليلة صافية مثل هذه، لكنها ما كانت تريد انتظار المطر.

ما كانت تريد الانتظار.

وقفنا في قمة الجرف ننظر إلى الأسفل. قلت لها: «لم أرَ ما حدث من هنا يا نيل. لم أكن هنا. كنت بين الأشجار في الأسفل. وما كنت قادراً على رؤية شيء».

كانت نيل واقفة على قمة الجرف مديرة إلي ظهرها.

سألتني: «هل صرختْ؟ هل سمعتَ شيئاً عندما سقطت؟».

أغمضت عيني ورأيتها في السيارة تمدُّ يدها إلي. أردت الفرار منها. تراجعت منكمشاً، لكنها ظلَّت تمدُّ يدها إليَّ فحاولت دفْعها بعيداً عني.

وضعتُ كلتا يدي في أعلى ظهر نيل ودفعتها بعيداً عني.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

المؤلفة: باولا هوكينز

عملت كصحفية مدة خمسة عشر عاماً قبل أن تتحول إلى عالم الرواية.

ولدت باولا في زمبابوي. ثم انتقلت إلى لندن عام 1989، وعاشت فيها منذ ذلك الوقت.

كانت روايتها الأولى «فتاة القطار» ظاهرة متميزة على مستوى العالم، فقد باعت قرابة عشرين مليون نسخة. لقد تُرجمت إلى أكثر من أربعين لغة واحتلت المركز الأول في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في العالم؛ واختارها القرّاء في «غودريدز» كأفضل رواية، كما حقق فيلم «فتاة القطار» الذي لعبت إيميلي بلنت دور البطولة فيه، أعلى الإيرادات.

المترجم: الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر»
- هوارد زِن: «ماركس في سوهو» ـ مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد»
- تشارلز تايلر: «المتخيلات الاجتماعية الحديثة»
- إيفان كليما: «حب وقمامة» ـ رواية
- جورج أورويل: «1984» ـ رواية
- جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية»
- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» ـ رواية
- سينكلير لويس: «بابيت» ـ رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي» ـ رواية

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في عتمة الماء

باولا هوكينز

باولا هوكينز، صاحبة رواية «فتاة القطار» التي أسرت ملايين القرّاء حول العالم، تكتب لنا بالإدراك العميق ذاته لطبيعة الغرائز الإنسانية. وتقدم لنا هذه المرة رواية تشدّنا لقراءتها وترضي عطشنا.. رواية تتحدث عن قصص من ماضينا وعن قوة هذه القصص في حيواتنا التي نحياها الآن..

«رواية تحمل لنا إثارة من طراز رفيع... محبوكة بمهارة عالية.. توصلنا صفحاتها الأخيرة إلى كشف مبدع».
The Wall Street Journal

«جوليا، هذه أنا. أريد أن تتصلي بي. أرجوك يا جوليا. الأمر مهم».

حاولت نيل آبوت الاتصال بإختها في الأيام الأخيرة قبل موتها.

لكن جوليا لم تعاود الاتصال بأختها، متجاهلة طلبها للمساعدة.

ثم ماتت نيل.. يقولون إنها قفزت في البركة. واضطرت جوليا للعودة إلى المكان الذي اعتقدت أنها هربت منه إلى الأبد، لكي تعتني بالمراهِقة التي تركتها أختها خلفها.

ولكن جوليا خائفة.. خائفة جدا من ذكرياتها المدفونة في ذلك المكان من بيت الطاحون، ومن معرفتها بأن أختها لم تكن أبدا لتلقي بنفسها في البركة. وأكثر ما تخافه هو الماء.. والمكان الذي يسمونه «بركة الغارقات».

ISBN 978-9953-582-64-1
9 789953 582641
مكتبة 150
توزيع : دار التنوير
منشورات الرمل